المجتمع

والثقافة والشخصية

دراسات فى

علم الاجتماع الثقافي

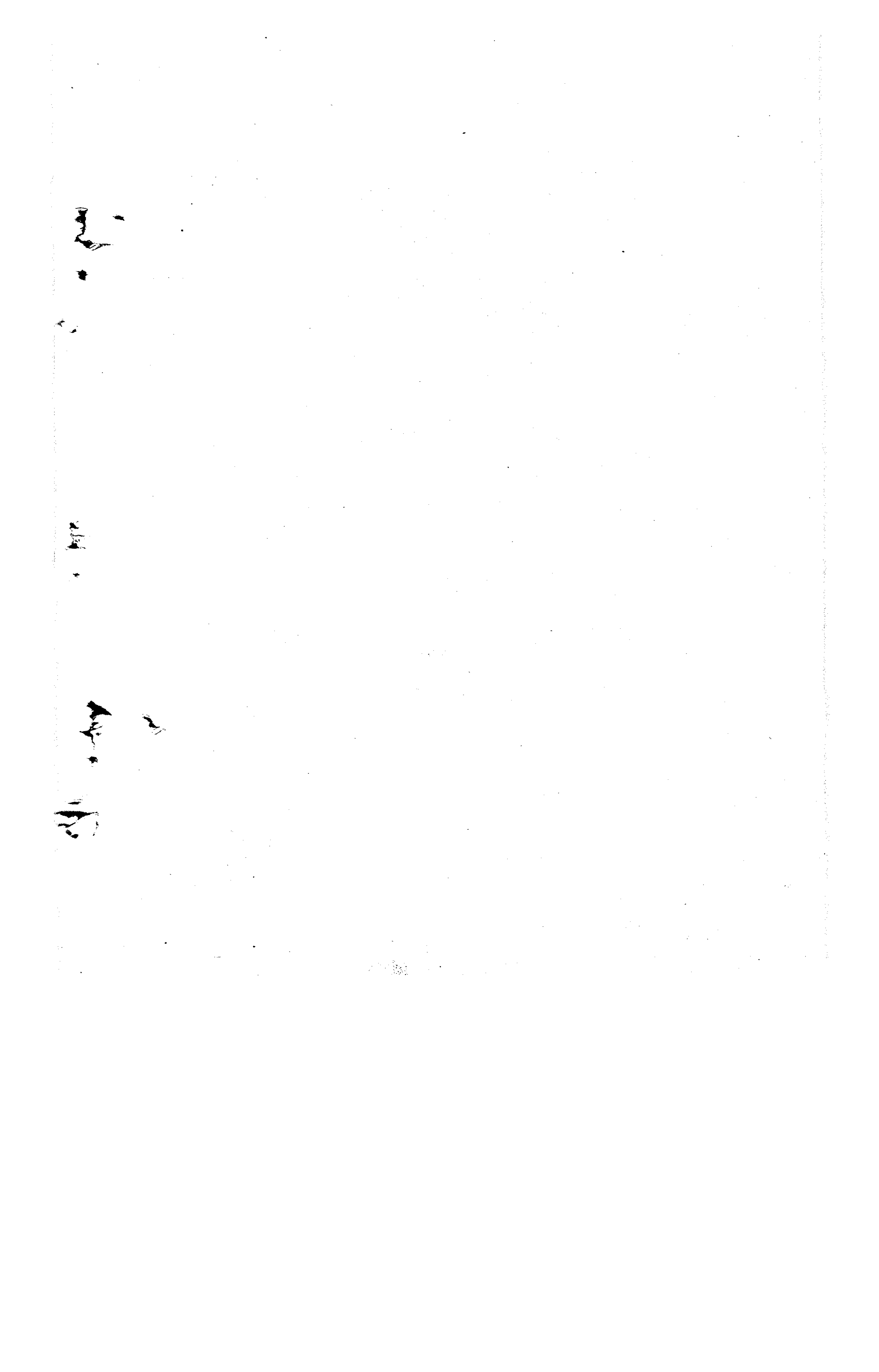
إعداد

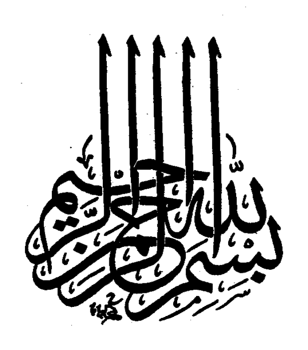
الأستاذ الدكتور

محمد قطب سليم

أستاذ علم الاجتماع م

كلية الآداب – جامعة طنطا

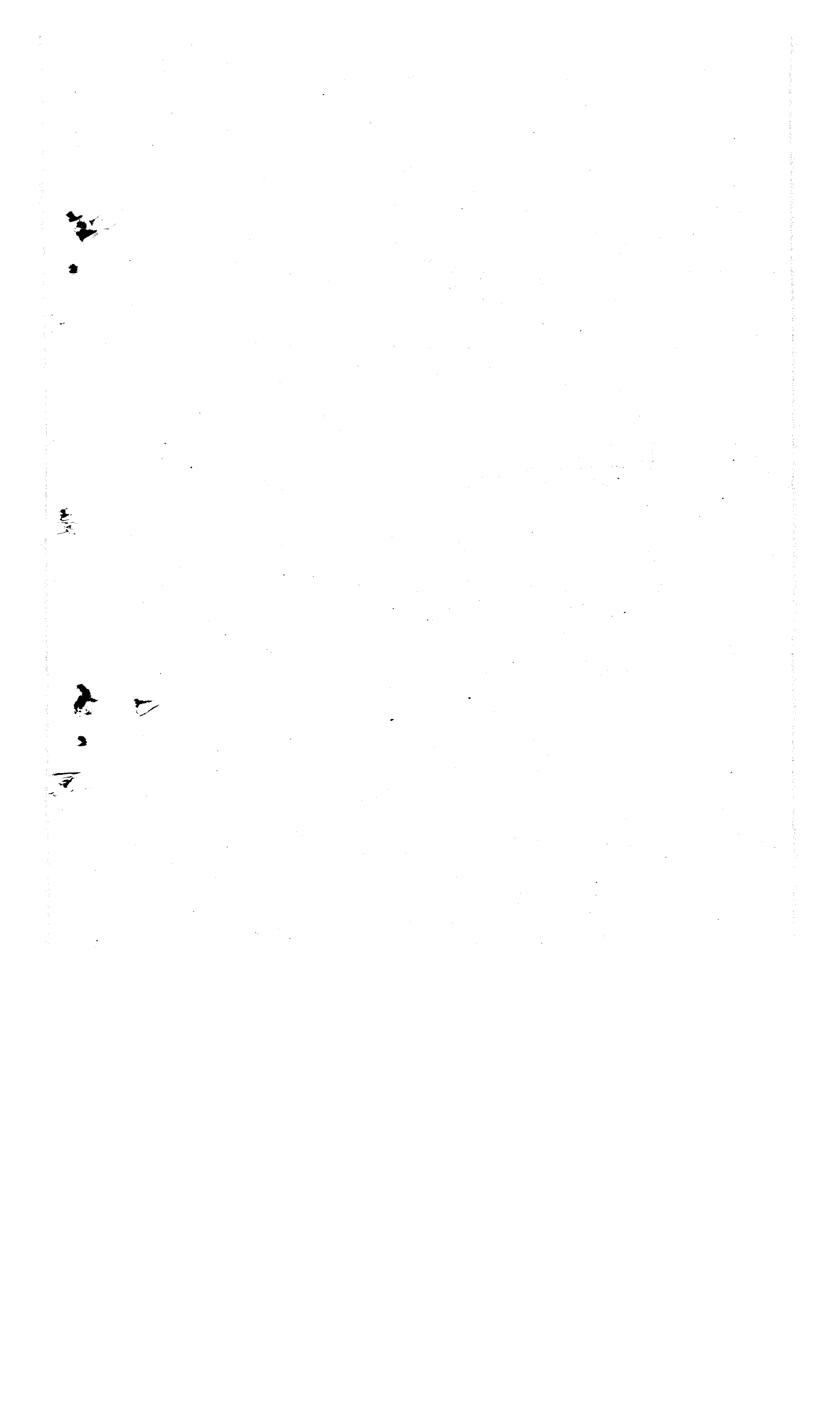




﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا

بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾

صدق الله العظيم



الإهـــــداء

إلى روح أمي وأبي

طيب الله ثراهما

أ.د / محمد قطب سليم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

يهتم علم الاجتماع الثقافى بدراسة الإنسان فى وحدة الكائن والشخص ويؤكد دور الثقافة فى تحويله من مجرد كائن إلى شخص ثم إلى إنسان اجتماعى ،كما أن علم الاجتماع الثقافى لا يهمل دور الفرد والإنسان الاجتماعى فى عمليات التفكير الاجتماعى والثقافى .

إن موضوع الثقافة موضوع بالغ الأهمية ، وليس أدل على ذلك من أن أهم تعريفات الإنسان ، أنه كائن مثقف لديه منتجاته المادية ولديه عقائده وأفكاره و قيمه وشخصيته وثقافته التى تميزه عن سائر المخلوقات .

إن علم الاجتماع الثقافى يضع فى حسبانه ، أن كل فعل اجتماعى ،فى ثقافة معينة ،لا تقرره الظروف الموضوعية للموقف فقط ، ،وإنما تقرره أيضا أفكار الفرد عن هذا الموقف وكذلك عن نفسه ،ومن ثم فإن دراسة الميكانيزمات الاجتماعية فى ثقافة ما ، يتطلب دراسة الفرد فى إطار السياق الاجتماعى الثقافى ، حيث أن علم الاجتماع الثقافى هو ذلك العلم الذى يتناول العلاقات الاجتماعية المحددة بسلوك الأفراد فى ظل ثقافة معينة موضوعا لدراسته كفرع من فروع علم الاجتماع .

إن موضوع هذا العمل – المجتمع والثقافة والشخصية – يهتم بدراسة العلاقة الجدلية بين الثقافة والمجتمع والشخصية والتفاعل والتأثير والتأثر فيما بينهم فى إطار كل متكامل ، أى أن هناك علاقة تفاعلية دائرية ،تؤثر وتتأثر بين كل من المجتمع والثقافة والشخصية .

وقد تم إعداد هذا العمل (سلسلة محاضرات) من خلال الاعتماد على بعض المراجع العلمية المتخصصة الموثقة داخل هذه المحاضرات ، وتضم هذه السلسلة من المحاضرات الفصول التالية :

الفصل الأول : ويتناول العلاقة الجدلية بين المجتمع والثقافة والشخصية يوضح ماهية كل من المجتمع والثقافة والشخصية.

الفصل الثانى : ويتناول الثقافة خصائصها وعناصرها ومميزاتها.

الفصل الثالث : ويتناول الشخصية : ماهيتها وبناءهـــا وعناصـــرها ومنظـــورات دراستها .

الفصل الرابع : ويتناول الرؤى النظرية المتعددة حول دراسة الشخصية .

الفصل الخامس : ويتناول العولمة والثقافة وأثر العولمة على الهوية الثقافية.

الفصل السادس: ويتناول موضوع الثقافة والشخصية حيث يتناول :

– **الشخصية** : عوامل تفاعلها وأنماطها وتوصيفها .

– **الثقافة** : عوامل نشأتها واستمراريتها وتطورها .

– **الشخصية** : وتأثير التنشئة الاجتماعية والسياسية على تفاعلها.

الفصل السابع : ويتناول المجتمع والشخصية والعلاقة الجدلية وكذلك رؤيـــة حول الشخصية المصرية والتراث الاجتماعي ودور الثقافة البالغ فى صـــنع الشخصية بالإضافة إلى العديد من العناصر التى تعكس التفاعل بين كل مـــن المجتمع والثقافة والشخصية .

وعلى الله قصد السبيل

أ.د. محمد قطب سليم

الفصل الأول

المجتمع والثقافة والشخصية

والعلاقة الجدليـــة

أولا : المجتمع : بناء العلاقات الاجتماعية واستمرارها وتغيرها
- ماهية الجماعة
- ما هو المجتمع

ثانيا : الثقافة : الأرض التي تغذي الجماعة والعصا التي تصوغ قيمها ومعاييرها
- الثقافة المفهوم والتطور

ثالثا : الثقافة و الشخصية
- تمهيد حول الثقافة والشخصية
- الثقافة والشخصية : تعريف بالعلم ومجالاته وطبيعته

المجتمع والثقافة الشخصية

والعلاقة الجدلية

أولا: المجتمع

بناء العلاقات الاجتماعية واستمرارها وتغيرها .

ماهية الجماعة :

يطلق اسم جماعة على عدد من الأشخاص الذين تقوم بينهم علاقات اجتماعية منتظمة ، ويوجد بينهم قدر من التعاون (وليس تعاونا كاملا) ،وبحيث يمكن التمييز بين أعضاء الجماعة وغير هم من الأعضاء فيها .وهذه السمة (تمييز الأعضاء عن غير الأعضاء) ، يطلق عليها اسم الشعور بالنحن" عادة .

والمفهوم الأساسي " العلاقات الاجتماعية " ومتغيراته " العلاقات الاجتماعية المنتظمة " ، و" العلاقات الاجتماعية الهادفة" ،هو عبارة عن مفهوم تجريدي ، أي هو تصور نظري لشيء ملموس موجود في الواقع نحن نلاحظه ونصفه بأنه علاقة اجتماعية ،وقد نزيد وصفه – حسب ملاحظتنا لهذا الواقع – فنقول أنه علاقة اجتماعية بناءة أو هدامة ، دائمة أو مؤقتة ثنائية أو جماعية ...الخ فنحن نلاحظ مثلا أن الفتي والفتاه بينهما علاقة معينة ، إذا تقابلا يبتسمان ،وإذا سارا في الطريق تجاورا ،وقد يمسكان بأيدي بعضهما البعض ،وان هذا لا يحدث مرة واحدة ،ولكنه يتكرر كل يوم أو كل أسبوع ، من واقع تلك الملاحظات نستنتج أن هناك علاقة بين الفتي والفتاة .ومن مظاهر هذه العلاقة (الابتسام المتبادل ،والخروج للنزهة ،والتزاور بين العائلتين ،وكلام كل منهما

الإيجابي عن الأخر) نستنتج أن هذه العلاقة علاقة إيجابية هادفة ،وأن الطرفان يسعيان إليها ويحرثان عليها في نفس الوقت ، أي أنها ليست من طرف واحد فقط ، وقد نلاحظ بعد فترة من الوقت ، الذي تستمر خلاله تلك المظاهر ، أن العلاقة تقوم وتتدعم ، فتكثر اللقاءات ، أو يحدث تزاور العائلتين إن لم يكن حدث من قبل ...الخ ونحن نرى ونلاحظ كل تلك المظاهر الخارجية ، ولكننا لا نرى العلاقة نفسها ، نحن نرى ونسمع شواهد ودلائل تدلنا على وجود خطوبة مثلا بين هذين الفردين ، فنحن نرتب نتائج على الشواهد التي نلاحظها ،وقد نضيف إلى كل منهما الأخر ،وعن سبب لقائهما المتكرر ،وعن تصور كل منهما للهدف من هذه العلاقة (وهو الزواج وتكوين الأسرة) . فنضيف بذلك وسيلة جديدة إلى وسائل جمع معلوماتنا عن هذه العلاقة . [١]

وجميع العلاقات التي تقوم بين الناس في المجتمع علاقات اجتماعية ،وذلك لأن الكائن الإنساني لا يستطيع أن يعيش وينمو ويتطور خارج المجتمع ، فالإنسان كائن اجتماعي كما لاحظ المفكرون منذ فجر الحضارة الإنسانية . كذلك الفتي والفتاة فهما ينتميان إلى مجتمع معين ، وهذا الانتماء هو الذي يحدد إلى حد كبير كيفية سلوك كل واحد منهما تجاه الآخر ،هو الذي يحدد في هذه الحالة من الذي يجب (أو يحسن) أن يبدأ العلاقة الفتي أم الفتاة ،وما هي الوسيلة الملائمة لبدء العلاقة ،وكيف يستجيب الطرف الآخر (فالموافقة الفعلية – للفتاة مثلا – لا تعني أبدا في بعض المجتمعات أن تفصح عن نفسها في موافقة ظاهرة صريحة) وما هو الشكل الملائم الذي يجب أن تأخذه هذه العلاقة ،وهل يحسن أن تتخذ شكلا منظما مقننا (خطوبة مثلا) قبل بدء اللقاءات أو بعد عدة

لقاءات أولية قبل تعددها وكثافتها، أو بعد أن تزداد تلك اللقاءات وتتعمق العلاقة أو أن هذا الشكل القانوني المنظم ليس ضروريا ولا يخطر على بال كليهما (أو على بال طرف معين منهما مثلا) ...الخ .

والعادة أن تسفر هذه العلاقة التي تكونت بين الفتي والفتاة عن تكوين جماعة جديدة ، يكون هما طرفاها المؤسسان ،والتي سوف تنمو وتتسع بعد ذلك ،وتصبح هي نفسها بؤرة لشبكة أوسع من العلاقات الاجتماعية ،ولكن كلا من الفتي والفتاة ينتمي إلى مجموعة كبيرة (وأحيانا قليلة) من الجماعات قبل وأثناء تكوين تلك الجماعة الجديدة (أي الأسرة) فكل منهما ينتمي إلى :أسرته التي ولد فيها ، وإلي جماعة عمرية ،وإلى جماعة رفاق ،وإلى جماعة مهنية معينة وإلى جماعة جوار(في المدينة) أو إلى قرية معينة (في الريف) وإلى طبقة معينة وإلى مستوى معين ... الخ ،وهما معا ينتميان إلى شعب معين ،ودين معين ،ودولة معينة ،وجيل معين ومرحلة تاريخية معينة يعيشان فيها . فكل تلك الانتماءات الاجتماعية وانتماءات أخرى كثيرة تحدد علاقتها ببعضها البعض ، ومن الطبيعي أن يدخل في تحديد تلك العلاقة بعض العوامل البيولوجية والنفسية الخاصة بكل منهما .

فمن المؤكد أنهما قبل أن يتقابلا وقبل أن تتطور علاقتهما إلىتأسيس تلك الجماعة الجديدة (الأسرة) وتعلم كل منهما في جماعته الخاصة ، ومن قنوات مختلفة كيفية إقامة تلك العلاقات ،ومدلولها وكيفية التصرف حيالها ،والهدف من إقامتها كما أوضحنا ، فكل منهما يعرف مئات القواعد السلوكية ،وكل منهما يعرف حدود الدور الذي يجب أن يؤديه ، وكذلك الأدوار التي يجب أن

يؤديها الأخرون المشتركون معه في نفس الموقف ، فهما ليسا آدم وحواء ، اللذان استيقظا في الجنة وهما كبيران ناضجان ، كان عليهما أن يكتشفا بأنفسهما قواعد بأكملها .

ولولا أن الفتي والفتاة كانا قد اختطفا من قبل إحدى جماعات الغجر(وهو ما كان يحدث في الماضي أحيانا)أو تبنتها عائلة أمريكية فمن المؤكد أن سلوكهما كان سيختلف عن السلوك المتوقع منهما الآن في مجتمع مصري معين ،ولكن ما مدى الاختلاف المتوقع في سلوكهما ،وذلك أمر لا نستطيع أن نبت فيه أو نتوقعه بشكل محدد ، ذلك أن الاستعدادات الموروثة والتكوين البيولوجي لكل منهما هو في حالة تفاعل دائم مع الخبرات والتجارب الاجتماعية التي يتلقاها كل منهما في جماعته ، بحيث تخرج لنا نمط الشخصية.التي نحن إزاءها ،والتي نرصد تصرفاتها في هذه اللحظة .

ولكن من أين تعلم الفتى وتعلمت الفتاة قواعد تلك العلاقات ،وكيف عرف كل منهما حدود دوره ودور الأخر ؟لقد تعلما ذلك من الأوامر والنواهي الصريحة والضمنية التي تنطوي عليها ثقافتهما وهما يتلقيان تلك الثقافة في أثناء عضويتهما التي امتدت طوال حياتهما السابقة في عدد من الجماعات الاجتماعية بدءا من الأسرة .

ومفهوم الثقافة المستخدم اليوم في العلوم الاجتماعية هو نفسه نوع من التجريد لحقائق واقعية معاشة ،ونحن نتعرف على جودة ثقافة معينة لدى جماعة معينة عندما نرى أعضاء تلك الجماعة يتصرفون (مع فروق فردية فيما بينهم على نحو معين يخضع لقدر من الانتظام .وهذا الانتظام هو ما نسميه : قواعد

ومعايير تلك الثقافة .ومن أمثلة هذه القيم في القصة التي نحكيها: (الحب المتبادل بين رجل وإمرأة الذي يؤدي إلى الزواج وتكوين أسرة) ولم يكن الفتى والفتاة ليلتزما طواعية وبشكل يكاد يكون تلقائيا لتلك القواعد ، ما لم يكن كل منهما قد هضم (استدمج) تلك القيم الثقافية ، أي أنه استوعبها وتشرب بها ، بحيث أصبح ذلك الهدف (الزواج) شيئا بديهيا لدى كل منهما، حتى ولو كانا يعرفان أن سلوك كل من الفتى والفتاة في مجتمعات أخرى يختلف عن ذلك ، حيث لا يصدر قرار اختيار شريك الحياة من رغبات الطرفين ،وإنما يكون قرار الأسرة الكبيرة ، أو أن الرجل هو صاحب القرار في الاختيار ،وأسرة الرجل هي التي تملي عليه هذا الاختيار ...الخ ذلك من المتغيرات التي نعرفها ،والتي قد تقوم فيها علاقة زوجية بين طرفي لم يلتقيا ببعضهما وجها لوجه قبل الزواج على الإطلاق (كما هو الحال بالنسبة لأجدادنا على سبيل المثال).

إن الطريقة التى كون بها الفتى والفتاة جماعة اجتماعية جديدة ليست في العادة سوى طريقة (وإن كانت الشائعة) من بين طرق عديدة يمكن إتباعها لتحقيق الهدف . فالجماعة هي المفهوم الأعم (وهو كذلك المفهوم الأقل تحديدا) للدلالة على مجموعة من الناس الذين يدخلون في علاقات اجتماعية معينة لتحقيق هدف مشترك ، وهو يدل كذلك على كل أحجام الجماعات " أو تلك الارتباطات " التي يمكن أن تقوم في المجتمع ، بدءا من علاقة الزوجين (الأسرة في مرحلة ما قبل إنجاب الأطفال تسمى أيضا " جماعة" وصولا إلى أكبر كيان معروف حتى الآن : المجتمع المتحضر ." وإن كنا لا نعرف بالتحديد حتى الآن إذا كانت هناك تصورات جمعية يمكن أن تكون مشتركة بين الإنسانية جمعاء،

بحيث يجوز لنا أن نطلق على العالم كله اسم " جماعة" . وذلك أمر لم يحدث في الماضي ولا نعرف إن كان سيحدث في المستقبل أم لا ".[٢] وهو ما تهدف اليه العولمة الثقافية كما سنوضح فيما بعد .

والجماعات لا تكون ثابتة أو ساكنة على الإطلاق ، فهي تتكون وتتعرض للتفكك ،وقد تتجدد عضويتها باستمرار وبشكل دائم ، حيث يخرج بعض أعضائها بسبب الموت أو الانفصال " بإرادتهم " أو الأبعاد بغير إرادتهم " ومن القواعد التي تحددها الثقافة غالبا كيفية تكوين الجماعة الجديدة ،وكيفية تجديدها لنفسها ، كيف تضم إليها أعضاء جدد لكي تعوض الفاقد من أعضائها .

ويتعرف العضو الذي ينضم إلى تلك الجماعة على هذه القواعد لدى اختياره وعند قبوله عضوا بها . والطفل الذي يولد في أسرة معينة يلقن تلك القواعد منذ أول نفس يتنفسه فيها ، بل إن تلك القواعد تؤثر على وضعه فيها وعلى مستقبله حتى قبل أن يولد :" فهل تلده أمه في مستشفى نظيف حديث ، أم تلده في كوخ بسيط غير نظيف ،وهل تسعد به أمه أو أسرته عند مولده ، أو تبتئس لهذا الميلاد ،وهل كانت تفضله ولدا ولكنه جاء أنثى ...الخ وتلقن الجماعات أعضاءها الجدد قواعد السلوك فيها.

ومن الواضح أن في كل مجتمع اتجاها نحو إضفاء الاستمرار والدوام على العلاقات الاجتماعية ، أي تكرار العلاقات الاجتماعية ،وإخضاعها لعدد من القواعد وإكسابها صفة الروتينية ، ولكننا على وعي في نفس الوقت بأن هناك اتجاها مضادا هو الاتجاه نحو الخروج على القواعد ومخالفتها نحو تطوير السلوك الاجتماعي وتغيره .ولا يمكن أن نحدد أي الاتجاهين هو الأقوى في جماعة ما ، إلا إذا درسنا سلوك أفرادها في حالات محددة وتحت

ظل ظروف معينة ، أما في الجماعات الأكبر حجما والأكثر تعقيدا فإن آثار سلوك أفراد الجماعة على استمرار الجماعة أو تفككهـا لا تكون واضحة لهم تماما ، ولا تمثل عناصر في وعي هؤلاء الأفراد .كما أن أثر التغيرات التي تطرأ على بيئة الجماعة ودورهـا فـي التأثير على العلاقات داخل الجماعة قد لا تكـون واضـحة علـى الإطلاق ، أو أن الوعي بها يأتي متأخرا عن الوقـت المناسـب ، فالجيل الكبير المسيطر على الجماعة قد يفاجأ مفاجأة تذهله عنـدما يجد بعض أبنائه " هو في الغالب أولئك الذين يدركون بوضوح أنه لن تتاح لهم فرصة الوصول إلى المراكز المؤثرة فـي المسـتقبل المنظور" ينضمون الي الفئات الدنيا في الجماعة ويتبنون اتجاهاتها الثورية الرامية الي إحداث تغيير في بنـاء السـلطة داخـل هـذه الجماعة .

والتغيرات الاجتماعية المخططة " أو المقصودة" ليست شيئا جديدا ، أي أنها ليست من مكتشفات هذا العصر فقط – وربما كان الجديد في هذا الصدد أن أبناء المجتمعات المتقدمة أصبحوا أكثـر حرصا ،وأميل إلى تبصر عواقب كل تغير جديد قادم عليهم . ففـي تلك المجتمعات تعلم الناس من علم الاجتماع أنه لا يكفـي توجيـه التغيرات المخططة نحو هدف معين ،وإنما يتعين على الإنسان فـي هذه الحالة أن يتدبر كل خطوة يمكن أن تترتب على تلك التغيـرات ،وبذلك يعمل الإنسان في المجتمع الحديث المتقدم علـى التخطـيط المفصل الدقيق لوقع الخطى في حركة المجتمـع ،وذلـك بسـبب إدراكه لتعقد العلاقات في المجتمع وتشابك أجزاء البناء الاجتماعي وتداخلها في بعضها البعض (٣) .

ما هو المجتمع ؟

ولكن ماذا نعني بكلمة " مجتمع Society" ؟

نظر الفلاسفة وقدامي المفكرين منذ العصور القديمة إلى كلمة " المجتمع" على أنها مرادفة لكلمة " الإنسانية Himanity" أو النوع الإنساني Mankind .ويبدي الأستاذ الدكتور السيد محمد بدوي دهشته في كتابة " المجتمع والمشكلات الاجتماعية "من أن " أوجست كونت" مؤسس علم الاجتماع في العصر الحديث قد ظل علي هذه النظرية الخاطئة ، بل وأعلن على أساسها قانونه المشهور باسم : " قانون الحالات الثلاثة " والذي أراد أن يفسر في ضوئه تطور العقل البشري من حالة التفكير اللاهوتي وهي الحالة البدائية إلى حالة التفكير الوضعي أو العلمي ، أي الحالة التي ينتهي إليها التفكير البشري عند اكتمال نضوجه بعد مروره بمرحلة انتقال متوسطه هي حالة التفكير الميتافيزيقي.

"ولكن هذه النظرية قد تغيرت على يد فريق من العلماء حيث رأوا أن كلمة " مجتمع " يجب أن تقتصر على المجموعة التي تجمع بينها وحدة ثقافية Cultural group .ويعد ذلك رأي بعض العلماء أن تطلق كلمة " مجتمع " على أي مجموعة من الناس تربط بينها صلات ومصالح دائمة .

فقد رأوا أن الأسرة مجتمع والعشيرة مجتمع ،والقرية مجتمع ،والطائفة المهنية مجتمع ،والطائفة الدينية مجتمع وقد حدد " الوود Ellwood " هذه الصلات بأنها ذات طابع عقلي أو نفسي ومن ثم فقد عرف Ellwood المجتمع بأنه " أي جماعة من الأفراد تجمعهم روابط نفسية " ومعنى هذه الروابط النفسية أو الصلات هي

التفاعل Interaction الذي يتم عن طريقه تبادل المنفعة ،والوحدة في المزاج والعقلية ،والتطلع نحو آمال مشتركة .

أن علم الاجتماع لا يهتم بدراسة الأفراد بقدر ما يهتم بدراسة الظواهر التي تنتج عنهم أي عن تجمعهم .ولما كان المجتمع عبارة عن " علاقات بين الوحدات المكونة له " فإن هذه الوحدات من حيث القلة أو الكثرة وما يتبع ذلك من اختلاف مساحة الأرض الذين يقيمون عليها ذو أهمية كبيرة بالنسبة للعلم الاجتماعي.

ولقد أطلق على هذه الدراسة الذي تهتم بالشكل المادي للمجتمع اسم " المورفولوجيا الاجتماعية " أو علم " بناء المجتمع " وهو العلم بالذي يقوم بدراسة أشكال التجمعات البشرية وكيفية توزيع هذه التجمعات البشرية على سطح الأرض.

ولا يقتصر مجال المورفولوجيا الاجتماعية على مجرد دراسة أشكال التجمعات الإنسانية وكيفية توزيعها كغطاء بشري ، تتناول بحث أو فحص أنواع العلاقات الإيكولوجية Ecological relations التي تربط الأساس الفيزيقي للمجتمع بمختلف أنواع المناشط الإنسانية والجهود البشرية التي يبذلها الإنسان الاجتماعي ، في نضاله المستمر مع البيئة الفيزيقية .وقد ذهب " دوركايم" إلى أن أي تغير يطرأ على العالم الفيزيقي إنما يرجع إلى مدى " التفاعل Interaction" القائم بين أجزائه وأنساقه .

إن التغير هو عملية تلقائية تنجم عن ظروف أو شروط التفاعل الذاتي للبناء الفيزيقي .

ولقد قام " دوركايم" بتطبيق هذه الحقيقة الفيزيقية ، الي العالم الاجتماعي فتصور دوركايم المجتمع على انه حقيقة جمعيـــة فـــي أصولها على شروط التفاعل بين الأفراد Indivduals.

ومع ذلك فإن دوركايم عند تفسيره للتغير في المجتمـــع لـــم يطبق نفس الأفكار المستقاه من " الطبيعة " وأرجعـــه إلـــى قـــوى اجتماعية استبعد بها تماما فكرة أن المجتمع تحكمه كما تحكم العالم مجموعة ثابتة من القوانين الطبيعية .(٤)

ومما يؤكد حقيقة التعامد المتبادل بـــين الشـــعور الفـــردي والجمعي ، يقرر دوركايم أن كل " فرد" في المجتمع ، إنمـــا يعبـــر عن الضمير " نحن" بمعني أن " الانا" الفردية إنما تمزج كلية مع " نحن " الاجتماعية .

فالحقيقة الجمعية إنما تتميز بالخصائص والسمات التي تسمو على الحقيقة الفردية ، على اعتبار أن الحقيقة الاجتماعية إنما تعبر عما هو أكبر أو خارج الفرد Extra individual فـــالمجتمع إذن هو ذلك " الكل المعقد" الذي يســـمو فـــوق الأفـــراد ،و"الفـــرد " أو الشخصية الفردية هي في حقيقة أمرها من نتاج ذلك الكل المعقـــد الذي هو المجتمع .

والمورفولوجيا الاجتماعية عند دوركايم تهدف إلى دراســـة الوقائع والظواهر الاجتماعية التي تتعلق بالأساس المادي للمجتمع ، يمكن أن تكون فرعا من علوم الاجتماع يهتم بالبحث فـــي أشـــكال وتصنيف المجتمعات ،وهو لذلك علم تصنيفي أطلق عليه دوركـــايم اسم " المورفولوجيا الاجتماعية " .

إذن فالمورفولوجيا الاجتماعية هو علـــم أشـــكال المجتمـــع الإنساني وتصنيفها وفقا لدرجـــة " التنظـــيم الاجتمـــاعي Social

organization" الذي يتمايز في سائر المجتمع البشـــري ، طبقـــا للأساس المادي للمجتمع .

ومن المعروف أن السكان يتوزعـــون علـــى الأرض التـــي يعيشون فيها بشكل معين ،وبكثافة معينـــة حســـب طبيعـــة الأرض وإمكانيات الحياة فيها الأمـــر الـــذي يجعـــل المورفولوجيـــا تهـــتم باستكشاف علاقة التوزيع السكاني بالبيئة.

إن ائتلاف العناصر المكونة للمجتمع واختلافها من المسائل الهامة التي تتصل بحقيقة بناء المجتمعات .فالعلاقـــات الاجتماعيـــة تتأثر وتتخذ أشكالا مختلفة حسب ما إذا كـــان الأفـــراد المكونـــون للمجتمع من جنس واحد أو ينتمون إلى دولة واحدة أو على العكس ترجع أصولهم إلى أجنـــاس لا انســـجام بينهـــا أو دول تتعـــارض مصالحها .ويدخل تحت هذا النوع من الدراسة ، دراسة علاقـــات الأفراد من حيث انتماءهم إلى مجتمع واحد بسيط أو معقد وخاصة من حيث ارتباط الأفراد أو الجماعات المختلفة داخل نطاق المجتمع الواحد . " فهناك البدائي الذي لا يتبع أي نظام إلا نظـــام العشـــيرة Cian أو القبيلة Tribe ،وهناك المتحضر الذي تتوزع التزاماتـــه نحو أسرته ونحو نقابته المهنية ونحو حزبه السياسي ونحو وطنـــه الأكبر "

ومن الجدير بالذكر أن المجتمعات الإنسانية تختلف حســـب حجمها وعدد الوحدات المكونة لها وحسب كونها عابرة أو دائمة ، مؤتلفة العناصر أو مختلفتها ، تتبع نظام الطبقات أو تتخذ المســـاواة قاعدة لها .ولا شك أننا نستطيع أن نجد أنواعا كثيرة من المجتمعات تقوم على هذه الاختلافات أو غيرها.الأمر الـــذي جعـــل البـــاحثين يرون أنها تتفاوت في أشكالها من حيث البساطة والتركيب بحيـــث

يمكن مقارنتها من هذه الناحية بالأشكال المختلفة بفصائل الحيوان أو النبات .(٥)

وهناك شروطا يجب توافرها لتكوين المجتمع ،وهي أن يسير الأفراد وفق قواعد وقوانين تنظيم معيشتهم ، أن تربط بينهم عادات واصطلاحات خاصة ، وأن يخضعوا أخيرا لقوة روحية أو مدنية هي مظهر السلطة في المجتمع . فلا يوجد مجتمع مهما كان يعيش في طور البداوة أو التوحش بدون قوانين وسلطة يخضع لها ،ويكفي هنا " العرف" وقد تتجلى السلطة في بعض المجتمعات البدائية في المكانة الخاصة التي يتمتع بها المسنون والشيوخ من أفراد العشائر دون أن تتخذ مظهرا رسميا .

ووجود الإنسان في المجتمع يفرض عليه نظاما خاصا ويحد من حريته وعلى هذا الأساس يمكن القول أن المجتمع طائفة من الناس يخضعون لسلطة واحدة وتجمع بينهم تقاليد وعادات ونظم واحدة .هذه العادات والتقاليد والنظم هي ما يطلق عليه اسم " الظواهر الاجتماعية " (٥) .

فكل إنسان حيوان اجتماعي بطبعه ، فنحن البشر لا يمكن أن نعيش ونستمر إلا عن طريق الحياة الاجتماعية ، فالحاجة الى الغذاء والنسل وتربية الأطفال والدفاع المشترك تدفع كل البشر إلى تكوين جماعات اجتماعية .ويمكن تخيل البشر يعيشون خارج المجتمع المنظم كما في فلسفة العقد الاجتماعي ،ولكن لم يحدث أبدا أن عاشوا في دولة غير اجتماعية ،وحتى حياة الناسك لا يمكن فهمها إلى عن طريق المجتمع الذي يحاول أن يهرب منه . ولذلك يمكن تعريف المجتمع على أنه أي تجمع من الناس يتمتع إلى حد ما

بالاستقلال الاقتصادي والسياسي ولكن يختلف مفهوم المجتمع عن مفاهيم أخرى كالنادي أو المؤسسة أو الشركة التجارية.

وبصفة عامة يمكن تعريف المجتمعات على أنها تجمعات منظمة وتنقسم المجتمعات داخليا إلى أجزاء متخصصة ترتبط وتتكامل مع بعضها البعض عند أدائها لوظائفها ، كما يرتبط هذا المفهوم – مفهوم المجتمع – بمصطلحات عديدة في مجال علمي الانثروبولوجيا والاجتماع كالبناء الاجتماعي .والتنيظم الاجتماعي والنظام الاجتماعي(٦).

وإذا كانت الثقافة طريقة المجتمع وأسلوبه في الحياة ، فالمجتمع هو الحياة بذاتها والمجتمع حقيقة جوهرية في حياة الأفراد ، من غيره لا يستطيع الفرد بذاته أن يستمر في الحياة ، فهو الذي يجعل الحياة الاجتماعية ممكنة ،وقد يقول قائل أن الفرد ليس عليه بالضرورة أن يعيش حياة اجتماعية ،وبالتالي يمكن ألا يكون المجتمع شرطا للبقاء .ولكن وجود الفرد نفسه ، توقف على وجود المجتمع فهو من صنعه على أبعد ما تحمله كلمة " الصناعة " من معاني – وقد استقرت أهمية المجتمع للفرد وجاوزت حدود الجدل حول هذه الحقيقة وخفت حدة الخلاف حول العلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع ،ودور كل منهما في الحياة الاجتماعية للإنسان .

ولا شك أن طائفة من الظواهر والأوضاع تنشأ من اجتماع الأفراد ومن تقابل عواطفهم ورغباتهم ومن تبادل أفكارهم وآرائهم وتتبلور هذه الطائفة في العادات والتقاليد وقواعد السلوك ثم النظم والتشريعات الاجتماعية .

فالاجتماع الإنساني على هذا النحو ليس حشدا من الأفراد كيفما اتفق ولكنه اجتماع منظم ينشأ تلقائيا .ثم من الضروري أن يتدخل

جانب العقل والإرادة لتنظيمه وتقدير أوضاعه وفقا لاتجاهات العقل الجمعي وما يرتضيه شعور الجماعة .

وتتلخص مقومات المجتمع بالمعنى العام في الأمور الآتية :

أولا : جمع من الأفراد .

ثانيا: استقرار هذا الجمع في بيئة معينة .

ثالثا : نشأة طائفة من الأهداف والرغبات العامة والمنافع المتبادلة المشتركة .

رابعا : قيام طائفة من القواعد والأساليب المنظمة لسلوك الأفراد وعلاقاتهم المتبادلة .

وتنطبق كلمة " مجتمع " بهذا المعنى على الدولة والأمة ،وتنطبق كذلك على كل الاجتماعات الإنسانية المستقرة المنظمة مثل اجتماع المدينة والقرية والقبيلة وما إليها . (٧)

فالمجتمع Society بالمعنى العام هو اجتماع ينطوي على كل العلاقات التي تنشأ بين الأفراد الذين يعيشون داخل نطاقه في هيئة وحدات أو جماعات . لأن الفرد ليس له وجود إلا إذا كان منضما في هيئة وحدات أو جماعات ، لأن الفرد ليس له وجود إذا كان منضما لجماعة وخاضعا لنظمها وروابطها .وقد يكون الفرد عضوا في أكثر من جماعة ، وكلما زاد تقدم المجتمع وارتقى تزايد انتظام الأفراد في جماعات تتمايز في وجوه نشاطها .وهذا التمايز علامة مؤكدة على تطور المجتمع وتنوع مظاهر النشاط الاجتماعي

هذا ويمثل المجتمع الموضوع الكبير الذي يكون ميدان الدراسة في العلوم الإنسانية والاجتماعية ،وعلم الاجتماع حين يدرس المجتمع يحاول أن يبحث عن الحقيقة الاجتماعية التي تفسر إمكانية وشروط بقائه وتكشف الستار عن أسباب التجمع والتفوق

والتنوع والتغير وما يترتب على هذا كله من نتائج على الأفراد وما يظهر على سلوكهم بسبب تفاعلهم المستمر ، إلا أن هناك اختلاف كبير بين علماء الاجتماع حول تعريف المجتمع ،وقد ظهر على أثر هذا ، الاختلاف في إطارات المفاهيم والأفكار العامة التي بني عليها التحليل السوسيولوجي ولكن هذا الخلاف تضيق شقته في السنين الأخيرة ويبرز هذا الاختلاف من استعراض عدد من وجهات النظر في تعريف المجتمع كما يلي :

أولا : تعريف توماس اليوت Thomas Eliot :

يعرف " إليوت" المجتمع ، بأنه جماعة من الناس يتعاونون لقضاء عدد من مصالحهم الكبرى التي تشمل حفظ الذات ودوام النوع .وتشتمل فكرة المجتمع على الاستمرار والعلاقات الارتباطية المعقدة والتركيب الذي يتضمن ممثلين من الأنماط الإنسانية وعلى الأخص من الرجال والنساء والأطفال .هذا ومن الطبيعي أن يكون هناك عنصر الإقامة في إقليم محدد والمجتمع فوق هذا جماعة وظيفية حتى يمكن أن تحدده من حين لآخر في ضوء العلاقات والعمليات الاضطرارية .ويقول " اليوت" أن المجتمع هو أكبر جماعة إنسانية .ولهذا يجب أن تميزه عن الجماعات غير الممثلة والتجمعات الأخرى كالجمهور والمسافرين على سفينة والمشاهدين لمباراة كرة قدم أو المقيمين في معسكر من المعسكرات .

ويستنتج الأستاذ الدكتور عاطف غيث من هذا التعريف أن "اليوت" يتصور المجتمع من الناحية البنائية والوظيفية على أنه مجموع متفاعل من الرجال والنساء والأطفال يقيمون على أرض محددة ويتعاونون " وظيفيا" على البقاء وحفظ النوع(٨).

ثانيا : تعريف بيسانز Biesamz :

يشير بيسانز إلى ضرورة التفرقة بين استعمال كلمة " مجتمع " في اللغة وبين استعمالها في العلوم الاجتماعية فيقول " إن المجتمع هو تنظيم العلاقات الاجتماعية لجماعة من الناس يسهمون في ثقافة مشتركة ويتقاسمون الإحساس بالمشابهة " حيث المجتمع يبدأ بوجود مجموع من الناس ،ولكن وجود هؤلاء الناس على قرب مكاني أو فيزيائي لا يجعل منهم جماعة اجتماعية ، لأن الجماعة تقوم حين يكون اثنان أو أكثر من الناس على صلة واعية الواحد بالأخر وهذا الاتصال قد يكون مباشرا أو غير مباشرا ،ولكنه يشتمل على " وسائل اتصال" في مستوى رمزي ، أما عن طريق الإشارة أو اللغة ، كما أن هذا الاتصال يعني أن سلوك فرد يتعدل أو يعدل سلوك الآخرين .ويمثل هذا التأثير المتبادل والاستجابة المتبادلة التي تتم بين الأفراد والجماعات يقال لها " التفاعل الاجتماعي "Social interaction.

وبتكرار التفاعل لفترة كافية يمكننا أن ندرك قيام نمط من السلوك الذي يعبر عنه بتسمية "العلاقة الاجتماعية Social relation " هذا وتنظم العلاقات الاجتماعية على هيئة نمط من المراكز Status والأدوار Rols المتبادلة والمركز هو مجموع الحقوق والواجبات التي تناط بمكانة ما في الجماعة ،ويحدد السن والجنس والقرابة والزواج مراكز الأفراد في كل المجتمعات ، كما أنه في أغلب المجتمعات يتحدد المركز أيضا عن طريق المرتبة والمهنة والطبقة وبعض الاعتبارات الأخرى ، والمراكز التي يحتلها الفرد بالوراثة أو الولادة تسمى المراكز النسبية ، أما المراكز التي يصل الفرد إليها نتيجة لمجهوده وكفاحه فتسمى

المراكز المكتسبة ،ويسمى نمط السلوك الذي يصاحب مركزا مـــا " الدور الاجتماعي " ولذلك يشغل الفرد في الواقع عدد من المراكـــز ،ويلعب أدوارا مختلفة في مختلف فتـــرات حياتـــه وفـــي مختلـــف الجماعات التي ينتمي إليها .ويرى أغلب علماء الاجتماع أن أنماط التوقعات الجماعية مع الجزاءات والسلطة التي تنفذها وتحافظ عليها تعتبر أساس التنظيم الاجتماعي ، كما أنها هي التي تمكن المجتمـــع من أداء وظائفه وتحقيق أهدافه الرئيسية التي تتمثل في حماية الفرد والإبقاء على الجماعة ذاتها . (٩)

ثانيا : الثقافة :

الأرض التي تغذي الجماعة والعصا التي تصوغ قيمها ومعاييرها

من الملاحظات التي يجب أن نسجلها في البداية أن، الباحث في علم الاجتماع لا يستطيع أن يتقدم في دراساته دون الاســـتعانة بمفهوم " الثقافة" والسبب في ذلك أن المشتغلين بعلم الاجتماع فـــي كل بلاد العالم ،وفي كل اللغات ، يجدون أن عليهم أن يحددوا فـــي البداية المقصود بهذا المصطلح .فالثقافة ليست الفن ،ولا المتـــاحف والمسارح والأعمال الأثرية الجميلة ولا هي المعلومـــات الرفيعـــة المستوى الشاملة في كل علوم العصر، ولا هـــي حســـن المظهـــر وسمو السلوك الخارجي ،ولا هي الـــروح المعنويـــة أو الأخـــلاق الخارجية الرفيعة ولا هي " روح الحضارة " أو قيمة التقدم المادي في مجتمع من المجتمعات ، فالمقصود بالثقافة –شيء أشمل وأعـــم وأخطر تأثيرا وهو مضامين الـــوعي والإحســـاس والتصـــورات المشتركة بين أعضاء جماعة اجتماعية " لما هو قائم ولما ينبغي أن يكون" والتي تتوارث اجتماعيا " أي بـــالتلقين الاجتمـــاعي ولـــيس بالوراثة البيولوجية " من جيل على الجيل الثاني ، بما فـــي ذلـــك

الصور أو التجسيدات المادية التي تتضمن فيها تلك المضامين والمشاعر والتصورات من صور الفعل والمصنوعات التي يبدعها الإنسان . فالثقافة هي الأرضية التي يتغذي عليها المجتمع ،والتي تنمو عليها العلاقات الاجتماعية ،وهي في نفس الوقت العصا التي تشكل هذا المجتمع وتصوغ قيمه ومعاييره ، أو الثقافة بعبارة أخرى هي الخلاصة التي تستقطر من العلاقات الاجتماعية المتكررة بين الناس ، فالثقافة هي القواعد التي تتبلور من خلال اللقاءات العديدة وتبدو كتصورات تقليدية وعادات ثابتة محددة ومعروفة للجميع .ونستطيع أن نضع أيدينا على المعيار الثقافي عندما نجد أن أعضاء المجتمع يتبعونه بانتظام وأحيانا بلا استثناء " في ظل ظروف معينة .

ونحن في تحليلنا السوسيولوجي ننظر إلى القيم والقواعد الثقافية بوصفها شيئا موجودا بالفعل ومسلما به ،ونحلل العلاقات الاجتماعية التي تلتزم بتلك القيم والقواعد التزاما يختلف في درجة دقته وشدته ، وتتبع هذه الطريقة أساسا عند دراسة النظم الاجتماعية التي تكون قواعدها الاجتماعية معروفة ، بل وتكون أحيانا مثبتة في شكل مكتوب ،وذلك مثلا في حالة دراسة النظم القانونية والدينية والمؤسسات البيروقراطية .(١٠)

ومن النادر أن يتسنى لنا ملاحظة تكون القواعد الثقافية الجديدة ، أي وهي في مرحلة النشأة والتكوين ، فعند تكون جماعة جديدة لا يكون هناك رجل اجتماع متخصص يقوم بمهمة الملاحظة هذه .ولكي نحصل على معلومات عن هذه المرحلة ، وعن ملامحها وديناميياتها ، نقوم بإجراء تجارب ، هي عبارة عن تكوين جماعة جديدة تسند إليها مهام معينة .وعلى أساس ملاحظة ما

يحدث فيها نستطيع أن نتوصل إلي معرفة كيف تؤدي المحـــاولات المتكررة على تكوين القواعد الجديدة التي تنظم أوجه التعاون داخل هذه الجماعة ،والآثار المترتبة على وجود تلك القواعـــد ، ومـــدى التزام الأعضاء بها ...الخ .وهناك بعض الاختراعات الثقافية التي لا يمكن التعرف عليها وتشخيصها إلا بعد أن تحدث ، أي من واقع تاريخها الذي يكون قد سجل فعلا ، من هذا مثلا نشأة مدرسة فنيـــة جديدة أو مدرسة جديدة في الفلسفة أو العلم ..الخ .ويحاول العلمـــاء المتخصصون في دراسة المستقبل منذ فترة قصـــيرة التنبـــؤ بمـــا سيحدث من خلال توقـــع الآثـــار الاجتماعيـــة المحتملـــة لـــبعض الاختراعات التكنولوجية الجديدة وتوقيت ظهورها – تقريبا – فـــي مستقبل معلوم وهذه بالطبع مهمة ما زالت على جانب كبيـــر مـــن الصعوبة ويساور العض شكوك قوية في إمكان إنجازها على الوجه الأكمل .والسبب في ذلك أننا لم نطور بعد نظرية مؤكدة – الي حد ما – يمكن في ضوئها تحديد العلاقة المتبادلة بين البناء الاجتماعي والاختراعات الثقافية .

ويعد موضوع التبادل الثقافي من الموضوعات المفضلة عند علماء الانثروبولوجيا الثقافية ، حيث يدرسون تبادل بعض العناصر والسمات الثقافية أو بعض المركبات الثقافية بين الثقافات المختلفـــة وبعضها ، أو بين ثقافات متخلفة وثقافات متقدمة أو بـــين ثقافـــات متقدمة وبعضها أو بين بعض الجماعات الاجتماعية ، داخل ثقافة من الثقافات التي تتسم بالتنوع والثراء والملاحظ دائما أن العناصر المستعارة التي تدخل ثقافة معينة تحـــاول أن تكيـــف نفســـها مـــع المعايير السائدة في تلك الثقافة .

ولذلك يجب أن نتفق بادئ ذي بـــدء علـــى اعتبـــار القـــيم والقواعد الثقافية أمرا موجودا ومسلما به بالفعل ، بوصفها الأرضية التي تتغذى عليها الجماعات الاجتماعية .والفرد الذي ينتمـــي الـــي جماعة اجتماعية ، ينتمي في نفس الوقت الي ثقافة فرعية معينـــة . وهو لا يمكن أن يصبح عضوا في الجماعة إلا إذا تعلم عناصر تلك الثقافة ،وتشرب تصوراتها وأشكالها الفكرية ،والسـبب فـي ذلـك واضح ،وهو أن الجماعة لا تقوم لها قائمة إلا من خلال العلاقـات المنظمة بين أعضائها ، تلك القواعد " التي تنظم هـذه العلاقـات " هي جزء لا يتجزأ من الثقافة.

فالجماعة ليست مجرد فرد وفردا أخر وثالث ورابع ومائـة من الأفراد ولا حتى آلاف من الأفراد . فالأمر أعقد من ذلك بكثير فالجماعة تستطيع " ولكن ليست محتما" أن تتجاوز حياة أعضـائها أي تستمر في الوجود بعد أن تنتهي عضويتهم فيها كما أنها تكـون مستقلة " بمعنى ما" عن الأعضاء المكونين لها في لحظة معينـة ، فالفرد أو الأفراد ليسوا هم الجماعة بالضبط .ولذلك نقول أن جماعة دينية معينة ، أو الأسرة ، أو نادي كرة القـدم أطـول بقـاء مـن الأعضاء المنتمين إلى كل منها.

يلاحظ فضلا عن ذلك أن عضوية الفرد في جماعة معينـة تكون دائما عبارة عن عضوية جزئية .ومعنى ذلك أنـه بمجمـوع شخصيته ليس ابا فقط أو لاعب كرة قدم فقط نولكنه يمـارس كـل عضوية منها بجزء فقط من ذاته أو من " الانا" عنده .

ويطلق علم الاجتماع المعاصر على هذا الجـزء مفـاهيم المكانـة والدور . فالفرد يقوم بعدد كبير من الأدوار فـي حـزب سياسـي ،وكلاعب في فريق كرة القدم ، كمعلم في مدرسة ...الخ .

كذلك تفرض عضوية الجماعة أن يتعلم الفرد أداء دوره فيها حسب القواعد المتعارف عليها ،وهي التي يلتزم بها في نفس الوقت سائر أفراد الجماعة بحيث يكون هناك توافق وتناغم بـين الأدوار المختلفة فكل طرف يأخذ بقية الأطراف في اعتباره ، لا يعني القول بأن مفهوم الدور مأخوذ من عالم المسرح ، أن تلك الأدوار تـؤدي بوعي دائما ، أو أنها تؤدي كتمثلية ولـيس كحقيقـة . أن ملامـح التقوى المرتسمة على وجه شخص داخل إلى المسجد قـد تخفـي وراءها نفاقا خالصا ، أو قد تكون مجرد تعود حيث يعتاد الشخص اتخاذ هذا المظهر عند دخوله إلى المسجد دون تدبر لمعنى معين أو تمثل لمشاعر معينة،وقد يخفي هذا المظهر مشاعر تقـوى حقيقيـة عميقة . ولذلك نقول أن التلاؤم والتوافق بين سلوك الدور المرسوم من ناحية والميول الشخصية من ناحية أخري قضية تبدو أهميتهـا عندما نشرع في تحليل التوترات الاجتماعية والتغير الاجتماعي .

كما أنه من الأمور الهامة بالنسبة لوجود الجماعة أن يكـون لأعضائها تصورات مشتركة متماثلة لعلاقاتهم ببعضهم البعض ولما ينبغي أن تكون عليه تلك العلاقات .ويعني ذلـك أنهـم يجـب أن يكونوا على دراية بالقواعد التي تعمل الجماعة وفقا لها ، بما فـي ذلك الصور المثالية للعلاقات وكذلك الحدود التي لا يجوز تجاوزها عند الانحراف عن معايير الجماعة وأهدافها.

واعتماد على هذه التصورات المشـتركة نفسـها يسـتطيع أعضاء الجماعة – فضلا عن ذلـك – أن يتنبـأوا مقـدما بشـكل علاقاتهم مع الأعضاء الآخرين فهم يعرفون ما يتوقعـه الأخـرون منهم ،وما يتوقعونه هم من الأخرين فهم يؤدون أدوارهم في إطـار العلاقات الاجتماعية المنتظمة المميزة للجماعـة ، وبـدون هـذه

التصورات المشتركة لا توجد الجماعة ولا تقوم لها قائمة .ودون توقع سلوك معين ،وحدوث ذلك السلوك المتوقع فعلا ، لا يمكن أن تقوم أي علاقة اجتماعية . فالأسرة القروية عندما تقدم أو تدفع " نقوطا" عينيا أو مادية للأسرة الأخري في القرية عند حدوث زواج في كل منهما ، فهي تتوقع أن ترد اليها تلك الأسرة نقوطا مماثلا لما دفعته – أو قريبا منه – عند زواج أحد أفرادها ، فإذا لم يحدث هذا السلوك المتوقع – وهو رد النقطة فلن تعاود تلك الأسرة مجاملة الأسرة الأخرى ، وبذلك ينقطع هذا النوع من العلاقات .

فالفرد يتعلم ثقافة مجتمعه من خلال الانتماء المستمر إلى جماعات جديدة وأول الجماعات التي ينتمي إليها الفرد هي الأسرة ، ولا يستطيع أي شخص واحد أن يحصل علي كل ثقافة المجتمع ،ولكنه يحصل على جوانب معينة فقط من تلك الثقافة ،وكلما كبر حجم المجتمع وتضخم ، وكلما ازدادت ثقافته تطور ونموا كلما زاد عدد العناصر الثقافية المتعارضة والمتنافرة ،وكلما أصبح على هذا الفرد أن يختار من بينها هذا بعض النظر عن الحقيقية المؤكدة وهي أن كمية المعلومات الاجتماعية " أي الدراية بأساليب السلوك والمواقف المختلفة " في المجتمعات المتقدمة المعاصرة أصبحت تفوق قدرات الفرد على الاستيعاب " لا يقصد طبعا المعرفة العلمية فهذه قضية أخرى " (١١).

الثقافة ...المفهوم والتطور :

إن كلمة ثقافة أصبحت من الكلمات الدراجة في الأوساط الأدبية والعلمية على الصعيدين المحلي والدولي في الآونة الأخيرة ،وهذا بما يدعونا إلى ضرورة التبصر والتعرف على معناها اللغوي وتطور ظهورها في أدبياتنا العربية ، ثم التعرف على

الأصل اللغوي لكلمة Culture وأصولها اللغوي ،وبداية ظهورهـا في الأدبيات الغربية .

وذلك يعد خطوة في سبيل التعرف على المفهـوم العلمـي للثقافي Culture واختلاف المفهوم من مدخل علمي لآخر ،وتطور دراسة الثقافة في الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع حتى نصل لتصور واضح لما نقصده بالثقافة في العصر الحديث.

أ – المعنى اللغوي للثقافة وتطور دراستها :

عرفها (المعجم الوسيط)الذي أخرجه مجمـع اللغـة اللغـة العربية بأنها العلوم والمعارف والفنون التي يتطلب الحـذق فيهـا .ونص على أنها (محدثة).

وبالرجوع إلى معاجم اللغة يتضح لنا أن مـادة (ث ق ف) تدل على الحذق والفطنة أو التعديل والتقويم .

يقال : ثقف الرجل أي صار حاذقا فطنا فهما .وقالوا " رجل ثقـف لقف : أي راو شاعر رام ، وقال ابن السكيت : رجل ثقف لقـف : إذا كان ضابطا لما يحويه قائما به .وقالوا أيضا : إمرأة ثقاف (على وزن سحاب) أي فطنة.

والثقاف (بكسر الثاء) : ما تسوى به الرماح ،وهي حديدة تكـون مع القواس والرماح يقوم بها الشيء المعوج . يقال : ثقفه تثقيفـا : أي سواه وقومه ،ومنه : رمح مثقف ، أي مقوم مسوى .

قال شارح القاموس :ومن المجـاز : التثقيـف :التأديـب والتهذيب ، يقال لولا تثقفك وتثقيفك ما كنت شيئا ،وهـل تهـذبت وتثقفت إلا على يدك ؟ انتهي.

ومن معنى التأديب والتهذيب ومعنى الحذق والفطانة والفهـم ، أخذ المحدثون كلمة (الثقافة) وما اشتق منها ،وتحدث من تحدث

عن أزمة المثقفين ،وعن التراث الثقافي ،وعن الغزو الثقـافي ، أو الاستعمار الثقافي ،وأنشئت مؤسسات ، بل وزارات في عـدد مـن الأقطار للثقافة .

ومع شيوع كلمة (الثقافة) نراهم قد اختلفـوا فـي تحديـد مفهومها ، ككثير من المصطلحات المعاصرة.

فهناك من يقصر (الثقافة) على الجانب المعرفي في الحياة ، أي ما يتعلق بالعلم والفكر والأدب والفن .ولعل هذا ما يفهـم فـي تعريف المعجم الوسيط الذي ذكرناه .

وهناك من يوسع مفهوم الثقافة بحيث لا تقتصر على الجانب المعرفي والفكري ، بل تشمل الجانب الوجداني الذي يعني به الفـن والجانب الروحي الذي يعني به الدين ،والجانب العملي أو السلوكي الذي تعني به الأديان والأخلاق ، بل تشمل الجانب المـادي أيضـا من الحياة .

فالثقافة : أفكار ومعـارف وإدراكـات ، ممزوجـة بقـيم وعقائديات ، ووجدانيات ، تعبر عنها أخـلاق ،وعـادات ،وآداب وسلوكيات ، كما تعبـر عنهـا علـوم وآداب وفنـون متنوعـات ومعنويات . (١٢)

وكل الأمور المادية تنقلب إلى ثقافـة إذا ارتبطـت بقيمـة وهدف نبيل ، ومعايير وآداب ترقى بها وتنقلها من المعنى الحيواني إلى الأفق الإنساني .

صحيح أن الجانب المعرفي والفكري له أولوية على غيـره على أساس أن الفكر يسبق الحركة ،وان العلم يسبق العمـل ، وأن حركة الإنسان لا تستقيم إلا إذا استقام فكره وتصوره ، وقديما كانوا

يقولون هذا عن العالم والأديب . فالعالم هو المتخصص والأديب هو المثقف بلغة عصرنا.

وفرق بعضهم بين الثقافة والحضارة قائلا بأن الثقافة تتعلق بالجانب الفردي والحضارة تتعلق بالجانب الاجتماعي ،وهذا تفريق غير مسلم ، فالثقافة كما تتصل بالفرد ، تتصل بالمجتمع والأمة ،ولذا يقول الكتاب والباحثون : الثقافة العربية ، والثقافة اللاتينية ،والثقافة السكسونية ،والثقافة الأمريكية ،والثقافة اليابانية والصينية، إلى آخره . نجد النسبة هنا إلى أمم ، وليس إلى أفراد . (١٣)

- وقد تنتسب الثقافة إلى أديان ، كما يقال : الثقافة الإسلامية ،والثقافة اليهودية ، والثقافة المسيحية ـ،والثقافة البوذية..والثقافة الشيوعية . وهذه ضد الأديان ولكنها كما سمي بعضهم هذه الأيديولوجيات الوضعية " أديان بغير وحي"
- والواقع أنه لا يكاد يوجد فارق في الاستعمال المعاصر بين الثقافة والحضارة ، فكل واحدة من الكلمتين توضع مكان الأخرى

وليس في مقدرونا اليوم أن نعالج موضوعا كهذا ، دون أن نجد أنفسنا – في حالة التطور الراهنة في العالم العربي – أمام مشكلة لغوية وتاريخية .

فمن أين جاءت كلمة (ثقافة) ومنذ متى استخدمت في اللغة العربية ؟

إن أول فكرة تخطر لنا للإجابة عن سؤال كهذا هي أن نستشير قاموسا ،ولكن القواميس الموجودة بين أيدينا لا تذكر هذه الكلمة إلا لماما ، سواء في ذلك القديمة والحديثة . فلسان العرب يقول في المجلد العاشر :" يقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم " ويقول ابن دريد:" ثقفت الشيء حذقته" وفي حديث الهجرة : " هو

غلام شاب لقن ثقف" (رواه البخاري) أي ذو فطنة وذكاء ،والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه .

والعلامة فريد وجدي يقول في " دائرة معارف القرن العشرين / المجلد الثاني " :" ثقف يثقف ثقافة : فطن وحذق ،وثقف العلم في أسرع مدة أي أسرع أخذه ،وثقفته يثقفه ثقفا : غلبه في الحذق ، والثقيف : الحاذق الفطن "

والقواميس الحديثة تقول :" ثقف ثقافة : صار حاذقا خفيفا ،وثقف الكلام فهمه بسرعة" وفي هذه النصوص من التشابه ما يدعونا إلى أن نعدها نسخا مكررة نقل بعضها عن بعض .

إن فكرة (الثقافة) حديثة جاءتنا من أوروبا ، ثم إننا لم نجد فيما كتب حديثا عن هذا الموضوع في البلاد العربية ، أن الكتاب يقرنون دائما بكلمة (ثقافة) بكلمة Culture مكتوبة بحروف لاتينية ، كأنما يبتغون بهذا أن يقولوا : عن كلمة ثقافة لا تكتب إلا بهذا الوضع ، وهؤلاء المؤلفون يعلمون دون ريب ما يفعلون ، حين يقرنون الكلمة العربية بنظيرتها الأجنبية ، فإن معنى هذا أنهم يدركون أن الكلمة لم تكتسب بعد في العربية قوة التحديد ، التي ينبغي أن تتوافر لكل علم على مفهوم . فالكلمة إذن جديدة ، أي أنها وجدت بطريقة التوليد ،والغريب أن الكاتب الذي صاغها – وربما كان ذلك في مستهل هذا القرن – قد اختارها من بين عدد من الأصول اللغوية من مثل (علم – أدب – فهم – ثقف) ، تلك الكلمات التي تدل على العمل أو العلاقة المعرفية .ومعنى هذا أنه اختار بالكلمة التي تدل صورتها على طابع الروح الجاهلية .

أن كلمة (ثقافة) التي كان من حظها أن تختار لهذا المعنى ، لم تكتسب بعد قوة التحديد الضرورية لتصبح علما على مفهوم

معين ،وهذا هو ما يفسر لنا أنها بحاجة دائما إلى كلمة أجنبية ، تقرن بها لتحديد ما يراد منها في الكتب التي تتصدى لهذا الموضوع ، أو بعبارة أخرى إنها كلمة لا تزال في اللغة العربية تحتاج إلى عكاز أجنبي مثل كلمة Culture كي تنتشر.

والواقع أن فكرة (ثقافة) كما سبق أن قلنا فكرة حديثة جاءتنا من أوربا والكلمة التي أطلقت عليها هي نفسها حقيقية للعبقرية الأوروبية .

فمفهوم (الثقافة) ثمرة من ثمار عصر النهضة ، عندما شهدت أوروبا في القرن السادس عشر انبثاق مجموعة من الأعمال الأدبية الجليلة في الفن وفي الأدب وفي الفكر.

ومن الواجب أن نترجم هذه الظاهرة في ضوء النفسية الأوربية ،وخصوصا في ضوء النفسية الفرنسية ، حتى نفهم لماذا اختيرت كلمة Culture المشتقة من الأصل اللاتيني Cultuivare كما تطلق على صورة ما تفتقت عنه أذهان المفكرين.

– فالواقع أن الأوربي عامة والفرنسي خاصة هو (إنسان الأرض) ،وإن الحضارة الأوربية هي (حضارة الزراعة) ،وعليه فإن العمليات التي تستنتج من الأرض خيراتها كالحرث والبذر والحصاد ، لهذا بالضرورة دور هام في نفسية الإنسان الأوربي ، كما أن لها دورا هاما في صياغ رموز حضارته ، إذ أن الزراعة هي العملية التي تضم بين دفتيها جميع العمليات السابقة ، فهي التي تحدد وتنظم إنتاج الأرض.

فإذا حدث في بعض الظروف – كتلك التي صحبت حركة النهضة في أوربا – أن تعاظم إنتاج الفكر ، فلن تكون هناك غرابة

إذا ما أطلق عليه الرجل الفرنسي كلمة Culture التي تعني الزراعة إطلاقا مجازيا .

بيد أن هذه الاستعارة – وهي ما يهمنا في هذا المكان – قد شخصت وصنفت واقعا اجتماعيا لم يكن مدركا ، فالاستعارة حين أطلقت على الواقع الاجتماعي قد خلقت مفهوما جديدا ، هو مفهوم (الثقافة) فأصبحت Culture منذ ذلك الحين فكرة ،ولكنها فكرة تجريبية ، إنها شيء (حاضر) دل على (وجوده) بواسطة التسمية.

تلك هي الدرجة الأولى في سلم التعريف ،وتأتي قوة اللفظ Culture من أنها مرت بهذه الدرجة ثم نمت في اللغات الأوربية منذ ذلك الحين . (١٤)

ولقد وضعت تعريفات كثيرة للثقافة Culture ،وإن كنا سنعرض إلى عدد قليل منها خلال هذا العمل لنبين مدى اختلاف وجهات النظر إليها . وتختلف هذه التعريفات ف ألفاظها وفي صياغتها ،ولكنها تتفق كلها في النهاية مع التعريف الكلاسيكي البسيط الذي وضعه تايلور في مطلع كتابه عن " الثقافة البدائية" حيث يقول :" الثقافة أو الحضارة ، بمعناها الإثنوجرافي الواسع ، هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل المقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع . (١٥)

فعلم الوقائع الاجتماعية قد بدا بـ (أوجست كونت) الذي يعدونه أبا تعلم الاجتماع ،والواقع أن ابن خلدون كان قد وضع معالم الطريق ، فقبل ظهوره ، كان التاريخ ضربا من (الأحداث المتتابعة) ، حتى إذا جاء وجدناه يخلع على التاريخ نظرة جديدة ، فهو حين وصله بمبدأ السببية أدرك بتلك النظرة معنى تتابع

الأحداث من حيث كونه عملية تطور ، كما حدد معنى الواقع الاجتماعي من حيث كونه مصدرا لتلك الأحداث .

ومع ذلك فإن القرن التاسع عشر قد شهد حقلا من حقول الدراسة أكثر اتساعا ،ووسائل البحث والتحقيق أخصب وأكثر تنوعا

فعلم الإنسان وعلم الأجناس وعلم النفس والاقتصاد السياسي ، تتلاقي أضواؤها وتتركز في نقطة واحدة هي الواقع الاجتماعي ، فهي تتناوله بطريقة أعظم اتساعا وعمقا .

وإذا بفكرة (ثقافة) تزداد بجلاء في هذا المجال المضيء ،ونصبح مفهوما أكثر تحديدا ، بحيث أصبحت إحدى مشكلات علم الاجتماع ،وآن الأوان ليثور في أذهان المفكرين سؤال هو : ما هي الثقافة؟.

وهو سؤال اضطرتهم إليه الأفكار الجديدة التي حملها إليهم ، علم النفس وعلم الاجتماع ،وعلم الأجناس ،وهو يدل على الحاجة إلى خطوة جديدة في طريق تحديد معنى الكلمة للانتقال من الفكرة العفوية الموروثة عن عصر النهضة الأوربية إلى فكرة علمية جديدة.

وكان من الطبيعي أن يظل تصور(ثقافة) على ما كان عليه في عصر النهضة ، أي على أنها مجموع ثمرات الفكر في ميادين الفن والفلسفة والعلم والقانون ...الخ.

بيد أن هذا للتعريف التاريخي لا يتفق كثرا مع طبيعة الفكر في القرن التاسع عشر ، باعتباره قرن التشريح والتحليل الكيماوي . فلقد كان عمل القرن التاسع عشر في أوربا إلى تحليل الوقائع داخل المعمل ، أكثر من اتجاهه إلى دراستها في حجرة الدراسة أو في بطون الكتب أوفي آثار التاريخ ، وبذلك كان من الطبيعي أن

تدخل فكرة (الثقافة) إلى معرفة بنائها وأجزائها وعناصر تركيبها الأولية ، باستخدام طرق التشريح والتحليل .

ومن هنا نشأت محاولات تهدف إلى وضع تعريف جديد للثقافة ، إذا لم يعد التعريف التاريخي الذي خلقه عصر النهضة بكاف في إقناع المنطق الجديد .

وهنا ينشأ تيار جديد وسط تقاليد الفكر الكلاسيكي وعاداته ، تلك التي كانت ترى في الثقافة ميراثا من مواريث روما وأثينا ،وتفسر (النهضة) على أنها هي ذاتها (عودة التاريخ القديم)

لكن هذا الفكر الجديد يلاحظ أن فكرة (ثقافة) تمتد لتشمل ما وراء ما أطلق عليه (الإنسانيات الإغريقية اللاتينية) وأن معناها يتجاوز ما أنتجته قرائح الفكر الكلاسيكي من أعمال أدبية ، ليضم في رحابته واقعا اجتماعيا يتجاوز هو أيضا حدود أوربا وليحمل بصورة عامة طابع العبقرية الإنسانية ، فهذا هو العصر الذي اكتشفت فيه أوربا عامة، وألمانيا خاصة ، ثقافات آسيا على يد(شبنهور ونيتشه).

ولقد رحب مجال البحث الاجتماعي في القرن التاسع عشر بتأثير التوسع الاستعماري ذاته .ورحب معه مفهوم (الثقافة) الذي كان حتى ذلك الحين حبيسا في نزعات فردية أوربية ، تدين بمبدأ (الإنسانيات الإغريقية اللاتينية) .اتسع هذا المفهوم حتى ضم مجالا جغرافيا أوسع ومعنى اجتماعيا اشمل ، على أن ظفر بدراسات (ليفي بيريل) عن ثقافات المجتمعات البدائية.

وجاء تعريف الثقافة في الطبعة الأخيرة لمعجم المجتمع الفرنسي ١٩٣٢-١٩٣٤ على أنها " تطلق مجازا على الجهد المبذول في سبيل تحسين العلوم والفنون وتنمية المواهب الفكرية

ومواهب العقل والذكاء .والثقافة . بوجه خاص . تـرادف معنـى الحضارة في بعض الأحيان . (١٦)

وفي القرن السابع عشر تمكن "بوفندورف" من فصل نظـام الطبيعة عن نظام الثقافة ويأتي بأول صياغة حديثة.وفـي القـرن الثامن عشر ارتبط الفكر بمفهوم الثقافة ارتباطا واضحا .وفي القرن التاسع عشر رفض هذا الإسناد وبدا أن كلمة ثقافة تكفي ذاتها بذاتها ، وفي أواخر هذا القرن بدا تحتل العناصـر الاجتماعيـة للثقافـة الشخصية منزلتها إلى جانب العناصـر الفرديـة وانتظـار حتـى منتصف القرن العشرين حتى يتضح أن مضمون الثقافـة لا يفهـم فهما عقليا وأدبيا فقط بل يتسع ليشمل قيما أخرى .

إن مفهوم الثقافة في الغرب انتظر حتـى منتصـف القـرن العشرين حتى بدأ في استخدام العام والشائع وبدأت الثقافة الغربيـة تعثر على بعض وحدتها فيما يجاوز الخدمات القومية .وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ نوع من الإجماع يلوح في الأفق .ولقـد حـدثت طائفة من الحوادث بعد عام ١٩١٩ أثرت في مفهوم الثقافة تـأثرا خارقا جعل الباحثين ينظرون إليها على أنها " ثورات " حتى أنه أية ومضة ثقافية كانت توصف بأنها ثقافة.

وزاد معدل ارتفاع هذه الثورات الثقافية في العقود الماضية سريعا وأحدث تأثيرا تراكميا بالمعاني الثقافيـة ، وبلغـت النتـائج النفسية والفلسفية مبلغا جعل منظور الثقافة يتجدد تجددا تاما .

وأصبح حق الإنسان في الثقافة ثورة ثقافة ثانية في القرن العشرين

ولقد أخذ مفهوم حق " الفرد في الثقافة" مكانـا بـارزا بعـد الحرب العالمية الثانية وذلك بعدما أخذ الباحثون يقيسـون بمفهـوم الثقافة مدى ما قطعت في مسيرتها العقول . فبعد أن كانت الثقافـة

ينظر إليها على أنها ترف وقصة خاصة بفئة معينة، تضمن إعلان حقوق الإنسان (١٩٤٨) النص على حق الإنسان في التربية والحق في الثقافة والتبادل الثقافي.

تمثل الثورة العلمية ثالث" الثورات الثقافية" في القرن الحادي والعشرين فقد عرف العرب قبل القرن العشرين عدة ثورات علمية وثورات صناعية وثورات زراعية ، إلا أن الثورة العلمية للقرن العشرين تعد ثورة مستمرة . فإنجازات العلم اليوم جبارة في مجال البحث ، وهناك تدفق هائل في الاكتشافات العلمية التي غيرت من طراز الحياة والوجود اليومي ، بل غيرت هذه التطبيقات الفعلية سبل الحياة الاقتصادية والسياسية.

وتعد وسائل الإعلام الجماهيري بمثابة " الثورة الثقافية الرابعة " لأنها جعلت الثقافة أمرا ممكنا للجماهير ،ولكن ما هي أو ما هذه الوسائل الإعلامية الجماهيرية التي جاءت لتضاف إلى وسائل الثقافة التقليدية (التعلم ، الكتب ، النشرات ، المسرح ، الفنون ، المحاضرات ،.....) ، من غير أن تحل محلها؟يمكن حصر هذه الوسائل في خمس وسائل : السينما ، الإذاعة الصوتية ، التليفزيون ، الوسائل المختلفة لحفظ الآثار الفكرية والفنية بحفظ الصوت والصورة ، الصحافة .

هذه الوسائل – هي تتكامل وتتنافس – قد فتحت أمام الجماهير إمكانات الاستعلام والتسلية والثقافة فلا يوجد الآن أماكن عادية ولا ريف ولا جزيرة إلا وفي وسع وسائل هذا الاتصال الجماهيري أن ينقلها ،ولقد شغلت الآثار التي أحدثتها هذه الوسائل العديد من الباحثين لأنها تستهدف العدد الأكبر من الناس الذين يمكن استقلالهم سياسيا وتجاريا . فالثقافة الآن في مفترق الطرق –

كما يشير ادجار موران E.Morin في كتابة ثقافة الجمهور (١٩٦١) – بين الفكر والعاطفة وهناك أخطار بالغة لما يسمى الآن " بصناعة الثقافة" (١٧)

ثالثا : الثقافة والشخصية

الثقافة والشخصية ميدان مشترك بين علم الانثروبولوجيا من ناحية وعلم النفس من ناحية أخرى . على أساس أن علم الانثروبولوجيا هو العمل الذي يهتم بدراسة الثقافة ويخصص لها فراعا مستقلا هو الانثروبولوجيا الثقافية بينما الشخصية هي أحد المباحث الهامة في علم النفس ، حتى أن هناك فرع مستقلا من علم النفس يعرف بعلم نفس الشخصية وربما كان هذه الصلة هي التي جعلت بعض العلماء المحدثين يطلقون على مجال البحث في الثقافة والشخصية اصطلاحا جديدا مستلهما من هذه الصلة بين الانثروبولوجيا وعلم النفس ، ليصبح هذا المجال اسم جديد هو الانثروبولويجا النفسية Psychological Anthropology.

ويهتم علماء الانثروبولوجيا الثقافية بدراسة أساليب معيشة الناس في المناطق المختلفة من العالم ، بينما يهتم علماء سيكلوجية الشخصية والأطباء والمحللون النفسيون بتحليل الشخصية الإنسانية لفهمها إلى جانب التعرف على أسباب اختلاف سلوك الناس بعضهم بعضا .

وقد ظهر أخيرا اهتمام متبادل بين علماء الانثروبولوجيا الثقافية وعلماء نفس الشخصية كل بمجال الأخر ن فاهتم علماء الانثروبولوجيا الثقافية بدراسة الشخصية ، لمعرفة تأثير الثقافة على شخصيات حامليها ، كما اهتم علماء نفس الشخصية بالثقافة كعامل

محدد للشخصية لا يمكن إهماله حين تدرس الشخصية في حالة السواء أو المرض.

وجدير بالذكر أن اصطلاح الثقافة والشخصية قد تعرض لبعض الانتقادات والمحولات لتعديله ، أو تغييره ، فنرى أن " كلاكهون ومري" Kluckhohn and Murray يفضلان استخدام اصطلاح الثقافة في الشخصية أو الشخصية في الثقافة Culture in Personality or Personality in Culture لأن اصطلاح الثقافة والشخصية في نظرهما يهمل محددات الشخصية الأخرى . كما أنه قد يعني نوعا من التناقض وعدم التناغم.

أما " هسو"(Hsu) فيقترح استعمال اصطلاح الانثروبولوجيا النفسية ، بدلا من الثقافة والشخصية مبررا ذلك بأسباب من أهمها أن الاصطلاح الأخير ينظر إلى الثقافة مستقلة عن الشخصية بينما لا تنمو الشخصية إلا من خلال تفاعليها مع الثقافة كما ظهر اصطلاح " سيكواثنوجرافي Psychoethnography أو الاثنولوجيا النفسية كبديل لاصطلاح الثقافة والشخصية، وعلى أية حال فإن اصطلاح " الثقافة والشخصية " ما زال هو الاصطلاح الأكثر رواجا والأكثر استخداما حتى الآن للدلالة على ذك المجال الذي يركز على دراسة العلاقة المتبادلة بين كل من الثقافة من ناحية والشخصية من ناحية أخرى.

أن اصطلاح الثقافة والشخصية إنما هو أنسب اصطلاح للدلالة على هذا الفرع من المعرفة الإنسانية وذلك لسببين أساسيين : [١٨]

أولا : اصطلاح " الثقافة والشخصية " يؤكد الوحدة المتكاملة والكلية ، ويوحي بتلك العلاقة الجدلية أو الحوار المستمر والتأثير بين الثقافة من ناحية والشخصية من ناحية أخرى وبينما نجد أن هناك

علوما مختلفة تدرس الثقافة وعلوما أخرى تركــز علـــى دراســـة الشخصية فإن الثقافة والشخصية هي المجال الوحيد لدراستهما فـــي كل متكامل متفاعل .

ثانيا : اصطلاح الانثروبولوجيا النفسية يضيق نطاق دراسة الثقافـــة والشخصية ويقصرها على تضافر جهود علماء علمين اثنين فقـــط من العلوم الاجتماعية هما علم الانثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس ، بينما نجد أن علم الاجتماع ،وعلم النفس الاجتماعي من العلوم التي يهتم المشغلون بهما بمسألة العلاقة بين الثقافة والشخصية حتى أنهم ليفردون لها بعض مؤلفاتهم ، لذلك فإن الثقافـــة والشخصـــية هـــي الاصطلاح الأنسب لأنها تدخل في الاعتبار تلك العلوم التي تهـــتم بدراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية من وجهة نظرها ، وبـــذلك تضاف أبعاد جديدة تثري مجال دراسة الثقافة والشخصية . وتظهر أهمية علم الاجتماع في دراســـة الثقافـــة والشخصـــية وتفاعلهمـــا ونموهما بحيث يمكن القول في النهاية أن هنـــاك حقيقـــة تكامليـــة للمحجتمع والثقافة والشخصية من حيث أنها ظاهرة إنسانية . وهذه الحقيقة هي التي تكون الموقف الإنساني في جملته ، أما أهمية علم النفس الاجتماعي في دراسة الثقافة والشخصية فتتبدي في أنه العلم الذي يمثل المعبر ما بين علم الـــنفس وعلـــم الاجتمـــاع ،ويهـــتم بالظواهر المشتركة بينهما ،ومن اهم الموضوعات التي يركز علـــم النفس الاجتماعي على دراستها ، عملية التنشئة الاجتماعية وهـــي عملية أساسية ورئيسية لفهم طبيعة الثقافة والشخصية .

فهذه العملية إذا نظرنا إليها نظرة سطحية نجد أنهـــا شـــرط ضروري لاستمرار البناء الاجتماعي ،واســـتمرار الثقافـــة ، لكـــن النظرة المتعمقة إليها تبين أن وراءها حقيقة أكبر .

فالمجتمع الإنساني إنما يتطلب السلوك الإنساني المدفوع دائما في بنية سلوكية مشكلة ثقافيا ، قائمة على الوعي بطبيعة العالم والنفس ، تلعب فيها المعاني والقيم التقليدية دورا حيويا في تنظيم الحاجات والأهداف وتوجد فيها إمكانية القدرة على إعادة التنظيم كما يتضح من الاختراع والتغير الثقافي. (١٩)

إن تداخل لفظي الثقافة والشخصية ليقدم لنا دليلا ضمنيا على أحد المميزات البارزة في الدراسات التي تمت تحت هذا العنوان .

وعندما نتفحص كتبات ستيوارد (١٩٥٠) وأرنسبرج(١٩٥٤) ذلك فيما يتعلق بنظرتهما لمنهج دراسة المجتمع ،وكلا العالمين مهتمين بالتطبيق العملي للأسلوب أكثر من اهتمامها بالعلاقة المحددة مع الثقافة الأمريكية .ولكن هذا التعميم يضيف مادة إلى أسئلة المقارنة العامة أي العالمين حيث أن ستيوارد قد تناول المنهج بلغة البحث المجالي في حين أن أرنسبرج قد حاول أن يعين حدود الهيكل التصوري العام الذي يجب إجراء دراسة المجتمع في نطاقه .

وقد استخدم ستيوارد (١٩٥٠) من خلال دراسة الثقافة في مجملها ومنظورها العام (الوقت والمساحة) كما تشتمل الدراسة على المقارنة بلغة المناهج والمشاكل . كما أنه يرى أن دراسات المجتمع في هذا السياق التعريفي لها خصائص متعددة .وهناك دراسات يضفها على أنها "دراسات علاقات اجتماعية " – وتطابقها دراسات اليانكي التي صدرت على شكل سلسلة دراسات – وستيوارد يصنف تلك الدراسات على أنها لا تكاد تكون دراسات تستحق أن يطلق عليها دراسات " انثروبولوجية" وهناك دراسات أخرى – مثل دراسة ويست " بلينفيل– الولايات المتحدة الأمريكية

وهي تقترب بشكل كبير من النمط المثالي لكنها تعكس الثقافة والاهتمام الشخصي .ووفقا لستيوارد فإن كل هذه الدراسات تظهر ضعفا ونقصا في أسلوب أخذ العينات ، فالنقيصة الأساسية في دراسة المجتمع هي الفشل في التعامل مع المجتمعات في سياقها الواسع وإعطاء اهتمام كافي لمجالات الثقافة والمجتمع التي لها أبعاد قومية " .

ومثل تلك الدراسات هي دراسات " غير تاريخية " كما إنها دراسات " غير مقارنة" . (٢٠)

إن تلك الانتقادات تريحنا من بعض المشكلات الموجودة في دراسة المجتمعات الأكثر تعقيدا لكنها بدورها تطرح بعض الأسئلة حول كفاءة فهم النموذج البدائي ، إن صعوبات التطبيق الحرفي للوصف " الكلي" للثقافة هو أمر يمكن رؤيته كأحد الأمثلة على ذلك ، ودعنا نفترض أنه قد تمت محاولة تقديم وصف تفصيلي لثقافة مادية بما في ذلك تكنيكات الصناعة والاستخدام في مجتمع تعداد سكانه ١٠ آلاف نسمة ، فلن تكون تلك المهمة مهمة مستحيلة ولكنه ستتطلب إصدارات ومجلدات عديدة ليتم تقديمها كما ستكون قيمتها محل تساؤل كبير ، إذن كيف يتعامل المرء مع المشكلات التي تنتمي لذلك النوع أو المشكلات المشابهة التي تظهر بالترابط مع الكم الضخم من المتغيرات في السلوك والاعتقاد الذي يجده الفرد ؟ إن هذه المشكلة كما هو واضح هي مشكلة ميثودولوجية ومفاهيمية بشكل جزئي ،وللوصول الي نتائج مضادة فسوف نتحول إلى الحديث عن تحليل أرنسبرج.

- إن فرضية أرنسبرج (١٩٥٤) هي أن دراسة المجتمع يجب فهمها على أساس انها " اسلوب للملاحظة والاكتشاف

وأسلوب للمقارنة والتأكيد من صحة الشيء " وأنها ليست لدراسة لمجتمع ما أو لمجتمع محدد ، فإن غرضها لا يتمثل في وصف المجتمع ولكن يتمثل في استخدامه " كساحة للاكتشاف والتأكد من صحة الترابطات الداخلية بين الحقائق والعمليات الاجتماعية والسيكولويجة ،وتحقق الدراسة ذلك الهدف من خلال فحص الظروف موضع البحث في سياق طبيعتهم الكاملة والإعدادات الحية والعلاقات ، وفي ظل ذلك التصور لا تعد دراسة المجتمع موضوعا في حد ذاته ولكن ، تعتبر أداة في يد العلم الاجتماعي ،ولكونها كذلك فهناك قرارات معينة مفروضة على من يستخدمونها ،وعلى سبيل المثال نجد أنه من الضروري بالنسبة لعالم الاجتماع الإعدادات التي – كما وصفها أرنسبرج تقدم " دورة كاملة من الحياة المحلية .وفي ظل هذا الكل المتكامل لابد له إذن أن يفحص " عينة كاملة الي حد كبير من الحياة الكاملة للناس الذين تتعلق بهم الدراسة ولكي يحقق ذلك فلابد أن يستخدم أكبر تنوع ممكن من التكنيكات كما يجب عليه أيضا أن يكون حذر فيما يتعلق بمدى البيانات التي يقبلها على أساس أنها بيانات وافية نظرا لأن تلك البيانات كثيرا مما تكون مجمعة لأجل أغراض أو أهداف أخرى كما من المحتمل أن تحمل تلك البيانات مجمعة في طياتها افتراضات لا علاقة لها بالموضوع ،وأخيرا فلابد أن تكون نظرة الباحث بنيوية وتمييزية وطبوغرافية ".(٢١)

وسوف يتفق الآخزون مع ارنسبرج في أن أسلوب دراسة المجتمع هو أسلوب طبيعي ومقارن ،ولكن حين يقول أرنسبرج أن الأسلوب الأساسي هو " مقارنة الأشكال التنظيمية للحياة الحيوانية والثقافة الإنسانية " فإن هؤلاء الملتزمين بالمنهج " الثقافي " البحث

لا يقبلون ما يقوله . على أن هؤلاء الذين يقبلون ما تتضمنه مناقشته يرون أن ما يقوله أرنسبرج أو ما يصرح به عن أن " أشكال ثقافية وسلوكية معينة تستجيب بأساليب لم نتمكن من تحديدها بعد إلى أشكال اجتماعية " يقدم فرضية حينما يتم فحصها بشكل كامل من جهة " الترابطات الداخلية بين الحقائق الاجتماعية والثقافية وكذلك العمليات الثقافية والاجتماعية " في داخل المجتمعات فإنها – أي تلك الفرضية – تفتح مجالا تخرج منه دراسة المجتمع عن نطاق الأصول الإنسانية والمعيارية لتأخذ مكانها بين العلوم .

– إن فحص " الظروف محل الدراسة " هو أسلوب يصر عليه أرنسبرج وقد حقق هذا الأسلوب بالفعل مكانة ثابتة داخل علم الانثروبولوجيا الاجتماعية وقد أدخل بعض علماء الانثروبولوجيا تقارير دقيقة عن سلوك محدد يرتبط بأحداث مثل التجارة ن ويهدف التسلق الاجتماعي ،وإنتاج الطعام وتأدية الشعائر الدينية ،وقد كان تطبيق ذلك الأسلوب على المجتمعات المعقدة أمر استخدم على نطاق كبير في دراسة الجماعات الصغيرة وتتبع هاردينج(١٩٥٣) الصلة بين العمل الميداني الانثروبولوجي الأول والدراسات الحديثة لجماعات في مجال الصناعة وفي المجتمع وقد قام بتلك الدراسات علماء مثل " وارنر " و" تشابل " و" أرنسبرج" و" وايت" و" ريتشاردسون" . إن كتاب هومان "الجماعة الإنسانية " يستمد وحيه من نفس هذه التقاليد ،ويعطي كل هؤلاء الباحثين تركيزا كبيرا على فحص كل وجه لحادثة معينة ،والعلاقات الوظيفية بين المكونات المنفصلة في داخل الحادثة تعطي أساس القابلية للمقارنة في

الجماعات البيئية والثقافات البينية ،ولا يوجد سبب – يجعل هذا الأسلوب غير قابل للتطبيق على أبنية أوسع.

وهناك انتقادات حديثة متعددة متاحة لنا ، ويمكن استخدام ما قاله هالويل (١٩٥٣) وميد(١٩٥٣) وجرور(١٩٥٣) وماندلبوام(١٩٥٣) وهونجمان(١٩٥٤) كأمثلة توضيحية ، على أنه لابد من الإشارة إلى المنهج القائم على الشخصية القومية وهو منهج حديث نوعا ما ويعد هذا المنهج نموا كبيرا لدراسات الشخصية والثقافة ،وكما هو صحيح بالنسبة للتطورات المثيودولوجية المتنوعة فهناك حماس كبير في المناقشات المتعلقة بهذا الموضوع.

إذا قبلنا نقد ماندلبوام (١٩٥٣) لما قالته ميد (١٩٥٣) حول دراسة الشخصية القومية فلابد أن نعترف بوجود مشكلات النظرية وأخذوا جمع العينات كما أن العلاقة بعلم الانثروبولوجيا الذي تم تطبيقه يوجد فيها هي الأخرى مشكلات لم تحل بعد . ويعتقد ماندلبوام أن تلك الأمور تمثل عوائق خطيرة لدرجة أن أي تطبيق مثمر لهذا الأسلوب لا بمكن التوصل إليه [٢٢].

الثقافة والشخصية: تعريف بالعلم ومجاله وطبيعته

تأسيسا على ما تقدم يمكننا القول بأن الثقافة والشخصية مجال جديد من مجالات العلوم الاجتماعية نشأ كنتاج للتخصيب المتبادل بين عدة فروع للعلوم الاجتماعية والنفسية ،وهو تخصيب ضروري ومثمر إلى أبعد الحدود لأنه يجيب على أسئلة مشتركة بينِ هذه العلوم حول طبيعة الإنسان وسلوكه.

ويمكننا تعريف علم الثقافة والشخصية بأنه " ذلك العلم الذي يدرس تلك العلاقة الجدلية والتأثير المتبادلين بين كل من الثقافة والشخصية في كل متكامل . بعبارة أخرى أنه ذلك العلم الذي

يدرس تأثير الثقافة على الشخصية ،وتأثير الشخصية على الثقافة " وهذا التعريف يعني أن الأفراد في المجتمع ، ليسوا مجرد مخلوقات ثقافية أو حاملين سلبيين للثقافة على حـد تعبيـر دولارد Dollard لكنه يدخل في الاعتبار أنهم خالقين لها ، ومبتكرين أياها ومجددين فيها .

– إن العلاقة بين الثقافة والشخصية علاقة شـديدة التعقيـد فالأفراد يختلفون من حيث قدراتهم العقلية وخصائصهم المزاجيـة والجسمية زيادة على ذلك فإن لكـل جماعـة إنسـانية تفسـيراتها الخاصة للثقافة ، كما أن لها مجموعة من النماذج الثقافية كمـا أن النماذج الثقافية ، تختلف بـدورها بـاختلاف الثقافـات الفرعيـة والطبقات الاجتماعية .

لذلك فإن لكل فرد تكوينه البيولـوجي الفريـد ، وتاريخـه الاجتماعي الخاص به . وعلى الرغم من حقيقة وجـود اختلافـات بين الأفراد فإنه تبقى هناك صفات متماثلة ومشتركة بين الأشخاص الذين ينتمون إلى ثقافة واحـدة .وتعـد هـذه الصـفات المتماثلـة والمشتركة أساس الدراسة العلمية لعلم الثقافة والشخصية .

– إن الثقافة والشخصية ليستا موضوعين منفصلين ، بل هما في الواقع وجهان لشيء واحد ، إنهما جزء من عملية التفاعل التي يتكيف بها الناس لبيئـتهم الجغرافيـة ولمجمـوعتهم الاجتماعيـة ولأنفسهم أيضا . أن كلا من الثقافة والشخصية يعيش في الفـرد أو أنهما الفرد كما يعدل بالتعلم.

وحينما ننظر إلى عملية التعلم في علاقتها بالثقافة نجد أنهـا قد صورت بطريقة غاية في البساطة ،وقد كان ذلك لأنها لم تقـدر في محيط علاقتها ببناء الشخصية وبالتـالي بإمكانيـات التوافـق

والخلق التي يسمح بها ، هذا المستوى من التنظيم النفسي في الإنسان .

إن عملية التنشئة الاجتماعية منذ بدايتها إنما تتم بواسطة علاقات شخصية حميمة بين الطفل والبالغين ، وهي تتضمن مكونات عاطفية وتلعب فيها وسائل الاتصال الرمزي دورا هاما .والفرد الذي يبدأ في المستوى من الاعتماد يجب أن يحصل على قدرة الحركة المستقلة الإرادية ،وأن يحقق بعض الأنماط المتكاملة التي نطلق عليها " بناء الشخصية" ونحن نعلم أنه بينما يتخذ هذا البناء أشكالا مختلفة ، فإن هناك بالتالي عناصر دائمة مميزة لبناء الشخصية الإنسانية في معناها الشامل . لذلك لو نظرنا للأمر نظرة محسوسة فإن الثقافة تصبح جزءا من الفرد ، ولو أن الأمر لم يكن كذلك لما استطاع أن يعيشها ولا أن ينقلها على غيره. فالعقائد التي ننظر إليها نظرة مجردة كجزء من الثقافة الموصوفة وصفا موضوعيا هي معتقداته ، كذلك تتوحد القيم بنظام الدوافع الخاصة به حتى حاجاته وأهدافه رغم أنها ذات تكوين ثقافي إلا أنها تقوم بوظيفة حاجاته وأهدافه الشخصية. (٢٣)

فالثقافة كما يعيشها الأفراد ليست بالشيء المنفصل عنهم ولا عن التنظيم الاجتماعي الذي يؤدي لحياة الجماعة وظيفتها تماما كما لا نستطيع أن نفرق بين شكل الحيوان وتركيبه الجسمي ونظام المورثات الذي هو قوامه .

ولا تعتمد الثقافة التي تحيا وتؤدي وظيفتها في وجودها على مجموعة الكائنات الإنسانية المجردة وإنما على الطريقة التي يتشكل بها هؤلاء الأفراد نفسيا. ويمكن أن نقول أن الثقافة تصبح " تعبيرا"

عن طريقة توافقهم السيكوديناميي بقدر ما هـــي " شــرط " لتنشــئة أجيال متعاقبة من الأفراد على نفس الشاكلة .

ويرى " فروم" Fromm (١٩٤٩) أن المجتمــع الصـــناعي الحديث على سبيل المثال ، لم يكن ليصل الي أهدافه لو لم يحفــز طاقة الرجال الأحرار بدرجة غير مألوفة.

وكان على الشخص ان يشكل بحيث يصــبح شــغوفا فـــي صرف معظم الثقافات الأخرى ،ولم يكن يكفي لو قرر كــل فــرد يوميا بطريقة شعورية أنه يريد أن يعمل ويحافظ علـــى مواعيــده ...الخ حيث أن مثل هذا القصد الشعوري قد يؤدي إلي اســتثناءات أكبر من أن يتحملها الأداء الوظيفي السهل للمجتمـــع ،ولــم يكــن التهديد والقوة ليكفيان كدافع للعمل حيث أن العمل المتخصص إلـــى أبعد الحدود في المجتمع الصناعي الحديث لا يمكـــن أن يكــون إلا لرجال أحرار لا عمال مجبرين . وأصبح لزاما أن تتحــول هــذه الصورة من العمل والترتيب والمواظبة إلى (دافع) لهذه الصـــفات وهذا يعني أن على المجتمع أن ينتج مثل هذه الشخصية الاجتماعية التي توجد فيها هذه الدوافع .

بعبارة أخرى يمكن القول بأن " فروم" يرى أنه يجب علـــى الكائنات الإنسانية أن تتشكل إرضاء حتى أنهم (يريدون أن يعملـــوا كما يجب أن يعملوا ، ويجدون في نفس الوقـــت إرضـــاء فـــي أن يعملوا طبقا لمقتضيات الثقافة) .وتبعا لفروم يجب أن يكون هنـــاك بناء شخصية مركزي يشارك فيه معظم أعضاء الثقافة أي ما يطلق عليه الشخصية الاجتماعية أو الجماعة أو المنوالية والتي يـــرى أن أداءها الوظيفي جوهري لأداء الثقافة لوظيفتها بصفة مستمرة ولـــو نظرنا إلى تنشئة الأطفال في محيط الثقافة لوجدنا أنها تصبح " أحد

الآليات الدالة على تحويل الضروريات الاجتماعية إلى سمات في الشخصية .

وتتميز مشكلات التنشئة الاجتماعية بأنها تختلف من مجتمع إلى أخر . فبعض المجتمعات أسهل من غيرها من زاوية توافق الشخص معها ،ومرد ذلك يرجع إلى متطلبات ثقافة كل مجتمع من أفراده . فكل مجتمع له مساره وتطوره التاريخي ،والاقتصادي والاجتماعي الذي ينفرد به كما أن له نظمه الخاصة ونموذجه الفريد من الأدوار الثقافية وليس من شك أن المشكلات الانفعالية المرتبطة بإشباع المتطلبات الثقافية للمجتمع تزداد في المجتمع الدينامي المعقد عنها في المجتمع الثابت البسيط نسبيا.

– وبينما يستطيع الإنسان بناء على إمكاناته العضوية الكامنة ، أن يتوافق مع الحياة تحت ظروف مختلفة فإن أي ثقافة معينة تعتمد على تنظيم نفسي مميز لمجموعة من الأفراد ولا تستطيع أن تبقى على وجودها إلا إذا تحقق هذا الشرط .وفي حدود هذا الشرط تنطلق بحرية إمكانات الإنسان لإعادة التوافق والابتكار كظاهرة إنسانية دائمة .وقد تنشأ ثقافات معينة وتزدهر ثم تختفي ، ولكن لكي تحل محلها طرق أخرى للمعيشة لذلك فإن الحديث عن الأفراد على أنهم " حملة الثقافة" أو مخلوقات ثقافية لا يقيم وزنا لكل ما نعرفه عن طبيعة الإنسان حقها من حيث هو خالق وسيلة المعيشة التي هي أكثر صفاته تميزا . وإلا فكيف يمكننا أن نفسر نشأة عنصر ثقافي جديد ؟ أو أن نعلل لعملية التغيير الثقافي ؟ والتوافق الشخصي؟[٢٤]

– وفي حديثنا عن طبيعة العلاقة بين الثقافة والشخصية نود أن نحذر من الوقوع في خطأ تغلب أي منهما على الآخر ، أو النظر إلى العلاقة بينهما من اتجاه واحد.

وعلم الثقافة والشخصية كأي علم ، يتميز بوجود موضوع ينفرد به ،وهو العلاقة الجدلية المتبادلة بين الثقافة والشخصية كما يتميز بمنهج يستخدمه في الدراسة والبحث . أما من حيث الموضوع فقد أفضنا في الحديث عنه ،وأما من حيث المنهج فيعتمد هذا العلم أساسا على المنهج الوصفى التحليلي والمقارن ويستعين هذا المنهج بطرق وسائل وأدوات للبحث فأما طرق البحث في علم الثقافة والشخصية فتتبلور في طريقة الملاحظة بالمشاركة وطريقة المقارنة ،وطريقة دراسة سير الحياة وطريقة تحليل المضمون سواء بالنسبة لمضمونات الأدب الشعبي أو الأدب المسرحي أو الفن أو الأحلام والرؤى وأخيرا طريقة المسح الثقافي.

ومن أهم الوسائل التي يستخدمها علم الثقافة والشخصية الاختبارات النفسية المختلفة والإسقاطية منها بوجه خاص والخرائط وتسجيل الأحلام ،وتسجيل تواريخ الحياة والاستبار Interviewing ومن بين الأدوات التي يستخدمها هذا العلم أجهزة التسجيل والدمي واللعب ، هذا إلى جانب الحواس الإنسانية كالبصر والسمع وهي أدوات أساسية للملاحظة .

وجدير بالذكر أن الأبحاث في علم الثقافة والشخصية تتميز بأنها أبحاث كيفية تعتمد على الوصف والملاحظة لا على الكم والإحصاء . (٢٥)

الفصل الثاني

الثقافة : خصائصها وعناصرها ومميزاتها

١- الثقافة نتاج للاجتماع الإنساني

٢- الثقافة مكتسبة – ليست غريزية أو متوارثة

- الثقافة مستمرة
- الثقافة انتقالية
- الثقافة اشباعية
- الثقافة تكييفية
- الثقافة متغيرة
- الثقافة كل معقد
- الثقافة مثالية
- الثقافة تراكمية
- الثقافة انتقائية

الخصائص المميزة للثقافة والحضارة:

أ- الجانب المادي

ب- التقدم والارتقاء

ج- الجزء والكل

عناصر الثقافة ومكوناتها :

* العناصر المعرفية
* المعتقدات
* القيم والمعايير

عناصر الثقافة :

- الثقافة المادية
- الثقافة اللامادية
- الثقافة الظاهرة والثقافة الضمنية
- النموذج الثقافي العالمي
- تداخل العناصر المختلفة للثقافة
- السمة الثقافية
- المركب الثقافي
- الثقافات الجامدة
- الثقافات المتغيرة

***خصائص الثقافة ومميزاتها وعناصرها:**

هناك صفات أساسية هامة تتصف بها الثقافات علي اختلاف أنواعها ، وسنحاول قدر الإمكان أن نوضح أبرز هذه الصفات علي الصفحات التالية :

***الثقافة نتاج للاجتماع الإنساني :**

لا وجود للثقافة دون مجتمع إنساني ولا وجود للمجتمع الإنساني دون ثقافة ما ، فهما ظاهرتان متماسكتان أشد التماسك ويشبههما كربير (Kroeber) بأنهما كسطحي الورقة في تلاصقهما – فإذا محونا من أي مجتمع إنساني ثقافته فإننا بذلك نكون قد سلخنا عنه بشريته.

والثقافة تنشأ عن الحياة الاجتماعية البشرية وهي من اختراع واكتشاف الإنسان والثقافة تشمل جميع نواحي التراث الاجتماعي البشري أو كل ما يميز الحياة الاجتماعية عند الإنسان ، عن الحياة الاجتماعية عند باقي الحيوانات .

أن الثقافة بدأت من الفترة التي بدأ فيها الإنسان يستخدم عقله في سبيل الوصول إلي حياة أفضل أي أنها نشأت كنتيجة مباشرة لصراع العقل الإنساني مع الطبيعة ومحاولة التحكم في الظروف المحيطة به . وكثيراً ما تكون عملية خلق الثقافة بطيئة وتدريجية وغير ملحوظة ، لذلك فنحن لا نستطيع أن نحدد تماماً متي بدأت عادات معينة مثل عادات التحية ، أو عادة السير علي الجانب الأيمن من الطريق بالسيارة ... إلخ . أي أن هناك العديد من العادات التي نشأت من خلال الاجتماع الانساني .

من ذلك نري أن الثقافة من خلق الإنسان وأنهـا لا تـورث بيولوجياً . حقيقي أن الأفراد يتوارثون بعض نماذج مبسـطة مـن السلوك مثل التنفس وتناول الطعام والبكـاء وطرفـة العـين eye blinking والتي نشاهد مظاهرها عند صغار الأطفال لأن أساسها الحاجات البيولوجية الموروثة لكن حتى هذه النماذج المبسطة مـن السلوك نجد أنها تحدد بالثقافة لأن الثقافة هي التي تعطيها المعنـي كما أنها تحدد متي وأين وكيف يمكن أن تحدث .

والثقافة اجتماعية بمعني أن الأفراد الـذين يعيشـون فـي جماعات أو مجتمعات منظمة يشتركون في ثقافة معينة وهي التـي تجعلهم يميلون إلي أداء الأفعال بالطريقة نفسها تقريباً . وهذا هـو السبب الذي يجعل الناس في جماعة معينة أو مجتمع معين يبـدون متشابهين بالنسبة للغرباء عن جماعتهم أو مجتمعهم فالعادات التـي يشترك فيها أعضاء الجماعة بعضهم مع بعض هي التـي تكـون ثقافة تلك الجماعة " فالعادات الجمعية أو العادات المشـتركة فـي جماعة اجتماعية بغض النظر عن نوعية تلك الجماعـة التـي قـد تكون الأسرة أو القرية أو الطبقة أو القبيلة هي التي تكون الثقافة أو الثقافة الفرعية " (١) .

الثقافة مكتسبة ليست غريزية :

إن الثقافة ليست غريزية ولا فطريـة كمـا أنهـا لا تنتقـل بيولوجياً ، ولكنها تتكون من العادات التي يكتسبها كلا فرد خـلال خبرة حياته بعد الميلاد . وتتضمن الثقافة توقعات الجماعة group expectations التي يتعلمها الفرد خلال عملية التنشئة الاجتماعية، كما أنه عن طريق هذه العملية أيضاً ، يكتسب عموميات السـلوك التي تشكل الثقافة[٢] .

ويكتسب الأفراد الثقافة من خلال صلاتهم وعلاقاتهم بالآخرين . وتشير عملية التعلم أو الاكتساب إلي تكرار أساليب السلوك الاجتماعي المشتركة بين أعضاء جماعة اجتماعية معينة . ويمكن أن ننظر إلي عملية اكتساب الثقافة من أبعاد وزوايا متعددة وهي التي تعبر عنها مصطلحات متنوعة ، كالوراثة الاجتماعية social inheritance والتمثيل assimilation والتثقيف acculturation والاستعارة borrowing والانتشار diffusinn والتنشئة الاجتماعية socialization وغيرها من المصطلحات هو تأكيد أهمية عملية التعلم والاكتساب التي تحدث في موقف جماعي

فالأطفال علي سبيل المثال حين يشبون في أسرهم وجماعاتهم فإنهم يكتسبون عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية طرق السلوك والتفكير والاعتقاد والشعور التي يفصح عنها آباؤهم وأقربائهم وجيرانهم .

أما المهاجرون إلي مجتمع جديد فإنهم يكتسبون الثقافة الجديدة والأساليب الجديدة في الحياة عن طريق عمليتي التمثيل والتثقيف كي يستطيعون التواصل والتعامل مع أفراد ذلك المجتمع ، الذين هاجروا اليه.

وإذا كانت الثقافة تكتسب عن طريق التعلم فهي لابد وأن تخضع لقوانين التعلم التي قطع السيكولوجيون في سبيلها شوطاً كبيراً من الدراسة والبحث . وبينما نجد أن لكل الحيوانات القدرة علي التعلم ، فإن الإنسان وحده يستطيع أن ينقل عاداته التي اكتسبها إلي أبنائه ، وتعد اللغة عاملاً هاماً في هذا الصدد فهي الأداة الأساسية التي ينقل بها الناس معارفهم ومعتقداتهم ، وعادتهم من جيل إلي أخر . وبفضل اللغة يستطيع كل جيل أن ينقل خبراته

بطريقة رمزية إلي الجيل الناشئ وهكذا يستطيع جيل الأبناء أن يتعرف في ساعات قلائل علي ما قد يكون قد استغرق من الآباء سنيناً في تعلمه .

ومن خلال استخدام اللغة استطاع الإنسان أن يجعل من نفسه سيداً علي الحيوانات الاخري وأن يطور ذلك الكل المركب من المعارف والسلوك الماهر الذي نطلق عليه الحضارة أما تلك الحيوانات التي فشلت في إتحاذ لغة فإن ثقافتها توقفت عند أدني حدود البدائية والتي تتكون فقط من أنساق السلوك المكتسب والتنقل من جيل إلي آخر بلا أدني إضافة أو تعديل ذلك لأنه سلوك غريزي وبيولوجي في المحل الأول . نتيجة ذلك أن (ثقافة الكلاب) إن صح هذا التعبير أن سلوكهم المكتسب إنما هو سلوكهم ذاته منذ خمسة ألاف سنة مضت بينما نجد أنه في هذه الفترة الزمنية نفسها انتقلت ثقافة الإنسان من مرحلة البربرية barbarianism إلي مرحلة التصنيع [٣] .

*** الثقافة مستقلة ومستمرة :**

ومن خصائص الثقافة هي تمايزها واستقلالها عن الأفراد الذين يحملونها ويمارسونها في حياتهم اليومية والمقصود بذلك أن عناصر الثقافة أمور يكتسبها الإنسان بالتعليم من المجتمع الذي يعيش فيه ، علي اعتبار أنها هي " التراث الاجتماعي " الذي يتراكم علي مر العصور ، بحيث يتمثل في أخر الأمر في شكل التقاليد الموروثة . والواقع أن كل العلماء الذين تعرضوا لمشكلة تعريف الثقافة يعطون أهمية كبري لعنصر "التعليم" أو " الاكتساب " ، ويبعدون عنها بالتالي كل ما هو غريزي أو فطري أو موروث بيولوجياً . وعلي ذلك فإن معظم التعريفات تؤكد أن الثقافة هي

حصيلة العمل والاختراع والابتكار والابتكار الاجتماعي ، أو أنها حصيلة النشاط البشري ، وأن وجودها بذلك غير مرتبط بوجود الأفراد من حيث هم أفراد . وهذا هو ما جعل هربرت سبنسر ثم كروبر وغيره من بعده يستخدمون اصطلاح " ما فوق العضوي superorganic " في كلامهم عن الثقافة.

وعلي أية حال فحين يتكلم علماء الانثروبولوجيا والاجتماع عن ثقافة شعب من الشعوب فإنهم يقصدون علي العموم طرائق المعيشة وأنماط الحياة وقواعد العرف والتقاليد والفنون والتكنولوجيا السائدة في ذلك المجتمع والتي يكتسبها أعضاؤه ويلتزمون بها في سلوكهم وفي حياتهم وعلي ذلك نجد أن كل التعريفات التي بأيدينا تبتعد تماماً عن محاولة تقييم "الثقافة" ، ولذا فإنه يمكن الكلام عن ثقافة الزولو أو الهنود الحمر بالطريقة ذاتها التي تتكلم بها عن ثقافة الفرنسيين أو أهل الصين ، ما دامت الثقافة هي جماع وحصيلة النشاط الاجتماعي في ذلك المجتمع وأساليب الحياة وأنماط القيم وما يتخذه الإنسان من أدوات ومعدات تسهل له سبل المعيشة .

- وهذا لا يعني بالطبع أن أي ثقافة من الثقافات تخلو من وجود نسق للقيم خاص بها ، أو أن الذين يمارسون هذه الثقافة يعيشون فيها يقبلون كل سماتها دون أن يصدروا عليها أي أحكام تقييميه بل الواقع أن الناس أنفسهم يحكمون علي الظواهر الثقافية السائدة غي مجتمعهم بأنها طيبة أو سيئة . يضاف إلي ذلك أن ما يتقبله أحد الشعوب كعنصر في ثقافته قد يرفضه شعب أخر فالمسلمون يأكلون لحم البقر بينما يحرم الهندوس ذلك ، والصينيون يأكلون البيض الفاسد بشراهة ولكنهم ينفرون نفوراً شديداً من شرب اللبن وهكذا . وليس من شك في أن وجود نسق للقيم في كل ثقافة

من الثقافات هو الذي يعطي هـذه الثقافـة تماسـكها واسـتقرارها واستمرارها ، كما انه هو الذي يبرر سلوك الأفـراد وأفكـارهم . وليس من شك أيضاً في أن الخروج ع تلك القيم – كما تتمثل فـي التراث الاجتماعي المتـوارث – يسـتتبع توقيـع العقوبـة مـن المجتمع [٤] .

ومن خصائص الثقافة هي " الاستمرار " وهي خاصية تابعة بالضرورة من تصور الثقافة علي أنها " التراث الاجتماعي الـذي يرثه أعضاء المجتمع من الأجيال السابقة ، علي حد تعبير لينتـون Linton فللسمات الثقافية قدرة هالة علي الانتقال عبر الزمن . بل إن كثيراً من هذه الملامح والسمات التي تتمثل بوجه خـاص فـي العادات والتقاليد والعقائد والخرافات والأساطير تحتفظ بكيانها لعدة أجيال لا لشئ إلا أنها وجدت في وقت من الأوقات في المجتمـع ، فتظل موجودة حتى بعد أن يزول السبب الذي أدي إلي ظهورهـا في أول الأمر . وقد يتعرض المجتمع كله لبعض عوامـل التغيـر التي تبدل – بشكل مفاجئ أو بالتدريج – الظروف العامة التقليدية ، ومع ذلك يفلح بعض هذه السمات فـي البقَـاء والاسـتمرار مـع احتفاظها بصورتها الأصلية . بل الأكثر من ذلك أن ملامح الثقافـة وسماتها تنتقل بالفعل من مجتمع لأخر نتيجة للهجرة أو غيرها مـن وسائل الاتصال الثقافي كاللغة مثلاً .

– ولقد شغلت هذه الفكرة أذهان كثير جدا من العلماء الـذين اهتموا بتتبع تاريخ الثقافة وانتقالها عبر الزمن وفي العالم أجمـع ، واضطروا لان يفترضوا في سبيل ذلك افتراضات كثيرة لا تسـتند في بعض الأحيان الي الأدلة اليقينية . بل ولا يـزال كثيـراً مـن العلماء المحدثين الذين يهتمون في المحل الأول بدراسة الثقافة فـي

المجتمع المحلي يحاولون أن يعرفوا تاريخ تلك الثقافة ، علي أساس أنها عملية مستمرة متصلة و أن معرفة الماضي تساعد بذلك مساعدة فعالة علي فهم الحاضر .

الثقافة كل معقد :

*** ومن خصائص الثقافة أيضاً :**

أن الثقافة كل معقد إلي أبعد حدود التعقيد ، نظراً لاشتمالها علي عدد كبير جداً من السمات والملامح والعناصر التي حاولت بعض التعريفات أن تذكر جانبا منها كما هو الحال في تعريف تايلور مثلاً ، ويرجع ذلك التعقيد إلي حد كبير إلي تراكم التراث الاجتماعي خلال عصور طويلة من الزمن ، وكذلك إلي استعارة كثير من السمات الثقافية من خارج المجتمع نفسه . وهذا التعقيد معناه في الحقيقة أن الفرد لن يستطيع أن يكتسب كل عناصر الثقافة السائدة في المجتمع الذي ينتمي إليه ، كما يعني أيضاً أن عالم الانثروبولوجيا أو الاجتماع لن يستطيع مهما جاهد أن يسجل كل مظاهر وسمات أي ثقافة من الثقافات التي يدرسها مهما بلغت من البساطة . وهذه نقطة هامة يأخذها العلماء دائما في اعتبارهم وهم يقومون بدراساتهم الحقلية ، وكذلك أثناء تحليلهم للمعلومات الإنثوجرافية التي جمعوها أثناء هذه الدراسات الحقلية . ولقد حاول بعض العلماء أن يردوا ذلك التعقيد إلي شئ من البساطة التي تساعد علي تحليل الثقافة فيميزوا بين نوعين من الثقافة هما: الثقافة المادية والثقافة اللامادية ، بحيث تشمل الثقافة المادية كل ما يصنعه الإنسان في حياته العامة وكل ما ينتجه العمل البشري من أشياء ملموسة وكذلك كل ما يحصل عليه الناس عن طريق استخدام فنونهم التكنولوجية ، بينما تشمل الثقافة اللامادية مظاهر السلوك

التي تتمثل في العادات والتقاليد والتي تعبـر عـن المثـل والقـيم والأفكار والمعتقدات .

ولكن بعض العلماء يميلون إلي إخراج "الثقافة المادية" مـن الميدان علي أساس أنها مجرد حصيلة للنشاط المقرر ثقافياً ، وأنها قد تساعد فقط علي فهم ومعرفة الثقافة " الحقيقية " ولكنها لا تكفـي وحدها لان تعرفنا بحياة الناس وعوائدهم وتقاليدهم (٥).

الثقافة تراكمية :

تنتقل الثقافة من جيل إلي جيل علي شكل عـادات وتقاليـد ونظم ، وأفكار ومعارف يتوارثها الخلف عن السلف عـن طريـق المخلفات المادية والرموز اللغوية كما أنها تنتقل من وسط اجتماعي إلي وسط اجتماعي أخر وبهذا المعني فإنها تراكمية Cumulative فالإنسان يستطيع أن يبني علي أساس منجزات الجيـل السـابق أو الأجيال السابقة فهو ليس بحاجة إلي أن يبدأ دائما من جديد في كل جيل. وتختلف الطريقة التي تتراكم بها خاصة ثقافية معينة كاللغـة مثلاً ، عن الطريقة التي تتراكم بها خاصة أو سمة ثقافيـة أخـري كالتكنولوجيا علي سبيل المثال

وفي عملية الانتقال الثقـافي نجـد أن انتظامـات السـلوك Regularities of behavior تشمل وجوداً مستقلاً عن شـخص بذاته أو جماعة بعينها .

الثقافة مثالية :

ينظر إلي العادات الاجتماعية التي تكون الثقافة علـي أنهـا تمثل نماذج مثالية ينبغي علي أعضـاء الجماعـة أو المجتمـع أن يحتذوها ، أو يمتثلوا لها ، ويتكيفوا معها . وقد يكون هناك تفاوتـا

ملحوظاً بين النموذج والواقع ، ولكن أهمية وجود النماذج أو المثال تبقي موجودة ومعروفة . فمعظم الناس يظهرون – وبدرجة ملحوظة – وعيا بمعاييرهم الثقافية الخاصة بهم ، وقدرة علي التمييز بينها وبين العادات الفردية الخالصة وبسهولة في إدراكها وتفهمها والحديث عنها بالتفصيل ويتضمن ذلك معرفة بالمواقف التي يعد فيها النموذج أو المعيار الثقافي ملائماً ، والجزاءات المتوقعة إذا لم يكن يتوافق مع هذه النماذج والمعايير . وهذه الخاصية من خصائص الثقافة تميزها عن العادات الفردية التي لا تحمل أية مضمونات مثالية أو نموذجية .

الثقافة إشباعية :

تشبع الثقافة دائما ، وبالضرورة ، الحاجات البيولوجية الأولية وكذلك الحاجات الثانوية المشتقة منها أيضا ولذلك يقال أن للثقافة خاصية إشباعية . والجوع والعطش مثالان علي الحاجات البيولوجية ، أما الحاجات الثانوية المشتقة فيمكن أن نطلق عليها الحاجات الاجتماعية الثقافية Socio-cultural لأنها تظهر وتنشأ من خلال التفاعل الجمعي وتنتقل بالطريقة نفسها مثل الحاجة إلي الزواج علي سبيل المثال .

وحيث أن الثقافة تتكون من العادات وبما أن علم النفس قد أكدت حقائقه أن العادات تثبت وتستمر طالما تحقق الإشباع . لذلك فإن الإشباع يدعم العادات ويقويها بينما ينجم عن قلة الإشباع أن تنطفئ العادات ويخبو نورها أو نختفي تماما.

وتأسيسا علي ما تقدم فإن مكونات الثقافة تبقي فقط إذا ما كانت تمد أفراد المجتمع بحد أدني من الإشباع أو بتوازن مناسب تتفوق فيه اللذة علي الألم . وقد اهتم " مالينفسكي " بهذه النقطة

اهتماما خاصا ، استغرق منه سنوات لتأكيده وشـرحه وحيـث أن معظم الانثروبولوجيون يرون أن استمرار الثقافة وبقائهـا مسـألة مفروغ منها ولا تقبل أي جدال أو مناقشة .

ويترتب علي كون الثقافة اشباعية ، مسلمة أخري ، وهـي وجود تشابهات ثقافية واسعة المدى بين الثقافـات ، ناتجـة عـن الحقيقة القائلة بأن الدوافع الإنسانية الأساسية ، المتماثلة عالميـا ، تتطلب أشكالا متماثلة من الإشباع ، ويبدو أن اقتـراح " ويسـلر " Wissler بوجود ما يطلق عليه " النموذج الثقافي العـالمي " قـد انبني علي هذه المسلمة (٦) .

الثقافة تكيفية :

إن الثقافة تتغير . وتتميز عملية التغير الثقافي بأنها عمليـة تكيفية ، يمكن مقارنتها علي وجه ما ، بالتطور في عالم الكائنـات الحية ، ولكنها تأخذ مجري أخر .

وتميل الثقافات – خلال فترات زمنية – معينة إلي التكيـف مع البيئة الجغرافية فالناس ينبغي أن يكونوا قادرين علي أن يأكلوا ويلبسوا وذلك بالتكيف لما حولهم ، وهذا يعني أن البيئة تحدد اتجاه الثقافة وإنما يعني أن علي الثقافة أن تتكيف للضرورات الجغرافيـة إن كان لها أن تبقي وتستمر .

وتتكيف الثقافات أيضاً عن طريق الاستعارة والتنظيم وذلـك بالنسبة للبيئة الاجتماعية للشعوب المجـاورة . وتتكيـف الثقافـات لنفسها كذلك بمعني أن تتكيف للمتغيرات المختلفة التي تطرأ علـي مظاهرها بسرعات مختلفة ، فالأسرة ، علي سبيل المثال عليها أن تتكيف للسيارة ، والحكومات يجـب أن تتكيـف للقنبلـة الذريـة والهيدروجينية . وأخيرا فان الثقافات عليها أن تتكيـف للمتطلبـات

البيولوجية ، والسيكولوجية للكائن الإنساني وعندما تتغير ظـروف الحياة فإن الأشكال التقليدية تتوقف عن مد الإنسان بحد أدني مـن الإشباع . وعلي ذلك فإنها تستبعد ، وتظهر حاجات جديدة وتظهـر تكيفات ثقافية جديد لها .

ويعزي افتراض كون الثقافة تكيفية الكثيرين إلـي فكـرة لا مفر من أن ترد علي الخاطر وهي فكرة التقـدم أو بنظريـة عـن مراحل التطور ، أو فكرة وجود حتمية من أي نوع .

ورغم ذلك فإننا نتفق مع أوبلر Opler الذي يري بناء علي دراسته للاباش (Apache)

أن الأشكال الثقافية المختلفة قد تمثـل تكيفـات لمشـكلات متشابهة كما أن العكس صحيح أيضا بمعني أن الأشـكال الثقافيـة المتشابهة قد تمثل تكيفات لمشكلات مختلفة .

وقد يبدو لبعض الانثروبولوجيين أن مفهوم التغيـر الثقـافي كعملية تكيفية لا يتسق مع مفهوم التغير الثقافي كعملية تاريخية وفي الحقيقية أن ليس ثمة خلاف بين ما هو وظيفي functional ومـا هو تاريخي historical كما يحلو للبعض أن يطلق عليهما . فكـلا الاتجاهين صحيح ، وكل منهما يكمل الأخر ، بل أن معظم الأعمال في الانثروبولوجيا لا يكتمل إلا إذا استخدم فيها كلا الاتجاهين فـي تكامل والتقاء . إن تاريخ الثقافة ما هو إلا سلسـلة متصـلة مـن الأحداث الفريدة التي فيها الأحداث اللاحقة بالأحداث السابقة عليها . ومن وجهة النظر الثقافية فإن الأحداث التي تؤثر فيها يلحقها من الأحداث في السياق التاريخي نفسه كثيراً ما تكون أحـداث غيـر ثقافية بمعني أن أصولها خارجية عن السياق الثقافي وهي تتضـمن أحداثاً طبيعية مثل الفيضانات وألوان القحـط المختلفـة وأحـداثاً

بيولوجية كالأوبئة وأحداثا سيكولوجية كالثورات الانفعالية والحدس الخلاق ، وهذه الأحداث تغير ظروف حياة للمجتمع .

فهي تخلق حاجات جديدة تتطلب الإشباع كما تجعل من الأشكال الثقافية القديمة أشكالا غير مناسبة وهي تستميل سلوك المحاولة والخطأ كما أنها تستثير الاختراعات والمستحدثات الثقافية ولكن الأحداث التي تؤثر فعلا في حياة المجتمع أكثر من غيرها هي الصلات التاريخية بشعوب من مختلف الثقافات لان الناس يميلون إلي أن يفتشوا في المنابع الثقافية لجيرانهم جريا وراء حلول لمشكلاتهم اليومية قبل أن يحاولوا ابتكارات حلول جديدة لها . ويعد فهم الطبيعة التاريخية للثقافة وبخاصة دور الانتشار مطلبا أساسيا قبل عقد " أية تعميمات " بين – ثقافية (Cross – cultural) وجدير بالذكر أن نؤكد أن الأحداث التاريخية يعد تأثيرها شرطيا ليس محدداً في مجري الثقافة .

والإنسان في النهاية إنما يعيش في الثقافة ومن خلالها ، وهو أكثر الحيوانات قدرة علي التكيف

الثقافة تكاملية :

يعد ميل المكونات الثقافية لثقافة بعينها إلي أن تلتحم وتتحد لتكون كلا متكاملا منسجما هو أحد نتائج عملية التكيف استخدامنا لكلمة " ميل " استخدام له مغزاه لأنه يرد علي مغالاة بعض الوظيفيين الذين يدعون أن الثقافات متكاملة بطبيعتها وإنها تشكل أنساقا تكاملية تعزف مكوناتها لحن التوازن الكامل . والحقيقة أننا نذهب مع ما يراه " سمنر " من أن العادات الاجتماعية أو الطرق الشعبية تتعرض لضغوط من أجل أن تتكامل وتتسق بعضها مع بعض Strain of consistency لكن التكامل الحقيقي لا يتحقق

بشكل تام ذلك لان الأحداث التاريخية دائما ما تفرض تأثيرا مزعجا ومعوقا للتكامل . والتكامل يستغرق وقتا . وهناك دائما ما يطلق عليه (أوجبرن) Ogburn التخلف الثقافي (٧) .

الثقافة انتقائية :

يتم توارث الثقافة من جيل إلي جيل علي نحو مختلف كل الاختلاف عن توارث الصفات الجسمية والحيوية في الكائنات الحية ، فقوانين الوراثة الحيوية ثابتة مطردة إلي حد بعيد ، وقد لا تكون كل هذه القوانين قد كشفت بعد ، ولكنها علي اية حال تتم تبعا لنظام ضروري دقيق. وإذا أمكن معرفة كل العوامل الموروثة ودراسة كل شئ عن الأجيال السابقة للكائن الحي أمكن تحديد العناصر الموروثة في ذلك الكائن بكثير من الدقة أما انتقال الثقافة فلا يتم بمثل هذه الآلية والحتمية بل هو يتم غالبا عن وعي وعن إدراك . ولا يمكن في أغلب الأحوال تحديد طريقة الانتقال هذه بدقة كاملة لان شروطا وعوامل لا حصر لها في هذا الانتقال .

والعناصر الموروثة – في حال وراثة الصفات الحيوية – تنتقل دون أن يحدث فيها تعديل أو تغيير بل دون أن يختارها من انتقلت اليه . أما انتقال عناصر الثقافة فهو انتقائي بمعني أن الجيل الذي يتلقي عناصر الثقافة ينتقي منها البعض ويستبعد البعض الأخر تبعا لظروفه وحياته . ولدينا مثل واضح لهذه الظاهرة في حالة انتقال العادات القديمة إلي الأجيال الجديدة . فالجيل الحالي في مصر مثلا لا يقبل كل العادات القديمة التي شاعت لدي الأجيال السابقة.

وكذلك في كثير من التقاليد الخاصـــة بالزيـــارات وتبـــادل الخدمات وتربية الأطفال ، فإن الجيل الحالي قد وقف منها موقفـــا انتقائيا ، أي غير فيها وانتقي منها ما يناسب ظروفه وأحواله .

ولكن يجب أن نبرز تلك الحقيقة الجوهرية وهي أنـــه لـــيس معني الانتقاء هنا أن لنا اختيارا تاما في قبول عناصـــر ثقافيـــة أو رفضها . فمما لا شك فيه أن هذه العناصر تعلو علي مشيئتها إلـــي حد ما . وغاية ما هنالك أن قبولنا الواعي لعناصر الثقافة يجعل لنا نوعا من القدرة علي تكيفها تبعا لظروفنا والوقوف منهـــا موقـــف الانتماء لا موقف التلقي السلبي ، وقد فطن ابن خلدون إلي " تبـــدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الإعصار ومرور الأيام ، فقـــال " وهو داء شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة فـــلا يكـــاد يتفطن له إلا الآحاد من أهله الخليقة . وبـــذلك أن أحـــوال العـــالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم علي وتيرة واحدة ومنهاج مستقر إنما هو اختلاف علي الأيام والأزمنة انتقال من حال إلـــي حـــال . وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار ، فكذلك يقـــع في الأفاق والأقطار والأزمنة والدول [٨] .

ويري ابن خلدون أن التغير الاجتماعي إنمـــا يـــتم بـــرفض عناصر ثقافة الأجيال السابقة والإبقاء علي البعض الأخر (ويظهر في ذلك معني الانتقاء الذي أشرنا إليه)وإضافة عناصر جديدة من واقع حياة الأجيال اللاحقة (الحالي منها والمستقبل) .

ويشرح ذلك شرحا يكاد يكون جـــدليا ، إذ يبـــين تضـــارب العادات وتفاوتها وتركيب المتضـــارب والمتفـــاوت إذ يقـــول : " والسبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعـــة

لعوائد سلطانه كما يقول في الأمثال الحكمية : النـــاس علـــي ديـــن الملك .

وأهل الملك والسلطان إذا استولوا علي الدولة والأمر ، فلابد من أن يفرغوا إلي عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلـــوا عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائـــد الجيل فإذا جاءت دولة أخري بعـــدهم ومزجـــت مـــن عوائـــدهم وعوائدها . خالفت أيضا بعض الشئ وكانت الأولي أشد مخالفـــة ، ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي إلي المباينة بالجملة فما دامت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسلطان لا تزال المخالفـــة في العوائد والأحوال واقعة والقياس والمحاكـــاة للإنســـان طبيعـــة معروفة .

الثقافة متغيرة :

والثقافة خاضعة لقانون التغير الذي تخضع له جميع مظاهر الكون . كما قال " هيرقليطس Heraclitus " إن التغير قانون الوجود ، وإن الاستقرار موت وعدم.

والتغير الثقافي هو كل تغير يحدث في العناصـــر الماديـــة وغير المادية للثقافة. ويقصد بالعناصر المادية المبـــاني والأثـــاث والأدوات والملابس والآلات ووسائل المواصلات ... الـــخ . أمـــا العناصر غير المادية أو المعنوية فيقصد بها ، العـــادات والعـــرف والتقاليد وأداب السلوك والفن واللغة والدين والأفكار والمعلومـــات. وتتغير الثقافة بما تضيفه إليها الأجيال الجديدة من خبـــرات وأدوات وقيم ، وأنماط سلوك ، أو بالعكس بما تستبعده وتحذفه من بعـــض الأساليب أو الأفكار أو الأدوات التي لم تعد تتفق مع ظروف حياتها الجديدة وتبدأ عملية التغير في العناصر الماديـــة للثقافـــة ، ويبـــدو

التغير فيها بسرعة بعكس العناصر المعنوية فإنها تتبع في تغيرهـا العناصر المادية ولذا يتم فيها التغير ببطء شديد . ومعني هـذا أن العناصر المعنوية تتخلف عن العناصر المادية في تغيرها وتعـرف هذه الظاهرة باسم " التخلف الثقافي " culturailag كما يشير اليها " أوجبرن " .

والناس عادة لا يقبلون التغير وترك القديم إلا إذا ظهرت لهم منافع ومحاسن الجديد وامتيازه وتفوقه علي القديم . وهـذا يبـدوا بوضوح في العناصر المادية في الثقافة أكثر بكثير منه في العناصر المعنوية . لأن العناصر المادية محسوسة وملموسة [٩] .

الخصائص المميزة للثقافة والحضارة :

يميل بعض العلماء في علم النفس إلي عدم التمييز بين الثقافة والحضارة بل أنه من خلال تعريف تايلور للثقافة لا نجـد تمييـزاً بينها وبين الحضارة . فالثقافة والحضارة تستخدمان بنفس المعني . لكن في نفس الوقت يميل العلماء إلي التمييز بينهما . ولن نعـرض هنا لأراء كل العلماء في موضوع التمييز هنا ذلك لأنـه لا يوجـد اتفاق كامل يجمع في إطار متسق الآراء المتضاربة لـديهم . لكـن لغرض التبسيط والتوضيح يمكن القول :إن هناك ثـلاث محكـات أساسية في عملية التمييز بين الثقافة والحضارة . لكـن يجـب أن نضع في الاعتبار أيضا أن هناك تداخلا وتفـاعلا مسـتمرا بـين التصورين إذ أنهما وجهان لعمله واحـدة وهـي المجتمـع وهـذه المحكات هي أولا . الجانب المادي . ثانيا . التقدم ، ثالثا . الجـزء والكل [١٠] .

أ – الجانـــب المـــادي :

يميل العلماء الذين يميزون بين الثقافة والحضارة إلي التركيز علي الجانب المادي علي أساس أنه يرتبط بالحضـــارة أكثـــر مـــن ارتباطه بالثقافة التي تعتمد أساسا علي الجوانب الروحية والمعنوية والسلوكية . ولا يعني ذلك أن مضمون الثقافة يفتقـــر كليـــة إلـــي الجانب المادي بل المقصود هو أن الثقافة علي عكس الحضـــارة لا يظهر فيها البعد المادي علي أنه العنصر المهـــيمن بـــالرغم مـــن وجوده وأهميته (keesing 1975:70) . ولعل أوضح دليل علي أهمية العنصر المادي في الحضارة هو ما اكتشفه علم الآثار مـــن الظواهر المادية للحضارات القديمة التي كانت سائدة فـــي فتـــرات موغلة في القدم بالرغم من اندثار المجتمعات المؤسسة لها . وتلـــك الآثار المادية تتمثل في المعابد والصروح المشيدة والأبنية الضخمة والتماثيل والعربات الحربية والمسلات ونحو ذلك من شواهد علـــي الجانب المادي لتلك الحضارات القديمة .

ونفس الشيء ينطبق علي الحضارة المعاصرة حيث توجـــد مظاهر مادية مثل ناطحـــات الســـحاب ، والطـــائرات العملاقـــة ، والصواريخ ، وسفن الفضاء ، وأجهزة الكمبيوتر المعقدة ووســـائل الاتصال السلكية واللاسلكية (البليب علي سبيل المثال) وغيرها .

ب- التقـــدم والارتقـــاء :

يرتبط مفهوم الحضارة بالتقدم والارتقاء إلي أعلي أو أفضل دائما بينما لا يشترط في مفهوم الثقافة ذلك العنصر علي الإطلاق . ويتضح ذلك من حقيقة أنه يمكن الإشارة إلي ثقافة مجتمـــع بســـيط صغير مثل المجتمع القروي أو المجتمع البدوي تماما مثلما نشـــير إلي ثقافة مجتمع له ثقافته المميزة له . ولكن الاختلاف يكمن في أن

المجتمع الصناعي أو الحضري هو أكثر تطوراً في الجوانب المادية وخاصة وسائل التقنية والعلم التي تتيح له فرصة أكبر للسيطرة علي الطبيعة وتسخيرها لصالحه . هذا علي عكس المجتمع القروي أو البدوي الذي لم يحقق قدراً كبيراً من الحضارة إذ لا يزال يستخدم وسائل التقنية القديمة والبسيطة . ولنا أن نأخذ مثالا وهو آلة الحصاد القديمة – المنجل أو الشرشرة – ذات التركيب البسيط والتي تعمل بطاقة الإنسان ومقارنتها بآلة الحصاد معقدة التركيب والتي تعمل بالطاقة الكهربائية والتي يمكن لها أن تحصد كميات تزيد آلاف المرات علي الكميات التي تنتجها تلك الآلة التقليدية . وهذا ما هو يقصد بالتقدم في التقنية وتطور العلم الذي يسمح بسيطرة أفضل علي البيئة والطبيعة لصالح الإنسان .

ج- الجزء والكل :

ترتبط الحضارة بمفهوم الجزء بينما ترتبط الثقافة بمفهوم الكل . ولقد تمت الإشارة إلي أن مفهوم الثقافة يعالج علي أساس أنها تؤلف كلاً مركبا وهذا ما قصده تايلور تماما . أي أن الثقافة تشتمل عناصر متعددة متداخلة فيما بينها بعضها مادي وبعضها غير مادي ، وهي من خلال هذا التفاعل تنتج كلا مركبا أو بناء متسقا لا تتضح فيه معالم الجزء وذلك لهيمنة " الكل " علي سائر الأجزاء . أما الحضارة فإنها ترتبط بعنصر واحد معين غالبا ما يكون العنصر المادي أو التقنية أو العلم . وهذا العنصر الذي يميز حضارة المجتمعات المركبة أو المتقدمة وثقافة المجتمعات التقليدية غير المتقدمة . وبالإضافة إلي ذلك فإن هذا الجزء أو الجانب التقني العلمي (المادي) هو الذي جعل علماء الاجتماع والانثروبولوجيا يتحدثون عن التخلف الثقافي في مقابل التقدم التكنولوجي أو التقني

والعلمي فهذا الجانب من الحضارة يميل إلـي أن يتطـور ويتقـدم ويتغير إلي الأفضل بينما الكل الثقافي يميل إلي الثبات وعدم التغير وإذا تغير فإنه يكون ببطء شديد لا يمكن ملاحظتة مثلما هو الحـال في ملاحظة التقدم في الجانب العلمي والتقنـي . فثقافـة المجتمـع القروي ما تزال توصف بأنها تقليدية ثابتة نسبيا بالرغم من مظاهر الحضارة المادية (السيارة ، التليفزيون ونحـو ذلـك) الموجـود والمستخدمة في ذلك المجتمع (١١) .

عناصر الثقافة ومكوناتها :

حدد هاري جونسون H. hohnson عناصر الثقافة الأساسية في ثلاثة عناصر رئيسية علي النحو التالي :

١) **العناصر المعرفية** Congnitive elements :

حيث تشتمل ثقافة شعب من الشعوب علي طائفة هائلة مـن المعارف التي تتصل بالعالم الطبيعي والاجتماعي ، وليسـت هـذه المعرفة غاية في ذاتها وإنما لها تطبيقات أو أهداف عملية ، فهـي تستهدف إحداث التوافق بينهم وبين البيئة ، وتدعيم الحياة الجماعية والمحافظة علي بقائهم واستمرارهم في الوجود ، مثل معرفة كيفية الحصول علي الطعام ، وبناء المساكن ، وطريقة السفر والترحال ، وحماية أنفسهم من قسوة المناخ ... الخ ، وهذه المعرفـة يكتسـبها بالطبع كل فرد في المجتمع عن طريق التعليم وتنتقل من جيل إلـي أخر ويوجد في المجتمعات المتقدمـة ، نظـام علمـي وتطبيقـات تكنولوجية علي درجة عالية من التنوع والتعقيد تجعل كل فرد قادراً علي السيطرة علي جانب معين من العالم المحيط بـه ، بالإضـافة إلي معرفة العالم الطبيعي ، وثقافة العلاقات السائدة بـين الأفـراد والجماعات (١٢) .

إلي معرفة العالم الطبيعي ، وثقافة العلاقات السائدة بـين الأفـراد والجماعات (١٢) .

٢) المعتقدات Beliefs :

لمعتقدات هي جوانب من المعرفة ، لا تخضع للإثبـات أو الرفض عن طريق البحث التجريبي ، فالإسكيمو – مثلا – لـديهم بعض المعتقدات التي تتم بمقتضاها ممارسة طقوس معينة بواسطة " العرافين " لإخراج الأرواح الشريرة عن أبدان المرضي حتى يتم شفاؤهم ، ويمكن تبرير سلوك العرافين هذا أيا كانت النتائج ، فحتى إذا مات المريض سوف يفسرون ذلك تفسيرا يجعل الاستمرار فـي الاعتقاد في وجود الأرواح الشريرة مكانه ، وللإنسـان المتحضـر أيضا معتقدات مماثلة تنتقل من جيل إلي جيل .

٣) القيم والمعايير Values and norms :

القيم هي كل المبادئ والأحكام والاختيارات التـي اكتسـبت معاني اجتماعية خاصة خلال التجربة الإنسانية ، والقيم في ضـوء ذلك موجهات تميز بين ما هو مرغوب فيه ، وما هو مرغوب عنه، كما تتميز القيم بأنها نسبية ، فالجمال قد يكون قيمة مرغوب فيهـا في مجتمع من المجتمعات ، يمنحها الأفراد أهمية أولوية، ولكنه قد لا يكون كذلك في مجتمع أخر ، كذلك تتدرج القيم الاجتماعية فـي مجتمع معين وفقا لمدي سيطرتها علـي الأنسـاق الاجتماعيـة ، المختلفة ومعني ذلك أننا نستطيع أن نميز في كل ثقافة قيم لها الغلبة والسيطرة dominant values وقيم أخري فرعية ليست لها هـذه الخاصية ، وأهم ما يميز الأولي أنها تكون واسـعة الانتشـار أي يتبناها معظم سكان المجتمع ولها أيضـا تـاريخ طويـل أو أنهـا استمرت عبر فترة طويلة من الزمان ، كما أن كل من يحمل هـذه

وعلي أية حال ، فإننا نستطيع القول بأن الثقافة مصطلح يستخدمه الأنثروبولوجيين لكي يشير إلي طائفة من الظواهر **والوقائع نستطيع تلخيصها فيما يلي :**

١- الثقافة بالمعني العام ، تشير إلي أساليب الحياة التي تنتشر في كافة المجتمعات الإنسانية خلال فترة زمنية معينة ، وقد تكونت أساليب الحياة هذه في مجتمع بأكمله ، أو قاصرة علي جماعة فرعية من هذا المجتمع ولكنها لا تنفصل عن الثقافة العامة انفصالا كاملا .

٢- الثقافة تجريد للسلوك ، لا يجب أن نخلط بينها وبين الأفعال الفردية أو ما يعرف بالثقافة المادية ، والأشياء المعنوية التي ترتبت علي أنماط معينة للسلوك .

٣- إن أساليب السلوك التي يتم تجريدها مباشرة من ملاحظة ومشاهدة للسلوك الفعلي للأفراد يطلق عليها أنماط ثقافية Cultural patterns وهذه الأنماط قد تكون مثالية أي تشير إلي ما يجب أن يكون عليه السلوك أو واقعية أي تعبير عن تصرفات الناس إزاء مواقف معينة (١٣) .

ووفقا لذلك فإن الثقافة تنقسم من حيث عناصرها المكونة لها إلي عنصرين أساسين هما:

أ- الثقافة المادية Material Culture :

والثقافة المادية هي التي تنتج عن التفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية ، وكلما استطاع الإنسان أن يتقدم ويسيطر علي البيئة والطبيعة التي تحيط به واستطاع أن يذللها عن طريق العلم والتكنولوجيا كلما استطاع الإنسان أن يضيف اختراعات جديدة ، وبذلك يكون التفاعل الثقافي للإنسان مع الطبيعة هو العامل

والتكنولوجيا كلما استطاع الإنسان أن يضيف اختراعات جديدة ، وبذلك يكون التفاعل الثقافي للإنسان مع الطبيعة هو العامل الأساسي في العصر الراهن من زيادة الاختراعات والمنتجات والأدوات الحديثة ، فالتكنولوجيا هي فن الإنتاج أي الأساليب والأدوات والوسائل المستخدمة في عمليات الإنتاج بغرض زيادة الإنتاج وتحقيق مستويات عالية ومعدلات سريعة للنمو أي أن القضية مرتبطة بمدي الاستعانة بالتكنولوجيا الحديثة وكيفية استيعابها، والانتفاع بها وأن الاكتشافات والاختراعات التي وصلت إلينا الآن قد مرت بعدة مراحل مختلفة حتى وصلت إلينا بهذه الصورة الدقيقة ، فنجد أن القطار العصري مثلا مر بمرحلة القطار البخاري ثم القطار الفحمي ، ثم القطار الحديث الذي نراه الآن ، وكذلك العربات والطائرات وكل أنواع السلع المعمرة (كالسيارات والثلاجات والسلع غير المعمرة) لكن مما تجرد الإشارة إليه أن التغير التكنولوجي للثقافة المادية أسرع من التغير المعنوي من الثقافة ، حيث أن التغير الذي يتم في مظاهر الثقافة المادية كتشييد المباني والوسائل والأدوات والاختراعات والآلات الحديثة يسير بسرعة أكبر من المظاهر المعنوية من الثقافة كالجوانب السياسية والعائلية والفنية والتربوية والروحية وقد آثار هذه القضية وليم أوجبرن وهي تتمثل في عدم مسايرة الثقافة المادية مع الثقافة اللامادية ، وحينما لا يحدث هذا التكيف ينشأ ما يسمي بالتخلف الثقافي Cultural lag فهو يحدث عندما تحدث التغيرات المادية ، والتكنولوجية بصورة أسرع من التغيرات اللامادية في القيم والاتجاهات والتنظيم الاجتماعي ، فعلي سبيل المثال ، إذا أخذنا مدي تقبل الناس لاختراع العربة ، في مقابل تقبلهم لنظام المدرسة

الشاملة بالقرية فنلاحظ أن الناس تتقبل اختـراع العربـة بطريقـة أسرع من تقبلهم لنظام المدرسة الشاملة ، علـي أسـاس أن فائـدة العربة ملموسة بالنسبة للقروبين أما الفائدة العائدة من وراء استخدام المدرسة الشاملة يحتاج إلي وقت كبير من أجل أن يلمسون العائـد من وراءها ولا شك أن الثقافة المادية هي نتيجة التـراكم العلمـي والتفاعل الثقافي كما يقول – سوروكن – Soroken فعلي سـبيل المثال لم تظهر الطائرة بدون أن تمر في سلسلة من الاختراعـات الثقافية إلي ما انتهت إليه الآن ، وقد أضاف كل إنسان شيئا جديـدا إليها .

ب- الثقافة اللامادية Non – Marterial culture :

والثقافة اللامادية هي التي تتكون من العادات والتقاليد التـي تنتقل من جيل إلي جيل عن طريق التنشئة الاجتماعيـة ، فالثقافـة اللامادية كالديانات والايديولوجيات السياسية وعـادات ، الـزواج ونظام المحرمات وكافة أوجه الثقافة اللامادية ، ويرجع التمييز بين الجانب المادي واللامادي للثقافة إلي الأهمية الوظيفية لكل منها في المجتمع (١٤) . فالمنازل علي سبيل المثال ، تقـي سـاكنيها مـن المطر، والثلج ، والرياح . يمكن الاحتفاظ في أي منزل بجو ربيعي دائم طوال السنة عن طريق أجهزة التكييف المختلفة في المنـاطق الاستوائية أو الشمالية علي السواء وهكذا نري أن الثقافـة الماديـة تشكل بيئة جديدة . تتكيف لها الظواهر الإنسانية أو فوق العضـوية Superorganic كما يحلو للبعض أن يسميها مثل الحياة الأسـرية والتعليم والترويح ويمكن القول بأن كثيرا من مظاهر الثقافة غيـر المادية ماهي إلا أشـكال مـن التوافقـات والتكيفـات لـلأدوات والمستحدثات التكنولوجية.

ويمكن القول بأن الثقافة المادية هي المظهر الفيزيقي للتفاعل الإنساني بينما تمثل الثقافة غير المادية المظهر الإيديولوجي أو الفكري من هذا التفاعل .

وتشمل الثقافة المادية كل ما يصنعه الإنسان في حياته وكل ما ينتجه العمل البشري من أشياء ملموسة وكذلك كل ما يحصل عليه الناس عن طريق استخدام فنونهم التكنولوجية ، بينما تشمل الثقافة غير المادية مظاهر السلوك التي تتمثل في العادات والتقاليد والمثل والقيم والأفكار والمعتقدات .

والثقافة في تحليلها النهائي هي نموذج أو نماذج Patteras من السلوك الإنساني المنظم والتفاعل الاجتماعي هو مصدر هذا السلوك . والإنسان هو صانع ثقافته مستخدما فكره في ذلك وبعض المظاهر الإنسانية للثقافة تبقي في المستوي السيكولوجي بينما تكون الاخري في المستوي الفيزيقي . ونستخلص من ذلك أن هناك مستويين للثقافة الأول مادي ويتضمن كل الأشياء المادية في نسق معين بينتما المستوي الثاني غير المادي أو الفكري أو الايديولوجي ويتضمن ، المعاني ، والقيم ، والمعايير ، والعلاقات . وجدير بالذكر أن هذه مستويات للثقافة وليست أنماطا مختلفة وأن أساس الثقافة موجود في العقل الإنساني فالأشياء المادية لا قيمة لها إذا لم يوجد العقل والمعرفة التي تستطيع استخدامها ، لذلك فإن المعني المتصل بمستويات الثقافة هو أكثر أهمية من الأشكال الفيزيقية والنماذج الثقافية هي نماذج عقلية بالدرجة الأولي بمعني أنها تشكل انتظامات سلوكية توجد بين الأشخاص .

الثقافة الظاهرة والثقافة الضمنية : Explicit and impilicit culture

تعيش الثقافة في عقول أفراد المجتمع أو في نماذج عاداتهم، وتتجلي الثقافة من خلال سلوك الأفراد حين ينشغلون في أشكال مختلفة من السلوك .

ومن بين محاولات تحليل الثقافة لتبسيطها وإلقاء ضوء أكثر علي دراستها وفهمها ، وتقسيمها إلي ثقافة ظاهرة وثقافية ضمنيه ، علي أساس وجود درجات لرؤية السلوك الثقافي تتراوح ما بين الأنشطة المقننة للأشخاص وبين دوافعهم الداخلية (والتي غالبا ما تكون لا شعورية) التي تجعلهم يسلكون سلوكا معينا .

ويري " كلاكون " (Kluckhon) أن الثقافة الظاهرة تشتمل علي تلك الانتظامات في الأقوال أو الأفعال والتي تأخذ شكلا عموميا يمكن ملاحظته عن طريق الحواس وبخاصة حاستي السمع والبصر . أما الثقافة الضمنية فيذهب كلاكون إلي أنها تجريدية أي يمكن استخدامها من الدوافع الكامنة وراء السلوك .

نستطيع أن نستدل مثلا علي السلوك الثقافي للمراهقين من الانتظامات في ملابسهم ومحادثاتهم وآدابهم السلوكية وهذا علي المستوي الظاهري أو الملموس ، أما علي المستوي الضمني فان الرغبة الضمنية أو الكامنة في الموافقة الاجتماعية هي الدوافع الخفية وراء السلوك الجمعي للمراهقين (١٥) .

النموذج الثقافي العالمي: The universal culture pattern

تواجه كل المجتمعات مشكلات مشتركة عليها أن تحلها ويركز هذا المفهوم الذي قدمه " كلارك ويسلر " علي التشابهات أكثر بعد تأكيده علي الاختلافات .

والنموذج الثقافي العالمي يعني أن هناك مكونات معينة للثقافة لا تختلف فيها أي ثقافة عن الاخري بدائية مبسطة كانت أو حديثة معقدة **وهذه المكونات هي:**

١- اللغة. ٢- السمات المادية والأشياء والمهارات المتصلة بها .
٣- الفن . ٤- الغيبيات والأساطير والمعرفة العلمية .
٥- الممارسات الدينية . ٦- الأسرة والنسق الاجتماعي .
٧- الملكية . ٨- الحكومة .
٩- الحرب .

وتمثل هذه التقسيمات التسع حدا ادني لا يمكن اختزاله وتكون ما يطلق عليه " ويسلر " النموذج الثقافي العالمي .

تداخل العناصر المختلفة للثقافة :

إن العناصر المختلفة للثقافة وثيقة الصلة بعضها بعضا . وهي لا تعمل منفردة فالأسرة في المجتمع الحديث وثيقة الصلة بالنظام التعليمي والدين في المجتمعات البدائية وثيق الصلة بالطب . والحقيقة أن عناصر الثقافة تتشابك وتتحد لتكون نسيجا متينا . وفي الثقافات الحديثة نجد أن الأخلاق والدين يشكلان وحده وثيقة الصلة بينما كانت الأسرة والإنتاج يمثلان في الماضي وحدة متينة . ويمكن أن نصور هذا التكامل والاتصال بين عناصر الثقافة وأجزائها ، بالاتصال والتكامل بين أعضاء الكائن الحي أو بين أجزاء الآلة .

السمة الثقافية : Culture trait

هي أبسط العناصر الثقافية التي تبدو في النواحي المادية او المعنوية كالفنية او اللغوية أو الاجتماعية ، فالمسمار والقلم وغطاء

الرأس ، سمات مادية أما السمات المعنوية فقد تكون كلمة أو إشارة أو فكرة أو ممارسة دينية .

المركب الثقافي : Culture Complex

إن العناصر الفرعية للثقافة تتكون بـدورها مـن روابـط متشابكة وعندما تركز الصلات بين العناصر الفرعية للثقافة علـى سمة ثقافية بعينها يطلق عليها عندئذ المركب الثقافي . فهناك علـى سبيل المثال مركب " الحصان " Horse Complex وحوله تتجمع ممارسات تتصل بالركوب وصـناعة عـدة الحصـان والحـرب والزراعة وصناعة المركبات والنقل بالعربات . وعندما اتخذ الهنود الحمر الحصان كحيوان أساسي يعتمدون عليه نقلا عـن الأسـبان فإنهم قد اتخذوا معه أيضا مركب الحصان .

ولعل أفضل مثل وأقربه إلي الأذهان فـي هـذا الصـدد " المركب " المعروف في الكتابات الانثروبولوجية باسـم (مركـب الماشية) Cattle Complex ويتضح في اعتماد مجموعة القبائـل التي تسكن في شرق أفريقيا (أوغندا وكينيا) وفي جنوب السودان وبعض مناطق أفريقيا الوسطي علي الماشية ، بحيث يعـد رعـي الابقار هو أهم السمات المميزة لثقافة هذه الشعوب . ولقد بلغ مـن حب الناس للماشية وولعهم بها وبامتلاكها أن أصبحت أعداد الأبقار في معظم المناطق هناك أكثر بكثير جدا من إمكانات المراعي ممـا أصاب الماشية ذاتها الهزال والضـعف الشـديد لقلـة الأعشـاب والحشائش التي تتخذها غذاءً لها . ورغم ذلـك فلـم تثنـي هـذه الصعوبة الناس عن الإقبال الشديد علي امتلاك مزيد من الماشية ، ولجوئهم في سبيل الحصول عليها إلي شن الغـارات ، والحـروب علي القبائل المجاورة لسرقة أبقارهم وقد بلغ من أهمية الماشية في

حياة الناس هناك أن منزلة الرجل الاجتماعية تقاس بعـــدد رؤوس الأبقار التي يملكها وأنهم ينظرون إلي الشخص الذي لا يملك شـــيئا منها بعين الاحتقار بل أنهم لينبذونه تماما من بينهم (١٦) .

عناصر الثقافة اللامادية :

الأفكار – القيم – المعايير

أولا : الأفكـــــــار : Ideas

وتعد الأفكار أهم العناصر الثقافية غيـــر الملموســـة إذا مـــا قورنت بغيرها من العناصر وتختلف الأفكار مـــن مجتمـــع لأخـــر فالأفكار تتميز في المجتمع البدائي بالبساطة وعـــدم التعقيـــد بينمـــا تتميز الثقافة في المجتمع الحديث ، بالنضج والتقـــدم ، ومـــن أهـــم مكونات الأفكار في نظر – بيرستد – Bierstedt هـــي الحقـــائق العلمية والمعتقدات الدينية والخرافات والأساطير والأدب والحكـــم والأمثال والطرق الشعبية، وعادة ما تحفظ الأفكـــار فـــي البلـــدان المتقدمة في الكتب والسجلات بينما في المجتمعات البدائيـــة تحفـــظ الأفكار في صورة الأساطير والحكم والأمثال ، هذا ويؤكد عديد من علماء الاجتماع إلي إعطاء أهمية كبيرة لدور الأفكار فـــي تغييـــر المجتمعات الإنسانية ومن أمثال هؤلاء العلماء "أوجست كونـــت" ، "وماكس فيبر" ، "وروبرت بيرستد" ، بينما يعتـــرض علـــي ذلـــك الماركسيون ويرون عدم المغالاة في إبـــراز الفكـــر فـــي الحيـــاة والتطور الاجتماعي وأكدوا علي أن البناء الأساسي المادي للمجتمع هو الذي يشكل الأفكار ، لكن مما تجدر الإشارة إليـــه أن الأفكـــار تلعب دورا هاما في تغيير صورة الحياة الاجتماعية باعتبـــار أنهـــا تشكل مجريات الأحداث، فكما يقولون ليس بـــالخبرة وحـــدة يحيـــا الإنسان فالإنسان أول ما يتعلم منذ صغره كيف يعيش علي طريـــق

الفكر ، ولذا فانه لن يستطيع أن يعيش وأن يطور نفسه إلا عن طريق الفكر ، ولذا أكد علماء الاجتماع وغيرهم من المتخصصين علي أهمية الأفكار في تشكيل حركة الحياة ومجري التاريخ .

ثانيا : القيم الاجتماعية Social values

في الواقع أن محاولة تعريف القيم محاولة صعبة وذلك لارتباط هذا المفهوم بمصطلحات عديدة مثل الاتجاهات والمعتقدات والدوافع والرغبات والحاجات والاهتمامات والمعايير وأيضا يشترك في دراسة هذا المفهوم استخداما فضفاضا ، فالناس تستخدم هذا المفهوم بمعني الفائدة حينا وبمعني السمو أحيانا أخري وفي أحيان ثالثة تستخدم بمعني عملية المقايضة أو الشراء (١٧) لكن القيم – كما عرفت في قاموس علم الاجتماع لفارشليد – هي عبارة عن التفضيلات الاجتماعية والتصورات لما هو مرغوب فيه بصفة عامة ولذا تتضمن القيم كل المعاني ، والموضوعات والأفكار والمبادئ التي أصبحت ذات مغزى هادف خلال الحياة الإنسانية ، وهذا يوضح أن مصدر القيم هي الثقافة والتفاعل بين الأفراد ، وإن القيم تتسم بأنها نسبية بمعني أن القيم تتميز بالاستمرار النسبي والتغير النسبي فلو أن القيم كانت دائمة ومستمرة ، لكان التغير مستحيلا ، وإن كانت دائمة التغير لأصبح نمو الشخصية الإنسانية متعذرا ، هذا وتكتسب القيم من المجتمع قوة أو ضعفا تبعا للروابط التي توجد في المجتمع ومدي تماسكه وتفككه فعلي سبيل المثال القيم تكون قوية في المجتمع الريفي والبدوي وضعيفة في المجتمع الحضري ، وتتغير القيم تبعا لتغير الثقافة والنظم الاجتماعية السائدة ، لذا فقد تغيرت القيم السائدة في بعض المجتمعات العربية نتيجة للتغيرات التكنولوجية والثروة النفطية بها ، وبذلك تكون القيم لها

دور هام في توجيه الفعل الاجتماعي وضبطه . هذا وتؤلف مجموعة القيم المكتسبة نسقا متماسكا للقيم – حيث تكتسب كل قيمة في هذا النسق أولوية خاصة بالقياس إلي القيم الاخري ، وهذا الترتيب للقيم يمكننا من دراسة الثبات والتغيرات التي تطرأ علي أنساق القيمة ، كما أنها خاضعة للتغير بقدر ما يشهده المجتمع والثقافة من تغيرات حاسمة وجدير بالذكر أن تباين الخبرات الشخصية والثقافية لا تؤدي فحسب إلي فروق فردية في استقرار هذه الأنساق ، فضلا من ذلك يتضمن نسق القيم نوعان رئيسيان من القيم إحداهما هي القيم الغائبة – Terminal values (غايات الوجود الإنساني) وقيما أخري وسيطة أو وسيلية Instrumental values وهي أساليب السلوك المفضلة لتحقيق الغايات المرغوبة ، ويفترض بعض الباحثين أن عدد القيم الغائبة والوسيلية محدود نسبيا يمكن إخضاعها للقياس والتحليل (١٨) .

هذا وتمارس أنساق القيم وظائفها بطرق مختلفة علي النحو التالي :

أ- القيم تدفعنا إلي اتخاذ مواقف خاصة من المسائل الاجتماعية الرئيسية .

ب- تدفعنا القيم إلي تفضيل أو تبني أيديولوجية سياسية أو دينية .

ج- أنساق القيم هي المستويات التي يحتكم إليها في عرض ذواتنا أمام الآخرين أو هي الموجهات التي تحرك تصرفاتنا لكي نبدوا أمام الآخرين بالصورة التي نفضلها .

د- أنساق القيم هي مستويات توجهنا في إقناع الآخرين والتأثير عليهم لتبني مواقف أو معتقدات أو اتجاهات أو قيم تعتقد إنها جديرة بالاهتمام والدفاع عنها

هـ- القيم هي المستويات التي يعتمد عليها في تبرير أنماط معينة من السلوك أو الاتجاهات أو المعتقدات لكي تكتسب أكبر قدر من القبول الاجتماعي .

و- أنساق القيمة هي مستويات يعتمد عليها الأشخاص في الاحتفاظ بالتقدير الذاتي عاليا باستمرار ، ومن الأمور الهامة أن دراسة القيم بوصفها مستويات للتوجيه Values as standerd تطرح العديد من التساؤلات التي ينبغي حسمها أمبريقيا من هذه التساؤلات مثلا : ما هي الظروف التي علي أساسها تستخدم قيمة معينة بوصفها مستوي للتوجيه دون الأخرى ، هل هناك فروق ثابتة فيما يتعلق بطرق استخدام القيم ، هل هناك نماذج مختلفة ثابتة فيما يتعلق بطريق استخدامهم للقيم ، هل هناك نماذج مختلفة لاستخدام القيم كمستويات للحكم أو التقويم ، وبعضهم يستخدمونها كمستويات للفعل أو السلوك ويستخدمها آخرون كمستويات للتبرير ؟

هكذا ، فإن نسق القيم يحقق التوافق واحترام الذات ، وتحقيق الذات ويتفاوت الأفراد فيما يتعلق بالأهمية النسبية للقيم التي تؤدي هذه الوظائف الخاصة بتوجيه الفعل الإنساني في المواقف اليومية ، والتعبير عن الحاجات الإنسانية الرئيسية .

ثالثا : المعايير : Norms

والمعايير هي قواعد السلوك التي تحدد الالتزامات الاجتماعية علي مستوي الخصوصية ، أي أنها تشير إلي نمط سلوكي فقط ، هذا وتنقسم المعايير إلي ثلاثة أقسام رئيسية وهي الطرق الشعبية والأعراف والقوانين (١٩) .

ويجب إذن أن نضع في أذهاننا أننا عندما نتحدث عن جمود الثقافات البدائية أو الريفية إنما نقصد بذلك أنها أقل تغيرا وأبطأ في سرعة تغيرها بالنسبة لغيرها أي أن الجمود والتغير أمور نسبية . وما دمنا سنأخذ هذا المعني النسبي في الاعتبار ، فلا حرج إذن من الكلام عن الثقافات الجامدة والثقافات المتغيرة .

الثقافات الجامدة :

إذا حدث التغير الثقافي ببطء شديد وفي نطاق ضيق فإنه لا يدرك بسهولة وفي هذه الحالة توصف الثقافة بالاستقرار والجمود . كثقافات الشعوب البدائية أو البيئات الريفية ، ويعزي الجمود في هذه المجتمعات وبطء التغير في أسلوب معيشتها إلي ظروف معينة جغرافية أو اجتماعية أو فكرية تعزلها عن الاتصال بغيرها وبالتالي تعزلها عن الاستفادة بخبرات الغير فتظل مكتفية بخبرتها الخاصة المحدودة وبذلك تعد من الشعوب الجامدة أو المتخلفة أو البدائية . وهذه العزلة إما أن تكون مفروضة علي الجماعة فرضا كما في حالة البلاد المستعمرة التي يحول الاستعمار بينها وبين مختلف أنواع التقدم . وقد تكون عزلة ذاتية ، أي يفرضها المجتمع علي نفسه فرضا . فهناك مجتمعات تكره كل غريب عنها ، ولا ترغب في اقتباس أي شئ من الدول الأخرى حتى أنها لتجتهد أن تنفصل عن باقي العالم عن طريق فرض عقوبات صارمة علي من يخالف هذا الاتجاه ويحاول الاتصال بمجتمعات أخري للاقتباس منها . وهذا ما تفعله القبائل البدائية ذات الثقافات المقدسة (Scared) أو شبه المقدسة حيث يعتقدون أن التقاليد المنحدرة إليهم من أسلافهم لا يجوز مساسها أو مخالفتها لأن ذلك يجلب الضرر علي الجماعة المخالفة أيا كان نوعها ويؤكد العامة والريفيون عندنا ذلك بقولهم :

" قطع العوايد فال " أي شؤم . بل إن من الناس من يعتقد في قـوة خفية وراء التقاليد تعاقب علي المخالف ، ومـنهم مـن يعتقـد أن العقاب لا يقع علي الشخص المخالف وحده بل يتعداه إلـي أهلـه وعشيرته وهذا طبعا أشد وقعا وإيلاما .

ففي المجتمعات البدائية والريفية المنعزلة يكون التغير بطيئا جدا أو يتم بصورة غير ملحوظة . فكلما كانت القيم أقـرب إلـي الجمود صعب تغيير الأوضاع السائدة في المجتمع وإحلال أوضاع أخري جديدة محلها .

الثقافـة متغيـرة :

إذا حدث التغير الثقافي بسرعة وفي نطاق واسع يمس كثيرا من مظاهر الحياة أمكننا أن نصف الثقافة بأنها متغيـرة . كالثقافـة الأمريكية والثقافة الأوروبية والثقافة المصـرية وكثقافـة المدنيـة بالنسبة للقرية " فالمدينة هيئة اجتماعية مفتوحة " بينما القرية هيئـة اجتماعية مقفلة أو منعزلة – نسبيا . وكلما كان المجتمع مفتوحا أي علي اتصال بغيره زادت سرعة التغير فيه . فمن مميزات المدينـة الحديثة ، كثرة الوسائل التي تسهل الاتصال وتزيد من سرعته مما يسهل انتشار الثقافة من جماعة إلي أخري ويسهل أحداث التغير في المناطق التي تقتبس عناصر ثقافية جديـدة فسـهولة المواصـلات الحديثة وسرعتها شجعت علي كثرة الأسفار والسياحة والاتصـال الشخصي الذي ينجم عنه اتصال فكري يكون له أثره فـي التغيـر الاجتماعي . كذلك فان وسائل الاتصال الفكري ذات أثر بالغ فـي تغير الثقافات . فقد ساعدت الإذاعة والصحف والنشرات والمجلات والكتب والرسوم والصور والسينما والتليفزيون علي تبادل الأفكـار والخبرات وتغير الثقافات (٢٠) .

الفصل الثالث

الشخصية : ماهيتها وبنائها ومحدداتها ومنظورات دراستها

* حول مفهوم الشخصية
* بناء الشخصية
* محاولات لتعريف الشخصية
  ١ – مفهوم الشخصية في الحياة اليومية .
  ٢ – تعريف الشخصية عند علماء الاجتماع
* تعريفات الشخصية كمثير
* تعريفات الشخصية كاستجابة
* تعريفات تنظر إلى الشخصية كمتغير وسيط بين المثيرات والاستجابات
* محددات الشخصية
* العناصر الأولية للشخصية
* تداخل عناصر الشخصية
* الشخصية القومية
* الشخصية القومية بين العلم والايديولوجيا
* منظورات دراسة الشخصية
  ١ – المنظور الطبيعي
  ٢ – المنظور القومي
  ٣ – المنظور البيولوجي
* دور المجتمع في بناء شخصية الفرد
* الشخصية في الأدوار الاجتماعية

الشخصيـــــة

***حول مفهوم الشخصية :**

ما زال تاريخ ومشكلة الشخصية من القضايا التي تلح على عقول البشر وعلى مناهج البحث الأكاديمي ، لقد سعي الإنسان دواماً إلى تصنيف سلوك أصدقائه وأعدائه على حد سواء ، وبعبارة أخرى إلى التعامل معهم كتجمعات بشرية كبيرة لها خصائصها السلوكية المميزة ، وتفيض الكتب والأدبيات القديمة لما لا حصر له من الصفات والنعوت السلوكية المنسوبة إلى الجماعات البشرية بمختلف تصنيفاتها ، ومن اليسير علينا أن نجد في تاريخ الحضارة هيرودوت ويوليوس قيصر ، أن الشعوب المختلفة لم تنفرد بعادات وخبرات خاصة بها وحسب ، وإنما تميزت أيضاً بطابع وأمزجة وميول خاصة ، والواقع أن يوليوس قيصر اخذ هذا العامل بعين الاعتبار واستغله لمصلحة روما في السياسة التي اتبعها مع قبائل البرابرة المختلفة.

إن عملية تصنيف الشخصية البشرية يمكن أن تؤكد لها صفتين : القدم والشمولية ، أي أنها قديمة قدم الوعي البشري نفسه، وأنها شاملة للبشر جميعاً ، يمارسونها وتمارس خيالهم دون استثناء، وتعني خاصتي القدم والشمول هاتين ، إن عملية التصنيف هذه وظيفة توافقية معينة ، وأن هذه الوظيفة لا ترتبط بزمان معين ولا تقتصر على أفراد بعينهم ، بل أنها وظيفة بشرية عامة أو جزء من تفاعله الثقافي الاجتماعي .(١)

وينطوي هذا المفهوم عند " سوركين " على ثلاثة مكونات ترتبط ترابطاً وثيقاً هي:

١ – الشخصية باعتبارها موضوع التفاعل .

٢ – المجتمع باعتباره مجموعة الشخصيات المتفاعلة .

٣ – الثقافة باعتبارها مجموع المعاني والقيم والمعايير الموجـودة لدي الشخصيات المتفاعلة ، باعتبارها كذلك مجموع الوسـائل التي تنشئ هذه المعاني ، وتجعلها اجتماعية ، ويقوم بتوصيلها.

ونستطيع القول بشئ من التبسيط أن الشخصية هي صـورة الإنسان الكاملة وهي تعد مفهوماً لدراسة الإنسان ، وتحديداً لصفته الطبيعية والاجتماعية .

بناء الشخصية :

يتحدد بناء الشخصية في أربعة جوانب على النحو التالي :

١ – **نموذج السـلوك** : ويعد ذلك الجانب الظاهري للشخصية الذي يعبر المرء فيه عن خصائص شخصيته المميزة ، وهذا الجانب محسوس وخارجي ويتضمن بصورة أساسية نمـوذج سـلوك الإنسان في ظل الأحوال المختلفة ، ويحكم الناس على شخصية الإنسان ويقيمونها حسب نموذج التصـرفات الخارجيـة لـه ، ولذلك يجسد هذا الجانب ملامح الشخصية .

الاتجاه الأول : ويشير إلى الخصائص الإيجابية لسـلوك الإنسـان وتصرفاته تجاه البيئة الاجتماعية ، ويمكن تقسيم ذلك الاتجاه إلـى مستويين هما .

الأول : الذي يقرر إيجابية الإنسان ويشـتمل علـى الاحتياجـات والدوافع والاهتمامات وغيرها.

الإتجاه الثاني : ويقرر الوعي والميول لأنشطة الإنسـان ويشـمل المثل العليا ، والعقيدة الثقافية ، ووجهة النظر إلى العالم وغيرها ، ويقرر ذلك الاتجاه سلوك وإيجابية الإنسان وقوة الاختيـار لديـه ، ويجعل الناس ينظمون سلوكهم الذاتي من خلال السلوكيات المختلفة

والإيجابية ذات الدرجات المتباينة ، ويتمتعون بالهـدف والاختيـار لممارسة رد الفعل إزاء الحقيقة الموضوعية .

٢ - **الخصائص النفسية** : وتشمل ثلاث نقـاط هـي : القـدرة ، والمزاج ، والطبع ، وهي أسلوب لدمج خصـائص الإنسـان النفسية بمميزاته الخاصة فابالنسبة للقدرة فهـي تعـد المـلاح الكامنة لإنجاز نوع ما من النشاط ، أما المزاج فهو مجموعـة أنشطة الإنسان النفسـية وسـرعتها واسـتقرارها ومرونتهـا واتجاهها وغيرها من العوامل الأخرى ، نأتي بعد ذلـك إلـى النقطة حول الطبع وهو يتمثل في المميزات المسـتقرة التـي يجسدها الإنسان في التعامل مع الأشياء أسلوب التصرف .(٢)

وحينما ننظر إلى أبعاد النقاط السابقة وهي القدرة والمـزاج والطبع نجدها مع غيرها بمنزلة العوامل المستقرة إلى حد ما داخل هيكل الشخصية ، وفي نفس الوقت تعبر عـن الأنشـطة النفسـية والنموذجية والسلوك لدي الإنسان .

٤ - **الوعي الذاتي** : وهو جانب التكيف الذاتي للشخصية ويشـمل المعرفة الذاتية ، والتقييم الذاتي ، والمراقبة الذاتية وغيرهـا . ويتسم الوعي الذاتي بالمميزات العقلانية التي تتبوأ مكانة أعلي داخل بناء الشخصية .

في ضوء الاعتبارات السابقة يمكن أن نعتبر نموذج السلوك بمثابة البناء الظاهري للشخصية ، أما الاتجاه والخصائص النفسـية والوعي الذاتي فيمكن اعتبارها البناء المستتر العمق للشخصية .

ومع كل ذلك يمكن القول أن بناء الشخصـية الظـاهرة أو المستترة بمثابة وحدة كاملة وشاملة تربطهما علاقة تفاعل متبادلة .

والواقع أن تفسير معالم بناء الشخصية يعد نوعاً من التجريد لها ، ويمكن اعتبار هذا البناء لدي السواد الأعظم من البشر متشابهاً ، ولكن هناك اختلافات بين كل من توزيع وتنظيم بناء الشخصية لدي كل إنسان على وحدة ، ومن ثم تكونت نماذج الشخصيات المتباينة لدي العديد من البشر ، وترتبط هذه الاختلافات بطبيعة وجودها في البيئات الثقافية الاجتماعية المتباينة .

أما بالنسبة للبيئة الاجتماعية المتشابهة فيبدو التباين بين الشخصيات الفردية في الناتج الثقافي خاصة أن الثقافة الفردية تمتص من بيئتها نظم القيم والمعايير ودلالة المعني ، وهذا ما ينعكس على الشخصية الذاتية للأفراد ، ويتغلغل المضمون الثقافي أو يتراكم في كل جوانب الشخصية الذاتية نتيجة التأثير الثقافي ، وفي ضوء هذا التأثير تتجسد الأساليب الذاتية للمشاعر والأحاسيس وأسلوب التفكير ، وطريقة السلوك وأسلوب مواجهة المشاكل والتحديات ، ومن هنا جاءت الاهتمامات الأكاديمية بالعلاقة بين الثقافة الاجتماعية ونمو الشخصية الإنسانية. (٣)

والأصول في كلمة شخصية personality أنها مشتقة من لفظ لاتيني persona ومعناه القناع ، أو الوجه المستعار الذي يظهر به الشخص أمام الغير . وكان استعمال هذا اللفظ مرتبطاً بالتمثيل المسرحي حيث يبدو الشخص للغير عن طريق ما يأتيه من حديث وحركات ظاهرة .

والغرض من استعمال هذا القناع هو تشخيص خلق الشخص الذي يقوم بدور من ادوار المسرحية ، فهو بمثابة عنوان عن طباع الشخص ومزاجه الخلقي، ويشمل هذا المعني الممثل والدور الذي يقوم به أو الصفة الظاهرة (الوجه المستعار) والصفة الطبيعية (

الممثل) . وربما كان ذلك على أساس أن " الدنيا مسرح كبير ، وأن الناس جميعاً ليسوا إلا ممثلين على مسرح الحياة " .

أما في اللغة العربية فإن كلمة " شخص " تعني نظر إلى ، أو حضر أمام . وشخص بمعني عين ، عندما نقول الطبيب شخص المرض كما نقول شخص الدور بمعني مثله ، ومشخص بمعني مجسم ، ويحمل تعبير الشخصية معان متعددة . فهو مفهوم معقد متغير ، يصعب على الباحثين فيه أن يتوصلوا إلى إطار ثابت ينتظم جميع مقوماته ، أن يتفقوا على تعريف ثابت له . ولهذا اختلفت وجهات نظر العلماء الذين يتناولون بالبحث موضوع الشخصية وتنوعت تفسيراتهم، وتباينت طرق دراستهم لها . وقد أحصي العالم (ألبورت Allport) أكثر من خمسين تعريفاً للشخصية في اللغات الأجنبية بعضها لاهوتي ، وبعضها فلسفي ، وبعضها اجتماعي ، وبعضها سيكولوجي . ولعل التعاريف التي وصفت بها الشخصية أكثر من هذا العدد بكثير .

محاولات لتعريف الشخصية :

سنستعرض فيما يلي بعض تعاريف الشخصية ، فنبدأ بمفهوم الشخصية عند العامة كما تستخدم في الحياة اليومية ، ثم نتناول وجهة نظر بعض العلماء الاجتماع في تعريف الشخصية ، ثم نستعرض تعاريف الشخصية كما يعالجها علماء النفس .[٤]

أولاً : مفهوم الشخصية في الحياة اليومية :

أن تعريف الشخصية قام في البداية على فكرة التمثيل وما يبدو على الفرد من الصفات الظاهرة بصرف النظر عما يخفيه في نفسه من صفات داخلية . ويرتبط بهذه الفكرة تعريف الشخصية

بالقدرة على التأثير في الغير أو الأثر الذي يتركه الشخص فـيمن حوله ، وما يتعلق بذلك مما يكون لدي الفرد مـن هيبـة ووقـار وكبرياء ، أو تواضع وخضوع واستسلام ، وهذا ما يعنيه العامـة حين يستخدمون كلمة شخصية في الحياة اليومية فيقولون أحياناً أن فلانا ذو شخصية قوية ، وأن آخر ذو شخصية ضـعيفة ، ويقصـد بذلك أن الأول ذو تأثير على غيره وانه مستقر في راية له أهـداف واضحة في الحياة وأن الشخص الثاني ضعيف الإرادة ليس فيه ما يميزه عن غيره فهو يتأثر بغيره بسهولة ، ويعجز عن التأثير فـي الغير ، إلى غير ذلك من الصفات . هذا هو تعريف المفهوم العـام للشخصية في حياتنا اليومية.

ثانياً : تعريف الشخصية عند علماء الاجتماع :

يهتم علماء الاجتماع بموضوع الشخصية بإعتبارهـا أحـد الأسس الجوهرية التي تقيم الحقيقة الاجتماعية . فـالمجتمع يقـوم كنسق من العلاقات المتبادلة بين الأفراد ، ولهذا لا يمكن أن نعـزل الفرد عن مجتمعه ، وثقافته ، لأنه لا يصبح إنساناً إلا مـن خـلال تفاعله مع الآخرين في الجماعة . وهذا التفاعل في حد ذاته يخضع لقيود الثقافة وضغوطها ، وتنميطها . وفيما يأتي بعـض تعريفـات علماء الاجتماع للشخصية :

يري " بيسانز " (Biesanz) أن لكل شخص شخصيته كما للآخرين ، طالما أنه قد مر خلال عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة ، بصرف النظر عن اتجاهاتها أو الأسس التي قامت عليها ، لهذا فهو يعرف الشخصية بأنها (تنظيم يقـوم علـى أسـس مـن عـادات الشخصية وسماته . وهي تنبثق (الشخصية) من خلال العوامـل

البيولوجية والاجتماعية والثقافية . ويعني (بيسانز) بالتنظيم تكامل العادات والاتجاهات ، والسمات .

ويقصد بالعادات الطرق الدائمة نسبياً التي يسير عليها الفرد في سلوكه ، والاتجاهات هي الميول التي تظهر في الأفعال الموجهة نحو قيم معينة ، كالأشخاص أو الأشياء أو النظم الاجتماعية أما السمات فهي الصورة العامة للاستجابة .

أما " جرين " (A.Green) فالشخصية عنده ، ليست مجرد القيم والسمات بل أن تعريفها يجب أن يتضمن صفة هامة بها ، وهي التنظيم الدينامي ، الذي بدونه قد تصبح الشخصية عاملاً معوقاً في النمو والانتماء إلى جماعات متعددة في المجتمع.

أي أن " جرين " يؤكد أن الإنسان يصبح شخصاً نتيجة للمؤثرات الاجتماعية التي تؤثر في كيانه التشريحي والفسيولوجي والعصبي ، ولا بد له كي يصير شخصاً أن يكتسب اللغة . وعلى ذلك فالشخصية لا تقتصر على ما يميز الشخص ، بل تشتمل أيضاً على ما هو مشترك بين الشخص والآخرين .

أما عند " اوجبرن " (Ogburn) ، و " نيمكوف " (Nimkoff) فالشخصية تعني التكامل النفسي الاجتماعي للسلوك عند الكائن الإنساني ، الذي تعبر عنه عادات الفعل والشعور والاتجاهات والآراء . وقد يتعارض السلوك الاجتماعي مع السلوك الفسيولوجي ، إن جاز هذا التعبير ، على الرغم من الصلة المتبادلة بينهما . ولذلك فإن الجانب الاجتماعي الهام للشخصية يكمن في أنها تنمو في المواقف الاجتماعية ، وتعبر عن نفسها من خلال التفاعل مع الآخرين . لهذا يهتم عالم الاجتماع بمعرفة تكوين الشخصية

وبقائها وتغيرها ، ومختلف العوامل المؤثرة فيها ، وإن كان يصب جل اهتمامه على المؤثرات الاجتماعية .

ويؤكد (سوروكن) (Sorokin) أهمية موضوع الشخصية بالنسبة لعلم الاجتماع لأنه يري أن الأفراد هم المكونات الأساسية في كل الأنساق الاجتماعية والثقافية . وما دام الأمر كذلك فإن شخصياتهم تؤثر من غير شك في إطار الأنماط الثقافية والاجتماعية ولا ينكر " سوروكن " أهمية الوراثة البيولوجية في الشخصية ، ولكنه يذهب إلى أن الجانب الاجتماعي الثقافي من الشخصية لا يتحدد، عن طريق هذه الوراثة ، لأنه يصب في قالب معين من خلال الوسط الاجتماعي الثقافي . فالفرد يمتص عالمه الثقافي الاجتماعي ويتمثله وينمو على تربته . والثقافة مرآة أعضائها ، وما يقيمون من تنظيمات اجتماعية ، أما البناء الاجتماعي فإنه يعكس مكوناته من الأفراد وأنماطهم الثقافية . ويري سوروكن أن الدراسات المتعددة التي أجريت في ميادين علم نفس الطفل ، والتحليل النفسي ، وعلم الجريمة تؤكد أن الجانب الأكبر من الشخصية الإنسانية يركز على دعائم المجتمع والثقافة فالنمو العقلي ، والذاكرة ، والتحليل ، والتعميم ، يستحيل دون التفاعل الإنساني ، كذلك لا يمكن أن تتراكم الخبرات ، والثقافة ، أو تتميز معايير الثواب والخطأ دون تفاعل الأجيال ، أو من غير توافر الخبرة الجمعية ، ولم يكن للغة أن تنبثق من غير التفاعل الاجتماعي .

ويمكن القول بعامة أن اهتمام علماء الاجتماع بدراسة الشخصية كان محصورا في العوامل الثقافية والاجتماعية التي تكون الشخصية ، دون الاهتمام بعوامل الوراثة البيولوجية . فالفرد

في نظرهم يكتسب شخصيته بانتمائه إلى جماعة ، حيث يتعلم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية أنساق السلوك والمهارات المختلفة، والعادات، ومعايير الجماعة .(٥)

ثالثاً : تعريف الشخصية عند علماء النفس :

تتعدد تعريفات علماء النفس للشخصية فمنها ما يصف الاستعدادات الداخلية والعوامل الخارجية التي تتفاعل مع بعضها فتكون الشخصية ، ومنها ما يؤكد الصحة النفسية فينظر إلى الشخصية من زاوية نمط التوافق الفردي المتميز . فيري أن ما يحدد الشخصية هو تلك الأفعال التي نقوم بها لتساعدنا على المحافظة على توازننا ، وتكيفنا مع الظروف التي تحيط بنا . ومنها ما يري أن تعريف الشخصية بالأثر الذي يتركه الفرد في الآخرين لا يكفي لأنه لا يوضح لنا شيئا عن الصفات الداخلية الحقيقية في الشخص إذ أن الفرد يمكن أن يعتبر عدداً من الشخصيات ، وهي : الشخص كما يراه غيره – والشخص كما يري نفسه ، والشخص على حقيقته .

فتعريف السلوكيين للشخصية يتناول أيضاً الصفات والمظاهر الخارجية للشخص إذ يوضح أن الشخصية هي مجموع العادات السلوكية للفرد ، وهي مجموع أوجه النشاط التي يمكن الكشف عنها بالملاحظة الفعلية لمدة طويلة تكفي لأخذ فكرة يعتمد عليها عن الشخص . ولا شك في أن هذه التعاريف غير شاملة لأنها تهتم فقط بالشخص كما يراه غيره وتهمل الناحيتين الآخرين .

أما تعريف **مدرسة التحليل النفسي** فعلي النقيض من التعاريف السابقة إذ أنه ينظر الي الشخصية كقوة مركزية داخلية توجه الفرد في حركاته وسكناته . ومثل هذا التعريف أيضاً غير

شامل لأنه يهتم بمظهر واحد من الشخصية ، وهو الشخص كما يري نفسه .

وهناك تعريفات تنظر إلى الشخصية كمجموعة من الصفات، منها تعريف (مورتون برنس) (Morton Prince) الذي يقول : " إن الشخصية هي حاصل جمع كل الاستعدادات والميول والغرائز والدوافع والقوي البيولوجية الفطرية الموروثة ، وكذلك الصفات ، والاستعدادات والميول المكتسبة من الخبرة " وهذا تعريف غير دقيق ، لأنه يحمل في طياته خطر التفكير في هذه الصفات كوحدات منعزلة بعضها عن بعض ، والواقع خلاف ذلك لأن الشخصية وحدة لا تتجزأ ، وهي أكثر من مجرد مجموع أو حاصل جمع صفات فهي كالمركب الكيماوي يحتوي على صفات خاصة به ، تختلف كل الاختلاف عن صفات العناصر المكونة له . ولهذا برزت بعض تعريفات جديدة تؤكد أهمية تكامل الشخصية ، ويطلق عليها التعاريف التكاملية والتي توصف بأنها التنظيم المتكامل لجميع الخصائص المعرفية ، والعاطفية والنزوعية ، والجسمية للفرد ، والتي تميزه عن الآخرين .[٦]

العلاقة بين الثقافة والشخصية – الشخصية الجماعية والشخصية القومية :

الواقع أن العلاقة المتبادلة بين الشخصية والثقافة الاجتماعية لم تكن موضع اهتمام علماء الأنثروبولوجيا إلى عهد قريب ، فقد كان محور اهتمامهم الأسس المشتركة للثقافات بين الشعوب البدائية، وكانوا يعتمدون في أبحاثهم على الظواهر الجماعية للمجتمعات والثقافات ، وكانوا يعتبرون الفرد كما لو كان مجرد وحدة ناقلة للثقافة، أو حلقة في سلسلة من الوحدات المتماثلة وأصبح

السؤال الذي يبحث عن إجابة كيف أصبح الفرد ناقلاً للثقافة ، بل وكيف أصبحت جزءاً من شخصية ومهما يكن من أمر ، فإن أهمية هذه المشكلات أخذت على مر الأيام تزداد وضوحاً ، وذلك بقناعة هؤلاء العلماء بالظواهر الثقافية ، ومن ثم استند هؤلاء في تفسيراتهم إلى مناهج علماء النفس المحيطين بدراسة الشخصية ، ويلاحظ أن سيكولوجية الشخصية سارت في خط تطوري يكاد يكون متماثلاً مع تطور أساليب الأنثروبولوجيا نحو دراسة الظواهر الثقافية في مجتمعنا المعاصر . ومع أن علماء النفس سرعان ما أدركوا أهمية البيئة في تشكيل الشخصية ، فإن فائدتها في البدء استندات على تفسير الفروق الفردية وأغفل هؤلاء التنشئة الاجتماعية والخبرات المشتركة ، ثم تبين لهؤلاء العلماء أن معايير الشخصية تختلف باختلاف المجتمعات والثقافات ، مما اضطرهم إلى الاستعانة بالأنثروبولوجيا لتنظيم المادة الثقافية عند الشعوب ، والواقع أنها كانت أكثر فروع العلوم الإنسانية تأثيراً على البحث في مجالات شخصية الجماعة ، خاصة تلك التي استمدت تصوراتها من نتائج أعمال "تايلور" ، "ومورجان" ، "وفريزر" .

كما اختار " انكلز " " وليفشون " الأعمال الأنثروبولوجية عند " دوب بندكث " لتكون علامة البداية على طريق تطور البحث في مجال شخصية الجماعة، واختار من بين دراسات "روث بندكث" كتابها المعنون " أنماط من الحضارة " ليكون دون غيره من دراستها مؤشراً محدداً هي بداية تلك المرحلة .

لقد شهر مجال الأنثروبولوجيا في هذه المرحلة اتجاهاً جديداً تمثل على المستوي النظري في انتشار الوظيفية ، وعلى المستوي العلمي في الإقبال على الدراسات الميدانية .(٧)

لقد فرضت الوظيفية ضمن ما فرضته على الأنثروبولوجيين حتمية البحث عن تفسير أو معني لما يلحظون من تنوع في عادات وتقاليد بل وتنظيمات اجتماعية لدي القبائل البدائية التي يدرسونها ، ولم يكن أمامهم إلا علم النفس يولون وجوههم صوبة بحثاً عن تلك التفسيرات ، وبالفعل وجدوا بغيتهم في نظريات الشخصية بعامة ، وأفكار التحليل النفسي على وجه الخصوص .

وصاحب نظرية الشخصية يهتم بالدوافع الأساسية التي تحرك سلوك الإنسان ، فضلاً عن أن واحدة من أكبر السمات المميزة لنظرية الشخصية في وظيفتها هي بوصفها نظرية تكاملية.

وهذا ما يبدو حينما تساند علم النفس والأنثروبولوجيا والاجتماع في دراسة الشخصية والمجتمع ، على اعتبار أن المجتمع هو محصلة أفراده في الزمان والمكان .

الواقع إذا استطعنا فهم مسار التاريخ لأي مجتمع نجد أن محصلة المجتمع هو أفراده ، ومن الممكن فهم نماذج منها طبقاً لظروف البيئة الطبيعية والمجتمعية التي تفاعلها معها وإن كان الأمر كذلك فإن شخصية أي جماعة في مجتمع ، أو المجتمع نفسه، هي من صنع تاريخه ، وهي صناعة المواطنة التي صاغتها أساليب التربية القيمية والعقائدية في مؤسسات تحافظ عليها في تعاقب الأجيال .

بداية لابد أن نتطرق إلى مفهوم الشخصية ، والتربية باعتبارهما متغيرين أساسيين في ثقافة الشعوب البدائية والمتحضرة على حد سواء .

فالشخصية كما يعرفها " بيسانز Bisans " هي تنظيم يقوم على عادات الشخص وسماته وتنبثق من خلال العوامل البيولوجية

والثقافية ، ويعني بالتنظيم تكامل العادات والاتجاهات والسمات ، ويقصد بالعادات الطرق الدائمة نسبياً التي يسير عليها الفرد في سلوكه ، والاتجاهات هي الميول التي تظهر في الأفعال الموجهة نحو قيم معينة كالأشخاص أو الأفكار أو الأشياء أو النظم الاجتماعية أما عند " جرين Green " فينظر إليها على أنها التنظيم الدينامي الذي بدونه توضيح الشخصية فهو يؤكد أن الإنسان يصبح شخصاً نتيجة للمؤثرات الاجتماعية التي تؤثر في كيانه الفسيولوجي والعصبي ، ولا بد لكي يصبح شخصاً أن يكسب اللغة في التفكير بجانب اكتساب أغراضه وقيمة ، وعلى هذا لا تقتصر الشخصية على ما يميز الشخص ، بل تشتمل أيضاً على الشخص أي ما هو مشترك ، أو يشارك فيه مع الاخرين ، ومن ثم تصبح شخصية الجماعة ، هي مجمل تلك الخصائص المستمرة نسبياً التي يمكن فهمها تفسيرياً وتنبؤياً للنشاط الظاهرة لأعضاء جماعة ما ، في ضوء الزمان والمكان . (٨)

وطالما أننا نتحدث عن الشخصية الجماعية ، فإن ذلك يعني أننا تقترب من الشخصية القومية ، إن النظرة إلى مفهوم القومية ، يعني التكتل والتماسك من أجل تحقيق الكيان القومي ، وينظر بعض مؤرخي الغرب على أن هذا المصطلح من مستحدثات العصر ، تأصلت جذوره منذ أحداث الثورة الفرنسية ، وتبلورت ملامحه في البيئة الأوربية ، ومنها انتشرت إلى أفكار مجتمعات أخرى من العالم فيما بعد .

الواقع أن النظرة القومية لدلالة المعاني تتنافي مع واقع الزمان والمكان ، والدليل على ذلك أن شعب مصر حقق فكرة التماسك الاجتماعي ، والتكتل القومي منذ ألاف السنين قبل الميلاد،

فحينما يرتفع الستار عن التاريخ المصري – كما يقول المـؤرخ " توينبي A. Toynbee " نجد أن أول عمل في بناء القومية كان هو توحيد مصر السفلي مع مصر العليا في مملكة متحدة تتكون منهمـا معاً ، فهي التي استمرت في الواقع كوحدة سياسية واحدة ، ولهـا مقوماتها الثقافية التي تنفرد بها على ما في الحضارات .

نعود للسؤال مرة أخرى في ضوء الاعتبارات السابقة ، هل يعني استمرار القومية المصرية تاريخياً يرتبط بنمط ثقافي معين ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال لابـد أن نشـير أولاً للمكـان وظروف الزمان والعقيدة الدينية ، والتنشئة القيميـة ، والمحكـات الثقافية ، أن هذه العوامل في تفاعلهـا يمكـن أن تشـكل صـورة الشخصية الاجتماعية في أي مجتمع .

المكان : هو مصر ، أرض السلام ، ووادي الرخاء . حتى أن المصريين القدماء فتنوا بواديهم الأخضر وسموه أكثر من أسم ، فهو أي مصر عندهم (كيمه) ، أو سـمراء ، أو (تاكيمـه) أي الخمرية ، وتاوي أي الأرضين ، " وأيدبوي " أي الضفتين ، ولـم يكتفوا بهذا كله بل أضفوا عليها مـن ولعهـم صـفات شـاعرية وقدسيةفقالوا (إيره رع) أي عين شمس ، أو عـين رب الشـمس وقالوا (وجأه نثرو) أي عين رب الأرباب ، و (أترتـي) أي ذات المحرابين ، و(باقة) أي الزيتونة فهي خضراء دائماً .

أما جيرانهم من كنعانيين وأشوريين ، وفينقيـين وبـابليين فكانوا يسمونها مصري ؛ ومشري ، ومصرم ، ومصرايم .

وفي الكتاب المقدس وثراث علماء المسـيحية الأوائـل ورد اسم مصر ومشتقاته في الكتاب المقدس أكثر من مائة مرة ، وتبدو أن ما اشتهرت به مصر من قيم الحكماء ، أنها أسهمت في تشـكيل

شخصية النبي موسي عليه السلام ، وذلك حسب شهادة العهد الجديد في سفر الأعمال (فتهذب موسي بكل حكمة المصـــريين ، وكـــان مقتدراً في الأقوال والأعمال.

أما أن أكرمها القرآن الكريم بذكرها فيطلق الكندي على ذلك بقوله " لا يعلم بلد في أقطار لأرض أتي الله عليه في القرآن بمثـــل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف، ولا شهد له بالكرم غير ، أجل، فلقد كانت مصر فعلاً في تاريخ كل دين ، على أرضها كلـــم الله موسي وبعثه لهداية العالمية ، وأقبل عليها يســـوع فـــي المهـــد وكانت به أسبق المؤمنين ، ثم صارت من بعد حصـــن الإســـلام ، ومعقلة الحصين .

الواقع أن فكرة المكان ما زالـــت تلعـــب دوراً هامـــاً فـــي المعتقدات الدينية ، والشعور الإنساني بتأثيرها ، والدلالات المختلفة في ممارستها .

العقيدة الدينية : وهي تعني الإيمان بحقيقة معينة إيمانـــاً قطعيـــاً لا يقبل الشك أو الجدل ، وبمعني آخر هي الحكم الذي لا يقبل الشـــك فيه " عند معتقدة . ومع ذلك فإن العقيدة هي ما يؤمن به الإنســـان ويقتنع به . وقد تكون هذه العقيدة دينية أو دنيوية ، مبنية على العقل والمنطق وقد تكون بعيداً عن كليهما . اللهم أنهـــا حيـــاة الإنســـان وسلوكه بما يتفق معها ، أما الدين فهم نظام ســـلوكي يقـــوم علـــى معتقات تمثل العلاقات الخلقية المثلي بين الناس وبينهم وبـــين مـــا يعبدون . ويحتوي في أغلب الأحوال علـــى احتفـــالات وطقـــوس وعبارات مقدسة . والدين موجود في كل حضارة رغم اختلافه من واحدة لأخرى عقيدة وتطبيقاً . ويساعد الدين من يعتنقه على تفسير الأحداث المعقدة والتي تبدو بصورة ظاهرية غير قابلة للتفســـير ،

الأحداث المعقدة والتي تبدو بصورة ظاهرية غير قابلة للتفسير ، ويجسد فكرة القوة فيما وراء الطبيعة ، ويستعمل الدين الاحتفالات والطقوس والعبادات والقيود الدينية ليضمن الاتصال بقوي ما وراء الطبيعة عن طريق أفراد يعتقد أن لهم قدراً أكبر على ذلك الاتصال.(٩)

ورغم تعدد تعريفات علماء النفس للشخصية ، **فإنه من الممكن جمعها في مجموعات ثلاث:**

(أ) تعريفات تعالج الشخصية كمثير :

وهي تنظر إلى الشخصية على اعتبار أنها مثير أو مؤثر اجتماعي في الآخرين وتتفق هذه التعريفات مع الاستخدام العادي لكلمة الشخصية عندما تصف شخصاً بأنه قوي الشخصية أو أنه يتمتع بشخصية القائد ، او الزعيم ، أو أنه ضعيف الشخصية ...الخ.

وتعريف الشخصية كمثير ليس قاصراً على التعريفات الدارجة ، بل نجده أيضاً لدي بعض علماء النفس . من هذا القبيل ما أورده " جوردون ألبورت " (G. Allport) تحت اسم " التعريفات الحيوية الاجتماعية " التي تركز على المظهر الخارجي للفرد ، وقدرته علي التأثير في الآخرين ، أو ما يعرف بإسم (قيمة المثير) . ومن أمثلة هذا النوع من التعريفات قوله : (الشخصية هي مجموع ما يحدثه الفرد من تأثير في المجتمع) أو هي (تأثيرك في الآخرين) . وهذا النوع من التعريفات وثيق الصلة أيضاً بالمعني الأصلي للقناع أو الغطاء الخادع .

ومن علماء النفس الذين أخذوا بهذا التعريف " ماي " (May) إذ يعرف الشخصية بأنها – وفقاً لمعناها الأصلي – (ما

يجعل الفرد فعالاً أو مؤثراً في الآخرين . وبلغة علم النفس يمكن أن نعتبرها ما للفرد من تأثير اجتماعي . ومن الممكن أن نعتبر أن كل فرد مؤثراً فيمن يتصل به) .

وقد ذهب إلى هذا الرأي العالم (فلمنج) ، حيث يعتبر أن الشخصية (هي العادات والأعمال التي تؤثر في الآخرين) وهو بهذا التعريف يحذف كما يقول " ألبورت " عوامل الإحباط والقلق والطموح الخاصة التي لا تؤثر في الآخرين . ومن العلماء الذين يذهبون إلى هذا الرأي أيضا ، العالم (لنك) الذي يقول أن الشخصية هي مجموعة تأثيرات الفرد في المجتمع وهو بهذا ينكر شخصية من لا اثر اجتماعي له .(١٠)

والأخذ بمثل التعريفات السابقة يثير صعوبات كثيرة ومشكلات منها :

١ – انه يشير إلى أجزاء معينة فقط من نمط حياة الفرد ، وعلى وجه الخصوص إلى قدرته على التعبير ، والتأثير في الآخرين.

٢ – أنه ينظر إلي الشخصية من حيث قدرتها على التأثير في الآخرين ، وليس من حيث تنظيمها الداخلي ، فنظرته إذن نظرة سطحية خارجية ، فمن المهم أن ننظر إلى الفرد كما هو ، بصرف النظر عن الأسلوب الذي يدرك به الآخرين سماته ، أو بصرف النظر عن تقديرهم هم لهذه السمات .

٣ – أن التطبيق الجامد لوجهة نظر الشخصية كمثير ، تؤدي إلى موقف غريب كل الغرابة يكون فيه الفرد الواحد عدداً غير محمود من الشخصيات شخصية بالنسبة لكل فرد من الأفراد الذين يتصل بهم ، لأن كل واحد منهم سوف يتأثر بشخصيته تأثيرا مختلفاً ، وسوف تكون لشخصيته قيمة تأثيرية مختلفة .

فالشخص الواحد لا يقيم بنفس النظرة من قبل أمه ، ومدرسية ، وإخوته ، وزوجته، وموظفيه ، وزملائه ، ومنافسه ، فهل معني ذلك انه له عدة شخصيات مختلفة ؟ إن تعريف الشخصية على هذا النحو يكون مستحيلاً .

٤ – إن الأثر الكلي الذي يحدثه الفرد في المجتمع ، سيؤدي على تمييز خطير بين درجات أعلي أو أقل في الشخصية . فالأفراد المختلفون لهم درجات متفاوتة من الفاعلية والتأثير في المجتمع الذي يعيشون فيه . فأحدي نجوم السينما التي تكثر الصحف نشر صورها يكون تأثيرها على هذا الأساس أكبر من تأثير العالم الذي يكرس كل حياته ، ووقته لإجراء التجارب في معمله والقيام بالبحوث ، بعيداً عن الأضواء ، لذلك نجد أن وجهة النظر الحيوية الفيزيقية تعارض فكرة التأثير هذه ، وتجعل لكل إنسان شخصيته بصرف النظر عما يحدثه من أثر في الآخرين .

فالتأثير ليس بحال من الأحوال معياراً لوجود الشخصية .

٥ – من المحال إنكار أن لكل فرد صفات وخصائص متميزة ، وشخصيته – المستقلة عن ملاحظات الناس له . صحيح أن الإنسان لا يعيش بمعزل – في العادة – عن الآخرين ، بل يعيش في مجتمع . ولكن ليس ن الضروري أن يقوم الناس بملاحظة الفرد حتى تصبح له شخصيته فالشخصية شيء ، تسلم بوجوده حقيقة داخل الفرد ، بصرف النظر عن تأثر الآخرين ، أن حياة شخص ما في جزيرة نائية بعيداً عن الناس تحت ظروف لا تنفي عنه وجود الشخصية .(١١)

(ب) تعريفات الشخصية كاستجابة :

تحاول هذه التعريفات تلافي الصعوبات التي واجهت علماء النفس في تعريف الشخصية كمثير ، لهذا ظهر – كرد فعل – اتجاه آخر ينظر إلى الشخصية كاستجابة .

فنجد " فلويد ألبورت " (F. Allport) مثلاً ، في كتابه " علم النفس الاجتماعي " يعرف الشخصية بقوله : " أنها استجابات الفرد المميزة ، للمثيرات الاجتماعية ، وأسلوب توافقه مع المظاهر الاجتماعية في البيئة " فشخصية الفرد إذن هي دالة أو وظيفة لسلوكه واستجاباته للمواقف المختلفة .

والحقيقة إن هذا النوع من التعريفات يعد أكثر موضوعية ، وأكثر تقدما من المجموعة الأولي ، ذلك أنه من الممكن أن نطبق عليها أساليب البحث العلمي ، ذلك أن الشخصية أصبحت ترتبط هنا بمظاهر موضوعية سلوكية يمكن دراستها وقياسها بمختلف وسائل القياس التي يستخدمها علم النفس . فإذا ما اتفقنا على الأنماط السلوكية التي تكون الشخصية ، أمكننا البدء في دراستها ، وتصنيفها ، وتحليلها ، وبعد ذلك نأخذ في تحديد شخصيات الأفراد.

وقد أدي هذا إلي أن الكثير من علماء النفس ، قد اخذوا بهذا التعريف وجعلوه أساساً للكثير من الدراسات . ومنها الدراسات الخاصة بتعبيرات الوجه ، أو الانفعالات أو الاستجابات الحشوية أو غير ذلك .

وقد ظهرت بعض الاعتراضات على هذه التعريفات ، أهمها أن نمط السلوك ، كثيراً ما ينتج عن أسباب مختلفة ، فمثلاً في كثير من اختبارات الشخصية نجد هذا السؤال " هل يحدث لك أن تنحرف عن طريقك لكي لا تقابل صديقاً ؟ " والاجابة عن هذا السؤال قد

تكون لأسباب مختلفة ، منها أن يكون الشخص خجولاً ، أو أكثر اهتماماً بعمله ، أو غير ذلك من الأسباب .

ومن العلماء الذين أخذوا بهذه التعاريف كل من " وودورث (Woodworth) و " ماركويس " (Marquis) حيث عرفا الشخصية بأنها " الأسلوب العام لسلوك الفرد كما يظهر في عاداته التفكيرية " وتعبيراته واتجاهاته ، وميوله وطريقته ، وسلوكه ، وفلسفته الشخصية في الحياة .

ومنها أيضاً " روباك " (Roback) الذي وصف الشخصية بأنها مجموعة استعداداتنا المعرفية ، والانفعالية والنوعية . وكلمة مجموع لا تعني مجرد حاصل جمع ، ولكنها تعني تكاملاً بين هذه الاستعدادات .

كما أن تعريف " جاثري " (Guthrie) للشخصية بأنها " العادات ونظام العادات ذات الأهمية الاجتماعية ، والتي تكون ثابتة وتقاوم التغير " يثير أيضاً بعض المشكلات . فهو يتحدث عن نظام العادات ذات الأهمية الاجتماعية . فماذا يكون عليه المر بالنسبة للعادات التي ليست لها أهمية اجتماعية ، فبعض الناس مثلاً اعتادوا الوقوف أمام المرآة والضحك لصورهم عندما يكونون على انفراد ، وهي عادة من الواضح أن ليس لها قيمة اجتماعية ، وإن كانت ذات دلالة بالنسبة لشخصية الفرد .

ثم أن الشخص الواحد حتى عندما يواجه بالمثير نفسه ، فإنه لا يستجيب دائماً بالاستجابة نفسها ، بالمثل أيضاً نجد أن شخصين مختلفين يمكن أن يستجيبا بالأسلوب نفسه ، ولكن لأسباب مختلفة أشد الاختلاف . فعدم الثبات في استجابات الفرد الواحد أحياناً ،

وتشابه استجابات الأفراد المختلفين أحياناً أخرى يوحي بضـــرورة تعديل نظرتنا للشخصية كاستجابة .

(ج) تعريفـات تنظـر إلى الشخصية كمـتغير يتوسـط المثيرات والاستجابات :

أدت الصعوبات التي أثيرت حول التعريفات السابقة إلى أخذ معظم علماء النفس بتعريفات تذهب إلى أن الشخصـــية لا يمكـــن تحديدها عن طريق ما يقوم به الشخص، ولكن على أســـاس أنهـــا حالة من الحالات الداخلية يمكن أن نستنتجها ، وأنها أساس لسلوك الإنسان وتصرفاته .فالشخص قد يكون خجولاً مع الغرباء يخشـــى أن يتحين الفرصة وينأى عن مركز الزعامة في المجموعـــة التـــي ينتمي إليها، ويرجع هذا إلى شعور قوي بالنقص . هـــذا الشـــعور بالنقص يؤثر في عدد كبير من اســـتجاباته . ولا شـــك أن فهمنـــا لشخصيته يزداد ازدياداً كبيراً إذا ما استطعنا أن نصل إلـــى هـــذه المتغيرات المتوسطة والتي تؤثر على سلوكه في عـــدة مجـــالات . وقبولنا لهذا الرأي يؤدي بنا إلى أن " الشخصية عبارة عن التنظـــيم الداخلي للدوافع والانفعالات والإدراك والتذكر التي تحدد أســـلوب الشخصية في السلوك " .

ومعظم التعريفات التي من هذا النوع تذهب إلـــى أن هـــذا التغير الذي يتوسط المؤثرات والاستجابات ليس عـــاملاً واحـــداً ، ولكنه عبارة عن تنظيم ديناميكي – أي تنظيم متغير متفاعـــل مـــن مختلف أنواع الاستعدادات التي للفرد ويظهر هذا فـــي تعريـــف " وارن " و " كارميكـــل " (Waren & Carmichael) وهـــو

أن الشخصية هي التنظيم الكلي للإنسان في أي مرحلة من مراحل نموه .

كما يضيفان أيضاً أن هذا التنظيم الديناميكي فريد ومتمايز عن غيره . أي أنه لا يوجد فردان يتفقان فيه – ويظهر هذا في تعريف " ماكردي " (McCurdy) الذي يصف الشخصية بأنها " تكامل الأنماط والأساليب الذي يميز الفرد عن غيره"، وكذلك " شون " (Shoen) الذي يذهب إلى أن الشخصية (هي التكوين المنظم أو الكل الفعال ، أو وحدة العادات والاستعدادات والعواطف التي تميز أي فرد في المجموع عن غيره من الأفراد " .

ويضيفون أيضاً إلى أن هذا التنظيم يتخذ شكلاً هرمياً متدرجاً ، أي أنهم يفترضون وجود عامل يسيطر على هذا التنظيم، ويجعل منه مركز القمة في الهرم ، ويتضح هذا في تعريف " مكدوجل " (Mc Dougall) و " بريدجز " (Bridges).[١٢]

واستناداً إلى منظور الثقافة والشخصية توصل كلاكهون إلى عدد من التعميمات العامة أو المحددات العامة للشخصية وهيَ :

١) **المحددات العامة** Universal Determinants هي التي تحاول أن تحدد ملامح الشخصية ومعرفة حدودها العامة في كل زمان ومكان دون تمايز أو تميز.

٢) **المحددات المشتركة** Communal أو كما يسميها كلاكهون السمات المشتركة بن أعضاء المجتمع .

٤) **محددات الدور** Role determinants أو ما يطلق عليه محددات الدور الثقافي الذي تلعبه القيم والدوافع الاجتماعية في تنظيم أنماط السلوك وتكوين سمات الشخصية .

كذلك ربط كلاكهون بين نمط الشخصية ونمط الحضارة وسمات الثقافة . فسكان الملايو يصابون أحياناً بنوبة حب القتل وازدياد مشاعر التعطش لسفك الدماء . ويقوم بعض هنود كندا باعتداءات تشبه محاولات الكانيباليين (من أكلة لحوم البشر) وفي ثقافة جنوب شرق أسيا . يعتقد الناس أنهم قد انقلبوا وتحولوا إلى نمور كاسرة . وتنتشر الشيزوفرينيا بين سكان الولايات المتحدة الأمريكية ، وبخاصة بين الطبقات الدنيا ، على حين تنتشر في الثقافة الأرستقراطية في أمريكا أمراض الهياج والكآبة وبخاصة بين الطبقات العليا . وفي سومطره يصاب الناس بجنون الخنازير وهو مرض يؤدي إلى خلل في الجهاز العصبي ، ومن سماته الهياج والتصرفات الشاذة التي تذكرنا بحالة السعار التي تصيب الكلاب الضالة .

وقد ربط علماء الثقافة بين نظرية التكامل النفسي ونظم الثقافة التكاملية ، بمعني أن هناك تلازم حتمي ومفروض بين قطبي الثقافة والشخصية فشعائر الدين مثلاً هي مجموعة من الصور الدينية الحسية المنقولة إلى الطفل أثناء عملية التنشئة الاجتماعية في البيت والمدرسة والمسجد ، حيث يترقي الشعور الديني وتتضح التصورات الدينية ، ويصبح مفهوم الإله متميزاً وعاماً . هذا عن نسق الدين بقيمه وأخلاقه وإحساسه العامة ، ولكن الطريقة التي يلتمسها الناس ويبتغونها في القربة إلى الله واستدارا لطفه وعطفه ورحمته ، وإنما تختلف باختلاف الخبرة الدينية وتتمايز طبقاً لشكل

نسق الدين بقيمه وأخلاقه وإحساسه العامة ، ولكن الطريقة التي يلتمسها الناس ويبتغونها في القربة إلى الله واستدارا لطفه وعطفه ورحمته ، وإنما تختلف باختلاف الخبرة الدينية وتتمايز طبقاً لشكل الثقافة بدائية كانت أم متحضرة ، فقد يقتصر المؤمن في ثقافة ما على الالتزام بالصبر والجلد طلبا للعون الإلهي ، وفي ثقافة أخرى قد يفرض الفرد على ذاته نظاماً صارماً يطهر به نفسه ليتقرب إلى الله حتي ينعم بالرحمة والمغفرة .[١٣]

ولا شك أن الثقافة إنما تفرض الخبرة والميل وتضع القيم وتحدد المزاج وكلها أمور جوهرية في البناء الأساسي للشخصية .

ويحدد كلارك هيل Clark Hull منهجه في دراسة الشخصية فيقول في البدء كان الكائن العضوي Organism أولاً ثم البيئة Environment ثانياً بمعني أننا ينبغي أن نبدأ بدراسة الكائن العضوي من حيث المعني الفيزيقي ومن وجهة النظر البيولوجية والتشريحية ثم نعالج تركيب الإنسان من ناحية البناء الاجتماعي ومن وجهة النظر الاجتماعية والثقافية للكشف عن تلك الجوانب التي اكتسبها الإنسان الفرد من البيئة بكل ما تحويه من ظواهر ايكولوجية وأشكال موروفولوجية ومصادر تاريخية وكلها عناصر ثقافية وليست عضوية .

وإذا ما استخدمنا طريقة "كلارك هيل" وكيفية فهمه لدراسة الشخصية فينبغي أن نبدأ أولاً بتحليل عناصر وسمات الشخصية فبفضل التحليل نستطيع أن نضع أيدينا على تلك الاختلافات القائمة بين سائر الأفراد حيث ترجع الفروق الفردية Variations إلى ظروف الوراثة والتكوين البيولوجي وإلى عوامل التوافق بالثقافة

والانسجام مع العلوم البيئية . وقد ميز بين ثلاثة أشكال للبيئة هـــي البيئة الطبيعية أو الفيزيقية والبيئة الاجتماعية ثم البيئة الثقافية .(١٤)

العناصر الأولية للشخصية :

حاول كثير من العلماء تقسيم الشخصية وتحليلها إلى وحدات أولية رئيسية ثم تحليل هذه الوحدات بدورها إلى فـــروع وعوامـــل مفصلة ، إلى أن وصلوا إلى قوائم طويلة للصـــفات التـــي يصـــح دراستها للحكم على الشخصية حكما شاملاً من جميع النواحي . وقد وصل عدد هذه الصفات في قائمة صنفها " كاتل " مثلا إلـــى ١٧١ صفة . وهذا التحليل المسترسل في التفاصيل ، إلي صفات فرعيـــة متعددة لا يفيد كثيراً في إعطاء صورة سريعة للشخصية ، وإن كان التحليل بالصورة المشار إليها يفيد كثيرا بل لا يستغني عنـــه فـــي بعض الأبحاث التي تركز جهدها في الناحيـــة الإحصـــائية بقصـــد اتخاذها أساساً لأبحاث أخري ترتكز عليها .(١٥)

والواقع أنه مهما اختلفت قوائم العلماء في ظاهرها وتفاصيلها فـــان أغلبها يتفق على أن العناصر الأولية الرئيسية للشخصية هي :

١ – النواحي الجسمية (Physical) .
٢ – النواحي العقلية المعرفية (Cognitive) .
٣ – النواحي المزاجية (Temperamental) .
٤ – النواحي الخلقية (Character) .

ومن الضروري أن ننظر إلى هذه العناصر الأربعـــة فـــي ضوء البيئة الاجتماعية والوسط الثقافي العام الـــذي تتكـــون فيـــه الشخصية وتنمو .

١ – أما النواحي الجسمية : فالمقصود بها حالة الجهاز العصـــبي ، وتأثير الغدد الصماء وحالة الجهاز الهضمي والحواس المختلفة

من ناحية حدتها أو ضعفها وكذلك شكل الجسم العام وقوة العضلات وتناسب التقاسيم ورنة الصوت وسرعة الحركات أو بطئها .. الخ .

٢ – وأما النواحي العقلية المعرفية : فهي إما فطرية كالذكاء والقدرات التحصيلية، والمواهب الخاصة ، وإما مكتسبة كالآراء والأفكار والمعتقدات والمعلومات المختلفة .

٣ – وأما النواحي المزاجية : فهي مجموع الصفات الانفعالية المييزة للفرد ، وتتضمن تلك الاستعدادات الثابتة نسبياً المبنية على ما عند الشخص من الطاقة الانفعالية والدوافع الغريزية التي يزود بها والتي تعتبر وراثية في أساسها وهي تعتمد على التكوين الكيميائي والغدي والدموي . وتتصل اتصالاً وثيقاً بالنواحي الفسيولوجية والعصبية وتظهر في الحالات الوجدانية والطباع والمشاعر والانفعالات من حيث قوتها أو ضعفها ، ثباتها أو تقلبها ومدي الميثرات التي تثيرها .

٤ – وأما النواحي الخلقية : فتشمل الصفات الخلقية المختلفة كالأمانة والخيانة والتعاون والأنانية والصدق والكذب والأقدام والتهيب والرحمة والغلظة والعدل والظلم والتسامح والتعصب والمسألة والعدوان والكرم والبخل ، إلى غير ذلك مما يدخل في نطاق الاتجاهات النفسية المختلفة .

تداخل عناصر الشخصية :

سبق أن شرنا إلى وجوب دراسة الشخصية كوحدة ومعني ذلك أنه لا بد من الاهتمام بإبراز ما بين عناصرها من امتزاج وتداخل وتفاعل مستمر . فكل ناحية من نواحي الشخصية تؤثر في باقي النواحي الأخرى كما تتأثر بها . وقد أدرك الناس من قديم

الزمان ما بين الناحية الجسمية للشخص من علاقة وثيقة واتصال كبير بالناحية العقلية حيث قالوا: (العقل السليم في الجسم السليم) والواقع أن أثر الناحية الجسمية في الشخصية لا يقتصر على الناحية العقلية ، بل يمتد إلى جميع عناصرها .

فمن الثابت علميا إن لافرازات الغدد الصماء تأثيراً كبيراً ليس فقط على النمو الجسمي والحركي بل أيضاً على الذكاء واليقظة الفكرية ، وعلى الاتزان الانفعالي والنضج الجنسي . وكل هذا يؤثر في الشخصية من حيث اتزانها أو اختلالها .

كذلك العاهات والأمراض خصوصاً المزمنة منها ذات أثر بعيد في النواحي العقلية والمزاجية والخلقية . فبعض العاهات لها أثر تعويضي يتضح من المثل القائل : " كل ذي عاهة جبار " وهذا الأثر كثيراً ما يظهر في شحذ قدرات الشخص الجسمية والعقلية كما يظهر بشكل بارز في صفاته واتجاهاته الخلقية وتعامله مع الناس . وهناك عاهات يحدث عنها شذوذ بالغ في الشخصية كالعاهات الناتجة من حوادث الإصابات في المخ مثلا .

أما الأمراض ، خاصة المزمنة ، فلها أثر لا يقل عن أثر العاهات إذ أنها تؤثر على الجسم كله وتحد من قدرة الشخص على استغلال طاقته العقلية كما تؤثر في الناحية المزاجية والاجتماعية من شخصيته فتجعله خاملا في تفكيره مثلا أو سريع التهيج والغضب في تصرفاته ، أو تجعله ساخطاً متبرما ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود .

وغني عن الذكر أن البنية القوية والصحية الموفورة تعينان الشخص على الوقوف من الحياة موقف المتحدي مما لا يقدر عليه العليل أو السقيم ، فالصحة الجسمية بلا شك أساس الصحة النفسية.

ويقول الدكتور عزت راجح : إن الضعف العارض قد يورط في زلة خلقية عابرة ، وعندما تهجر العافية تفتر الشجاعة ويزداد الكسل ويغل الطبع الحاد أو يفور . وقد نكون على حق أحيانا حين ننسب هذه التغيرات إلى طعام تناولناه أو أرق بلينا به أو سموم في الدم . يضاف إلى هذا أن بالجسم غددا صماء . تفرز مواد ذات فاعلية شديدة تسمي " الهورمونات " وهي مواد إن لم تفرز بقدر معلوم اختل ميزان الجسم كله وبدت تغيرات ملحوظة في هيئة الشخص وبنيته ومزاجه وذكائه وغير ذلك من مظاهر شخصيته مما قد يؤثر في عاداته الاجتماعية واتجاهاته النفسية .

وأما أثر **الناحية العقلية** في نواحي الشخصية الأخرى فيمكن إيضاحه إذا قارنا بين الشخص الذكي والشخص الغبي ، وضعيف العقل ، فالذكاء وهو أهم وأبرز القدرات المعرفية الفطرية العامة – سلاح الشخصية في التصرف والتكيف والتحكم في النزعات والدوافع الفطرية ، والتوفيق بينها وبين تقاليد البيئة ومقتضياتها . فالشخص الذكي يستطيع أن يقدر ويفهم معني وأهمية وكيفية المحافظة على صحته ووقايتها من الأمراض ، ويستطيع أن يستفيد من الظروف وأن يستجيب لمن يربيه وينشئه ، ويكيف نفسه للوسط الذي يعيش فيه ، بأن يتحكم في نزعاته ودوافعه غير الاجتماعية ، وينمي ميوله واتجاهاته الاجتماعية ، وبذا يسهل امتصاصه للثقافة التي يعيش فيها .[١٦]

أما الشخص الغبي فإن غباءه يتسبب في صعوبة تنشئته التنشئة الاجتماعية المتكاملة . وتكون شخصيته عرضة للانحراف والشذوذ الاجتماعي والخلقي .

" وتدل الإحصاءات التي تعمل في محيط الانحراف والأجرام على أن احتمال انسياق الشخصية إلى الأجرام يتناسب تناسباً طردياً مع درجة الغباء وعكسيا مع درجة الذكاء " .

أما **الضعف العقلي** وهو المرتبة الدنيا من مراتب الذكاء ، فله أثر كبير على جميع نواحي الشخصية إذ يصبحه غالباً ضعف في النمو الجسمي والانفعالي والخلقي ، ولهذا نجد أن الضعف العقلي يؤدي إلى عدم النجاح وانحلال الشخصية مهما تهيأت ظروف البيئة . ومن الصفات المعروفة عن ضعاف العقول أنهم يتأخرون في النمو وفي المشي والكلام وفي سرعة التعلم . وأن فيهم ضعفاً في التوازن الحركي بحيث يبدو ذلك في تعبيرهم بالكتابة أو الرسم إذا أريد تعليمهم كما أن أفكارهم ضئيلة وآراءهم سطحية ، وفهمهم بطئ جداً وليس لديهم القدرة على التحكم في دوافعهم النفسية وانفعالاتهم الغريزية وقد ظهر في البحوث التي تناولت الأسرة المنحلة أخلاقيا أن الضعف العقلي ظاهرة شائعة بين أفرادها . وقد أدي هذا الكشف إلى ربط الأجرام بهذه الظاهرة ربطاً عليا .

وخلاصة القول إن النواحي العقلية وما يتصل من نواحي معرفية تؤثر في النواحي الأخرى للشخصية . فشخصية ضعيف العقل يتضح فيها الشذوذ الجسمي والانفعالي والخلقي كما أن شخصية الذكي يغلب أن تكون متكاملة . وذلك لأن ذكاءه يسهل عليه استغلال قدراته وتكييف نفسه للبيئة التي تعيش فيها . ولا يتحتم أن يكون الذكي متكامل الشخصية حسن الأخلاق ، لأن الذكاء ليس وحده العامل الوحيد في تكوين الشخصية السوية المتكاملة . فالذكاء يزود الشخص بالوسائل لا بالدوافع أي أنه لا يدفع ويحفز ،

بل يوجه ويرشد ، ولكي ندرس سلوك الفرد وشخصيته لابد أن نعمل حسابا كبيراً للدوافع المختلفة من جهة ، وللقدرة على ضبط النفس من جهة أخرى . فالشخص الذكي يستطيع بلا شك أن يميز بين الصواب والخطأ ، وبين الخير والشر ، وبالرغم من ذلك فقد يسلك سلوكا خاطئاً أو منحرفاً لأنه يعجز عن ضبط اندفاعاته وبالتالي يعجز عن تكييف نفسه للمواقف التي تقابله .

وأما تأثير **الناحية المزاجية** في نواحي الشخصية الأخرى فيتضح لنا من ملاحظة ودراسة أثر الانفعالات في سلوك الفرد وما يطرأ عليه بسببها من تغييرات شاملة عقلية وجسمية . ومن التجارب التي أجراها (Cannon) لملاحظة ما يصحب الانفعال من تغيرات أنه فحص بأشعة أكس قطة بعد أن تناولت غذائها فرأي أن المعدة تقوم بحركتها المنتظمة في عملية الهضم . ثم أظهر أمام القطة كلباً كبير الحجم ، فلاحظ (كانون) أنه بعد أن أدركت القطة الكلب ، ظهرت عليها علامات الخوف المعروفة بكل التغيرات الظاهرية التي نلاحظها على القطط في حالة الخوف ، ولاحظ في الوقت نفسه إن عملية الهضم وقفت دفعة واحدة . ووصل بملاحظاته الإكلينيكية إلى أن الأوعية الدموية انقبضت في المعدة واتسعت في أطراف الجسم ، وأن ضغط الدم قد زاد زيادة كبيرة في هذه الأطراف ، وأن تغيرات عدة طرأت على إفرازات الغدد مما أدي إلى ازدياد العرق وقلة اللعاب ، وزيادة الأدرنالين الذي يساعد على رفع نشاطِ الجسم كله إلى درجة كبيرة فمن وظائف الأدرنالين مثلاً مساعدة الكبد على إخراج السكر المخزون إلى الدم وهذا السكر يحترق أثناء نشاط الكائن الحي ، فيزوده بالطاقة والقدرة على الاستمرار في نشاطه .(١٧)

الشخصية القومية :

أما الشخصية القومية في الاتجاه البيولوجي فيري هونجمان Honigmann أن عملية التربية والتعليم ذات أهمية في المحافظة على أنماط الشخصية القومية واستمرار انتقالها من جيل لجيل .

أما كليد كلاكهون فيري أن الأنثروبولوجيين يهتمون بدراسة الشخصية القومية باعتبارها محاولة لتفسير تكامل الأنماط الثقافية ، فالشخصية القومية تعبر عن نماذج السلوك السائدة وانعكاس أسلوب الحياة والنظرة إلى العالم عند أفراد المجتمع ، ومعنى هذا أن الشخصية القومية هي ما تميز قوما عن قوم ، وجماعة عن جماعة، وطبقة عن طبقة ، في فترة زمنية محددة . كما يري كلاكهون أن حجم المجتمع يؤثر في تحديد الشخصية القومية . فالشخصية القومية لا توجد إلا بين جماعات الفلاحين والعمال ، وتضعف عند الجماعات المتحركة الصاعدة ، كذلك تضمر العناصر المكونة للشخصية القومية عند الجماعات ذات التطلعات الطبقية ، ولا وجود للشخصية القومية عند أولئك الذين يحتلون مكانة في أعلى السلم الاجتماعي .(١٨)

فالاهتمام بدراسة الشخصية القومية عند الأنثروبولوجيين بدأ بين الحربين الأولي والثانية لدراسة الشعوب لا المجتمعات . وفهم الحضارات والثقافات لأغراض سياسية وعسكرية ، وهي دراسات وصفية تقريرية والشخصية القومية عند الأنثروبولوجيين جامدة تعبر عن سلالات الإنسان المختلفة ، ولا يؤمن الأنثروبولوجي بتغيير الشخصية القومية لأنها دائماً محصلة أساليب التربية ، وتعتمد في وجودها على الميراث الاجتماعي.

وفي هذا الصدد أشارت مارجريت ميد (١٩٥٣) في أحد مقالاتها الهامة بأن كل بحوث الشخصية القومية لم تكن تجري لذاتها ، وإنما كانت أشبه بالدراسات التطبيقية الغرض منها إمداد السلطات العسكرية والجهات الحكومية بالبيانات اللازمة ، والتي تسمح لهم بفهم القيم السائدة عند الشعوب التي تدخل الولايات المتحدة الأمريكية في علاقات معها ، ويري هوبيل Hobel (١٩٦٧٨) أن ارتباط دراسة الشخصية القومية بالمؤثرات القومية لا يؤثر على القيمة الأكاديمية والعلمية لتلك الدراسات .

وقد انتهي ملاكهون وزميلاه ميري وشنيدر (١٩٥٣) في كتابهم الشخصية في الطبيعة والمجتمع والثقافة إلى الربط بين وجهات النظر الثلاثة بقولهم المأثور :

أ) كل إنسان يشبه جميع الناس في كل الجوانب .

ب) كل إنسان يشبه بعض الناس أو جماعة من الناس .

ج) كل إنسان لا يشبه أي إنسان آخر .

وتشير العبارة الأولي إلى الخصائص المتشابهة بين جميع أفراد البشر من ناحية التكوين الفسيولوجي ووظائف أجهزته ودوراته المختلفة مثل الجهاز العصبي أو الدورة الدموية والغدد وغيرها فتكوين ووظائف هذه الأجهزة متشابهة لديهم . كما أنها تشير إلى الدوافع الفسيولوجية والدوافع النفسية والاجتماعية الناتجة عنها إلى تأثره بالتنشئة الاجتماعية مما يشكل وحدة بين جميع البشر.[١٩]

في حين تشير العبارة الثانية إلى الخصائص الجماعية الناتجة عنه العيش في مجتمعات مختلفة في حضارتها وثقافتها وتقاليدها وأساليب تنشئة أبنائها الذي ينعكس بدوره في شكل سلوك

متشابه بين سلوك أفراد هذه المجتمعات والذي يميزهم عن أفـراد ينتمون إلى جماعات أخرى مختلفة . وهذا يعني أن فئتي الـذكور والإناث تمثلان جماعتين مختلفتين ضمن المجتمع الواحد أما العبارة الثالثة فتشير إلى الخصائص الفردية في السلوك التي تميـز الفـرد بين أفراد الجماعة الواحدة وحتى بين أفراد الأسرة الواحدة ، والتي تعكس بالضرورة الفرق بين الأسرة في نفس المجتمع ، والفرق في معاملة وتنشئة الأطفال في أسر مختلفـة . وهـذا بـدوره يعكـس التكوين النفسي للوالدين وأثره على تربية أولادهما وبعـد عـرض أداء الأنثروبولوجيين لمفهوم الشخصية وعلاقتها بالثقافة يتضح لنـا أن الدراسات الأنثروبولوجية **اتفقت على النتائج التالية :**

أولاً : اختلاف أنماط الشخصية باختلاف الثقافات .

ثانياً : وجود اختلافات فردية مقبولة في الشخصية نتيجة لاختلافات القدرات الفطرية .

ثالثاً : أن الشخصية القومية قلما تتغير .

رابعاً : أهمية أساليب التربية في تكوين الشخصية .

خامساً : أن الكثير من أوجه الاختلافات في الشخصـيات وأيضـاً الكثير من أنماط الشخصيات تتكرر في كل المجتمعات .

سادساً : أن الشخصية ذات أبعاد ثلاثة : بعد اجتماعي وبعد نفسـي وبعد فسيولوجي.

وعلى هذا فإننا نرفض وجهة النظر التي تحاول أن تفسـر الشخصية نتيجة أسباب بيولوجية بحتة ، أو نفسية وتهمل الظروف الاجتماعية وتنكر الثقافة ، فالثقافة لها أثرها فـي تحديـد أسـاليب التربية ، وتحديد قيم الوالدين إزاء الأبناء ، فمن الخطـأ أن نحلـل

المجتمع وحده .[٢٠] أن الشخصية الاجتماعية تختلف من طبقة لأخرى، ومن فئة لأخرى .

الشخصية القومية بين العلم والأيديولوجيا :

منظورات دراسة الشخصية القومية :

لقد نال موضوع **الشخصية القومية** اهتمام العديد من الباحثين في العلوم الاجتماعية ولكن بدرجات متفاوتة . وتنطلق العلوم الاجتماعية – على اختلاف مداخلها – من منظورات فكرية محددة في دراستها للشخصية القومية . ونستطيع أن نقسم المنظورات الفكرية السائدة في دراسة الشخصية القومية على منظورات ثلاث أولها وأقدمها **المنظور الطبيعي** الذي ينقسم إلى المنظور العنصري ، والمنظور الجغرافي والبيئي في دراسة الشخصية . وثاني هذه المنظورات هو **المنظور القومي** وهو الأكثر شيوعاً بين علماء السياسة والقانون . أما المنظور الثالث والأخير فهو **المنظور السوسيولوجي** الذي ظهر من خلال جهود علماء الاجتماع بصفة عامة وجهود رواد مدرسة فرانكفورت وإريك فروم بصفة خاصة.

ولا شك أن هذه المداخل مشتركة بين العديد من العلوم الاجتماعية ، وبين مفكرين آخرين كثيرين أيضاً . ولذلك سنتحدث عن كل مدخل بشيء من التفصيل.

١ – (الحتمية البيولوجية والحتمية الجغرافية) المنظور الطبيعي Natural Perspective:

يعد المنظور الطبيعي من أقدم المنظورات الفكرية في دراسة الشخصية القومية . وينقسم أصحاب المنظور الطبيعي إلى فريقين أساسيين : الأول : يمثله القائلون بالحتمية العنصرية أو

دراسة الشخصية القومية . وينقسم أصحاب المنظور الطبيعي إلى فريقين أساسيين : الأول : يمثله القائلون بالحتمية العنصرية أو البيولوجية في دراسة الشخصية القومية ، والثاني ويمثله القائلون بالحتمية الجغرافية .

ومن أهم وأقدم القائلين بالحتمية العنصرية " آرثر دي جوبينو Gobineau "(١٨١٦ – ١٨٨٢) الذي كان ينتمي إلى الأرستقراطية الفرنسية ، وكان فخوراً بأنه سليل الفاتحين النيوتونيين لبلاد الغال ، وكان يعتبر الألمان أقل عراقة من الفرنسيين نتيجة للاختلاط البيولوجي الضخم للألمان أما العنصر الأسمى الأكثر نقاءً في رأيه فهو الذي ظل يحافظ على نقائه في إنجلترا .

وقد أكد جوبينو أهمية العامل العنصري في التطور الاجتماعي من خلال استبعاده للفروض الأخرى استبعاداً تعسفياً . فأكد أن الظروف العنصرية هي التي تحكم المشكلات الكبرى في التاريخ ، فالتفاوت العنصري كاف إذن لتفسير مصائر الشعوب ، حيث تستطيع الأجناس الراقية إحراز التقدم في الوقت الذي تظل فيه أجناس أخرى كالهنود الأمريكيين مثلاً محكومة اجتماعياً وثقافياً بميراثها العنصري، ولذلك فإن كل المدنيات الأساسية من عمل الآريين وهم لا يمثلون في الحقيقة مجموعة سلالية أو عنصرية والعنصر الآري في رأيه هو سلف أرقي فروع الجنس الأبيض .

ولم يوضح جوبينو العوامل التي تكون عنصراً أو جنساً من الأجناس ، وخلط خلطا سيئاً بين العنصر بوصفه قسما بيولوجيا من البشرية وبين الجماعات العرقية التي تتكون من أشخاص يتكاملون معاً عن طريق تقبلهم العام لثقافة معينة واشتراكهم فيها . وقد أكد –

من وجهة النظر العنصرية هذه – أن غزو شعب بواسطة شعب آخر أرقي منه عنصراً ، يتبعه تحسن في النوعية الوراثية للغزاة شريطة الحفاظ على النقاء العنصري .[٢١]

ونظرية جوبينو نظرية خاطئة من الناحية الأنثروبولوجية . فليس ثمة أجناس راقية وأجناس دنيئة . ونستطيع أن نقول إن العنصر لا يحدد القدرات الإنسانية الموروثة ، كما أن النظرية أيضاً خاطئة من الناحية السوسيولوجية ، حيث يترتب علي اختلاط الأجناس شأنه شأن اختلاط الثقافات غالباً ازدهار الثقافة . ونود أن نشير إلى أن الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع لم يتوصلا إلى هذه الحقائق المتاحة الآن في هذا الوقت الذي أخرج فيه جوبينو مؤلفاته.

وفي نهاية القرن التاسع عشر اتخذت نظريات " جوبينو " طريقها إلى ألمانيا من خلال عمل " هوستون ستيوارت شامبرلين Houston Stuart Chamberlin " وهو العمل الذي تأثر به الإمبراطور وليم الثاني وحاشيته تأثراً عميقاً . مع أن شامبرلين قد سار على منوال الخطوط الرئيسية لنظرية " جوبينو "، إلا انه ذهب إلى أن الاختلاط العنصري لا يكون دائماً معوقاً ثقافياً . فمن الممكن أن تظهر أنواع من الاختلاط مرغوباً فيها ، وهي ما ينبغي صيانته والحفاظ عليه.

ولقد تبنت هذه المبادئ العنصرية الاشتراكية الوطنية أن النازية في مرحلة لاحقة كما أن هذه النظريات قد ساعدت أيضاً على ظهور النزعة الإنجلوسكسونية، وهي نزعة شاعت إلى حد كبير في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ولعبت دوراً هاماً في سن القانون المقيد

للهجرة في عام ١٩٢٤ ، وهو القانون الذي روجعت أقسامه الرئيسية في عام ١٩٥٢ .

وكثيراً ما تقابل فكرة الشخصية القومية بشيء من الامتعاض من قبل علماء الاجتماع فما زالوا لا يفضلون النظرة العنصرية التي ترجع وجود الشخصية القومية إلى الاختلافات العنصرية والعرقية بين الشعوب .

أما أنصار **الحتمية الجغرافية في دراسة الشخصية القومية** ، فينصب جل اهتمامهم على دراسة العلاقات المتبادلة بين أفراد الشعب والأرض التي يعيشون عليها ، وعلى ذلك يري الجغرافيون أن الشخصية القومية نسق من القيم والسلوك يمكن أن يتغير في البيئة التي يمارس فيها الأفراد سلوكهم . ويشترك الجغرافيون المهتمون بالجغرافيا الثقافية مع العلماء الاجتماعيين في مشكلة تعريف وملاحظة وتفسير الشخصية القومية ، وهم يتساءلون في مشكلة وجودها وإذا ما كانت موجودة بالفعل ، فهل يمكن أن تدرس دراسة موضوعية ، أم هي صورة في الذهن ، تنتقي وتشوه من خلال العدسات الثقافية للباحث كما أشار "والترليمان" . وهل تشكل شخصية شعب معين كلا متجانسا ، أم أنها تحتوي على متناقضات لا سبيل إلى أن نوفق بينها . وهناك رأي بين المهتمين **بالجغرافيا الثقافية** يري أن الشخصية القومية ثمرة للتاريخ وتخضع للتغير ودائماً في صيرورة وليست ثابتة ، بيد أن خصائص وطبائع وأخلاق الشعوب ليست مثل الأزياء تظهر ثم تختفي ، إذ إن عملية التحول بطيئة ، أن معدل التغير تتفاوت شدته من ثقافة لأخرى ، مثال ذلك الكرم الذي يسود المجتمعات البسيطة التي تقوم على الاكتفاء الذاتي يمكن أن يختفي نتيجة انتشار الاقتصاد

التجاري. ولكن هناك سمات أخري أكثر تماسكا وخاصة تلك السمات والقيم الروحية التي تشكل جوهر الذات القومية .

ويعد **ابن خلدون** من أول المهتمين بإبراز أثر البيئة على الإنسان ، فلقد وجه ابن خلدون مزيد عنايته إلى دراسة مظاهر التفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية . وقد تعرض لإظهار أثر العامل الجغرافي على المظهر العمراني في أكثر من موضع ، ففسر كثرة العمران وازدياد السكان بالظروف المناخية ، وتأثير المعتدل من الإقليم والمنحرف منها في ألوان البشر والكثير من أحوالهم . ويقرر أن الأقاليم المعتدلة يكون سكانها أعدل أجساماً وأخلاقاً واديانا ، بل أنه يؤكد أكثر من ذلك أثر المناخ في أحوالهم المعيشية .(٢٢)

كما يري ابن خلدون أن من أهم العلل التي تساعد على تكوين طبائع الأمة هو طبيعة الإقليم فهو يعين سجيتهم بحصر المعني كما يعين انسجام روحهم العام ومزاجهم المعتاد .

هذا ولقد لعب هنرى بكل Buckle (١٨٢١ – ١٨٦٢) دوراً في ابتداع شكل من أشكال الحتمية الجغرافية في الفكر السوسيولوجي في القرن التاسع عشر. وتتمثل الفكرة الرئيسية في أن العمليات التاريخية والاجتماعية إنما هي رد فعل للظواهر الخارجية وتأثيرها على العقل ، كما هي من فعل العقل وتأثيره على تلك الظواهر.

ولقد أكد بكل أن المناخ هو الذي يحدد نوعية العمل . فالمناخ المعتدل يدفع إلى النشاط بينما يدفع المناخ الحار إلى الكسل والاسترخاء . وتظهر العادات المختلفة أو المتنافرة في المناطق الشديدة البرودة . وقد اختبر " بكل " هذه الفروض بواسطة

ملاحظاته العامة للظروف الجغرافية والاجتماعية في أيرلندة والهند ومصر وأمريكا الوسطي وبيرو ، وانتهي إلى أن ملاحظاته تدعم نظرياته .

ولقد شغلت دراسة أثر الظروف الجغرافية كثيراً من الكتاب الذين سبقوا " بكل " أمثال أرسطو وابن خلدون ومونتسكيو ، وعديد من الجغرافيين الحتميين في الوقت الحاضر لا يزالــون يتخــذون وجهة النظر هذه حتى الآن .

ومن أمثال هؤلاء الجغرافيين الحتميين المعاصــرين جمــال حمدان الذي قدم مساهمة مخلصة لمحاولة فهم شخصية مصر مــن خلال تحليل اللاندسكاب (مظاهر الطبيعية) . كما انعكــس علــى الشخصية المصرية . ولقد أوضح جمال حمدان أن الحاجة الشديدة لفهم كامل لوجهنا ولو وجهتنــا ولكياننــا ومكانتنــا ولإمكانياتنــا ولنقائضنا وسلبياتنا هي التي دفعته إلى الاهتمام بدراسة شخصــية مصر، فشخصية مصر هذه ، وإن اشتركت فــي بعــض ســماتها وخصائصها مع أقاليم وبلدان أخرى . فلأنها انفردت بمجموعة من السمات والخصائص والملامح هي التي صبغت شخصــية مصــر ككل بطابع فريد مميز نادر . فهي جغرافيا تقع في أفريقيا ولكنهــا ترتبط تاريخياً بآسيا . وهي فرعونية الجد ، وعربية الأب ، ثم أنها بجسمها النهري قوة بر وبسواحلها قوة بحر .(٢٣)

ولأن الدين تعبير رمزي عن النظام الاجتماعي الذي يعــيش فيه أفراد المجموعة التي تدين به فإنه يخلق بينهم تماسكاً أقــوى . ويقدم لهم مجالاً أوسع للاتصال الاجتماعي ويخلــق الــدين كــذلك نظاماً من السلطة يمكن الفرد أن يميز بواسطته بين الصحيح مــن أعماله والخطأ منه ، ويأخذ الدين في الشــعوب البدائيــة أشــكالاً

مختلفة، فمن تلك الشعوب من يعبد إلهاً واحداً ومنها ما يعبد عـــدة آلهة وهناك شعوب تعبد أجـــدادها وأخـــرى يقـــوم دينهـــا علـــى الطوطمية: (Clyde) .

وحينما ننتقل من الشعوب البدائية إلى الشعوب التي شـــهدت تطوراً حضارياً، استطاعت العقيدة الدينية أن تشكل هويتها الثقافية، نجد أن الحضارة المصرية ، تشكلت فيها العقيـــدة الدينيـــة بعبـــادة الكواكب التي كان بين أقدمها موضوعاً عبادة القمر وعبادة الشمس التي كانت تعبد أحياناً على أنها الإله الأعظم أو " رع " وكان ينظر إلى الشمس أو " رع " على أنها هي الأب الـــذي أخصـــب الأرض الأم بأشعته المحملة بالحرارة ، والضوء ، كما كانت الشمس تصور أسطورة العجل المقدس الذي يولد كل يوم مولداً جديداً عند الفجر ، ويعبر الماء في قارب سماوي ثم ينزل مع الغروب ، وأول أطفـــال ولدوا على هذا العالم إنما كانوا أولاداً مباشرين لرع أو الشمس التي هي سر حياة هذا العالم وما به من نباتات وحيوانـــات لأن الجميـــع يعيشون بأشعتها وضوئها التي هي مصدر الطاقة في كل ناحية من نواحي الإنسانية والحيوية ، فلم يكن ثمة إنسان أو حيوان أو نبـــات موجود عند حدوث أول شروق للإله الشمس الذي عندما بدأ يشرق ملأ الأرض بالموجودات نباتات كانت أو حيوانات أو بشر وكـــان المصريون الشعبيون يعتقدون أن الإنسان الأول أو أول موجـــودات ولدت إنما كانت خيرة لا تعرف الشر ، ثم حدث بعد ذلك أن تطرق الشر إلى نفوسهم مما أدي إلى غضب الإله عليهم سخطه الذي أدي إلى القضاء على جزء كبير من الجنس البشري ، وإذا كان هذا هو المعتقد الشعبي فإن الطبقة المثقفة من المصريين كانت تناقش هـــذا الاعتقاد ونتساءل عما إذا كان أفراد الإنســـان الأول قـــد عاشـــوا

كالحيوانات بلا لغة أو أي فن للحياة البشرية ، وعما إذا كانت هــذه الفنون قد نتجت عن الحياة الإنسانية الاجتماعية ، ومن الطريف أن المصريين قد ناقشوا هذه المسائل منذ أكثر من خمسة ألاف ســنة. على حين أن البحث العلمي لم يهتم إلا بعد أن نشــأت الدراســات الأنثروبولوجية وتطورت في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ولقد عبد المصريون في جهات شتي من أرض مصر - حيث كان لكل منطقة بل لكل حوض Nome وأنواع خاصة من الآلهة - كما كان لأخرى ، كالنخل الذي كان يظل أواسط الصحراء ، والينابيع التــي كانت تمدهم بالماء ، والأراضي المنبتة وسط الأراضي القاحلــة ، لأنهم كانوا يجدون منها أمكنة للراحة والترويح .(٢٤)

فهذا التفاعل بين الموقع والموضع أدى إلى تكوين الشخصية المميزة . وأهم ملامح هذه الشخصية التي هي مركب فريد يعــيش في بيئة حدد النيل إيقاعهــا هــي التجــانس والوحــدة والطغيــان والخضوع للسلطة المركزية والتبعيــة السياســية بعــد الســيطرة والأساس الخارجي للبناء الحضــاري ، والتفاعــل بــين العزلــة والاحتكــاك وتعــدد الجوانــب والأبعــاد والتوســط والتــوازن والاستمرارية والتقطع ، ثم أخيراً الوطنية والقومية .

وشخصية مصر تأثرت بنهر النيل ، وهو مانح الحياة الحياة وموزع الحياة بها ، وهو سبب تجانسها التركيبي . ويكمــن نهــر النيل وراء عوامل كثيرة وعديدة، أثرت في سكان مصر وتــتحكم في كل مظاهر العمران في البلاد ، إذ يزدحم العمران كلما قربنــا منه . ويقل العمران كلما بعدنا وكل شيء في مصر مــن مظــاهر العمران من صنع النيل .

٢ – المنظور القومي National Perspective :

إن هذا المنظور أكثر شيوعاً بين علماء السياسة والقانون . وهم يرون أن الشخصية القومية تعكس النظم القومية السائدة أو الشائعة أو الممثلة وخاصة تلك التي تهتم بالسياسة والقانون . ولقد أدلي القانونيون وعلماء السياسة بدلوهم في دراسة الخصائص القومية للشعوب ، وتدفع بنا هذه الجهود المشتركة في دراسة الشخصية القومية إلى القول بأن دراسة الخصائص والسمات القومية من أكثر الدراسات التي تعبر عن تداخل العلوم السلوكية .

ومن وجهة نظر الدراسات القانونية تشير الشخصية القومية إلى الصورة المثالية لأفراد شعب ما ، لما يظهرونه أو يخفونه من سمات أو اتجاهات وفي ضوء ما يؤكدونه من أفعال . وما يصدرونه من أحكام على أنفسهم وعلى جيرانهم واستناداً على هذه الاتجاهات والأحكام يكافئون أو يعاقبون أولادهم . ويؤمن المشرعون أن القواعد القانونية تؤثر كل التأثير على تشكيل الشخصية القومية باعتبار أنها تؤكد في تصرفاتها الأحكام المعيارية.

ولقد أكد " جورر " هذه العلاقة بين الشخصية والقانون عندما بين أن دراسة الشخصية القومية تصف الدوافع المشاهدة والقيم السائدة في مجتمع معين في وقت معين وأن شخصية الشعب تعكسها القوانين التشريعية السائدة . ولقد دعم "أرنست باركر" هذا الاتجاه موضحاً أن ما نشرعه من قوانين يؤثر على سلوكنا ، فالدولة تشرع القوانين ، ويشكل نسق القانون بدوره ويؤثر في الشخصية القومية لهذه الدولة .

ويعرف " تشالز وورث Charles Worth " الشخصية القومية بأنها مجموعة الخصائص أو الصور التي تميز شعباً معيناً عن الشعوب الأخرى وهذه الخصائص هي التي تحدد الذات الجوهرية لكل شخصية قومية ، وتؤكد الناحية العنصرية لها ، وهي تخص كل دولة ، ومن الصعب أن تحدد شخصية قومية واحدة لدولة ما ذات سيادة تضم مجموعة من الشعوب المختلفة ، وذلك لأن الشخصية القومية لشعب ما ، تعكس التجانس الثقافي والسلالي لهذا الشعب باعتباره مجموعة من الخصائص والصفات أو الصور التي تميز شعباً عن آخر ، ويمكن أن نعرف من خلال تعميمات الشخصية القومية أنها تتطلب أن يدرك أفراد الشعب بأنهم يختلفون في بعض الصفات العامة عن غيرهم من الشعوب بينما يتماثلون فيما بينهم في هذه الصفات فالناس في كل مكان متماثلون فيزيقياً ، ولكن أحداث التاريخ والبيئة بمفردها يبدو أنهما يصنعان الثقافة والنظم التي تتباين بين الشعوب البسيطة والشعوب المتقدمة .

وهناك تعريف آخر أكثر شيوعاً بين علماء السياسة ، يؤكد أن " الشخصية القومية نمط تنظيم " ، فالشخصية القومية تعكس النظم القومية السائدة أو الشائعة أو الممثلة كأساس لتحديد الدولة أمر صعب ، مما أدي إلى خلط كبير في تلك الدراسات التي لم تحدد تحديداً قاطعاً أو تقتدي بهذا التحديد .[٢٥]

وهناك مصطلح آخر يختلف بالضرورة عن المصطلح الشخصية القومية أو الطابع القومي للشخصية " National Character " ولكنه يؤكد أيضاً على الاتجاه القومي في دراسة الشخصية القومية وهو مصطلح " الصورة القومية National Image " .

ويري حامد ربيع أن الاختلافات بين مصطلح الطابع القومي للشخصية والصورة القومية يرجع إلى أن الطابع القومي للشخصية ينبع من التحليل الموضوعي للسمات والملامح الفردية على المستوي الجماعي والشمولي . أما الصورة القومية فهي عبارة عن تصور مجتمع لمجتمع أخر وأنه مفهوم دعائي .

فالصورة القومية تتضمن بالضرورة تصوراً محدداً من جانب قومية ما للطابع القومي أو لشخصية جماعات قومية أخرى . غير أنها قد تتضمن بالإضافة إلى ذلك بعض التصورات عن الإمكانيات السياسية والعسكرية والاقتصادية لهذه الجماعة القومية . مما يخرج عن مفهوم الأفكار القومية النمطية الثابتة الذي يتعلق بأكثر الآراء والأفكار شيوعاً وثباتاً عن جماعة قومية ما ، التي ترددها جماعة قومية أخرى عنها . وهي بهذه الصورة تفتقر إلى أي سند موضوعي .

ولقد كان لعماء السياسة دور كبير في دراسة الفروق والاختلافات القومية دراسة علمية منظمة ، وتجدر الإشارة هنا إلى إسهامات (A.De Tocqucville, Democracy in America, 1835 ، وكذلك أرنست باركر Barker في كتابه National Character, 1927) . حيث عرض لفكرة الطابع القومي من وجهة نظر علماء السياسة . وقد تطور المصطلح بعد ذلك من خلال أبحاث علماء الأنثروبولوجيا الثقافية ، ولقد تأثر أغلب علماء الأنثروبولوجيا الثقافية في تحليلاتهم بتأكيد علم النفس المستمر على أثر الطفولة المبكرة والتنشئة الاجتماعية في تشكيل بناءات الشخصية . ويتقبل عدد كبير من الباحثين في العلوم الاجتماعية فكرة الاعتماد المتبادل بين الشخصية والنسق الاجتماعي والثقافي ،

وخاصة من لم يسلموا بالضرورة بفكرة الطابع القومي التي كانت ولازالت محل نقد متواصل.[٢٦]

ومن هنا يتضح أنه لم تقدر بعد قدرة المدن على نشر الحضارة والمدينة كما ينبغي، بل أعطيت أكثر من قدرها . وعلى الرغم من الاتجاه الحالي نحو العولمة وانتشار فكرة الثقافة العالمية، التي تنطوي على أعلي درجات الحضرية وإشاعة التجانس فإن الهويات العرقية والصراعات الناتجة عنها ، من الممكن أن تطفو فجأة في كثير من المدن وتؤدي إلى العديد من أشكال العنف .

إن التصور النظري للمفكرين في بناء مجتمع وطني يخلو من العرقية والعنصرية هو تصور طوبائي ، وعلى حد قول " بومان Bauman " فإن الوطنية هي عبقرية المفكرين ، بينما العنصرية هي وطنية الجماهير ، ومن هنا نجد أن الصفوة الذين يقرون قيام الدولة القومية يحاولون تذويب الهويات العرقية ، بينما تعد الجماهير المتعلقة بجذورها والتشبث بالعلاقات الأصلية التي تربطهم وتجمع بينهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أصبح التمسك باللهجات العرقية تأكيداً بقوميتها وهويتها الذاتية ورمزاً لافتخارها ، وفي ضوء ذلك أصدر عدد من الدول الآسيوية قرارات بإتباع سياسات استخدام لغة قومية واحدة رغم وجود أقليات عرقية ضمن سكانها ، ففي تايلاند مثلا تعد لغة التاى المركزية Central Thai هي اللغة الرسمية المشتركة ، في الإدارة العامة ، ووسائل الإعلام ، والتعلم، رغم وجود أقليات عرقية كثيرة من الصينين ، وفي ماليزيا ، حيث يسيطر الماليزيون سياسياً على تقاليد البلاد ، فضلاً عن أنهم يشكلون الغالبية العرقية إذ يبلغ عدد الصينين ثلث عدد السكان –

فقد اعتمدت على اللغة الماليزية أو لغة سكان البلاد الأصلين التي تسمي بوميبوترا Buimiputra لتكون اللغة الواحدة للحكومة وللإدارة العامة والتعليم ، ولم تبدي الحكومة الماليزية أي اهتمام باللغة الإنجليزية رغم استخدامها على نطاق واسع بين رجال الاقتصاد والثقافة .(٢٧)

وفي الفلبين حيث تم الاعتراف بالشكل الرسمي للغة الدولة هي الفلبينو Filipeno أو التماجالوج كلغة قومية ، فلم يكن من السهل بمكان استخدام . الجماعات العرقية الأخرى – التي قاومت اعتماد لغة الصفوة كلغة قومية لهذه اللغة ، لأن أصولها ترجع إلى مانيلا ، أما الهند فقد واجهت مشكلات مماثلة حيث قوبل استخدام لغة الهندي Hindi كلغة رسمية بمقاومة شديدة من جانب الجماعات العرقية الأخرى ، نظراً لأن اللغة التي يتحدث بها حوالي ثلث المواطنين الهنود هي لغة الشمال الأرية ، فقد قاومتها الجماعات الأخرى ، خاصة أهل وسكان مناطق الجنوب وهم الدرافيدا ، ونتج عن ذلك أنه على الرغم من أن لغة الهند باقية كلغة أساسية وشرعية ، فقد أقر الدستور أيضاً اللغة الإنجليزية باعتبارها اللغة الرسمية المشتركة :

خلاصة القول : إن تفاعل الحضارات والثقافات هي في واقعها تاريخ إنساني ، تعبر عن تعدد ثقافات الشعوب . فلكل شعب ثقافته المتميزة التي يستند فيها على أصوله التاريخية وعقيدته الدينية وتركيباته اللغوية .

إن الصراع بين الثقافات (دينية أم عرقية) لا يبدأ ولا يستمر إلا حينما تسعي دوائر المصالح استغلال تباين الثقافات ، وإثارة الرواسب التاريخية للتصادم بينها. ورغم أن العلاقات الحقيقية بين

الثقافات المختلفة كانت دائماً ذات وجهين ، وجه صراعي تصادمي. ووجه أخر تفاعلي سلمي ، فمازالت هذه الحقيقة قائمة .

إن وضع ملامح للمجتمع الآسيوي في صورة عابرة لحضارته وثقافته لا تعني ملامح لشخصية جماعية بقدر ما هي ملامح لثقافات متعددة ، ومتنوعة ، تختلف باختلاف المكان والزمان .

والواقع من سيناريو الأحداث التي تبدو في أشكال الصراعات في بلدان آسيا ومدنها ، ما زالت تحركها الثقافة الشائعة عن العرقيات والدين ، وهما من الأدوات التي تستغل في إدارة الصراعات ، والأزمات على المستوي المحلي والعالمي.(٢٨)

٣ – **المنظور السوسيولوجي** Sociological Perspective :

إن علماء الاجتماع لم يكونوا بمعزل عن التيارات الفكرية التي أهتمت بدراسة خصائص الشعوب والسلوك المميز لشعب معين ، والدوافع المشتركة بين أفراد شعب ما . وكان مونتسكيو في كتابة العقل الجمعي ، ودور كايم في مقالاته عن التصورات الاجتماعية وتصوره عن العقل الجمعي ، من أوائل علماء الاجتماع الفرنسيين الذين اهتموا بدراسة الشخصية القومية . وكان " سمنر " أول عالم اجتماع أمريكي حاول أن يحدد العناصر البنائية للمجتمع أن يصور روح الشعب .

يبد أن علماء الاجتماع لم يقبلوا مفهوم الشخصية القومية كما هو وارد عند الانثروبولوجيين ولكن رغم أنهم يختلفون معا في المنهج ومجال الدراسة وتباين المفاهيم بين الاتجاهين ، فالهدف من الدراسة واحد .

ولقد انقسم موقف الاجتماعيين إزاء الشخصية القومية إلى ثلاثة فرق ، **الفريق الأول** : رفض فكرة الشخصية القومية ، كموضوع للدراسة في علم الاجتماع ، وعلى رأس هؤلاء ماكس فيبر الذي يشترك مع ماركس وجون ديوى في رفضهما للاتجاه الهيجلي الذي اعتبر الشخصية القومية تصورا عقلياً يتعين رفضه ، مثلما رفض تصور روح الشعب . **والفريق الثاني** : قبل موضوع الشخصية القومية ، كموضوع للدراسة ، ولكنهم عدلوا فيه بما يتوافق مع موضوع ومنهج علم الاجتماع ، وبما يتلاءم مع ظروف المجتمعات الكبيرة ، وقد بدأ هذا الاتجاه بآراء " موريس جينزبرج في الشخصية القومية " ويشايعه حتى الآن كثيرون . أما **الفريق الثالث** : فقدساير الاتجاه الثاني إلى حد ما ممارساً في ذلك لعبة أغلب الاجتماعيين فهو لم ينكر موضوع الشخصية القومية كموضوع كبير جدير بالبحث ، ولكن استبدل مفهوم الشخصية القومية الذي شاع عند الأنثروبولوجيين بمفهوم بناء الشخصية المنوالية أو بمفهوم الشخصية الاجتماعية لكي يصبح البحث مقبولاً ومثمراً ومجدياً ، وقدموا في ذلك تفسيرات مختلفة فنجد مثلاً Deinney و Reisman ويزمان وجلازر وديناي ، في كتابهم The Lonely Growd ينكرون أن فكرة أنماط الشخصية التي يصفونها في كتابهم تعتبر دراسة للشخصية الأمريكية المتغيرة وأنها تعبر عن شخصية دولة واحدة ، ولكنها تعبر عن شخصيات متباينة في إطار الثقافة الأمريكية .

ويقول مارتندال : لقد ظهر علم الاجتماع في البداية باعتباره صورة من صور الروح الجماعية التي ظهرت في القرن ١٩ ، وأرتبط ارتباطاً بتلك التقاليد التي تحاول تجسيم مفهومات مثل العقل

الجمعي والروح الشعبية . ولكن علماء الاجتماع الرواد كانوا غير مبالين بمشكلة الشخصية القومية ، إلى أن ظهرت بعض المشكلات في النظرية والمنهج أدت إلى ظهور نظريات اجتماعية جديدة ، وأظهر المعارضون لوجود نظرية اجتماعية شاملة وعامة اهتماماً خاصاً بالخصائص القومية للشعوب ، ووضعت تصنيفات عديدة للنظريات الاجتماعية . ولقد بين مارتندال أن نظريات علم الاجتماع ابتداء من الوضعية العضوية والصراع الاجتماعي مروراً بنظريات الصورية الاجتماعية والسلوكية وانتهاء بالوظيفية وقفت مواقف متباينة من الشخصية القومية .

فالنظريات الوضعية العضوية تمسكت بوجهة نظر مماثلة لهؤلاء الذين جسموا مفهومات العقل الجمعي وروح الشعب وعبقرية الشعب . وما أشبه . ولقد كان علماء الاجتماع الرواد متأثرين بتقدم نظرية التطور ومثال إعادة بناء الإنسانية وبمرور الزمن طورت الأشكال الكلية اهتماماتها وأشارت إلى الشخصية القومية . ولقد أظهر الاهتمام الوضعي في علم الاجتماع أنماط هذا التجسيد .(٢٩)

كذلك كان **المدخل الكلي** وسيلة نظريات الصراع الاجتماعي لمعرفة الحياة الاجتماعية . وعلماء الاجتماع المسايرون لهذه النظرية يغفلون التجانس الاجتماعي في هذه الحياة ، ويهتمون بما يوجد في المجتمعات من مؤثرات وانقسام المجتمع دائماً إلى زمر متصارعة متحاربة . ولقد أقحمت هذه الفكرة آليا إلى مجال الاهتمام تلك الخصائص التي يظهرها الأفراد باعتبارهم أعضاء جماعات متصارعة نتيجة النظرة إلى هذه الجماعات عن بعد . وقسموا البشر إلى مجتمعات سياسية لكل منها صورة عامة أو شخصية

قوية مقصورة عليها . وما سلوك الأشخاص البارزين والمهمين إلا تعبيراً عن الشخصية القومية التي تناضل ضد نـزوات المحيطـين بهم ونموذجاً يتحدي به ، ومن ثم تسيطر على أقوي العقـول فـي الجماعة تقريباً .

ولقد دفع التأكيد على الصراعات بين الجماعات أنصار هذه المدرسة إلى التركيز على الخصائص التي يكتسبونها البشر بصفتهم أعضاء في جماعة متصارعة ومن ثم اهتموا بالشخصية القومية .

ولقد رفضت **المدرسة الصورية في** علـم الاجتمـاع كـل التجسيدات ، واقترحت في الوقت نفسه دراسة الأشكال الاجتماعية مجردة من مضمونها . وبذا وضعت الشخصية القومية ومشـكلاتها جانباً وأغفلت دراستها . أما **المدرسة السلوكية** من جانـب آخـر فانطلاقاً من نظريتها بأن التفاعلات المعقدة هي محصـلة الأفـراد وأفعالهم فقد اهتمت بالخصائص المختلفة الشـائعة والعامـة التـي يكتسبها أغلبية أفراد المجتمع . ولذا نجد فـي أفعـالهم وأعمـالهم مفهوماً للشخصية القومية يقارب إلى حد ما مفهوم مونتسكيو .

أما **الوظيفية** فقد درس بعض أنصارها الشخصـية القوميـة اعتماداً على نماذج لأساليب مستمرة من النظم الإنسانية ولكن فـي صورة غير وضعية ، وحاول البعض الآخـر دراسـة الشخصـية القومية في نظرة كلية متخذا مبدأ النفعية أساساً لتوحد الأفراد مـع الشخصية القومية .

ولقد كان لعلماءِ الاجتماع مواقـف متباينـة مـن مفهـوم الشخصية القومية فلقد كان " مـوريس جينزبـرج " مـن أوائـل الاجتماعيين الذين انتبهوا إلى الشخصية القومية في الأربعينات من هذا القرن . وقد قبل " موريس جينزبرج " مفهوم الشخصية القومية

كما ورد عند الأنثروبولوجيين ، وإن عدل في تعريف الشخصية القومية بما يتلاءم وموضوع علم الاجتماع ومنهجه . ويري جينزبرج أن الشخصية القومية باعتبارها مجموعة متماسكة من السمات التي تظهر بعض الاستمرارية والدوام النسبي يحتل مكاناً مسلماً به في الدراسات السياسية والتاريخية . وأن تطبق الجوانب المختلفة لحياة الشعوب يعتمد على وحدة تطوره التاريخي واستمراره . وتدل هذه الشخصية القومية عادة على الشخصية العامة السائدة بين أفراد دولة ما ، وتعبر عن أنماط السلوك في مجموعها أي طبيعة تنظيم الجماعة كما يتجسم في النظم السائدة والإنجازات الجمعية والسياسية العامة لهذه الجماعة . بل إننا يمكن أن نقول إن وجود النظم الاجتماعية يعتمد على شخصية الأفراد كما يشكلهم التفاعل المتبادل بينهم .

ولقد أدلي " أرنولد توينبي " عالم الاجتماع التاريخي بدلوه في مجال الشخصية القومية في كتابه " مختصر دراسة التاريخ " ، من خلال دراسته لصراع الحضارات المختلفة ، وما يطرأ عنه من تحلل الحضارات ، واستجاباتها المختلفة تجاه الحضارات الغازية .

– ويشير مفهوم الحضارة عنده إلى عدد معين من الشعوب التي تتميز بعدد كبير من السمات المشتركة . وقد تكون الحضارات " أصيلة " إذا ما انبثقت تلقائياً عن مستوي قبل حضاري أو " مشتقة " إذا ما حفزت إليها بعض الحضارات الموجودة فعلاً .

ولقد أكد " توينبي " في مواضع مختلفة من دراسته لآثار التلاقي بين الحضارات المتعاصرة المختلفة على رفضه للأفكار العنصرية التي ترجع الاختلافات القائمة بين الشعوب إلى الاختلافات في الجنس أو العنصر أو الفروق العرقية ، كما أبدي

حنقه وإزدراءه لفكرة التفـوق العنصـري للحضـارات الغالبـة ، ومحاولاتها المستمرة لوصـم الحضـارات المغلوبـة بوصـمة " الانحطاط العنصري ".

فلقد أكد " توينبي " على مقولة " وصمة الانحطاط العنصري " التي يلصقها المعتدون على أهالي البلاد ، أو التي يلصقها الفريق المتعالي بالفريق الذي جرده من آدميتـه . وأشـار إلـى أن تلـك الوصمة تعد أشد خطراً من وصمة انحطـاط الـدين أو الثقافـة ، فانقسام الجنس البشري بسبب العنصر يختلف عن انقسامه بسـبب الدين أو الثقافة أو السياسة أو الاقتصاد ، من ناحية كونه يقيم هـوة بين الجانبين المنقسمين لا يمكن اجتيازها . وأخيراً يؤكد " توينبي " أن وصمة الانحطاط العنصري تختلف عن وصمة انحطاط الدين أو الثاقفة (وإن لم تختلف في هذا الصدد عـن وصـمة الانحطـاط السياسي الاقتصادي) من ناحية أنها اتخذت مقومها، أشد مظـاهر الطبيعية البشرية سطحية وتفاهة وحقارة : لون البشرة ، أو شـكل الأنف.(٣٠)

ولقد أجريت بحوث متعددة في موضوع الصلة بين الثقافـة والشخصية . قام بهذه البحوث أحيانا علماء متخصصون في دراسة الثقافات ، وأحياناً أخرى كان القائمون بالبحوث من علماء النفس ، وتبعاً لذلك كانت الصورة النهائية التي يخرج بها القـارئ يغلـب عليها الطابع الثقافي أحياناً كما في دراسات كلاكهون ، ومارجريت ميد ، وأحياناً أخرى يغلب عليها الطابع السـيكولوجي كمـا فـي دراسات بارتلت Bartlett وقد اتجهت هذه الدراسات في مجموعها وجهتين : الأولي : استمدت مادتها الرئيسية من المجتمعات البدائية، كمجتمعات الهنود الحمر ، والأسكيمو ، والقبائل التي تعـيش فـي

عدد من جزر المحيط الهادي ، اما الدراسات التي اتجهت الوجـــه الثانية فقد استمدت عناصرها من المجتمعات الحديثة وعرفت فـــي مجموعها باسم بحوث الطابع القومي للشخصية .[٣١]

لكن من أجل فحص العلاقة بين الثقافة والشخصية وتوضيح العلاقة بينهما لابد من أن نتفق على مفهوم محدد للشخصية ، يمكن القول بصفة عامة أن نتفق على مفهوم محدد للشخصـــية ، يمكـــن القول بصفة عامة أن مصطلح الشخصية " يعني تلـــك المجموعـــة الكاملة من صفات الفرد العقلية والنفسية وكافة الخصائص الأخرى التي اكتسبها الفرد خلال تنشئته الاجتماعية في المجتمع " .

وتعتبر **دراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية** دلـــيلا علـــى ظهور اهتمام جديد بين علماء الأنثروبولوجيـــا الســـيكولوجية فـــي الثقافة وربما كانت دراسة روث بندكت عن أنماط الثقافة من أهـــم الدراسات التي ساعدت على إثارة الاهتمام الحالي بمشكلات الثقافة والشخصية وقد اعتمدت في كتابها هذا على عدد من الأبحاث قـــام بها بعض الأنثروبولوجيين لكشف العلاقة القائمة بين نمط الثقافـــة السائدة في بعض المجتمعات البدائية ، ومظـــاهر الشخصـــية كمـــا تنعكس لدي الأفراد في تلك المجتمعات ، إذ أتضح من الدراسة التي قام بها " روث بوترل " ، علي قبائل زوني في الجنـــوب الغربـــي من الولايات المتحدة ، أن ثقافة هذه القبائل أنتجت شخصيات تمتاز بالهدوء والوداعه والميل إلى التـــآلف ، بينمـــا كشـــفت دراســـة " فرانزبواس " القبائل كواكيوتل في شمال الغربي مـــن أمريكـــا أن شخصياتهم تنزع إلى الانفرادية والميل إلى التنافس أما قبائل دويـــو بالقرب من غينيا الجديدة ، والتي قام بدراستها "ويفـــورتش" فهـــم مشـــهورون بالتشـــكك والارتيـــاب ، والميـــل إلـــى المشـــاحنات

والمنازعات، وقد اعتبرت روث بندكت هذه المجموعات القبلية الثلاثة أنماط ثقافية متباينة ، وتنتج كل منها شخصيات مختلفة التركيب ، وذهبت في ضوء ذلك إلى حد القول بأنه يمكن فهم السلوك الإنساني في أي ثقافة من الثقافات على أفضل وجه في ضوء القيم والمثل والاتجاهات العامة التي تسود هذه الثقافة بالذات ، كما أن هناك ضوابط محددة تحكم انفعالات الأفراد ، بحيث تختلف هذه الضوابط من مجتمع لأخر . وهذا الاختلاف هو الذي يساعد على تفسير ما يبدو لنا من أن بعض الاتجاهات شاذة أو غير سوية ، وذلك حين نقيس هذا الاتجاه ومظاهر السلوك من وجهة نظرنا الخاصة إلى الثقافة التي تمثلنا .

أما رالف لينتون ، فأنه يقرر أنه ليس هناك شك في أن الثقافة مسئولة عن الجزء الكبر من محتوى أي شخصية ، وكذلك عن جانب هام من الشكل الخارجي لبناء الشخصية من خلال تأكيدها لاهتمامات أو أهداف معينة ، وهو يرى أن عملية تكوين الشخصية هي بالدرجة الأولي علمية يجري فيها اندماج خبرات الفرد مع صفاته التكوينية لتشكل معا وحدة وظيفية تكيفت أجزاؤها بعضها مع بعض تكيفا متبادلاً . وتستمر هذه العملية طوال حياة الفرد ، ولكن فاعليتها تبدو على أشدها في سنوات النمو الأولي ، وإذا كانت الشخصية تتكون من خلال تفاعل الفرد مع أفراد آخرين، فإن حجم هذه التفاعلات يعتبر من العوامل الهامة المؤثرة في تشكيل الشخصية الإنسانية ، ويذهب رالف لنتون في هذا الصدد إلى أن الثقافة تتحكم أيضاً في علاقات الفرد بأعضاء مجتمعة الآخر ، فلكل مجتمع نماذجه الخاصة به التي تنظم السلوك بين الأفراد الذي يشغلون أوضاعا معينة كالكبار والصغار ، والأزواج ،

والزوجات وأصحاب العمل والعمال ، غير أن تاثير الثقافة على العلاقات الشخصية لا يقف عند هذا فالثقافة تحدد حجم الفئة من الأشخاص الذين يتصل بهم الفرد اتصالاً وثيقاً .(٣٢)

وعلى الرغم من رفض " توينبي " لمقولة العنصرية أو العراقية كأساس للاختلافات بين الشعوب والحضارات المختلفة ، فإنه لم يرفض مقولة الشخصية القومية ، ولكنه استخدم مفهوم الشخصية الاجتماعية في دراسته للآثار المختلفة لتلاقي الحضارات المتعاصرة أعقاب الاعتداءات الناجحة أو الفاشلة على ثقافة وشخصية كلا الحضارتين المعتدية والمعتدي عليها على حد سواء.
فيحاول في دراسته للحضارات المتحللة أن يرصد حالة الانقسام في نفوس أعضاء المجتمع التحلل في أوضاع متنوعة ، ومن أهم تلك الحالات التي تعاني منها نفوس أعضاء المجتمع المتحلل " الشعور بالابتذال " فنجده يقول في هذا الشأن " يعتبر الشعور بالاختلاط ، بديلاً سلبي الطابع لذلك الشعور بالنمط الإنشائي الذي يترعرع بنفس المدى مع ارتقاء الحضارة . وتأخذ الحالة الذهنية هذه ، معني عمليا في فعل قوامه الاستسلام الذاتي إلى بوتقة الانصهار . في خضم عملية التحلل الاجتماعي ، نجد مزاجاً مطابقاً يكشف عن نفسه في كل مجال من مجالات عمل الشخصية الاجتماعية : في الدين والأدب واللغة والفن . كما يكشف عن نفسه كذلك في المجال الأوسع مدى والأشد غموضاً : مجال السلوك والعادات .
ولقد أكد على أن أحد مقومات هذا التحليل هو انشقاق الكيان الاجتماعي إلى :
١ – أقلية لا هم لها إلا السيطرة ، لا الإبداع .

الدين والأدب واللغة والفن . كما يكشف عن نفسه كذلك في المجال الأوسع مدى والأشد غموضاً : مجال السلوك والعادات .

ولقد أكد على أن أحد مقومات هذا التحليل هو انشقاق الكيان الاجتماعي إلى :

١ – أقلية لا هم لها إلا السيطرة ، لا الإبداع .

٢ – جماهير من الدهماء (بروليتاريا) تحولت عن الولاء لزعمائها السابقين ، بعد أن غدوا مجرد " سادة " .

ولقد أكد توينبي أن هناك تأثيرات مختلفة تصيب الكيان الاجتماعي في أعقاب الاعتداءات الناجحة . وتلك التأثيرات ليست مقصورة على الحضارات المعتدي عليها فقط ، وإنما تصيب الحضارات التي تنجح في عدوانها أيضاً .

فإن الحضارة التي تنجح في عدوانها ، عليها أن تدفع الثمن الاجتماعي لنجاحها . ويتمثل هذا الثمن في تسرب ثقافة ضحاياها الأجنبية ، إلى مجري حياة بروليتاريتها الداخلية (أي جماهير دهمائها) ومن ثم ، تزداد اتساعاً : الهوة المعنوية القائمة فعلاً بين هؤلاء الساخطين وبين الأقلية المتطلعة إلى السيطرة .

والنتائج التي تتمخض عن عدوان – ناجح – على الكيان الاجتماعي لمجتمع معتدي عليه ، تكون أشد تعقيداً ، من غير أن تكون أقل تدميراً . فسنجد – من ناحية – ان عنصراً ثقافياً كان عديم الضرر ، أو كانت له فائدته في الكيان الاجتماعي الذي هو وطنه ، سنجد أن هذا العنصر يحدث نتائج غريبة ومدمرة ، إن أدخل في جسم آخر .

ويؤكد " توينبي " في دراسته للإرسال والاستقبال الثقافي أن هناك أنموذج ثقافي توطد في كيان اجتماعي مرسل ، يعمل على

توكيد شخصيته في كيان اجتماعي مستقبل . ويتم هذا عن طريق إعادة تجميع وتأليف العناصر الثقافية التي يتألف منها هذا النموذج الثقافي ، والتي انفصل بعضها عن بعض أثناء عملية الإرسال . ولابد أن يصطدم هذا الاتجاه باتجاه أخر يعترضه ويقاومه من جانب المجتمع المعتدي عليه ولكن هذه المقاومة ، لا تنجح عادة ، إلا في إبطاء خطي هذه العملية .(٣٣)

وقد ساهم " تالكوت بارسونز " برايه في موضوع الشخصية القومية ، وبين أن الشخصية القومية لا توجد في البناء المعقد واللامتجانس . وقبل بارسونز مفهوم كاردنير عن بناء الشخصية الأساسية الذي يعبر عن العناصر المكونة لبناء الشخصية العادية للفرد في المجتمع ، ولا يشير إلى الشخصية الفريدة المميزة باعتبارها وحدة ملموسة محسوسة . وبناء الشخصية الأساسية هو المظهر الوحيد لبناء الشخصية الكلي الواقعي والمعبر الوحيد عن توجيهات القيم وتوقعات الأدوار . وهي تتكون بتأثير عملية التنشئة الاجتماعية في طور الطفولة . ويتكون قلب الشخصية من توقعات وتوجيهات القيم والقيم السائدة ، وهذه العناصر ليست جامدة وليست مرنة يغيرها المرء حسب إرادته ولكنها تتنوع محتفظة بالسمات الأساسية للشخصية وهي تتغير بتغير تجارب المرء وأهم ما يميز العناصر المكونة لبناء الشخصية هو استقرارها النسبي ، وهذه العناصر ليست عناصر فطرية ، بل عناصر مكتسبة يرتبط بها المرء أثناء عملية التوحد . وبناء الشخصية بناءً مستقراً استقراراً نسبياً ، ويتغير بناء الشخصية بتغير البناء الاجتماعي كما يتغير من بناء لأخر ، بل هو متغير بين أفراد البناء الواحد ، إذ يتباين حسب المركز الاجتماعي للأفراد ومن طبقة لأخرى . كما

أولاً : تباين البناء الجسدي وتباين القدرات .
ثانياً : تباين تأثير عملية التنشئة .
ثالثاً : اختلاف تأثيرات المواقف على نتائج التفاعل .

وقد تفوق " بارسونز " عن غيره من الاجتماعيين ، عندما ربط بين تباين الشخصية الأساسية بالعمليات الدافعية ، وهذه العمليات الدافعية عنده ليست فطرية، بل اجتماعية .

وقد قبل عالم الاجتماع " دهر ندوف " مفهوم الشخصية القومية ، وأيد وجهة نظر " روبرت موسيل " في أن سكان المجتمع لديهم على الأقل عدة شخصيات هي : الشخصية المهنية والشخصية القومية والشخصية المدنية ، وشخصية الطبقة ، والشخصية الجغرافية وشخصية الجنس والشخصية الواعية .

ويرفض " الكس انكلز " مفهوم الشخصية القومية بمعناها العام الشامل ، ويستبدل به مفهوم الشخصية المنوالية ، ويقصد بها مجموعة الخصائص وأنماط الشخصية الثابتة نسبياً الشائعة والظاهرة بين أعضاء المجتمع من الكبار والتي توجههم في فترة زمانية معينة نحو تفضيل الديكتاتورية أو القائد الملهم على النظام الديمقراطي والراي الجماهيري أو العكس . والسبب الذي أدي به إلى رفض الشخصية القومية بمعناها الشامل ، هو الاعتقاد بأن نتائج الدراسات الامبيريقية على عينات صغيرة ، تنتهي دائماً إلى التعميم . كما أن الدراسة المنهاجية للشخصية القومية الشاملة كموضوع للبحث العلمي تقود إلى طريق مسدود .

ولقد جاء موقف رواد النظرية النقدية من الشخصية القومية انعكاساً للخلفية الاجتماعية والفكرية والتاريخية لروادها ، فشكلت قضايا رفض الوطن والانتماء القومي والشوق إلى نزعة إنسانية

التعميم . كما أن الدراسة المنهاجية للشخصية القومية الشاملة كموضوع للبحث العلمي تقود إلى طريق مسدود .

ولقد جاء موقف رواد النظرية النقدية من الشخصية القومية انعكاساً للخلفية الاجتماعية والفكرية والتاريخية لروادها ، فشكلت قضايا رفض الوطن والانتماء القومي والشوق إلى نزعة إنسانية شاملة محوراً أساسياً في تفكير مدرسة فرانكفورت جاء انعكاساً لأوضاع الأقلية اليهودية في مختلف المجتمعات ، حيث يعتبر مفهوم اليهودية سابقاً على مفهوم القومية أو الوطنية ، كما جاء رفض فكرة القومية كانعكاس لمعاناة اليهود من تلك الفكرة التي تدعمها الأغلبية في مختلف المجتمعات .

ولكن ذلك الموقف الرافض لمقولة القومية Nationalism ، ولدراسة " الشخصية القومية National Character " لا يسري على كل رواد مدرسة فرانكفورت ، فلا يمكننا إنكار دور " إريك فروم " أحد رواد النظرية النقدية والذي تمثل دراساته وأبحاثه أحد الروافد الفكرية الأساسية لمدرسة فرانكفورت ، فهو الفرويدي المحدث وعالم النفس الاجتماعي التحليلي الذي استطاع إثراء التصور الماركسي للطبيعة الإنسانية ، والإسهام في توضيح العلاقة بين الأساس الاقتصادي للمجتمع وبنائه الفوقي الأيديولوجي .

ولقد رفض " فروم " مفهوم الشخصية القومية القائم على الاختلافات العنصرية والعرقية ، واستعاض عنه بمفهوم " الشخصية الاجتماعية Social Character " الذي يعكس الوضع الطبقي أو المهني . ويستند مفهوم الشخصية الاجتماعية إلى فكرة أن بناء الشخصية بناء مشترك عند أغلب أعضاء الجماعة أو أعضاء الطبقات المختلفة في مجتمع معين ، وهذا البناء الشائع

إلى صياغة مفهوم " الطابع الاجتماعي " الذي مـا لـث أن احتـل مكانة هامة داخل الفكر الاجتماعي السيكولوجي .[٣٤]

دور المجتمع في بناء شخصية الفرد :

لما كان الفرد هو الوحدة الأساسية في " التفاعل الاجتماعي " فإن مواقفه ترتبط عادة بمحاولة إشباع حاجاته المباشرة على شـتي المستويات من ناحية وبالخلفية الاجتماعية العامـة التـي يكتسـبها نتيجة لانتمائه إلى بيئة معينة وتراث معين ، ثم محاولة تكيفه مـع هذه البيئة والتزامه بأنماط القيم السائدة في تراثه من ناحية أخرى . وإذا كان الحال كذلك فهل يمكن حقاً ضبط سلوك الأفراد ومواقفهم بالتأثير فيها أو تغبيرها إلى حد بعيد على نحو أو آخر ؟ .

أن الموقف عبارة عن سلوك " ثابت يـدل علـى الـرأي ، والموقف العقلي هو طريقة التفكير الثابتة " . وهذا المفهوم لا يبعـد بنا كثيراً عما يرد تلقائياً في أذهاننا عندما نفكر في معنـي كلمـة " موقف " والتي يعرفها الباحثون في " علم النفس الاجتماعي " علـى أنها : " حالة استعداد عقلية أو عصبية تتهيأ من خـلال الخبـرة ، ويكون لها تأثير توجيهي أو دينامى على استجابة الفـرد للأشـياء والأحوال التي ترتبط بها ، أو أنها الميل إلى الاتفاق أو الاخـتلاف مع عامل بيئي يصبح تبعاً لذلك قيمة ايجابية أو سـلبية ، أو أنهـا مجمل ما ينشأ اجتماعياً في الإنسان " .

وإذا تفحصنا هذه التعريفات نجد أنها تشير إلـى مضـمون واحد هو إننا في استجاباتنا للأحوال والأشياء التي نلقاها في حياتنا اليومية نتأثر بآراء وقيم نكون قد تبنيناها سلفا من الخبـرات التـي مررنا بها من قبل . وأن هذه الخبرات تتصل بكل جوانب حياتنـا كأفراد يعيشون ويتفاعلون في بيئة معينة لها تراثها وخلفياتها .

ولا شك أن لكل منا موقفاً إزاء ما يحيط به على المستوي الاجتماعي والمادي ، وأن هذه المواقف قد تكون ودية أو غير ودية وقد تعكس هوانا ومصلحتنا أو قد تعكس تجردنا . والموقف على وجه العموم يعبر عن استجابة ترتبط بالخبرة الفردية أو المجتمعية أو كليهما معاً . ويحاول الباحثون في علم الاجتماع تبين الجوانب التي يسهل فيها ضبط المواقف وذلك عن طريق إعادة تشكيلها أو حتى تغييرها . وبالاستطاعة ملاحظة عملية تكوين أو تشكيل المواقف في مراحلها الأولي ، وأثر القيم السائدة في المجتمع في ذلك . وليس من الغريب أن نلاحظ في خبراتنا الشخصية أن المواقف تتشكل على هذا النحو ، والقيم إلى ترتبط بها يسهل تغييرها فيما بعد بالرغم من إضافة خبرات أخرى إليها ومرور الفرد بمراحل تنشئة اجتماعية يفترض أنها تعينه على التخلص من الانحياز .

وعملية التنشئة الاجتماعية تعني باختصار : ماذا يتعلم الإنسان وكيف ؟ وما نتائج هذه العملية بالنسبة له ؟ وهناك عدد من الموجهات الثقافية تقود دراسة التنشئة بوجه عام وأثرها في تكوين الشخصية الاجتماعية ، وذلك مثل التحولات الثقافية المتتابعة بين الأجيال ، أو عملية التدريب والأعداد للمشاركة الاجتماعية وما إلى ذلك من عمليات . ولكن عملية التنشئة تتخذ في الواقع مضمونا فردياً أو شخصياً أكثر منه عاماً ، فالمضمون العام يظهر واضحاً فيما نسميه بالتنشئة الاجتماعية ، حيث يتم من خلال هذه العملية تحويل الدوافع الخاصة إلى اهتمامات عامة . وهذا التحول من الخاص إلى العام هو الذي يؤدي بالفرد إلى الانغماس في العمل الاجتماعي الذي يكون في الغالب ضمن أطر تنظيمية مضبوطة

ومسيطر عليها بجهاز الدولة الأعلى وهو الحكومة بما تمتلك من أدوات غير متاحة لأي من المؤسسات الاجتماعية الأخرى .(٣٥)

ومن ثم فإن عملية التنشئة إنما تهدف من الناحية الاجتماعية إلى تكيف الأفراد مع البناء المعياري للمجتمع ، فهي من الناحية عملية تدريب للطفل على المشاركة الاجتماعية وتنبثق نقطة الانطلاق نحو هذا الهدف من جعل الأفراد يشغلون دوراً نظامياً من الأدوار التي تكون النظام الاجتماعي . ومن ثم فإن التنشئة الاجتماعية هي أحد العوامل المساعدة الهامة للعملية الاجتماعية ومطالب الدور الأكثر تعقيداً ، إذ أن عملية التنشئة ككل هي تصور لكيفية ملائمة الشخص لحاجات المجتمع .

ومن خلال هذا السياق تظهر " الشخصية " و " البناء الاجتماعي " على أنهما نسقان منفصلان ، نظراً لاختلاف – أو تناقص – حاجات كل منهما . ولذلك فإن عملية التنشئة الاجتماعية تعمل على خلق الظروف الملائمة بين الاثنين . ومن ثم فإن عملية التنشئة تقوم بدور تدريبي هام يشكل سلوك وشخصية الفرد وفقاً لاهتمامات المجتمع . وطالما أن عملية التنشئة هي عملية ناتجة عن الحياة اليومية الاجتماعية ، فإنها تقدم لنا نمطا معيناً من الشخصية التي تتباين وتختلف من شخص إلى أخر مما يؤدي إلى صعوبة سبر غور علاقة الشخصية بالنسق الاجتماعي ككل ، الذي تتداخل وتتشابك فيه النظم والبناءات الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد ، والتي يأتي في مقدمتها الصفوة الحاكمة أو ما يسمي في الفكر السوسيوسياسي بالحكومة ، ففي هذا التعقيد النظامي الاجتماعي الهائل كيف تدير الصفوة الحاكمة المجتمع وما هي الأدوات التي

تستخدمها لتسيير النظام الاجتماعي ككل تجـاه تحقيـق الأهـداف الكبرى للمجتمع .

وقبل محاولة اكتشاف هذه الأدوات فلنحاول أن نسأل مـرة أخرى : ماذا تفعل الحكومة أو الصفوة الحاكمة ؟

ثمة طرق مختلفة ومتعددة للإجابة علـى هـذا التسـاؤل . وتكمن أحدي الإجابات في وصف ما يحدث داخل الحكومة ذاتها . كيف تتخذ القرارات ، وكيف تصدر الأوامر والتعليمات من أعلـي إلى أسفل ، وكيف تبسط هذه المعلومات . وإذا اخترنـا أن نجيـب على التساؤل المطروح بهذه الطريقة ، فإنه مما لا شك فيه أنفسـنا حيال قصة مكررة ومعادة من خلال كتابـات ودراسـات علمـاء السياسة والاجتماع السياسي عندما تناولوا " القوة " و " النفوذ " وما إلى ذلك من مفاهيم مستخدمة في علوم الاجتماع والسياسة . إلا أن هذه طريقة من طرق دراسة عمل الحكومة .

وثمة نموذج ثان من الإجابة على سـؤالنا الأول يمكـن أن يركز على موضوعات بعينها تجعلها الصـفوة الحاكمـة محـور اهتمامها في هذه الأيام ، وهذا قد يؤدي بناء إلى حديث أو مناقشة مختلفة تماماً . إذ قد نضطر إلى رصد اهتمامـات الصـفوة فـي مجتمع عنه في آخر – لسبب أو لأخر . ومن ثم فسـتكون عمليـة رصد الاهتمامات سلسلة طويلة بدء بعملية قيد المواليد وما يليها من أعمال سياسية واقتصادية وإدارية واجتماعية وحتى عمليـات قيـد الوفيات . وعلى هذا ففي مثل هذه الحـال سـوف نضـطر إلـى اختصار هذه الاهتمامات إلى ما هو عام وحسب .

والاحتمال الثالث للإجابة على مثل هذا التساؤل يختلف عن سابقيه أيضاً ، وهو محاولة وصـف الأدوات التـي تسـتخدمها الصـفوة

الحاكمة لإدارة شئون المجتمع والسيطرة عليه . ونستطيع أن نتخيل السيطرة على أنها مجموعة من الأدوات الإدارية ، تحاول الصفوة بوساطتها تشكيل حياتنا بتطبيق هـــذه الأدوات والوســـائل بطـــرق مختلفة لتتلاءم مع الأغراض المختلفة للفـــرد والمجتمـــع ولـــتلائم الصفوة قبل ذلك (٣٦) .

الشخصية في الأدوار الاجتماعية :

يميل عدد كبير من علماء الاجتماع إلى إبراز الدور الـــذي تلعبه الشخصية الإنسانية عند إجراء تحلـــيلاتهم السوســـيولوجية . ومن ثم فإنهم يسلمون بأن العوامل المرتبطة بالشخصـــية تلعـــب – على الأقل نظرياً – دوراً هاماً في تحديد السلوك الاجتماعي للفرد . غير أن هؤلاء العلماء لا يعتقـــدون – بعـــد ذلـــك – أن العوامـــل المرتبطة بالشخصية تتمتع بنفس القدر من التأثير الذي تتمتـــع بـــه القوي البنائية "الموضوعية" أو الوضع الاجتماعي للفرد كما يحدده الدخل والتعليم والمهنة الخ .. لذلك فإننا نجد من الضـــروري هنـــا توضيح دور النظرية السيكولوجية في فهم بعـــض الموضـــوعات السوسيولوجية الهامة مثل الالتحاق بالمهن والأوضاع الاجتماعيـــة وأداء الأدوار الاجتماعية .(٣٧)

لعلنا نعلم أن علماء الاجتماع قد اعتادوا تفسير أداء النـــاس لالتزاماتهم الاجتماعية في ضوء الجزاءات التي تفرض على الذين لا يؤدون التزاماتهم والمكافآت التي يحصل عليهـــا أولئـــك الـــذين يؤدونها . ومن هنا فإن الداء يبدو وكأنه متوقف علـــى عوامـــل " خارجة " عن نطاق الشخص . والشئ الوحيد الذي يمكن أن " يدخل " في نطاق الشخص هو رغبته في تحاشي العقبات والحصول علي المكافآت . وأيا كانت أهمية " الدوافع " الداخلية لدي الأشـــخاص ، إلا أنها لا تكفي لتفسير الاختلافات بينهم فيما يتعلق بأدائهم للأدوار الاجتماعية .

وإذا كنا نقر الأهمية الحاسمة للعوامل الموضوعية التي تحدد السلوك الاجتماعي ، إلا أننا يجب أن نقر أيضاً حقيقة موازية هـــي أن التحاق الشخص بالمهنة وأدائه للأدوار المرتبطة بها قد يتأثران أيضاً بسماته السيكولوجية . ونستطيع أن نذهب بعد ذلك الي حقيقة أسياسية هي النسق الاجتماعي – شأنه شأن الفرد – يخضع لعوامل سيكولوجية . لذلك فان دراسة النسق الاجتماعي تطلب فيما تتطلب فهما للسمات السيكولوجية المميزة للاعضاء المكونين له .

وليس من الانصاف القول بأن علماء الاجتماع لا يهتمون بدراسة الخصائص السلوكية العامة للذين يشغلون مهنا معينة . إذ أنهم (أي علماء الاجتماع) عادة ما يفترضون أن هذه الخصائص تظهر في حيز الوجود كاستجابة لضغوط موقفية (أو بنائية كما يحلو لهم تسميتها) يواجهها الذين يشغلون مهنا معينة . بعبارة أخري فإن علماء الاجتماع يفترضون أن أي شخص يلتحق بمهنة معينة لابد وأن يسلك ويتصرف بنفس الطريقة ، وأن أنماط الشخصية التي يواجهها الفرد داخل مكان العمل لابد وأن تسلك بطريقة معينة . ولقد عبر روبرت ميرتون Merton عن هذه الفكرة بوضوح في مقال شهير له نشر في سنة ١٩٤٩، حيث تناول علاقة الشخصية بالبيروقراطية .

وفي هذا المقال نجد ميرتون يوضح لنا كيف أن القيم والضغوط التي يخضع لها العاملون في التنظيمات الكبري تجبرهم علي اداء السلوك " البيروقراطي " .

ويعبر ميرتون عن هذه الفكرة بقوله : " كنتيجة للأعمال اليومية الروتينية التي يقوم بها الناس داخل التنظيمات الكبري تظهر لديهم تفصيلات خاصة وتأكيدات معينة وعادات معينة " .

ويعبر ميرتون عن هذه الفكرة بقوله : " كنتيجـــة للأعمـــال اليومية الروتينية التي يقوم بها الناس داخـــل التنظيمـــات الكبـــري تظهر لديهم تفصيلات خاصة وتأكيدات معينة وعـــادات معينـــة " . وبعبارة اخري فان الشخصية البيروقراطية هي نتـــاج للوظيفـــة أو المهنة " .

وعلي الرغم من تأكيد ميرتون المطلق للدور الـــذي تلعبـــه الوظيفة أو المهنة في تشكيل الشخصية ، الا أننا نجده فـــي نهايـــة مقاله يثير تساؤلا يتعلق بما إذا كانت التنظيمات تميل إلي اختيـــار نمط معين من الشخصية يتلاءم مع متطلباتها .

ولقد شهدت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية اهتماما ملحوظا من جانب علماء الاجتماع والنفس بهذا الموضـــوع . وهنـــاك شـــواهد متزايدة توضح كيف أن الناس ينجذبون – بدرجات متفاوته – إلـــي المهن طبقا لسماتهم الشخصية . ومن أشهر الدراسات التي اجريت في هذا المجال تلك التي تناولت التفصيلات المهنية لعينة قومية من طلاب الجامعة الامريكية ، حيث طلب اليهم أن يذكروا المهنة التي يودون الالتحاق بها بعد تخرجهم ، كما طلب الـــيهم الاجابـــة عـــل مجموعة من الاسئلة الاخري بحيث أمكن في النهاية تصنيف قيمهم

فعلي سبيل المثال نجد أن الذين سجلوا درجة عالية في مقياس " الثقة في الناس " قد مالوا إلي تفضيل المهن التي يستطيع فيها الفرد تأدية خدمات شخصية . ولعل أوضح مثال علي ذلك أولئك الذين عبروا عن رغبتهم في الالتحاق بمهنة الخدمة الاجتماعية ، حيث سجل ٦٢% منهم درجات عالية علي مقياس "الثقة في الناس" ، بينما نجد هذه النسبة ٢٢% بالنسبة للذين عبروا عن رغبتهم في الالتحاق بالمهن التجارية والإدارية . كذلك لوحظ أن الطلبة ذوي الشخصيات المستقلة قد مالوا إلي اختيار مهن لا تتطلب احتكاكا دائما بالآخرين (الفن والهندسة المعمارية، والعلوم الطبيعية) ومع ذلك فلقد لوحظ أيضا أن الطلاب الجامعيين قد يغيرون تفضيلاتهم الدراسية بمرور الوقت وتقديمهم في الدراسة(٣٨).

ففي دراسة لجماعة طلابية في جامعة كورنيل لوحظ أن معامل الارتباط بين القيم واختيار المهنة قد ارتفع من ٥٥٩ في سنة ١٩٥٠ إلي ٧١١ في سنة ١٩٥٢ .

وقد يكون من الملائم ان نعقد مقارنة بين التأثير النسبي الذي تمارسه العوامل الشخصية (المتعلقة بالشخصية) والعوامل

الموضوعية (كمهنة الأب والدخل) علي اختيار الفرد لمهنته ، وعلي الرغم من أن التقدير الذي اشرنا اليه من قبل قليل لم يعقد مقارنة بين تأثير هذين النوعين من العوامل علي الاختيار المهني ، الا أن البيانات الواردة في هذا التقرير تشير إلي ان العوامل الموضوعية أو البنائية تكاد تتساوي مع عوامل الشخصية فيما يتعلق باختيار الفرد لمهنته .

وهناك دراسات عديدة تناولت الربط بين الشخصية والتحصيل الدراسي . ومن أشهر هذه الدراسات تلك التي أجراها شتيرن Stern وشتاين Stein وبلوم Bloom حيث توصلوا إلي عدد من المقاييس التي تتناول التحصيل الدراسي ثم طبقوها بعد ذلك علي عينات لطلبة الكليات الجامعية ولقد توصل هؤلاء الدارسون إلي وجود نمط من الشخصية السلطية لدي الطلبة ويستند هذا النمط إلي قبول السلطة علي أنها مسألة مقررة واجبة الطاعة . كما أن هذا النمط يميل إلي طبع العلاقات بطابع رسمي مؤكد الامتثال منكرا الدوافع السيكولوجية وتبدو أهمية هذه السمات السيكولوجية إذا ما أدركنا أن جامعة شيكاغو (وهي الجامعة التي

ينتمي اليها المبحوثون) كانـــت تـــدعم لـــدي الطلبـــة الاحســـاس بالانفصال .

ولعل الاستنتاج الهام الذي يمكن أن نتوصل اليه من خـــلال هذه الدراسات هو أن التحاق الفرد بالمهنة وأدائه للأدوار المرتبطة بها لا يمكن تفسيرها فقط في ضوء الظروف الخارجيـــة المحيطـــة بالمهنة (أي الظروف المتعلقة بالبناء الاجتمـــاعي) ، بـــل يجـــب تفسيرها أيضا في ضوء طبيعة شخصية الفرد . ولما كان الافراد لا يلتحقون عشوائيا بالمهن المختلفة ، فلنا أن نتوقـــع بعـــد ذلـــك أن تمارس الشخصية تأثيرا هاما سواء فيما يتعلق بالالتحـــاق أو الاداء المهني ، وأن يمتد هذه التأثير إلي الجماعة بأســـرها ، إلا أننـــا لا ننكر التفاعل المتبادل بين الشخصية والبناء الاجتمـــاعي ، ذلـــك التفاعل الذي يحدد – إلي حد كبير – طابع العملية الاجتماعية [٣٩].

الفصل الرابع

الرؤى النظرية حول دراسة الشخصية

- مداخل دراسة الشخصية
- جدلية العلاقة بين المجتمع والثقافة والشخصية بين الرؤى الكلاسيكية والمعاصرة .
- مفهوم الشخصية وطبيعتها في الاتجاهين السيكوسوسيولوجية
-نظرية التحليل النفسي .
- بناء الشخصية عند فرويد.
- نقد نظرية التحليل النفسي.
-المدرسة الاجتماعية التقليدية .
- دوركايم والشخصية .

تشارلز كولي

النظرية الاجتماعية المعاصرة

تالكوث بارسونز

- نظرية أدلر.
- المدخل الانثروبولوجي ودراسة الشخصية .
- الشخصية في نظريات التحليل النفسي الحديثة.

مداخل دراسة الشخصية :

تتنوع مداخل دراسة الشخصية إلى أنواع مختلفة وذلك وفقا لفهم الشخصية وبناؤها على النحو التالي :

المدخل الأول : وهو الذي يتناول الشخصية باعتبارها بناءا دافعيا : وينظر هذا المدخل إلى الشخصية على أساس أنها وحدة عقلية مستقلة .ولقد استند هذا التصور إلى عدة افتراضات أو مسلمات . إذ يفترض جدلا أن مصادر سلوك الفرد تتركز في داخل نفسه .وإما أن تكسبها الوراثة طابعا عظيما باعتبارها حاجات أو أنواع ثابتة أو غرائز ويكتسب هذا النمط بواسطة مجموعة الخبرات المبكرة التي تزخر بها مواقف طفولة الفرد .

وعلى أساس ذلك فإن فهم وتفسير السلوك الإنساني يعني من الناحية النظرية الاهتمام بالخبرات وغالبا رد الاستجابات المحددة أو المظاهر مثل الإدراك والانفعالات والمشاعر والأحكام والآراء والاتجاهات وغيرها إلى نوازع موجودة من قبل أو إلى بناء من الخبرات .ويمكن للباحث الموفق داخل هذا الإطار النظري العريض أن يميز بين سلسلة من النماذج التفسيرية للشخصية إذ ينبغي أن يرى ذلك الطراز القديم من علماء النفس من أمثال وليام ماكد وجال Makdougall فهم أي جانب من جوانب السلوك باعتباره عملا هادفا يسير في اتجاه إشباع غريزة أساسية ، أو نزوع مثل حب القتال وحب الاجتماع ....الخ .

وفي هذا الإطار يرى فرويد أيضا أن فعلا معين مثل الحب والعدوان والسيطرة أو الخضوع يمكن فهمه من خلال النظر إليه باعتباره تعبيرا عن دافع أساس هو الرغبة الجنسية في المحل الأول ثم تعبيرا عن بناء معرفي من الخبرات المبكرة المرتبطة مثل هذه

الدوافع في المحل الثاني ، وهناك افتراض آخر وثيق بذلك يتمثل في القول بأن الشخصية تعد بمثابة بناء عقليا يتمركز حول ذاته .[1]

أو بعبارة أخرى ، لا تنطوي الشخصية فقط على تنظيم داخلي وبناء دافعي فقط وإنما تنطوي أيضا على تجربة معينة لمثل هذا التنظيم وحالة عقلية يشار إليها عادة باعتبارها شعور وإحساسات الكيان الذاتي .

المدخل الثاني : الذي ينظر إلى الشخصية باعتبارها بناءا سلوكيا :

ويتمثل الهدف الأساسي لهذا المدخل في دراسة سلوك الكائن العضوي ، حيوانيا أو إنسانيا ، من أجل التوصل إلى الانتظاميات والارتباطات في هذا السلوك ، والتوصل على هذا الأساس إلى نموذج يبرز تنظيمها الخاص .وهم يدعون بأنهم أكثر علمية من المدافعين عن النموذج الأخر من المداخل لأنهم يركزون اهتمامهم على الجوانب الخارجية .وعلى ما يمكن ملاحظته وتقديره بطريقة كمية ،وإذا كنا نريد مثالا واضحا على هذا المدخل يمكن أن نذكر أولا أحد ممثلي المدرسة السلوكية وهو العالم ثركوستلر A.Koestler الذي رسم صورة عامة للسلوك تتكون من سلاسل من المثيرات والاستجابات على درجة من التنظيم يجمعها معا نسق من الصلات والاتصالات وتعمل بأسلوب يشبه الحاسب الآلي – الكائن العضوي.[2]

المدخل الثالث : يتمثل في نظرية المجال في دراسة الشخصية :

ويقدم لنا هذا المدخل في دراسة الشخصية مثالا آخر على نوعية المداخل المختلفة في دراسة الشخصية ،وهذا المدخل ، كما يوحي بذلك أسمه مشتق من العلوم الطبيعية ويمثل مرحلة حاسمة

للغاية في تطور مفهوم الشخصية وكما يرد المدافعون عن نظرية المجال في العلوم الطبيعية خصائص أجزاء المادة عموما إلى نوعية المجال المحيط بها ، كذلك يرد ممثلى نظرية المجال في العلم النفس بناء الشخصية إلى بناء المواقف المحيط بها ،ولهذه الأسباب اشتهر هذا المدخل تحت اسم التصور الموقفي أو البنيوي في دراسة الشخصية وتتمثل الوحدة التحليلية الأساسية في هذا المدخل في الموقف الذي تحدث في ظله المظاهر العقلية أو الاستجابات ، هذا ويحدد كيرت ليفن Levin المدافع الأول عن هذا المدخل ، يحدد الموقف باعتباره مجالا من القوى ، ويعبر عنه في مصطلحات طوبوغرافية وبيانية فيحدد الموقف على أنه بناء دينامي يشتمل على صور من التكافؤ الإيجابية والسلبية بين القطاعات والحدود والمناطق ، ونوضح ذلك بالمثال البسيط التالي وهو أن هناك طفلا لا يتجاوز من العمر ثلاثة أعوام يجلس في حجرة مع والدته على جانب ،ومجموعة من اللعب على الجانب الأخر ، وذلك في الساعة السابعة مساءا بمعنى قبل بضع دقائق من الوقت الذي يفترض فيه ذهابه إلى النوم ، حيث تمثل اللعب نوعا من التكافؤ الإيجابي ،ولا يعني ليفن بذلك أن الطفل يؤيد أن يلعب بهذه اللعب .وإنما هي اللعب المفروض أن يتم اللعب بها .ويمثل الوقت من ناحية. أخرى نوعا من التكافؤ السلبي وتمثل الأم أحد الحدود بمعنى أنهما يضعان حدا لمثل هذا النشاط وسيكون سلوك الطفل محصلة لهذا التشابك النوعي بين القوي . حيث يقول ليفين أنه مع تغير عوامل الزمن فسيكون الناتج مختلفا تماما ،ويترتب على ما سبق نتيجتين اثنتين آخرين ، الأول هي أن الطفل في هذه الحالة يعتبر وحدة واحدة بين وحدات أخرى في هذا الموقف ،ومن ثم لا يمكن

أن تسير سلوكه في ضوء تنظيمه العقلي الداخلي (المشاعر والحاجات ،والقدرات والذكاء) وإنما يفضل في ضوء وضعه داخل الموقف ككل .

والخلاصة ، هناك عدة نقاط تستحق أن نوليها كل اعتبار الأولي يشير مفهوم الشخصية في الاستخدام الشائع إلى جملة المظاهر العقلية للفرد ، وبالنظر إليه في ضوء معنى أكثر واقعية باعتباره عضوا معينا في مجتمع أو بالنظر إليه في ضوء معنى أكثر تجريدا باعتباره متوسطا إحصائيا .

وثانيا : لكي نفهم ونفسر هذه الظاهرة من الضروري تصورها في ضوء مصطلحات البناء والتنظيم والنسق .

وثالثا : لقد قدمنا هنا وصفا تفصليا لثلاثة أساليب أساسية في تصور الحياة العقلية الإنسانية بدأت وانتهت إلى مسلمة مؤداها أن الشخصية تعد بمثابة :-

١) بناءا دافعيا داخليا .

٢) بناءا سلوكيا شكليا .

٣) بناءا موقفا.

وهذه المداخل النظرية الثلاثة للشخصية تشترك في سمة هامة واحدة فيما بينها هي أن الظاهرة التي يشار إليها على أساس مصطلح الشخصية تعتبر بمثابة نسق قائم بذاته ، مهما كان هذا النسق محدودا على أساس دافعي أو سلوكي أو موقفي.

وينطوي هذا التصور على مضامين كثيرة يمكن أن يفيد منها العالم الاجتماعي . من أهمها أنه طالما كان المجتمع يتألف من أفراد أو أشخاص أو شخصيات لا يمكن تغافل الفروق بين هذه التعبيرات الثلاثة ، أو أن كل واقعة اجتماعية تعتمد بدرجة أو

بأخرى إلى الأفعال والتفاعلات بين هؤلاء الأفراد والأشخاص ، أو بعبارة أكثر دقة . تتأثر كل واقعة اجتماعية بالمعايير التي تحكم شخصية الأفراد المستغرقين فيها ويؤكد ذلك الحاجة ، على عالم اجتماعي يشغل نفسه بدراسة الشخصية ويبدي اهتمامه بهذه الطبيعة ، وذلك لأن اهتماماته المهنية وموجهاته النظرية تضعه في موضع ينظر في خلاله ويدرس الشخصية باعتبارها جزءا من المجتمع والثقافة ، أو باعتبارها نسقا له علاقة بأنساق أخرى ،ومن ثم فإن اهتمامه يتركز أساسا على ظواهر مثل الاحتكاك والتحول والاتصال ، أو بعبارة أخرى على عمليات تأخذ مكانها بين الشخصية والثقافة والمجتمع وسوف نحاول أن نعرض لآراء أصحاب بعض النظريات النفسية والاجتماعية والانثروبولوجية في الشخصية وبنائها ويتجسد ذلك في عرض بعض الاتجاهات التي أسهمت في بحث موضوع الشخصية وبنائها. (٣)

ومن ثم فسنحاول أن نعرض باختصار لكيفية تناول الاتجاه النفسي للشخصية ماهيته وبنائها ،والانتقادات التي وجهت إليه ، لننتقل من ذلك على تناول الاتجاه الاجتماعي التقليدي والانتقادات التي وجهت إليه ، لنصل في النهاية إلى الاتجاه الاجتماعي المعاصر الذي حاول الجمع بين الاتجاهين السابقين للتقليل من سلبيات كل منهما قدر الإمكان .

جدلية المجتمع والثقافة والشخصية بين الرؤى الكلاسيكية والمعاصرة :

لقد شكلت علاقة المجتمع والثقافة والشخصية قضية جدلية صاغت جوهر دراسة الشخصية ،واهتم بها علماء الاجتماع وعلماء

النفس والانثروبولوجيا على حد سواء ، فعلماء الاجتماع نظروا للمجتمع كإطار مرجعي أساسي لتشكيل وصياغة وتغير الشخصية ، بينما نظر الانثروبولوجيون للثقافة كمكون أساسي لعلاقة المجتمع والشخصية ، في حين نظر علماء النفس للشخصية في حد ذاتها كبناء أساسي واهتموا بدراسة وتحليل بنائها وتطورها كأساس تحليلي يصاغ في ضوئه أي أثر للثقافة والمجتمع كروافد تصب في الشخصية ليس إلا.

ومن ثم فإن كلمة الشخصية Personality تعد صيغة منظمة نسبيا لنماذج السلوك والاتجاهات والمعتقدات والقيم النمطية المميزة لشخص معين ، التي يعترف بها هو والآخرين .وتعتبر الشخصية محصلة الخبرات الفردية في بيئة ثقافية معينة ومن خلال تفاعل اجتماعي متميز ،ولهذا نحدد بناء الشخصية للفرد عن طريق ملاحظة نماذج سلوكه العام وطريقة تفكيره ، ومشاعره ، كالتعاون أو الصراع أو ما تمتلئ به نفسه من مخاوف ورغبات ،وما يتسم به من صفات اجتماعية وخلقية .

كما يرى " بارسونز " أن الشخصية هي تلك العناصر المكونة لها في المجتمع ،والمقصود هنا الشخصية العادية وليست الفردية .وقد أكد بارسونز أن عملية التنشئة الاجتماعية هي العملية التي يكتسب بها المرء في طفولته عناصر الشخصية الأساسية .

ولقد أوضح بارسونز أن الطابع الاجتماعي للشخصية الأساسية توضح دعائمه في الطفولة الأولى ، فليست العناصر التي تكون الشخصية الأساسية عناصر فطرية بل هي عناصر اجتماعية.

غير ان " أرنولد جرين" يرى أن الإنسان لا يولد شخصا بل إنه يولد مزودا بإمكانيات يمكن أن تجعله كذلك فالإنسان شخصا

نتيجة للمؤثرات الاجتماعية التـــي تـــؤثر فـــي كيانـــه التشـــريحي والفسيولوجي والعصبي ،ولهذا يرى أن الشخصية ليست مجرد القيم والسمات بل أن تعريفها يتضمن صفة هامة فيها وهي التنظـــيم لأن الشخصية تتخذ في كثير من الأحيان طابع المرونة الذي بدونه قـــد تصبح الشخصية عاملا معوقا في النمو والانتماء إلـــى جماعـــات متعددة في المجتمع .

أما " لندبرج " فيرى أن الشخصـــية تشـــير إلـــى العـــادات والاتجاهات والسمات الاجتماعية الأخرى والتي تميز سلوك فـــرد معين ،ولذلك تدل الشخصية على أنساق السلوك التي تكســـب مـــن خلال عمليات التعلم والتغلغل الاجتمـــاعي هـــذا ويكتســـب الفـــرد الشخصية كنتيجة لمشاركته في حياة الجماعة فكل طفل يولـــد فـــي بيئة اجتماعية تؤثر فيه منذ البداية كما يؤثر فيه الضوء والهـــواء ، فالطفل يستجيب منذ اللحظة الأولى للبيئة الطبيعيـــة والاجتماعيـــة المحيطة به . (٥)

غير أن " سوروكين" له رأي مختلف فهو يرى أن للوراثـــة البيولوجية أهمية لا يمكن إنكارها في تحديد معنى الشخصية ولكنه يرى أن للجانب الاجتماعي والثقافي دور هام في بنائها ،ومن هنـــا يؤكد على الاتصال المتبادل بين الفرد والثقافة والمجتمع ، فـــالفرد يمتص عالمه الثقافي والاجتماعي ويتمثله وينمـــو علـــى تربيتـــه ، والثقافة مرآة أعضائها وما يقيمونه من تنظيمات اجتماعيـــة ، أمـــا البناء الاجتماعي فإنه يعكس مكوناته على الأفراد وأنماط ثقافاتهم .

كل هذه الرؤى السابقة رغم أنهـــا تنـــدرج تحـــت الـــرؤى السيكولوجية إلا أننا نجدها تتطرق في كثير من جوانبها إلى الجانب

السوسيولوجي .وذلك لأن الشخصية كموضوع من أهم اهتمامات كلا العلمين .

والرؤى السوسيولوجية لذلك لا تختلف كثيرا عن السيكولوجية ونضرب على ذلك مثال بوجهة نظر " بيسانز " حيث يرى أنها " تنظيم يقوم على عادات الشخص وسماته وتنبثق من خلال العوامل البيولوجية والاجتماعية والثقافية"

واضح أن الرأي الأخير يشابه إلى حد كبير رؤية سوروكن مثلاِ ، لذلك نقول أن هناك صعوبات تواجه الباحث في مجال علم النفس والاجتماع عند محاولته دراسة وتحليل الشخصية ، وذلك لأن الدوافع الأساسية التي تحرك الشخصية دوافع عديدة منها ما هو شعوري ومنها ما هو لا شعوري ومنها ما هو اجتماعي ومنها ما هو لا اجتماعي فالشخصية الإنسانية إذن شخصية من الصعب تعريفها – ومن الأصعب أن يقوم علم واحد بدراستها وتحليلها .

مفهوم الشخصية وطبيعتها في الاتجاهين"السيكوسوسيولوجية":

تبين لنا الرؤى السابقة أن الشخصية مثل جميع الظواهر الإنسانية الأخرى موضع خلاف المشتغلين بالعلوم الإنسانية ،وأنها صارت موضع بحث اتجاهين متعارضين، واتجاه ثالث توفيقي والاتجاهان الأولان ينظر كل منهما إلى الشخصية من اتجاه واحد مغلق ، ويرفض الاتجاه الآخر . فالاتجاه النفسي يعتمد في دراساته على التفسير الذاتي البحت للشخصية ،وترتكز دراساته على العمليات النفسية التي تحدث داخل الشخصية .ودور المجتمع في هذه الدراسات لا أهمية له ، أما الاتجاه الاجتماعي التقليدي فقد أغفل دور الفرد واعتمد في تفسيره للشخصية على العوامل الاجتماعية

البحتة .ويبدو من أن كلا الاتجاهين قد أخفق في تفسير الشخصية الإنسانية تفسيرا موضوعيا .

ومن ثم عجز الاتجاهين النفسي والاجتماعي عن تفسير الشخصية إلى قيام اتجاه جديد في علم الاجتماع المعاصر ، يؤكد أن الدراسات الاجتماعية تبدو على فهم وإثراء المحاولات التي تبذل لفهم الإنسان والسلوك الإنساني .

ويتزعم هذا الاتجاه " تالكوت بارسونز " وتلاميذه ويحاول هذا الاتجاه أن يكسر الحواجز المصطنعة بين علم النفس وعلم الاجتماع وإن يؤكد التفاعل بين البناء الاجتماعي والشخصية حتى يفهم الإنسان فهما جديدا .ومن ثم فقد أعلن أنصار هذه الاتجاه ميلادا جديدا لعلم الاجتماع ،وأقاموا دراسات في الشخصية تؤكد أهمية تلاحم العناصر الاجتماعية والنفسية في تكوين الشخصية ،وأهمية الترابط بين النسق الاجتماعي والثقافة في تحديد السلوك (٦) للشخصية ، فقد يكون لدى شخصيتين نفس المجموعة من السمات ومع ذلك يختلف تنظيم السمات في كليهما . مثال ، قد يتسم شخصان بالتملك والسيطرة ، إلا أنه في الأول قد يكون حب التملك وسيلة للسيطرة على الناس ، بينما في الثاني قد تكون السيطرة وسيلة الاستحواذ أو التملك .

يرى بعض النقاد أن السمات صفات غامضة مبهمة يفهمها كل إنسان فهما خاصا ، مما يؤدي على سوء الحكم ، هذا إلى جانب أنها متعددة متنوعة كثيرة لذلك فليس هناك ما يضمن عدم إغفال بعض السمات أو عدم التمييز التام بين السمات التي قد تبدو متداخلة أو متكررة .وهذا الاعتراض هو الذي دعا إلى قيام منهج

التحليل العاملي الذي اهتم بتصـنيف المتغيـرات المتعـددة فـي مجموعات تعد كل منها وحدة تتداخل فيها الجزيئات المكونة لها .

سمات الفرد هي طرق سلوكه فـي ظـل مثيـرات بيئتـه .ويتوقف وجودها على التفاعل بينها ،وبين البيئة .وهناك اعتراض على اعتبار سمات الفرد أشياء يملكها، فهو لا يملـك الحيـاة ، أو الانطلاق بل يشعر بالحياة في ظل ظروف معينة وهو ينطلق فـي ظروف أخرى مما يؤكد أهمية الظروف الخارجية .

نظرية التحليل النفسي :

صاحب هذه النظرية ورائدها هوسيجموند فرويد Sigmund Freud الطبيب النمسوي الذي عاش بين ١٨٥٦ ، ١٩٣٩ وعـاني في طفولته شعورا بالنقص ، نتيجة لما كان يلاقيه مـن اضـطهاد بسبب ديانته اليهودية ،والتحق بكلية الطب في جامعة فينا ، واهـتم بدراسة النواحي العقلية ،وتعرف أسابها واشترك مع علمي التشريح " بروك" Bruk و" ميزت" Meynct في بحـوض علـى الجهـاز العصبي .وفي عام ١٨٨٥ تحددت قيمته كطبيب ومحاضـر فـي الباثولوجيا ، فأتيحت له فرصة التعمق في بحوثه ،وكان أول مـن أدخل مفهوم اللاشعور في ميدان علم النفس ،ووضع نظريته عـن التحليل النفسي ، وأقام النظرية الجنسية ، ووضع تفسـيرا جديـدا للغرائز ،وتطورها وفتح أفاقا جديدة أمام الباحثين في العلوم الطبية والنفسية والاجتماعية .

ويرى فرويد أن الإنسان يولد مزودا بطاقة نفسية سـماها " اللبيدو" ، وأن تلك الطاقة هي التي تكمن وراء السـلوك الإنسـاني ،وان موطن هذه الطاقة هو " الذات البدائية " أو " الهو" Id وهـي الأساس العقلي للإنسان ، وان النزعـات التـي يحتويهـا " الهـو"

نزعات كلها همجية بدائية لا شعورية غير منطقية تتعارض مع مطالب الحياة الاجتماعية ، ولذا كان من الضروري أن تكبت هذه النزاعات في مهدها منذ ولادة الإنسان بفعل الضغوط الاجتماعية وعوامل التربية ،وان احتكاك الإنسان بغيره من الناس يظهر جزءا من " الهو" وفي هذا الجزء تتكون القيم والفكار الاجتماعية المتمدنة ، ويطلق على هذا الجزء " الانا" أو الذات Ego ،وهي أداة الإنسان للتعامل مع غيره ،وهي الجزء العقلي ، أي المنطقي في التقسيم العقلي عند فرويد .

ويتعرض " الانا" أو الذات لضغوط الحياة الاجتماعية الخارجية من ناحية ، ولضغوط النزعات الهمجية في " الهو" من ناحية أخرى ، إذ يقوم الآباء أو المشرفون على تربية الطفل ، من بداية حياته بنهيه عن المحرمات الاجتماعية ،وعقابه على السلوك ، الذي لا يرضى عنه المجتمع ،وتمتص " الانا" هذه التوجيهات ،ويؤدي هذا الامتصاص إلى تكوين جزء ثالث هو الرقيب الذي يقوم في الكبر مقام الوالدين والمشرفين في الصغر ، والرقيب معظمه لا شعوري ، لأنه يتكون في المرحلة الأولى من الحياة بطريق لا شعوري ،وهذا الجزء يسمى " الانا العليا " أو الضمير اللاشعوري Super Ego ومعنى هذا أن مدرسة التحليل النفسي (فرويد) ترى أن النفس الإنسانية تقوم على ثلاثة أجهزة ، تعمل في مستويات ثلاثة : اللاشعور ، وما قبل الشعور ،والشعور وهذه الأجهزة هي : (٧)

١- الهو أو الذات البدائيةId:

هو المقر الأصلي للبيدو ، ومنبع الطاقة البيولوجية النفسية بأسرها . وهي مركز النزوات الغريزية ،وموطن الرغبات المكبوتة

ومخزن النزعات الهمجية العدوانية التي ورثها الإنسان عن الحيوانات الدنيا ،وهي المستودع الذي تكمن فيه الدوافع النظرية البدائية ، أو كما سماها فرويد صبيانية Infantile ولا أخلاقية Amoral وهي لا شعورية كلية ، ولو أنها تسمح لما يكمن فيها من دوافع غريزية بدائية Iddish أن تظل من آن لأخر في الشعور إطلالة سريعة ،وغالبا ما تكون مخجلة للشخص مفزعة له ، وهي تهدف إلى الإشباع بأي أسلوب ،وتسعى وراء اللذة وتفادي الألم ،وتتميز بالاندفاع وعدم التقيد بالقيم الاجتماعية والأخلاقية أو المبادئ المنطقية أو حدود الواقع وقيوده ،وهي تسيطر على سلوك الفرد في مراحل طفولته المبكرة وفي بعض حالات المرض النفسي أو العقلي ولدى المنحرفين ذوي النفوس المعتلة .ويمكن اعتبار " الهو" الصورة البدائية الشخصية.

وتذهب مدرسة التحليل النفسي إلى أن أهم دوافع " الهو" هي دافع الجنس ودفع العدوان . ولمفهوم الجنس عند فرويد معاني أكثر شمولية من المعنى عن الجنس في أذهان الناس ، فالجنس في نظر " فرويد" يضم كافة الظواهر النفسية التي لها أصلا صلة بالجنس ، وكل ما يشبع حاجات الفرد ،ويحقق له اللذة ، والرضا ، والارتواء فهو يدخل في معنى الجنس حب الذات ،وحب الأم والأخوة، والأصدقاء ،وكافة أنواع النشاط التي تحقق للفرد اللذة والإشباع . أما دافع العدوان فهو عند فرويد يعني القوة التي تعمل على تأكيد الذات ،وهي طاقة فطرية تهدف إلى الإشباع وتحطيم مصادر الألم ،والحرمان وتتوقف شدة دافع العدوان في عوامل بيولوجية وأخرى متعلقة بالغدد الصماء ، كما تتوقف من جهة أخرى على درجات الحرمان وتكرار حدوثه في مرحلة الطفولة .

٢- الذات أو " الانا" :Ego

عندما تنمو حواس الطفل وأجهزته العصبية ،والعضلية وغيرها وتزداد خبرة الفرد بالحياة وبتفاعله مع الآخرين ، يتبلور شعوره بذاته ،ويدركها متميزة عن العالم الخارجي ، كما يدرك العالم الخارجي متميزا عن ذاته وهذا الشعور بالذات هو بداية تكوين الجهاز الثاني في شخصية الفرد ،وهو " الانا" أو الذات ، وهي الجزء الشعوري الواعي أو الجانب المتمدين المعقول من شخصية الفرد ، والذي تعرف عنه الكثير عادة ، وهي التي تتعامل مع المجتمع ،والواقع الخارجي مباشرة، ويعد حلقة الاتصال بين الواقع ،والذات البدائية .

وتنشأ الذات " الانا" أصلا من الدوافع الفطرية ،وتنفصل عنها كنتيجة للخبرة والتدريب والتعلم أثناء مراحل النمو ،وتنمو تدريجيا ،وتسهم في تكوينها عوامل أساسية كالذكاء ، والتكوين البدني ، ودرجة الاتزان الانفعالي ،ودرجة ضغط الدوافع الداخلية كما أن من عوامل تكوين " الانا" هو معرفة الغير ، وتمثيل " الانا" بالآخرين ، فالفكرة التي نكونها عن أنفسنا تحوي كثيرا من المعاني المستمدة من معرفة الغير ، حتى " أنه يمكن القول بأن معرفة الغير سابقة على معرفة الذات ، كل هذه عوامل تحدد صورة " الانا" وهي الإطار الذي يرى الإنسان من خلاله نفسه ،ويحدد على أساسه أنماط سلوكه التي تعتبر – الذات – هي المسئولة عنه ، فهي التي تشعر بضغط الدوافع الداخلية والنزعات الغريزية ، وتدرك وجودها وحاجتها للإشباع ،وهي تدرك في نفس الوقت ، ظروف البيئة الخارجية وأوضاع ، المجتمع ،وما تفرضه الأسرة ،والمدرسة والسلطات الدينية والمدنية والأوساط الاجتماعية المختلفة للسلوك

ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة بالدوافع القطرية ، فتحد من حرية إشباعها ،أو تتصدى لإحباط نشاطها إحباطا تاما.

ومسئولية " الانا" هي محاولة التوفيق بين هذه الدوافع من جهة وبين الواقع الخارجي من جهة أخرى ، أي ربط العلاقات ، وتنسيقها بين الفرد والعالم الخارجي وضبط السلوك على أساس إشباع حاجات الفرد في الحدود التي يرسمها المجتمع ،وتجنب ما يخرج عن تلك الحدود ،ومالا يتفق مع الواقع ، فكأن للانا وظيفة أخرى هي الإشراف على الجهاز الحركي الإرادي ، فعن طريقه تتحقق الدوافع بالفعل أو لا تتحقق [٨].

٣- الذات العليا أو الرقيب الأعلى Super Ego:

وهو ما نسميه بالضمير الأخلاقي الذي يحاسب الذات " الانا" على تصرفاته وأفعاله ،ويقوم بمراقبة النزعات الهمجية ،والدوافع الفطرية البدائية غير الاجتماعية في " الهو" أو الذات البدائية ، فتمنعها من الانطلاق إلى الخارج .

والذات العليا أغلبها شعورية تشمل الأفكار والمشاعر والاتجاهات والميول السلوكية التي يمتصها الفرد ،ويتمثلها من والديه ،والمشرفين على تنشئته وتربيته وتعليمه من النظم الاجتماعية المختلفة التي ينتمي إليها منذ طفولته خلال مراحل نموه المختلفه ،يستوعبها الفرد حتى يصبح وكأنما هي جزء من نفسه يردعه من الداخل ،ويمثل العادات ،والتقاليد والقوانين والقيم الأخلاقية للجماعة داخل شخصيته . لذلك فإن لعملية التنشئة الاجتماعية للفرد ، في جو يسوده التوافق والإشباع المتزن للدوافع ،علاقة مباشرة في تكوين ذات عليا قوية متزنة . ففي تفاعل الطفل مع أبويه تتبلور في نفسه أوامرهما ، وتعاليمهما عن الخير ، والشر ، والصواب

،والخطأ ،والحق ،والباطل والعدل ،والظلم ،تتبلور جميها على شكل سلطة داخلية تقوم مقام الوالدين في كل ما يقومان به من توجيه ،ونقد ،وثواب وعقاب حتى يجمل من نفسه رقيبا على نفسه يرشده إلى ما يجب ، وما لا يجب عمله، ويثيبه أو يؤنبه على كل ما يفعله هذا الرقيب هو الذات العليا.

فالذات العليا في واقع الأمر ، مثلها مثل " الهو" إنما هي استمرار لا شعوري يمتد من عهد الطفولة ، فهي تنطوي على الأفكار الأخلاقية التي ظلت تتراكم منذ الطفولة ، أفكار تكونت منذ أن كان الصواب و" الخطأ" بالنسبة للطفل مجرد مفاهيم اعتباطية لا عقلية Non-rational ، فالطفل لا يفهم السبب فيما يفرضه عليه الكبار من ممنوعات فهو يتعلم بعض الأعمال المعينة تعد أعمالا سيئة غير مقبولة، بنفس الطريقة التي يتعلم بها أن حيوانا معينا يسمى البقرة .وكما أنه ليس هناك مستويات من مفهوم البقرة فليس هناك كذلك مستويات من السوء . فالشيء في نظره إما سيئا أو لا ، فمعنى التناسب ، والقدرة على التمييز بين المعتدل ، والمتطرف ، من الأعمال السيئة ، تطورات تأتي متأخرة في مراحل النمو .

وهكذا تتكون الذات العليا خلال مرحلة الطفولة المبكرة السابقة للمرحلة العقلية Pre-raticnal في التطور الأخلاقي . فالذات العليا يمكن أن توصف بأنها ضرب من الضمير الشعوري Unconcious conscience الذي غالبا ما تتعارض مقاييسه غير المعقولة ، مع مطالب الضمير الشعوري المستنيرة المعقولة نسبيا والتي تكون عواطفنا الأخلاقية ، فالذات العليا هي التي تجعلنا نشعر بوخزات الذنب تخزنا حين نسلك سلوكا لا يؤنبنا عليه ضميرنا الشعوري .

تلك هي الأجهزة النفسية التي تتكون منها الشخصية في نظر مدرسة التحليل النفسي التي لا بد أن تعمل جميعا – وفي حالة التنشئة الاجتماعية السليمة في تعاون وانسجام مع بعضها ومع بقية أعضاء الجهاز النفسي العام ، لتحقيق أكبر قدر من التوازن ، والاستقرار النفسي للفرد ، فإذا تصورنا بروز نزوة غريزية في " الهو" فإنها تتجه إلى "الانا " لمحاولة إشباعها ،ولكن " الانا" السليمة تتريث ، لترى إن كان الموقف الخارجي لا يسمح بذلك أو تشبعها إذا كانت الظروف الخارجية لا تتعارض مع ذلك الإشباع ،وفي نفس الوقت تكون " الذات العليا" أو الرقيب الأعلى ساهرا يتدخل إذا كان في النزوة شيء يتعارض مع القواعد والاتجاهات التي استقرت فيه ، فيضغط على " الانا" لرد الرغبة وكبتها.

وهكذا تخضع " الانا" لقوى ثلاث :

أ) الدوافع والحاجات ،والنزوات ،والرغبات التي تكمن في الذات البدائية وما تتطلبه من إشباع على أساس مبدأ اللذة وتجنب الألم دون اعتبار لمبدأ الواقع .

ب) الأوضاع الاجتماعية والثقافية Culture الخارجية السائدة والقوانين والسلطات، وما تفرض من أوامر ،ونواهي تعترض سبيل الدوافع الفطرية، وتصطدم مع النزوات التي لا تتفق معها

ج) الذات العليا أو الرقيب الأعلى ،وما يفرضه عند صد ،وتحريم لإشباع تلك الدوافع والنزوات ،وتمسك بالقيم الأخلاقية التي امتصها واستوعبها خلال عملية التنشئة الاجتماعية للفرد .

و" الانا" القوية التي نمت نمو سليما ، هي التي تستطيع التوفيق بين هذه القوى الثلاث دون أن تتأثر أو تصاب باضطراب في بعض أو كل وظائفها ، أما " الانا" الضعيفة غير الناضجة ،

فهي التي تتخاذل أم تعارض تلك القوى ، فتقع مثلا تحت سيطرة " الهو" بما يحوي من دوافع غريزية ،وعندئذ يسود مبدأ اللذة ،ويهمل مبدأ الواقع ،وقيود المجتمع ،والذات العليا ،ويصبح السلوك منحرفا ،ويأخذ أشكالا عدوانية مختلفة ، كالتخريب والاعتداء .

ومن جهة أخرى قد تخضع " الانا" الضعفة لتأثير الذات العليا فتصيح "أنا" متزمتة غير قادرة على القيام بوظائفها ، بما يحقق إشباع الحاجات الأساسية وتوازن الشخصية ، فتقع فريسة للصراع ،والتوتر والقلق ،والتأنيب والشعور بالذنب والحيرة ن بما يؤلف في مجموعة قوة ضاغطة تكبت الدافع كبتا تاما ، وتزج به في أعماق اللاشعور ، منعا له من الظهور ،وهذا الكبت في ذاته ، أكبر خطر على الصحة النفسية للفرد ،وعامل هام في ظهور الأعراض المرضية ، وكثير من الانحرافات السلوكية ،والأمراض العصبية والذهانية بأنواعها ودرجاتها المختلفة ،والتي تعبر أعراضها تعبيرا رمزيا عن الصراع المحتدم بين الدوافع من جهة ، وبين الذات العليا ،والواقع الخارجي من جهة أخرى .

مما سبق يتضح أن للإنسان أكثر من نفس واحدة :

١- " نفس إمارة " تتمثل في الهو: في الغريزة والشهوة الجامحة .

٢- " نفس لوامة" : تتمثل في الانا الأعلى الذي يلوم الإنسان ويعاقبه حين يخطئ.

٣- نفس مطمئنة واقعية عاقلة تتمثل في الانا، وهو جانب الحكمة والتعقل في شخصية الإنسان .وهو القسم القادر على ضبط النزعات وتصريفها حسب الواقع الخارجي الذي يتعامل معه .

وهذا التقسيم مألوف للناس في كل العصور، فنحن نقول : " يجب على الإنسان أن يحارب نفسه .وأن يقاوم شهواته ، والا يمتثل

للإغراء " . ونحن نقول :" إن فلانا يستطيع الإضرار بغيره ، لكن ضميره لا يخلصه " كذلك تصور الاندفاعات العمياء للهـو حـين يرتكب الفرد ذنبا فيقول : لا أدري ماذا دفعني إلى هذا ، لعـن الله الشيطان. (٩)

علم النفس التحليلي :

سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٦) :

يرى فرويد أن البحث عن السعادة والحصول عليها وتخفيف الآلام هو الهدف من السلوك الإنساني ، وهو كل ما يتطلبه الإنسان من الحياة ،وأن إشباع الغرائز هو السعادة ،وهـذه الغرائـز ميـل فطري للكائن الحي تدفعه إلى تكرار الأحداث البدائية المتوارثة من العصر قبل الحضاري ، وأن مبدأ اللذة هو المبدأ الذي يسيطر على علميات الجهاز النفسي منذ الميلاد ،ولكن الحيـاة النفسـية ليسـت متصلة ، فالإنسان لا يستطيع دائما إشباع حاجاته في هذا العـالم ، كما أن الحياة مليئة بالآلام والتوترات النفسية وضروب الصراعات المتعددة ،ويصنف فرويد أسباب الصراعات إلى ثلاثة أنـواع مـن الأسباب . أولها أسباب من الجسد ،وثانيها أسباب خارجية في العالم الخارجي ،وثالثها أسباب ترجع إلى علاقات المرء مـع الآخـرين ،ويرى فرويد أن النوع الثالث منها ما هـو أشـدها فاعليـة فـي الحرمان من السعادة .

وقد اكتشف فرويد أن سيادة الشعور على السلوك البشـري وأفعال الإنسان وما يصدر عنه من انفعالات وأحاسـيس ، سـيادة محدودة ،وأن الحوافز البدائية والشريرة للجنس البشري لم تختفـي من الإنسان ، بل استمرت في وجودها ، ثم استقرت في اللاشـعور في صورة مكبوتة ،وقد أعلى فرويد من قيمة هذا اللاشعور ،ومدى

سيطرة المرء وسلوكه . وأشار على أن هذه الحوافز اللاشـــعورية تتحين الفرص لتظهر جلية وتلعب دورها في تحديد السلوك ومن ثم فقد تحدث هذه العمليات النفسية دون أن يشعر بها المرء أو يسيطر عليها .

ورأى فرويد أن الغرائز هي منبع الطاقة الوحيدة لكل سلوك إنساني ،وهي الدافع المستتر وراء أوجه النشاط الإنساني المتباين ، وقد بين فرويد أن حجر الزاوية في التحيل النفسي هو هذا المحتوى اللاشعوري ، إذ أنه يلعب دورا حاسما في اتجاهات الملاحظة أثناء عملية التحليل ، لأنه حب الدوافع والسلوك ،وان الهدف من التحليل هو إعادة التوازن النفسي للفرد وتحقيق سيادة العمليات الأولية فـــي هذا الجانب من النفس الذي عجزت فيه الحيل النفسية عن ممارسة نشاطها.(١٠)

ومن الاكتشافات الفرويدية الهامة اللبيدو ، الذي يكمن فـــي اللاشعور ،وكلمة اللبيدو اصطلاح فرويدي يدل على الطاقة النفسية المستمدة من الغرائز البيولوجية الأولية وتضم هذه الطاقـــة كافـــة الغرائز التي تنطوي تحت كلمة حب وتهدف هذه الطاقة إلى تحقيق السعادة ، واستقرار الحياة الجنسية وربط الفرد بالجماعات المختلفة ،ولا يقصد فرويد بالجنس عملية الاتصال الجنســـي بـــين الرجـــل والمرأة بل يقصد العاطفة المتبادلة .وتساعد الطاقة الليبدية غرائـــز الحياة على أداء وظائفها ، واللبيدو عند فرويد جـــزء مـــن الهـــو ويبجث عن اشباعاته في النشاط الجنسي وهو عامل هام في تكوين النشاط النفسي الشخصي والرغبة اللبيدية هي القوة الدافعة للإنسان لتخليد نفسه.ويكشف لنا اهتمام فرويد بتأكيد قيمـــة القـــوة الدافعـــة للإنسان لتخليد نفسه .ويكشف لنا اهتمام فرويد بتأكيد قيمة اللبيـــدو

عن مدى تأثره بالاتجاه البيولوجي في تفسير سلوك الإنسان ،ومحاولة ربط الظواهر النفسية والسلوكية عند الإنسان بالعمليات البيولوجية.

ومن ثم فلقد لعبت الغرائز دورا هاما في نظرية فرويد ،وقد ميز أول الأمر نوعين من الغرائز الجنسية Sexual instincts وغرائز الذات Ego instincts فالدوافع التي تعمل على حماية الذات وبقائها إنما هي نتيجة لما سماها بغرائز الذات .

وقد عدل فرويد فيما بعد رأيه في هذه الغرائز وحددها بنوعين يختلفان بعضهما عن البعض تماما هما الغرائز الجنسية بالمعنى الواسع لكلمة Eros الحب، والغرائز الاعتدادية التي ترمي إلى التخريب .

ولقد حاول " فرويد " في بداية أعماله أن يفسر الفرد منعزلا عن الجماعة واعتبر الكائن العضوي تنظيما معقدا للطاقة ، لكنه عدل عن النظرة الذاتية البحتة في كتابه الأخير " علم النفس الجماعي وتحليل الانا" وكذلك أبحاثه عن التوتر والحضارة ،وحاول أن يفسر السلوك الإنساني بالرجوع إلى الجماعة وأن يظهر تأثير الجماعة ،والحضارة على الشخصية وتطوير سلوكها ، لكنه اهتم بدورها النهي والتحريم ،ولم يهتم بدورهما التنظيمي البناء .

وبعد أن عرضنا الإطار العام لنظرية فرويد في التحليل النفسي ، نعرض الآن رأي فرويد في بناء الشخصية ،واول ما نجد في هذا الصدد رفض فرويد للاصطلاح الفلسفي عن الذات ، باعتباره العنصر المكون للشخصية . وقد رفض فرويد الاصطلاح الفلسفي عن الذات ، باعتباره العنصر المكون للشخصية [illegible] تفسيرا جديدا كل الجدة في بناء الشخصية . حيث [illegible]

الشخصية تتكون من ثلاثة نظم أساسية : الهـو Id ،والانــا Ego ، والانا الأعلى Super-Ego ،وبالرغم من أن كل جزء مـن هـذه الأجزاء للشخصية الكلية له وظائفه وخصائصه ومكوناته ومبادئـه التي يعمل وفقها وديناميانه وميكانيزماته ، فإنهـا جميعـا تتفاعـل تفاعلا وثيقا ، بحيث يصعب إن لم يكن مستحيلا فصل تـأثير كـل منها ،ووزن إسهامه النسبي في سلوك الإنسان ، إن السلوك دائما – في الغالب – محصلة تفاعل بين هذه النظم الثلاثة ونادرا ما يعمـل أحد هذه النظم بمفرده دون النظامين الآخرين .[١١]

بناء الشخصية عند فرويد :

لقد قسم فرويد بناء الشخصية على الهو والأنا والأنا الأعلى ورأى أن هذه العناصر الثلاثة مناطق نفسية ،وان العلاقـة بينهـا علاقة إليه ، وليست علاقة تفاعل، فهي أنساق منفصلة ضـرورية لأداء الشخصية لسلوكها ونشاطها ، ويمكن لنا القول أن الهو عنـد فرويد يعبر عن المضمون البيولوجي للشخصية ويعبر الآنـا عـن المضمون الإدراكي ، كما يؤكد الأنا الأعلى المضمون الاجتماعي وقد أكد فرويد في أكثر من جانب أن نمو تكوين الأنا والأنا الأعلى ليسا وليدي الميراث البيولوجي ، فعندما نولد لا نملـك إلا الهـو ، ويتكون الأنا والأنا الأعلى بنمو الفرد. ويعتمد تكوينهما على مكـان الأنا الأعلى كجزء من بناء الشخصية يجب أن يدرك داخل إطـار ثقافة المجتمع . كذلك أكد فرويد أن عمليتي النمو الفـردي والنمـو الثقافي يتعارضان ،ويتبادلان الخضوع أحدهما للآخر . إن الفـرد في سعيه لإشباع حاجاته في علاقاته بالبيئـة والآخـرين يتنازعـه إتجاهين ، إتجاه يبغي سعادته للشخصية وإتجاه آخر يدفعـه إلـى الارتباط مع المجموعة الإنسانية .ولا ريب أن فرويد رغم إدعـاء

الكثيرين بأنه تغافل عن أهمية العناصر الاجتماعية في تشكيل جميع العناصر المكونة لبناء الشخصية ، قد أكد ظاهرة اجتماعية هامة هي الأخلاق .وإذا كان قد وصم الهو ،وهو الجانب اللاشعوري ، بأنه ينزع إلى إشباع مطالب الغرائز الجنسية الطفيلية. فإن الأنا الأعلى يناضل في سبيل تحقيق الأحلام التي يرضى عنها عالم الواقع . بل وافراطه على تحقيق الخلاق وصرامته في ذلك . وهذا المفهوم رغم قصوره يعتبر أحد الخطوات الأساسية التي تساعد على تأكيد التفاعل بين البناء الاجتماعي والشخصية . (١٢)

ولابد لنا من ان نعترف بأن ، نظرية التحليل النفسي قد أضافت إلى مفهوم الشخصية الإنسانية الكثير مما يمكن إجماله فيما يلي :

١- رسمت لنا مدرسة التحليل النفسي صورة ديناميكية للشخصية الإنسانية من حيث هي ميدان لصراع كثير من الدوافع والقوى ،وهو ميدان يصطرع بدوره مع ميدان البيئة الاجتماعية والثقافية ،وهي صورة لا تقتصر على الوصف فقط، بل تتجاوزه إلى تفسير ومعرفة الأسباب والحق أن هذه الصورة تعد أهم ما أضافته مدرسة التحليل النفسي لا إلى نظرية الشخصية فحسب ، بل وإلى علم النفس بوجه عام .

٢-من هذه الصورة يتبدى لنا أن السلوك إنما هو محصلة قوى متدافعة ومتعارضة لدوافع وعمليات يتم أغلبها خارج نطاق الشعور .

٣- لم تعد (الذات الشاعرة) هي الموضوع الوحيد لعلم النفس ، كما كانت بالأمس، فقد أظهر أن من يريد أن يعرف (نفسه)

فعليه أن ينفذ إلى أعماقها ،وألا يأخذه الغرق فيقف عند معرفة ذاته معرفة السطحية الشاعرة .

٤- وجهت نظرية التحليل النفسي إلى حقائق هامة لم تكن معروفة من قبل فقد كان فرويد أول من اكتشف حقيقة بين شخصية الراشد وظروف تنشئة الطفل ، ومعاملته وأثر الخبرات الانفعالية التي يمر بها على شخصيته . وقد أكد فرويد بنظريته أن الشكل النهائي للشخصية يتحدد نتيجة لتفاعله مع العوامل النفسية الداخلية ذلك التفاعل الذي يتم معظمه على مستوى لا شعوري .(١٣)

نقد نظرية التحليل النفسي :

١- لم يقم حقائق التكوين النفسي للشخصية أساسا على أسلوب علمي في التفكير، بل قام على أساس التأمل الباطني الذاتي ،ولهذا عجزت النظرية عن التفسير العلمي لتلك الحقائق . فنظرية التحليل النفسي لم تخل من المفاهيم الغبية التي لا يمكن أن تفسر بعوامل محسوسة بل أنه يمكن القول أن مفهومات الغيبية التي لا يمكن أن تفسر بعوامل محسوسة بل إنه يمكن القول أن مفهومات فرويد في تفسيره لجوانب الشخصية هي مفهومات أقرب إلى التصورات الخرافية منها إلى المفهومات العلمية . فهو يتحدث مثلا عن (أجهزة) الشخصية . فهناك الهو . وهناك العقد النفسية الموجودة في اللاشعور ،والتي تحاول جاهدة أن تدخل إلى مسرح الشعور لتثير القلق والاضطراب في الأنا ، والتي يحاول الرقيب بينها وبين مسرح الشعور ، فنلجأ إلى الرمزية والتخفي والقيام بصورة مقنعة لعلها تفلح فيما تريد كل هذا أقرب إلى التشبيهات والصور الخرافية ولا يمكن لمثل

هذه التشبيهات أن يستند إليها في بناء نظرية علمية في الشخصية .

٢- لم تعد فكرة التطور النفسي (التي فسرت عن طريقها هذه النظرية سمات الشخصية) مقبولة بن علماء النفس المعاصرين ، بعد أن كشفت الدراسات الانثروبولوجية عن الاختلافات بين شخصيات الأطفال في المجتمعات البدائية، وشخصيات أقرانهم في المجتمعات التي تناولها (فرويد) بالوصف ، فضلا عن الاختلاف بين أطفال المجتمع الواحد مما يبين أن التعليمات التي وصل إليها فرويد لا تقوم على أساس من الملاحظة الموضوعية .

٣-لم تقرر المبادئ التي وضعتها هذه النظرية شيئا عن العلاقات الوظيفية بين الظواهر النفسية ، وبين العوامل البيولوجية المستقلة التي تؤدي إليها ، فمن جهة اعتبر أن الطفل يسعى لإشباع دوافعه البيولوجية تحقيقا لمبدأ " اللذة" ومن جهة أخرى قال " أن هذا السلوك قد يتعدل تبعا لمطالب المجتمع ،ومبدأ الواقع ،وأخيرا نادى بمبدأ " إجبار التكرار " عندما تحدث عن شذوذ بعض السلوك عن هاتين القاعدتين في حالة اتجاهه اتجاها مضادا لرغبات المجتمع دون تحقيق إشباع الفرد ،وبذلك فقد جعل المبادئ هي التي تتبع الظواهر وليس العكس لهذا لا نستطيع أن نقول أن نظرية التحليل النفسي قد وصلت إلى قوانين علمية بالمعنى الصحيح ، بل أن ما أسمته لا يخرج عن كونه تصنيف للظواهر السلوكية سلوك يحقق اللذة وسلوك يرضى عنه المجتمع ،وسلوك يؤدي إلى المرض النفسي .

٤- تقوم نظرية " فرويد " كما هو الحال في نظرية " مكدوجل " على أساس الغريزة والفرق بينهما هو أن " مكدودجل " جعل أساس الحياة الفطرية عند الإنسان عدة غرائز ، في حين أن فرويد جمع تلك الغرائز ،وجعل الغريزة الجنسية هي الأساس الوحيد للحياة النفسية ،ولو أنه عدل هذه النظرية بعد ذلك، وجعل أساس الحياة غريزتين هما غريزة الحياة وغريزة الموت ، وفسر كافة أنماط السلوك الإنساني بهاتين الغريزتين : فالإنسان يأكل ليبقى على حياته ، لأن عنده غريزة الحياة . وإذا ألقى الإنسان بنفسه على البحر لينتحر -وهو ما يتعارض مع الاتجاه الأول ن لم يؤد هذا إلى تساؤل أو عجب ، فالجواب جاهز وهو أن غريزة الموت في هذه الحالة قد تغلبت على غريزة الحياة . وكذلك تصبح الحرب حتمية لوجود غريزة الموت فكأن الإنسان إذا أتي عملا يساعده على التكيف في الحياة كان تفسير ذلك أنه يرجع إلى غريزة الحياة ،وإذا سألناه ما دليلنا على وجود هذه الغريزة كان الجواب هو أن السلوك ذاته يؤدي إلى التكيف للحياة ،وبالمثل إذا سألنا لماذا يأتي الإنسان سوكا يؤذي نفسه أو مجتمعه كان الجواب لأن عنده غريزة الموت ،وإذا سألنا ما الدليل على وجود هذه الغريزة عدنا إلى السلوك نفسه الذي هو بحاجة إلى تفسير لتفسر وجود الغريزة والواقع أن هذا الاتجاه لا يفيد في التنبؤ بالظواهر السلوكية لأننا ننتظر حدوث السلوك ثم نرجعه على وجود الغريزة المناسبة ومن المعلوم أن التفسيرات التي تأتي بعد حدوث الظاهرة لا تفيد إلا قليلا ولكن النظرية الجيدة بخلاف

هذا هي التي نمكن من يستخدمها بالتنبؤ مقدما بما سوف يحدث.

٥- صور " فرويد" الفرد على أنه بطبيعته ،وبما يولد به من نزعات غريزية ، معد للحياة الاجتماعية و أن المجتمع يعمل منذ البداية للضغط على الفرد ،وكبت نزعاته الطبيعية ويمكن القول بأن الإنسان عند فرويد شرير و عدواني بطبعه . و أن المجتمع والضغوط الاجتماعية هي عوامل التأديب و التهذيب .والواقع أنه ليس هناك دليل على الإنسان يولد بطبيعته خيرا ، أو شريرا . بل أن الدراسات الانثروبولوجية العديدة تشير إلى أن الإنسان وسمات شخصيته تتشكل في إطار الثقافة التي ينشأ فيها . والعلاقات الاجتماعية التي يتأثر بها.(٤٠)

المدرسة الاجتماعية التقليدية :

يقابل المدرسة النفسية التي اتخذت الفرد محورا لدراستها والتي جعلت دور المجتمع ثانويا من حيث التأثير على الفرد ويقابل هذه المدرسة النفسية المدرسة الاجتماعية التي تركزت دراستها حول المجتمع أو الجماعة ،وهذا ويمثل هذه المدرسة كل من أميل دوركايم ووليم توماس ، وتشارلزكولي وفيما يلي عرض لأهم إسهامات بعض هؤلاء الرواد :

أ) أميل دوركايم:

في الواقع يمثل دوركايم أبرز ممثلي هذه المدرسة حيث يرى ان العوامل النفسية لا تعمل على توجيه سلوكنا ، ولكن العادات والأحكام السابقة وكل الرواسب المتروكة في حياتنا هي التي تكون سلوكنا ،وبناء على ذلك فإنه يرى ان المجتمع يضع مجموعة من القواعد الأخلاقية والظواهر الاجتماعية . تلك القواعد

التي لها قوة القهر والإلزام على سلوكنا ، هذا وتفرض علينا هـذه القواعد الأخلاقية من الخارج ولا تنبع من داخل أنفسنا وبدون القهر الذي يمارسه المجتمع لانطلقت رغبات الفرد إلى الحـد الـذي لا يمكننا من السيطرة عليها ، فالمجتمع هو صانع كل شيء داخلـه ، بما له من قوة وإلزام ولذلك يرى دوركايم أن السلوك سـواء كـان شاذا أو سويا ينبع من الظروف الاجتماعية في الجماعة ،وإنطلاقـا من هذه الفكرة قرر دوركايم أن ظاهرة الانتحار **Suicid** ظـاهرة اجتماعية وليست ظاهرة فردية، ومن ثم لا تفسر هذه الظاهرة إلا اجتماعيا ،ويؤيد دوركايم تفسير هذا بقوله أن الرجال ينتحرون أكثر من النساء و الأطفال والشيوخ نتيجة انغماسهم أكثر من غيرهم في الوجود الاجتماعي ، ثم ذهب دوركايم قائلا أن التصورات الفرديـة تفقد خواصها أثناء اتحادها وترابطها ، فالخصائص الفردية تـذوب في الحياة الاجتماعية، وتتلاشي وتفقد تميزها وفرديتها .

لذا فقد فرق دوركايم بين التصـورات الجمعيـة ،ورأى أن موضوع علم النفس هو التصورات التي تعبر عن الحالـة العقليـة الفردية ، أما موضوع علم الاجتماع فهو التصـورات الاجتماعيـة والفرق بين التصورات الفردية والاجتماعية هي الفرق بين الفـرد والمجتمع ، هذا وتتميز التصـورات الجماعيـة بمجموعـة مـن الخصائص أهمها:

أ) أن هذه التصورات تنشأ خارج عقول الأفراد .

ب) أن هذه التصورات تعكس أفكار الجماعة .

ج) أن هذه التصورات لها صفة القهر والإلزام على الأفراد .

من خلال ذلك يتضح أن دوركايم يؤكد على تأثير قوة المجتمع على الفرد . [١٥]

أما عن مكانة الشخصية Personality عند دوركايم فإنه يرى أن الشخصية لا توجد إلا في الجماعة ،وبناء على ذلك أكد وجود الشخصية الاجتماعية بمعنى أن الشخصية تنبع من المجتمع ،وتعبر عن العقل اجمعي ،وعلى أساس ذلك رأى أن كل مجتمع يخلق شخصية أعضائه حسب تركيبه الاجتماعي والمورفولوجي .

هذا ويرى دوركايم أن الشخصية تتكون من عنصرين أساسيين هما :-

العنصر الأول : هو الجسد : وهو عبارة عن مجموعة من العناصر البيولوجية ، وهذا العنصر هو الجزء الدنيوي الزائل في الشخصية والذي يمثل العالم الفردي ، وهو ما يميز شخصا عن آخر.

العنصر الثاني : هو النفس : وهو العنصر الاجتماعي في الشخصية وتمثل النفس روح الجماعة أو العقل الجمعي ، لذا تعبر النفس عن الميراث الاجتماعي أي أن النفس تعبر عن الجماعة ولا تعبر عن نفس الفرد .

وهكذا تكشف تركيبة الشخصية وبناؤها من العنصرين المادي والاجتماعي أن الإنسان موجود بيولوجي يقوم المجتمع بتربيته اجتماعيا والسمو به من مستوى الحياة الفطرية والبيولوجية ،وهي حياة الحيوان إلى مستوى حياة الإنسان الاجتماعي ليتلاءم مع النظم الاجتماعية في المجتمع الذي يعيش فيه.

وقد فصل دور كايم في دراسته بين الفرد والمجتمع مما أدى به إلى فصل علم الاجتماع عن علم النفس وإقامة هوة بينهما وحواجز صناعية ،ويبدو لنا أن هذا الفصل بين علم الاجتماع وعلم النفس فصل تعسفي متحيز أعاق تطور علم الاجتماع . فالمجتمع هو صانع التصورات الفردية عند كل منا .(١٦)

وإذا كانت الشخصية موضوعا نال اهتمام علماء النفس فإن قلة من الاجتماعيين قد عالجوها في دراساتهم ضمن النظرية الاجتماعية فالشخصية ليست موضوعا للمعرفة تقتصر دراستها على علم النفس لكن الاجتماعيين اهتموا بدراسة الشخصية تأكيدا لدور المجتمع الإيجابي على الفرد إلا أن دراسة الاجتماعيين للشخصية دراسة ثانوية هامشية بالنسبة لاهتمام علماء النفس فهم لم يفردوا لها مكانا مستقلا داخل النظرية الاجتماعية كما أن الاهتمام الاجتماعي بنظرية الشخصية لا يعني أصالة في موضوع الشخصية عند الاجتماعيين كما هو الحال في موضوعات أخرى مثل الظواهر الاجتماعية والعمليات الاجتماعية وجماعات المرجع والاتصال والحراك الاجتماعي .

وتبين لنا الدراسة التاريخية للنظريات الاجتماعية أن علم الاجتماع الدوركايمي لم يهتم بالشخصية ولم يعطها القدر الكافي من الدراسة حتى جاء **بارسونز وتلاميذه** اللذين أقاموا لها مكانة هامة في النظرية الاجتماعية المعاصرة كما أفرد لها بارسونز مجالا في نظرية الفعل وأكد أنها أحد الأنساق الأساسية لتحديد السلوك في الموقف الاجتماعي في محاولته الناجحة لبيان الصلة العضوية بين البناء الاجتماعي والشخصية ولتفسير طبيعة العلاقات الإنسانية والسلوك الإنساني تفسيرا جديدا مخالفا في ذلك الاتجاهات التقليدية لمدارس علم النفس التحليلي ومدارس علم الاجتماع الدوركيمي ، فعلم النفس يهتم بدراسة الشخصية من الداخل أي دراسة العمليات النفسية الذاتية والعمليات العقلية وعلى عكس ذلك نجد علم الاجتماع عند دوركايم لا يهتم بالعمليات الذاتية الشعورية أو اللاشعورية ويرى أنها موضوعات خارج نطاق العلم بل إن دوركايم في

محاولته تأكيد استقلال علم الاجتماع رفض أن يخصص لعلم النفس مكانا لدراسة الظواهر الإنسانية الموجودة فى العالم ومن ثم جعل بين موضوعات العلمين سدا ضخما ويرى دوركايم أن الجدير بالمعرفة حقا هو المجتمع وليس الفرد كما أن معارفنا التي تأتينا عن طريق الشعور معارف ناقصة ومحدودة وموضوع علم الاجتماع هو الظواهر الاجتماعية التي تدرس كأشياء بصفتها وقائع خارجية عن الأفراد وهذه الظواهر النفسية الحقيقية لا مفر منها ويقرر دوركايم أن انتباهنا يجب أن ينصرف إلى دراسة الظواهر الاجتماعية والعلاقات بينها وخصائص هذه الظواهر وقوانين العقل الجمعي والعلاقات الاجتماعية داخل الجماعة والعلاقات بين الظواهر على السلوك الجمعي. (١٧)

وإذا حاولنا أن نفهم موقف النظرية الاجتماعية من الشخصية ، علينا أن نتراجع خطوات إلى الوراء إلى دوركايم مؤسس النظرية الاجتماعية لنعرف آرائه في الشخصية داخل إطار نظريته الاجتماعية . يرى دوركايم أن المجتمع يتكون مجموعة من الأفراد يرتبطو سويا ويكونون كلا عضويا هو الجتمع ، والمجتمع حقيقة اجتماعية واقعية لا يدرك ولا يعرف إلا من خلال العلاقات والترابط بين أفراده .والظواهر التي تنظم هذه العلاقات والصفات الأولية التي تتكون منها الحقيقة الاجتماعية توجد في عقول الأفراد ويعبر عنها العقل الجمعي . فالمجتمع عند دوركايم لا يتكون إلا من مجموعة الأفراد الذين يكونونه ،وهؤلاء الأفراد هم القوة النشطة في المجتمع . بيد أن هذا المجتمع لا يتكون من خصائص الأفراد فقط ، بل له الصلة المميزة عن خصائص كل فرد من أفراده ،وعلى ذلك فالمجتمع وإن كان لا يتكون إلا بوجود الأفراد فإنه

ليس هو مجموعة الأفراد الذين يكونونه، وإنما هو حقيقة واقعة مستقلة عن الأفراد ، فإلى جانب هؤلاء الأفراد الذين يتألف منهم المجتمع توجد مجموعة ظواهر اجتماعية مثل الدين ،والقانون ،والأخلاق ، ولأسرة تشكل الحياة الاجتماعية التي تحكم المجتمع ، والتي تنبثق عن طبيعة الحياة الاجتماعية في المجتمع ،توجد قبل وجود الفرد الذي يخضع لها ، وتشكل له وجودا ذاتيا داخليا .

ومن ثم فإن المجتمع عند دوركايم هو صانع كل شيء ، يشكل سلوك الأعضاء حسب الظواهر الاجتماعية السائدة بما له من قوة القهر والإلزام على تحديد السلوك ،وقهر الرغبات ،وهو صانع التفكير ، فالتفكير ليس سمة للفرد ، ولكنه تعبير عن العقل الجمعي وانعكاس للحياة الاجتماعية التي يرتبط بها الفرد ، كما لا يعبر السلوك داخل الجماعة عن الحالة الفردية أو الشعورية للشخص ، بل يعبر عن سلوك الأفراد ، الميل الجماعي إلى الفعل . واستنادا إلى هذا الرأي بين دوركايم أن السلوك سواء أكان سلوكا شاذا أو سويا ينبع من الظروف الاجتماعية في الجماعة ، فتأثير المجتمع على الأفراد هو الواقع إلى أداء كل مظاهر السلوك السوي أو الشاذ .

ومن ثم فإن المجتمع عند دوركايم هو الحقيقة الواقعية الشاملة ، فالفرد خاضع لها ، والمشاعر الاجتماعية هي التي تربط الفرد بالجماعة .ولا يستطيع الفرد أن يهرب منها كما أن المجتمع هو غرضها .ويفيد المجتمع الفرد ،ولا يستطيع أن يفلت من القوى الاجتماعية التي تحاول أن تمتلك اشخص وتسيطر عليه . كما أن هذه القوى تفوق قوة الفرد ، وتعكس هذه القوى الاجتماعية الحقيقة الاجتماعية والأخلاقية ،وهي ذات تأثير قوى على شعور الأفراد

وتصوراتهم ، وهي تحاول أن تخضع الفرد للمجتمع وتسلبه كل إرادته وتخضع العقل الفردي للعقل الجمعي والتفكير الفردي للتفكير الجمعي . (١٨)

دوركايم والشخصية :

لا ينكر دوركايم وجود الشخصية الاجتماعية ، فهي ما يميز الإنسان عن الحيوان ،ولقد أكد دوركايم أهمية الشخصية الاجتماعية وأشار إليها كفكرة توجد في عقول الأفراد فقط .وقد وصف دوركايم الشخصية بأنها مقولة اجتماعية مثلها مثل مقولات الزمان والمكان والعدد والعلية والجنس .وتحمل الشخصية باعتبارها مقولة صفات المقولات الاجتماعية ، فهي مثل كل المقولات الاجتماعية تصورات اجتماعية توجد في الذهن .وهي تشكل حسب الأساليب التي تشكل بها الجماعة وتنظيمها ،وهي تصورات لا شخصية تعبر عن الحياة الاجتماعية والفكرية للجماعة ،ولا تنشأ تلقائيا بل لها أساس في الوجود والأشياء .وهي لا تعتمد علينا في وجودها بل تفرض علينا ، فهي تشكل حسب التركيب المورفولوجي للجماعة ،والدين ،والأخلاق ،والنظم الاقتصادية .وتتميز الشخصية مثل كل المقولات الاجتماعية بأنها عامة ،وأنها ضرورية ،ولا يمكن الاستغناء عنها ،وهي تطبق على الحقيقة كلها ، فهي لا ترتبط بموضوع خاص ،وهي مستقلة عن الموضوعات الجزئية ، كما أنها الوعاء الذي ندرك فيه ذواتنا .

ولقد بين دوركايم أن الشخصية ، تنبع من المجتمع وهي تعبر عن العقل الجمعي ،وهي الإطار الذي يتحكم في سلوكنا ،ولا يرتبط بموضوع خاص ن فهي سابقة علينا ،وتسبق التجربة ،وفي

الوقت نفسه غنية بعناصرها الاجتماعية . ضرورة فيزيقية أو ضرورة ميتافيزيقية ،ولكنها ضرورة اجتماعية كما أن وجود الشخصية ليس مثل وجود العادة الاجتماعية يمكننا أن نتخلص من قيدها بسهولة ، لكن وجودها ضروري لتسهيل الاتصال والارتباط بين الناس والمجتمع ، فهي كفكرة توجد في الذهن تتكون من عناصر اجتماعية ، وهذه العناصر الاجتماعية تضفي القيمة الاجتماعية على الشخصية رغم تغيرها في المكان والزمان ،وهي محصلة اجتماعية للظروف الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد ،وهي مطبوعة بطابع الجماعة ولا تستطيع أن تنجو من تأثير الجماعة عليها .

وينكر دوركايم في دراسته قدرة الشخص على تكوين شخصيته المتميزة ، لأن المجتمع عنده هو الذي يفرض عليه نمط الشخصية ، فكل مجتمع يخلق شخصية أعضائه حسب تركيبه الاجتماعي والمورفولوجي ، كما أن الأفراد لا يتسطيعون الاستغناء عن النمط الاجتماعي للشخصية أو تغييره .ويبدو لنا واضحا أن دوركايم قد سلب الحرية الكافية لتكوين شخصيته ، بل توجد لديه قوة داخلية تقام هذه الحرية وتحددها ، كما توجد في الوقت نفسه قوة الرأي العام في الخارج التي تمنعها من ممارسة رغباتنا في التمرد على الشخصية الاجتماعية السائدة .

ولكن إذا كان العنصر الجوهري في الشخصية هو العنصر الاجتماعي عند دوركايم ، فمن جهة أخرى يقرر دوركايم أنه لن تكون هناك حياة اجتماعية إذا لم يكن هناك أفراد متمايزون، فالعامل الذاتي شرط للعامل الجماعي ، فالمجتمع مملوء بالعناصر المتباينة التي تذوب في الكل الاجتماعي ،ولكن إذا كانت هناك

أجسام متباينة تشغل مراكز مختلفة في الزمـــان والمكـــان ، فـإن الفردية ليست السمة المميزة للشخصية .

فليست الفردية هي السمة المميــزة للشخصـــية ، كمـــا أن الشخصية ليست منفصلة عن الآخرين ،ولكنهـــا موجـــود وتـــرتبط بالبيئة الاجتماعية ارتباطا مباشرا علـــى الـــرغم مـــن اســـتقلالها النسبي .

ولم تهتم المدرسة الاجتماعية في تطورها بعد دوركايم كثيرا بموضوع الشخصية وما يهمنا هنا لـــيس تـــأثير دور كـــايم علـــى الاجتماعيين المعاصرين له ، وإنما يهمنا تأثيره اللاحق على علماء الاجتماع المعاصرين ، كما تمثله المدرسة الاجتماعيـــة الأمريكيـــة المعاصرة .ويتضح أن بعض المدارس الاجتماعية قد أهملت البحث في الشخصية ، بل ولم تحاول حتى أن تعرفها . أما الذين اهتمـــوا بدراسة الشخصية ، فقد اتجهوا اتجاهات متشعبة ، منهم عدد قليـــل اهتم بالبحث في الشخصية وتعريفها ، وبعضهم اهتم بدراسة العلاقة بين الفرد والمجتمع والثقافة والتداخل بينهم . أما الاتجاه المعاصـــر فكان موضوع اهتمامه من أين ينتهي علم النفس ؟ ومن أيـــن يبـــدأ علم الاجتماع ؟ في محاولة لربط الشخصـــية بالبنـــاء الاجتمـــاعي وتحديد العلاقة بينهما باعتبارهما نسقين متمـــايزين بـــالرغم مـــن تداخلها .وهذا الاتجاه الذي يهتم بتقريب وجهتي نظر علم الاجتماع وعلم النفس ،وهو أهم الاتجاهات المعاصرة وأقواها . وقد حـــاول هذا الاتجاه ربط الشخصية بنظرية الأدوار البنائية وبين أن عمليـــة اكتساب القيم والأدوار عملية اجتماعية .وحدد هذا الاتجـــاه نقـــاط التلاقي بين الشخصية والبناء الاجتماعي . (١٩)

وأكد تشارلز كولي على وجود علاقة أساسية بين الفرد والمجتمع باعتبار أن هذه العلاقة ضرورية ، فكلاهما يؤثر في الأخر ويتأثر به ، إن نظريته قامت كرر فعل لرفض نظرية التحليل النفسي ، تلك النظرية التي تدرس الفرد منعزلاً عن الجماعة ، وبناء على ذلك يري " تشارلز كولي " أن الفرد والمجتمع وجهان لحقيقة اجتماعية واحدة هي الطبيعة الإنسانية ، ومن ثم فإن العلاقة بين الفرد والمجتمع علاقة عضوية ، أي أنه لا وجود للشخص المنعزل حيث يري كولي أن الفرد تجريد لا وجود له في الواقع ، كما أن المجتمع الذي يخلوا من الأفراد لا وجود له ، فالتفاعل بين الفرد والمجتمع أم ضروري وحتمي ، ولا يجوز الفصل بينهما ، ومن ثم فإن الشخصية وعناصرها نتاج اجتماعي .

ويري كولي أن الحقائق الاجتماعية الموجودة في المجتمع لها مظهران أحدهما فردي والأخر اجتماعي ، ومن ثم يرفض فكرة العقل الجمعي عند دور كايم ، ويقرر أن العقل كل عضوى له وجهان فردي والأخر جماعي .

ويري تشارلز كولي أن الشخصية ليست نتاجا اجتماعيا صرفا ، كما أنها ليست تكوينا بيولوجيا خالصا فلا البيئة الاجتماعية ،ولا العامل الوراثي كل منهما على حدة بقادر على أن يكون الشخصية ويسهم في نموها ، فكلاهما لا ينفصل عن الآخر لتكوين الإنسان الاجتماعي .

وقد اهتم كولي بدراسة سمات الشخصية Traits أي الصفات الاجتماعية للشخصية التي من أهمها : حب الذات والغرور والكبرياء والأنانية ، واعتبرها سمات صحية للطبيعة الإنسانية أما عن العناصر المكونة للشخصية ، فلقد رأى أن الذات

من أهم عناصر الشخصية وأن نمو الذات يحدث نتيجة الارتب. والتفاعل مع ذات الجماعة وذات الأسرة وذوات جماعة اللعب .

فالذات عنده من صنع المجتمع ولا ينفصل الوعي بالذات عن الوعي بالمجتمع فكما يقول لن نعي ذواتنا إلا بالرجوع إلي الجماعة ، كذلك يرى كولي أن الضمير هو العنصر الآخر المكون للشخصية وهي محصلة التنظيم النفسي للمجتمع ،ويتكون الضمير منذ الطفولة المبكرة ويخضع في تكوينه لتأثير الأسرة وجماعات اللعب والمدرسة ، والجوار لذا فقد أكد أن ضمير الفرد وضمير المجتمع شيء واحد أو بالأخرى هما وجهان لحقيقة واحدة هي الحقيقة الأخلاقية .

وموجز هذه الآراء أن كولي يرى أن الحقائق الاجتماعية تتكون نتيجة التلاحم بين الفرد والمجتمع ،وينتج هذا التلاحم عناصر اجتماعية ،ويقرر أن الفرد ،والذات والعقل ،والمجتمع كلها موضوعات اجتماعية . (٢٠)

ثالثا : النظرية الاجتماعية المعاصرة :

تالكوت بارسوتر :

إذا حاولنا أن نفهم موقف النظرية الاجتماعية المعاصرة من الشخصية علينا أن نرجع إلى إسهامات مبدعها **تالكوت بارسونز** الذي استغل المنهج الهجلي في التركيب والتوفيق بين آرء المدرسة الفرويدية والمدرسة الدوركيمية ، فلم يغفل **بارسونز** الاتجاه النفسي الصرف الذي يقول أن الشخصية وحده بيولوجية تستمد طاقاتها من الغرائز وأن هذه الغرائز هي الطاقة الدافعة لكل سلوك إنساني ،وكذلك عندما قرر أن فرويد وأتباعه بتركيزهم على شخصيات فردية عزلوها تعسفيا عن الواقع الاجتماعي . لأنهم أخفقوا في

ـ مدى تفاعل الأفراد مع الشخصيات الأخرى لتكوين نسق
ـماعي ، كذلك رفض بارسونز الاتجاه الدوركيمي الذي أنكر
ـ جود علم النفس ودراسة الفرد .وفسر الظواهر الاجتماعية
بالرجوع إلى تأثير المجتمع .

ولذا فقد رأى **بارسونز** أن هناك حاجة ضرورية لربط علم الاجتماع بعلم النفس ، إذ أن التحليل الاجتماعي لكثير من المشكلات الإنسانية متعذر دون الاستعانة بالدراسات النفسية وكذلك فبدون الرجوع لعلم الاجتماع لن نستطيع أن نفهم الشخصية وسلوكها العقلي فالروابط بين البنائين الاجتماعي والنفسي رابطة حتمية .

هذا ولقد ارجع **بارسونز** تأكيد العلاقة العضوية بين البناء الاجتماعي والشخصية إلى إطار نظرية الفعل الاجتماعي (السلوك) تلك النظرية التي تدرس سلوك الفرد في الموقف الاجتماعي ،والتي تهتم بدراسة العلاقات المتفاعلة بين المرء والآخرين في موقف محدد.

ولقد بين **بارسونز** أن بناء الفعل ليس هو الكائن الحي بل هو بناء علاقات الكائن الحي مع النسق الاجتماعي والثقافي في الموقف ، وفي إطار ذلك يرى بارسونز أنه توجد أربعة عوامل في تحديد السلوك (الفعل الاجتماعي)

أولهما : أن الفعل يوجه إلى إدراك غايات وأهداف .

ثانيهما : أن الفعل ينظم معياريا .

ثالثهما : ان الفعل يتضمن كمية من الطاقة أو الدافع .

رابعهما : أن الفعل لا يحدث إلا في موقف اجتماعي

ثم يشير بارسونز إلى أن الموقف هو إطار الفعل الاجتماعي هذا ويتكون الموقف من ثلاثة موضوعات ، تفاعل الغير ، وشخصية الفاعل والموضوعات الثقافية ، والموقف هو الذي يوجه الفاعل نحو سلوك معين .

ثم يرى بارسونز أن السلوك الحادث في الموقف هو نتيجة التفاعل بين نسق الشخصية أو النسق الاجتماعي ،والنسق الثقافي أي أن هذه الأنساق الثلاث ضرورية وأساسية لتكوين السلوك الاجتماعي.

ولقد عرف بارسونز البناء الاجتماعي بأنه، مجموعة من الأنساق الاجتماعية، التي يتكون منها المجتمع ويضم كل نسق من هذه الأنساق مجموعة من الشخصيات الفاعلة ، أما الثقافة فهي نسق الأنماط والمعاني الرمزية التي تتداخل في بناء نسق التفاعل ، ثم عرف الشخصية في كتابة نحو نظرية عامة للفعل الاجتماعي – باعتبارها نسق منظم يوجه دوافع الفعل (السلوك) عند الفرد الفاعل

ومعنى هذا يتضح أن الشخصية ليست إنتاجا اجتماعيا بحتا أو تكوينا بيولوجيا خالصا ، بل هي نسق نفسي ضروري لتحقيق السلوك في الموقف الاجتماعي .(٢١)

ويري " بارسونز " أن علم النفس قاصرا إذا نظر إلي الفرد معزولا عن المجتمع وجعله موضوع دراسته ، فمحور الدراسات النفسية سلوك الفرد في حد ذاته ودوافعه ، ودراسة العمليات الأولية ودراسة التعليم والتذكر والدراسة النفسية في دراستها للفرد إرتأته كائنا بيولوجيا بحتا منعزلا عن الجماعة ، وهو أمر لا وجود له في الواقع ، فالإنسان كائن اجتماعي يتأثر بالنسق الاجتماعي والثقافي(٢٢).

ولما كان فشل كل من المدرستين الاجتماعية والنفسية في الإلمام بكافة جوانب المظاهر الاجتماعية والنفسية ، يرجع إلي الفصل بين كل ما هو فردي وما هو اجتماعي ، فصلا لا مبرر له ، في حين أن هذه الظواهر تتشابك ويؤثر بعضها في بعض لتكوين السلوك الإنساني في الموقف ، فقد رأي **بارسونز** أنه لا يوافق علي دراسة الظواهر الاجتماعية مستقلة عن الظواهر النفسية والثقافية فكل منها يتضمن الآخر .

ولما كان مدار البحث في كلا العلمين هو سلوك الإنسان ، وأن تباينت الظواهر موضوع الدراسة في كليهما ، وتلافيا لأوجه القصور في كلا من النظريتين ، رأي **بارسونز** أنه يجب علينا أن نوجه اهتمامنا إلي دراسة تفاعلات الأشخاص داخل محتوي اجتماعي ، ومن ثم فلا مجال للفصل بين علم النفس وعلم الاجتماع . فالنظرة العلمية للظواهر الإنسانية تحتم أن تكون شاملة وتضم وجهتي النظر ، النفسية والاجتماعية . ويقرر **بارسونز** أن العلاقة بين الشخصية والبناء الاجتماعي تعمق من فهمنا للسلوك التفاعلي في الموقف وتقرب بين علم الاجتماع وعلم النفس .

ويشير **بارسونز** إلي نظرية الفعل باعتبارها نظرية السلوك تدرس العلاقات المتفاعلة بين المرء والآخرين في موقف محدد . ولا تهتم نظرية الفعل بالعمليات النفسية للفرد ، بل تهتم بتنظيم توجيهات الفاعل إلي الموقف ، أي سلوك الفاعل في الموقف مستقلا عن أهدافه الشخصية . وقد بين **بارسونز** أن بناء الفعل ليس هو الكائن الحي بل بناء علاقات الكائن الحي مع الموضوع الاجتماعي والموضوع الثقافي في الموقف وينشأ بناء الفعل نتيجة تفاعل أنساق

الشخصية والنسق الاجتماعي والثقافة . وما الشخصية أو البناء الاجتماعي أو الثقافة إلا مظاهر مختلفة لنسق الفعل الأساسي .

ويشير **بارسونز** إلي أن الموقف هو إطار الفعل الاجتماعي ، وليس هو مجموعة المتغيرات الدافعية التي يوجهها الفاعل والغير في لحظة معينة ، ومن ثم فالموقف يدل علي العلاقات السائدة المنظمة بين المتفاعلين في بيئة اجتماعية ، ولا يعني هذا أن **بارسونز** يضفي معني التجريد علي الموقف ، بل أنه يقرر أن الفعل ليس حدثا مجردا ، بل هو حدث واقع ، ومن ثم فكل سلوك ملموس هو سلوك اجتماعي .

ويتكون الموقف من تفاعل الغير وشخصية الفاعل والموضوعات الثقافية ، وهو جزء من العالم الخارجي ، وللموقف معني واضح عند الفاعل فالموقف يوجه الفاعل نحو سلوك معين . ويصف بارسونز السلوك الحادث في الموقف بأنه ليس حدثا عشوائيا يخضع للمحاولة والخطأ . بل هو حدث منظم نتيجة التفاعل بين نسق الشخصية والنسق الاجتماعي والثقافة . ويؤدي تكامل هذه الأنساق إلي تحقيق الفعل – السلوك – في الموقف .

ويؤكد " بارسونز " أن " تكون النظام يجب أن يعترف بالميكانيزم الأساسي في خلق التكامل في الأنساق الاجتماعية " ، ذلك أن تكون النظام ينطوي علي كل من تكوين بناء أو نمط لتوجيهات القيم في النسق الاجتماعي ، و " استدماج " الأنساق القيمية في الشخصية الإنسانية . فتكون النظام إذن هو العملية التي تخلق التكامل والاستقرار حقيقة ، فهو يخلق همزة وصل وطيدة بين المجتمع والثقافة من ناحية ، والشخصية والدوافع من ناحية أخري

استجابات الأنا للعالم الخارجي الا استجابات مكتسبة تنشأ أثناء عملية التنشئة الاجتماعية .

ويساعد تكامل قيم الجماعة علي تكامل الأنا وتنظيمه ، وتفرض عليه قيم الجماعة الإلتزام بالجماعة ، وأداء سلوك معين حسب توقعات الآخرين ، وإذا ما تفككت قيم الجماعة تمزق الأنا ، وعاني من الصراع والإضطرابات النفسية . وليست علاقات الأنا بالغير علاقات عشوائية غير منظمة ، بل هي علاقات منظمة يحددها عنصر الزمان ، إذ يتواجد الأنا والغير دوما في زمن معين ويتقيد الأنا بصفته موضوعا بالقيم والاتجاهات السائدة ، كذلك يهتم الأنا باتجاهات الآخرين ، إلتي تعبر عن مظاهر الموافقة والحب والتقدير . فالأنا حساس يتأثر باستجابات الآخرين ، وينفعل بانعكاس استجاباته نحو الآخرين ، وكذلك يتأثر بعملية التنشئة الاجتماعية .

الأنا الأعلى : وقد حلل " بارسونز " الأنا الأعلى في إطار نظرية الفعل ، ورأي أن تحليل الأنا الأعلي تحليلا اجتماعيا يقودنا إلي مركز التقارب بين الدراسات النفسية والاجتماعية ، فدراسة الأنا الأعلي وتحليل مكوناته – عند بارسونز – هي في المحل الأول محاولة لإيجاد الصلة بين آراء فرويد وآراء دور كايم والتوفيق بينهما . فمكونات الضمير جسر يربط بين البناء الاجتماعي والبناء النفسي ويبرز التفاعل بينهما .

ولقد قبل " بارسونز " مفهوم الأنا الأعلي الفرويدي ، بيد أنه رأي أن وجهة النظر الفرويدية بأن الضمير عنصر أخلاقي في تركيب الشخصية – رغم صحتها– قاصرة فالمرء يتوحد مع

العناصر الأخلاقية والعناصر الثقافية والاجتماعية ، وتتداخل كلها في تكوين بناء الشخصية أثناء عملية التفاعل في الموقف .

ويري " بارسونز " أن المفهوم الفرويدي للأنا الأعلي يقترب من نظرية دور كايم التي تؤكد الدور الاجتماعي للمعايير الأخلاقية ولكنه رفض رأي دور كايم أن الفرد باعتباره عضوا في جماعته ليس حرا في تقرير أحكامه الأخلاقية ، وأنه يلزم علي قبول الاتجاهات الأخلاقية الشائعة في المجتمع لما لهذه القواعد الأخلاقية من سلطة القهر والإلزام . ولقد رفض بارسونز كذلك رأي دور كايم عن قوة المجتمع الأخلاقية علي الأفراد ، وقرر أن تأثيرات المجتمع الأخلاقية لا تعرف بالقهر والإلزام ، لكن الأفراد يتوحدون معها ، كما يتوحدون مع العناصر العقلية والوجدانية . وهذه العناصر هي التي تكون مضمون الشخصية ، وفي الوقت نفسه تنظم تلك العناصر العلاقات داخل البناء . ويري بارسونز أن رأي دور كايم أن المجتمع يوجد في عقول الأفراد يتحقق إذا ما توحدت الشخصية مع العناصر الأخلاقية والاجتماعية ، باعتبارها منابع هامة لتحقيق أساليب التفاعل المستمر (٢٣)

نظرية أدلــر :

درس أدلر علم النفس ، والاقتصاد السياسي ، والاجتماع ، ثم أتم دراسة الطب في جامعة فينا وفي أثناء دراسته للطب كان يحضر محاضرات في الفلسفة وعلم النفس وقد بدأ حياته العملية عذام ١٨٩٨ طبيبا للعيون ثم اشتغل طبيبا عاما ، وتخصص في دراسة الأعصاب ثم عرف فرويد ، كان من المولعين بآرائه وكان من بين الجماعة التي تجتمع مع فرويد وأصبح أحد الأعضاء المؤسسين لجمعية التحليل النفسي بفينا ولكنه سرعان ما بدأ يكون

لنفسه رأيا مستقلا يختلف عن رأي فرويد وانسحب من جماعة فرويد عام ١٩١١ حين طلب فرويد من أتباعه أن يقبلوا نظريته عن الميول الجنسية قبولا مطلقا وكون أدلر مع سبعة آخرين الجماعة الحرة للتحليل النفسي والتي أطلق عليها في عام ١٩١٢ اسم " جماعة علم النفس الفردي " وقد أضبح له أتباع كثيرون في مختلف أنحاء العالم وتوفي في اسكتلندا ١٩٣٧ .

وتتميز أفكار " أدلر " بالوضوح والتجديد كما تتميز نظريته بالسهولة والبساطة ، وكان علي عكس فرويد ويونج اقتصاديا في استخدامه للمفاهيم ، فقد استخدم عددا قليلا نسبيا من المفاهيم جيدة التحديد .

ويمكن أن نلخص نظرية أدلر في الشخصية باستعراض بعض المبادئ الهامة التي تقوم عليها هذه النظرية (٢٤) .

١- القصور :

إن فكرة أن الإنسان مخلوق تدفعه مشاعر القصور ، وقد تكونت لديه عندما كان يمارس عمله كطبيب في فينا مع مطلع هذا القرن . وفي ذلك الحين لاحظ أدلر أن كثيرا من مرضاه يميلون إلي تركيز شكواهم حول أعضاء معينة من الجسم . وقد أكتشف " أدلر " قبل ظهور الطب النفسي الجسمي – أن الإنسان يتحول إلي المرض لكي يحل كثيرا من مشكلاته غير الجسمية . وغالبا ما تكون الأغراض التي يشكو منها . وقد توصل " أدلر " من ذلك إلي نظرية القصور العضوي . فالإنسان يولد ولديه استعداد لقصور أحد أعضاء جسمه . ويقصد بقصور العضو استكمال نموه أو توقفه ، أو عدم كفايته التشريحية أو الوظيفية ، أو عجزه عن العمل بعد

المولد . ووجود ميل هذا العضو القاصر يؤثر دائما علي حياة الشخص النفسية ، لأنه يحقره في نظر نفسه ويزيد شعوره بعدم الأمن ، لكن هذا الشعور بعينه هو الذي يدفع الفرد علي بذل المزيد من الجهد لتعويض هذا الشعور بالقصور . وأحيانا يتخذ هذا التعويض أشكالا من العنف تبلغ حدا متطرفا لا ننتظره منه ، وهو ما يعرف باسم التعويض النفسي الزائد . وتعويض العضو القاصر يحدد عادة أسلوب حياة الفرد والطريقة التي يهدف بها الفرد إلي تحقيق السيطرة ، فالشخص ضعيف البنية في الطفولة غالبا ما يعوض هذا القصور البدني بممارسة الرياضة بشكل غير عادي لتقوية بنيته ، وقد يصبح فيما بعد من الأبطال المحترفين . وأمثلة التعويض المشهورة كثيرة منها : ديموستين الإغريقي الذي بلغ شأنه عاليا في الخطابة رغم ما كان لديه من عيوب كلاميه في طفولته وبتهوفن الذي أخرج أجمل قطعة موسيقية بعد أن أصيب بالصمم .

ولم يلتزم " أدلر " حدود القصور البدني وما يتطلبه من تغير في الحياة النفسية بل عمم فكرته حتى شملت القصور المعنوي والاجتماعي . وبالمثل لم يقتصر " أدلر " حديثه علي الحالات المرضية ، بل وسع فكرته حتى شملت أيضا علي القصور الاجتماعي أو الاقتصادي الذي يثقل كاهل الفرد فيضيق به ذرعا حتى لا يري في الدنيا إلا خصما لدودا .

وهكذا تطور مفهوم القصور عند أدلر . فمن القصور العضوي إلي النزوع للرجولة إلي المفهوم العام بأن كل إنسان لديه مشاعر القصور منذ الولادة ، وأنهم يبدأون صراعهم مع الحياة

وهكذا تطور مفهوم القصور عند أدلر . فمن القصور العضوي إلي النزوع للرجولة إلي المفهوم العام بأن كل إنسان لديه مشاعر القصور منذ الولادة ، وأنهم يبدأون صراعهم مع الحياة ليتغلبوا علي هذا القصور ويبلغوا مستويات أعلي من مستوياتهم الراهنة .

٢- السيطرة :

ويرتبط مبدأ القصور بمبدأ السيطرة وتطوره في تفكير " أدلر " . وقد بدأ " أدلر " بقبول فكرة فرويد في الجنس كمحرك أساسي في الحياة ، لكنه سرعان ما تحرر من هذه الفكرة ، وذهب إلي القول في مرحلة من مراحل تفكيره ، إلي أن الإنسان حيوان عدواني ، وأنه بسبب هذا السلوك العدواني بقي الإنسان علي قيد الحياة ، مما دعي إلي استنتاج أن العدوان أكثر أهمية من الجنس ، لكنه بعد ذلك انتقل في تفكيره إلي مرحلة تالية ، وهو أن الإنسان يهدف فحسب إلي السيطرة ، وأن الرغبة في السيطرة تبزغ من الإحساس بالقصور أو العجز أو عدم الكفاية . ومع المفهوم الجديد للسيطرة استمر أدلر يشعر أن الرغبة في أن تكون مسيطرا رغبة عامة ، وخاصية من خصائص شخصية الإنسان .

٣- أسلوب الحياة :

أسلوب الحياة هو المبدأ الأساسي الفردي عند " أدلر " ، فهو الذي يفسر لنا تفرد الشخص . ذلك أن الشخص من أجل أن يبلغ السيطرة علي مشاعر القصور عنده ، فمن الضروري أن يتخذ أسلوبا محددا في حياته وهذا الأسلوب المحدد المعين للسلوك الذي يترسمه الفرد طول حياته هو ما أطلق عليه أدلر اسم " أسلوب الحياة" .

وأسلوب حياة الفرد هو نتاج قوتين : ذات داخلية موجهة ، وقوي خارجية بيئية تساعد أو تعوق أو تعيد تشكيل الاتجاه الذي ترغب الذات الداخلية في سلوكه[٢٥] .

٤- الذات الخلاقة :

الذات الخلاقة عند " أدلر " هي صاحبة السيادة في بناء الشخصية . إن الإنسان هو أكثر من كونه حيوانا لديه استعدادات تخضع لماضيه الغريزي الموروث ، كما أنه أيضاً أكثر من كونه نتاج البيئة . وأنه مفسر الحياة ومترجمها، فهو ينمي تراكيب الذات عن ماضيه الموروث ، ويترجم انطباعات حياته اليومية، ويبحث عن خبرات جديدة لإشباع رغبته في التفوق والسيطرة ، ويصهر هذا كله في خلق ذات تختلف عن كل ذوات الآخرين ، ويعبر عن أسلوب حياته الخاص . فالذات الخلاقة هي خطوة إضافية وراء أسلوب الحياة . أنها ذات أصلية مبدعة تخلق شيئاً فريداً فهي إذن ذات خلاقة .

٥ – الأهداف الوهمية :

رغم اعتقاد " أدلر " أن الماضي له أهمية بالغة في الحياة النفسية للفرد – فمنه ينمو أسلوب حياته ، وكذلك ذاته الخلاقة ، فإن الإنسان تحركه توقعاته للمستقبل أكثر مما تحركه خبرات الماضي فالمستقبل هو الذي يشكل ما سوف تفعله ذاته الخلاقة في أية لحظة معينة .

وعلى الرغم أن الإنسان تحركه حاجات عضوية ومادية كالمأكل والملبس ، والمأوي ، إلا أن هذه الحاجات الأساسية قد تتمثل للشخص بصور وهمية أو رمزية فالسيارة قد تعني للمراهق أو الشاب شيئاً أكثر من مجرد وسيلة انتقال ، فهي رمز التقدير

والمباهاه وغيرها من الرموز التي قد تكون ذات أهمية كبيرة بالنسبة للمراهق أوَ الشاب . بمعني أخر أن الأهداف التي يتطلع إليها الفرد قد تكون وهمية . وقد اعتقد " أدلر " – متأثراً في ذلك بكل من "كونت" ، "وشوينهور" ، "ومل" ، أن كثيراً من الأفكار ليست في الحقيقة إلا نوعاً من القصص والأساطير يعمد العقل إلى خلقها ليستعين بها على حل المشكلات التي تعرض له ، وأنه يتخذ الرموز بعد أن كانت طريقة للقول ووسيلة للتعبير ، غاية في نفسها يندفع المرء إلى تحقيقها ، ويعمل على الوصول إليها . والهدف قد يكون وهما وخيالاً لأنه بعيد عن الواقع ، كما أنه قد يكون سهل المنال بالنسبة للنفس التي تهدف إلى السيطرة . ومع ذلك فلا يمكن فصل هذه الأهداف أو عزلها عن أسلوب حياة الفرد وذاتة الخلاقة . فالإنسان يسير إلى الأمام نحو السيطرة تجذبه دائماً مثل هذه الأهداف .

٦ – الاهتمام الاجتماعي :

وهذا المبدأ الأخير يلقي الضوء على تطوير نمو الفكر عند " أدلر " فبعد أن نظر إلى الإنسان باعتباره كائناً عدوانيا ، انتقل إلى النظر إليه باعتباره متعطشا للقوة ، ثم في ضوء فكرته عن القصور طور نظريته إليه ككائن حي يسعى إلى التفوق والسيطرة بما يكشف عنه من أسلوب حياة ثابت وذات خلاقة . وفي أخر المطاف وسع " أدلر " من نظريه إلى الإنسان اعتباره كائناً حيا له اهتمامات اجتماعية وبذلك يتجه البحث إلى أثر الجماعة في السلوك . وفي ذك يقول " أدلر " " أن الشعور الاجتماعي ، كما يتضح الميل إلى الظهور في ميول الطفل الأولي ، وخاصة في شغفه توثيق صلاته مع غيره ، وفي المتعة بما يبدونه نحوه من عطف وحنان . وهذا

الميل الاجتماعي في نظره يتصف بأنه فطري عام بين أفراد الجنس شأنه في ذلك شأن الغريزة وهو يحتاج للتعبير عن نفسه ، إلى الاتصال بالآخرين في الجماعة التي يعيش الفرد وسطها . ويقول " أدلر " : " إن دراسة الحياة الواقعية للفرد، لا تدفعنا إلى تقدير أهمية العنصر الاجتماعي فيها ، إذ أن الفرد لا يصير فردا إلا في مجتمع . وإذا كانت مدارس علم النفس الأخرى تفرق بين ما يسمي سيكلوجية فردية وسيكلوجية اجتماعية ، فنحن لا نؤمن بهذه التفرقة على أي وجه من الوجوه .(٢٦)

المدخل الانثروبولوجي ودراسة الشخصية :

أن موضوع دراسة الشخصية في مجال الانثروبولوجيا كان محورا للجدل والخلاف بين علماء الانثروبولوجيا ، فيوجد فريق ينادي بان دراسة الشخصية تتعلق بعلم النفس ويرى ضرورة التمييز بين الانثروبولوجيا وعلم النفس على اساس أن كل منهما منفصلا عن الآخر ن مسايرا في ذلك الاتجاه الدوركايمي في علم الاجتماع ، فمثلا يرى راد كليف براون أن الأفراد ليسوا موضوع اهتمام علماء الانثروبولوجيا . فمجال اهتمام الانثروبولوجيا هو الكل الثقافي . والسلوك الجمعي والنظر إلى الثقافة كنسق اجتماعي متكامل كل عنصر منه له وظيفته المحددة في علاقتها بالكل الاجتماعي .

أما الفريق الآخر فتمثله المدرسة الانثروبولوجية الأمريكية من أمثال كلاكهون .ومرجريت ميد .وإبراهام كاردينيير .ويحاول أصحاب هذا الفريق ربط العناصر الثقافية بمتغيرات الشخصية .

ويسعون إلى تفسير العناصر الثقافية على بناء الشخصية . في مختلف أطوار نموها .وكذلك أثر العناصر الثقافية على السلوك

الفواصل بين علم النفس والانثربولوجيا ، ومن ثم الثقافة والشخصية فالثقافة عامل حاسم في صوغ الشخصية ونموها والثقافة لا يمكن فهمها بمعزل عن الأشخاص وبالتالي فإن موضوع دراسة الشخصية والثقافة موضوع مشترك بين مجالات علم النفس والانثروبولجيا الاجتماعية .

وبالتالي فإننا سوف نتعرف على هذا الاتجاه " **الثقافة والشخصية** " ونتناول أهم الأفكار المتعلقة بإبراز مفهوم الشخصية ومحتواها وكيفية تأثير الثقافة في الشخصية وغير ذلك .(٢٧)

ويتحدد مفهوم الشخصية عند أصحاب هذا الاتجاه باعتبارها نتاج الأفعال المتوقعة . وإيحاءات الآخرين التي ترى ،وتدرك عند التواجد في مواقف التفاعل ومن تعريفات الشخصية الأخرى عند الانثروبولوجيين تعريف **رالف لينتون** الذي يعرف الشخصية ، بأنها اصطلاح يستعمل للدلالة على كافة الصفات العقلية للفرد أي مجموعة من القدرات العقلية . ومدركاته ،وأفكاره وعاداته والاستجابات العاطفية الشرطية .وتوحي عبارة الاستجابات العاطفية الشرطية أن ثمة علاقة بين شكل الشخصية وثقافة المجتمع الذي تنتمي إليه ، أما عن آراء كلاكهون تتعلق برفض اعتبار الشخصية وحدة متميزة منعزلة عن الظروف الثقافية ، كما يرى أن الشخصية الإنسانية تتكون من تفاعل ثلاثة عناصر هيس الثقافة والتكوين الفطري البيولوجي ، والموقف ،وضرب مثلا لذلك بما حدث في مجتمع Raham راهام فقال أن الشخصية في هذا المجتمع هي تفاعل العمليات الفطرية البيولوجية ، والمواقف الاقتصادية والأساليب الثقافية في هذا المجتمع .

ويذهب كلاكهون Kulukhohn إلى أن التعرف على الثقافة هو السبيل الحاسم لفهم الشخصية . حيث أن الثقافة هي بعد رئيسي من أبعاد الشخصية . ويرى كلاكهون إننا إذا ما توصلنا إلى معرفة أنماط الثقافة فإننا نحرز بالضرورة كسبا وتقدما في معرفة سـمات الشخصية .

ولكي يفهم الباحث طبيعة الشخصية فـإن المـنهج الممكـن الوحيد – على حد تعبير كلاكهون – هو تحديد المادة الكافية التـي يمكن أن يحصل عليها الباحث بدراسة القيم وفهم المنبهات والدوافع الاجتماعية أما عن طريق الاتصال أو العلاقة الاجتماعية . (٢٨)

الشخصية في نظريات التحليل النفسي الحديثة :

هناك عدد من نظريات الشخصـية تـرتبط بربـاط وثيـق بمدرسة التحليل النفسي ولكنها مع ذلك ليست متماثلة ، ويبرر تشابه أصلها معالجتها موضوع واحد.

وقد ظهر ميل ملحوظ لدى بعض أنصار مدرسـة التحليـل النفسي الحديثة إلـى الإقـلال مـن دور الغرائـز ،وإبـراز دور المتغيرات السيكولوجية والاجتماعيـة التـي يعتقـد أنهـا تشـكل الشخصية ، أي قل الحديث عن الغرائز وتقلباتها أو نظرية اللبيـدو على حين زاد الحديث عن اكتساب سمات الشخصية عـن طريـق الخبرة ونتيجة الظروف الاجتماعية . وتعد " كارين هـورني " ، " إريك فروم " و " هاري ستاك سوليفان " ، من أهـم أنصـار هـذا الاتجاه الذي يركز الاهتمام حول العوامل الاجتماعية ، وبشكل يتفق أساسا مع نظرية " أدلر " . فقد شرعت " هورني " كمـا شـرع " فروم " ، في محاربة الاتجاه الغريزي القوي في التحليـل النفسـي والإصرار على أهمية المتغيرات النفسية الاجتماعية للشخصـية ،

كما دعم " سوليفان " **في نظريته عن العلاقات الشخصية المتبادلة** مكانة النظرية الشخصية القائمة على العمليات الاجتماعية .

ويمكن في النهاية أن نطلق على نظريات كل من" **ادلــز**" و" **فروم**" و" **هورني**" و " **سوليفان**" النظريات النفسية الاجتماعية لأنها رغم جذورها النفسية الأصلية فإنها لا تهمل الجانــب الاجتمــاعي والثقافي في تغير الشخصية .

أولا : نظرية كارين هورني :

كانت (هورني) تعتقد اعتقادا اعتقادا أكيــدا فــي قابليــة الطبيعة البشرية للتغيير نحو الأحسن فقد كانــت متفائلــة بالنســبة لتطور الكائن الحي ، وشجعها على ذلك الصــفات الإيجابيــة فــي الجنس البشري .ومن هنا كانت تعتبر نظريتها بناءة لأنها قد تؤدي حقيقة إلى حل العصاب .وإذا كان السلوك العصابي هــو محــور تفكير (هورني) فإن حل هذا السلوك العصابي يمكن أن يؤدي إلــى خلق مجتمع أكثر صحة وسعادة .وتنعكس هذه النظــرة المتفائلــة البناءة في كتابها " صراعاتنا الداخلية " حــين قالــت :" أعتقــد أن الإنسان لديه القدرة والرغبة في تنمية إمكانياته في أن يصبح إنسانا وديعا ، هذه الإمكانيات ، تذبل إذا استمرت علاقاته مع الآخرين – وبالتالي مع نفسه في حالة اضطراب .وإني أعتقد أن الإنسان يمكنه أن يتغير طالما كان على قيد الحياة .

وتذهب (هورني) إلى أن الثقافة الحاضرة (وتعني بها على وجه الخصوص الثقافة الغربية التي عاشت فيها)مــن شــأنها أن تخلق قدرا كبيرا من القلق في الفرد الذي يعيش في هــذه الثقافــة .وهي ترى أن المرض النفســي أو الأعصــاب هــو المصــاحب الطبيعي للإنسان الذي يعيش في مثل هذا المجتمع الصناعي اليوم .

وقد خصصت الموضوع الأساسي لكتابها " الشخصية العصبية في زماننا " لموضوع الصراع في الثقافة والأساليب المختلفة التي يقوم بها الفرد في توافقه مع ظروف الحياة .وليس أدل على تأثير الاتجاه الثقافي في تفكيرها من قولها :" أن الأعصاب مع أنه مصطلح طبي نفسه في أساسه ، إلا أنه لا يمكن استخدامه الآن دون الإشارة إلى مضموناتة الثقافية "

وكذلك قولها :" إن مفهوم ما هو عادي يتغير ليس فقط بتغير الثقافات ، ولكن أيضا داخل الثقافة الواحدة بتغير الأزمنة ".

وقد أظهرت النظرية الاجتماعية " لهورني " مفهوما أوليا عندها ،ونعني به مفهوم (القلق الأساسي) .وقد أوضحت هذا المفهوم في كتابها عن الشخصية العصابية في زماننا حين ذكرت أن استثارة هذا القلق – وليس الدوافع الجنسية والعدوانية التي قال بها فرويد – هي الأساس لفهم شخصية الفرد .وقد عرفت هورني هذا القلق الأساسي بقولها :" أنه الإحساس الذي ينتاب الطفل بعزلته وقله حيلته في عالم يحفل بإمكانيات العدواة " .وهناك مجموعة من العوامل المعاكسة في البيئة يمكن أن تؤدي إلى هذا الشعور بإنعدام الأمن لدى الطفل : التحكم ، والسيطرة المباشرة وغير المباشرة ،واللامبالاة والإهمال ، الاتجاهات المتضاربة ، والإسراف في الإعجاب أو عدم وجوده إطلاقا ، الإسراف في الحماية وما إلى ذلك.

فالبيئة المنزلية والتركيب الاجتماعي داخل الأسرة له على هذا الأساس أهمية كبيرة في نظرية هورني ، ففي هذا التركيب الاجتماعي للأسرة ،وفي إستجابة الطفل له يكمن مفتاح نمو شخصية الفرد .

والطفل القلق يحاول أن يستجيب لمشاعر القلق عنده بإتخاذ أساليب مختلفة توافقية. وعلى درجة كبيرة غير عقلية إذا كان القلق شـــديدا ومستمرا .

وهذه الأساليب التوافقية تتبلور في أنماط واقعية مستمرة في صورة حاجات عصابية .وتذهب هورني إلى أنه من الممكن تجنب الصراعات ، أو حلها إذا ربي الطفل في أسرة يتوفر فيهـــا الأمـــن والطمأنينة ،والثقة المتبادلة ،والمحبة والاحترام والتسامح ،والدفء العاطفي ، وبهذه الصورة ترجع " هورني " الصراع إلى العوامـــل والظروف الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد أكثر مما تجعله جـــزءا من طبيعة الإنسان ،وأنه لا مفر من ظهوره . فنظريتها هنا أقـــرب إلى " أدلر " منها إلى فرويد . (٢٩)

نظرية هاري ستاك سوليفان:

يعد " سوليفان " صاحب مدرسة جديدة في الطـــب النفســـي وتعرف نظريته باسم " نظرية العلاقات الإنسانية المتبادلة في الطب النفسي " ،وترتبط هذه النظرية بفكرته عن الشخصـــية ،ورغـــم أن سلوليفان يعترف أنه يدين عقليا لفرويد ، إلا أن نظريته تحمل شبها كبيرا بنظرية " أدلر " .

ويرى " سوليفان " أن الشخصية توجد فقـــط حيـــث توجـــد العلاقات المتبادلة الأفراد ، أي أن وحدة الدراسة في نظـــرة هـــي الموقف الشخصي المتبادل وليس الشخص . فالحديث عن الشخص كموضوع للدراسة حديث أجوف في نظره ، لأن الفرد لا يوجـــد ، ولا يمكن أن يوجد بمعزل عن الآخرين . فالشخصية إذن لا يمكـــن دراستها ما لم يكن هناك تفاعل متبادل على الأقل مع شخص آخر ، رغم أن هذا الشخص الآخر ليس من الضروري أن يكون موجودا

وجودا ماديا ، فتفاعلات الشخص قد تكون مع صـــورة أو حلـــم أو شخصية وهمية أو ما أشبه ذلك .

ولم ينكر " سوليفان " التأثيرات الوراثية وعوامل النضـــج ، بل اعترف بأهميتها خلال مراحل الطفولـــة والمراهقـــة ،واقتـــرح وجود تسلسل هرمي في الحاجات الفسيولوجية التـــي تنشـــأ عنهـــا توترات يمكن أن تختفي عن طريق إشباع الحاجات ، لكنه مع ذلك يرى أن ما هو إنساني بصورة متميـــزة ، هـــو نتـــاج التفـــاعلات الاجتماعية ،وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الخبرات الشخصية المتبادلة بين الأشخاص يمكن أن تـــؤثر بطريقـــة مباشـــرة فـــي حاجاتـــه الفسيولوجية ،وتغير الأداء الفسيولوجي لوظائفه ،وتغير الشـــخص من كائن حي عضوي إلى كائن حي اجتماعي له طرقه ذات الطابع الاجتماعي في التنفس والهضم والإخراج ...الخ .

ومن أهم المبادئ التي أقام عليها " سوليفان " نظريتـــه فـــي الشخصية مبدأ العلاقات الشخصية المتبادلة ، فهـــو يـــرى أنـــه لا جدوى من أن ننظر أو نفكر في شخصية إنسان في ذاتها باعتبارها شخصية مفردة ،وفي عزلة عن شخصيات الآخرين ، فلا يمكن أن يوجد لإنسان ما شخصية قائمة بذاتها ومنعزلـــة عـــن الآخـــرين . فالعلاقات الشخصية المتبادلة بين الأفراد هي إذن أســـاس وجـــود الشخصية . فمنذ اللحظة الأولى التي يوجد فيها الإنسان على ظهر الأرض يدخل في علاقات متبادلة على الأقل مع شخصية شـــخص آخر يتعهد بالرعاية وهي شخصية الأم .وهذا الاتصال بشخصيات الآخرين يظل مستمرا طول الحياة سواء أخذ صورة اتصال فعلـــي أو صورة اتصال وهمي .

فالعلاقات المتبادلة بين الناس بعضهم بعضا هي أساس نظرية سوليفان . لكن هؤلاء الناس ، الذين يتم معهم التبادل لا يتطلب الأمر وجودهم ، فقد يتم التفاعل المتبادل بين الشخص وأشخاص خيالين كشخصية " علاء الدين " أو " السندباد " أو هؤلاء " الأبطال الخرافيين الذين نقرأ عنهم في الكتب أو اشخصيات التاريخية أو الروائية .وفي مثل هذه الحالات فإن الشخصية الخيالية أو الوهمية أو التاريخية . تقوم على تشخص كائن حي إنساني يقوي الصورة الخيالية .وبذلك يحدث هناك تفاعل متبادل مع هذه الشخصيات ،وليست الشخصيات الوهمية والخيالية هي التي يمكن أن يكون لها تأثير متبادل على الفرد . بل وأيضا صور أحلام الليل يكون لها تأثير متبادل وذات طابع شخصي متبادل ما دامت تعكس في العادة علاقات الحالم بغيره من الناس .

ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل إن العمليات العقلية الأساسية كالإدراك والتذكر والتفكير والتخيل .وجميع العلميات النفسية الأخرى يمكن أن تتضمن في العلاقات الشخصية المتبادلة . فالأنشطة العقلية لهذه العمليات ترتبط بشخصيات أخرى ، وليست ديناميات داخلية خالصة للسلوك بعيدة عن تأثير الشخصيات الأخرى : فكل ما تفعله هو في نظر " سوليفان " نتيجة النظام الاجتماعي والتفاعل بين الأشخاص .

وعملية الإدراك تظهر متضمنة في العلاقات الشخصية المتبادلة :مثال ذلك أن الشخصية التي تربى وتنشأ في ظروف يحوطها الثراء تختلف نظرتها إلى ما تعرضه المحلات التجارية الراقية ، عن تلك التي تربى وتنشأ في ظروف يحوطها الفقر والفاقة . فالنظام الإدراكي يختلف عند كليهما .والإدراك يتأثر في

هذه الحالة بماضي الفرد وخلفيته ،وتربيته ، وغير ذلك من العوامل التي تكونت خلال حياته مع الشخصيات الأخرى التي يعيش معها .

والحال بالمثل بالنسبة للعمليات العقلية الأخرى . فنحن نتذكر الأشخاص والأشياء التي حدثت كذلك نتيجة التفاعل الاجتماعي المتبادل ،وماله اتصال بالأشخاص الأخرين ..وتفكيرنا يتشكل أيضا حسب الشخصيات التي نعيش بينها .

فالشخصية التي تعيش في ثقافة حضرية يختلف تفكيرها إلى حد ما عن ذلك التي تعيش في بيئة بدوية أو ريفية . إن الأجهزة العصبية والعضوية قد تكون واحدة متماثلة لدى كل منهما ،ولكن النتاج النهائي لعملية التفكير يختلف . (٣٠)

الشخصية والسياسة :

خلال السنوات الأخيرة اتسع نطاق الدراسات التي تهتم بالكشف عن تأثير الشخصية على الالتحاق بالمهن وأداء الفرد لواجباته المهنية .وأحد اتجاهات هذا الاتساع ما نلحظه الآن من اهتمام بكيفية تأثير الشخصية على الدور السياسي ونمط الفعل السياسي ذاته . فعلى سبيل المثال نجد " هنري ديكس " Dicks – أحد الأطباء العقليين في بريطانيا – يوضح لنا في دراسته لمجرمي الحرب الألمان أن هناك علاقة قوية بين استعداداتهم السيكولوجية واتجاهاتهم نحو النازية فبمقارنة النازيين بغير النازيين من مجرمي الحرب لوحظ أن الأوليين كانوا يفتقرون إلى الرقة في سلوكهم ، كما عبروا عن نزعات سادية .

ولا شك أن التقدم الذي طرأ على المقاييس السيكولوجية يمكننا من فهم السلوك السياسي فهما أعمق وأشمل ، خاصة حينما نهتم بتطبيق هذه المقاييس على عينات كبيرة نسبيا ، ومن الدراسات

الهامة في هذا المجال تلك التي أرجاها جانوفيتر Janowitz ومارفيك Marvick حيث أوضحا أن التسلطية كانت مرتبطة ارتباطا قويا بمدى اهتمام أو عدم اهتمام الشخص بالتصويت في الانتخابات ، فهناك ٤٠% من غير المصوتين سجلوا درجة عالية على مقياس الشخصية التسلطية (مقياس "ف") . كذلك لوحظ أن الدرجات على مقياس " ف" كانت مرتبطة ارتباطا قويا بالموقف الذي يتخذه الشخص إزاء السياسة الخارجية فمن بين الذين سجلوا درجات عالية على مقياس التسلطية نجد ٤٥% أيدوا السياسة الخارجية الانعزالية ، بينما لم يؤيد هذه السياسة الانعزالية ألا ٢٢% من الذين سجلوا درجات منخفضة على مقياس التسلطية ومن الواضح أن هناك توازيا بين نتائج هذه الدراسة ،ونتائج الدراسة التي أجريت عن قيم الطلبة والتي أشرنا إليها من قبل . وهكذا نجد أن مقياس الشخصية يمكن أن يلعب دورا فعالا في التنبؤ بالسلوك الانتخابي واتجاهات الناس نحو السياسة الخارجية ،وأن هذا الدور لا يقل أهمية عن الدور الذي تلعبه المؤشرات البنائية كالدخل والمهنة ،وهي المؤشرات التي طالما اهتم علماء الاجتماع بتأكيد دورها في التحليل السوسيولوجي. (٣١)

الشخصية والبناء الاجتماعي :

إن التحليل السوسيولوجي (أي فهم بناء الأنساق الاجتماعية ووظائفها) يتطلب الاستعانة بنظرية عامة في الشخصية ، كما يتطلب التعرف بخصائص الشخصية للأفراد الذين يكونون الأنساق الاجتماعية .وقد يعتقد باختزال أورد التحليل السوسيولوجي إلى مستوى التحليل السيكولوجي . فالقضية التي تعنينا هنا ليست مجرد رد مستوي معين من التفسير إلى مستوى آخر ولكنها على وجه

التحديد قضية معالجة الجوانب المختلفة للظاهرة وكما تعالجها العلوم المختلفة .

والمحقق أن علمي الاجتماع والنفس لديهما اهتمامات تحليلية مختلفة .فعلم الاجتماع يهتم بدراسة بناء الأنساق ووظائفها أي أنساق الفعل الدائمة التي توجد في أية جماعة إنسانية ، أما علم النفس فإنه يسعى إلى دراسة بناء نسق الشخصية ووظائفه ، أي نسق الفعل الذي يميز الكائن العضوي البيولوجي وعلى الأخص الكائن البشري .وهناك – في حقيقة الأمر ميادين سوسيولوجية تقليدية بدت فيها أهمية نظرية الشخصية واضحة إلى حد بعيد كما هو الحال في الدراسات السكانية، وجانب كبير من علم الاجتماع الحضري فضلا عن المقاييس المختلفة التي تتناول التوزيع الاجتماعي وعلى ألأخص في مجال الطبقات الاجتماعية والواقع أننا لو حاولنا تجاوز شكل البناء الطبقي بقصد فهم سلوك أفراد الطبقات المختلفة ، فإننا سنجد البيانات السيكولوجية عامة بالنسبة لنا ، إذ ستزيد تحليلنا السوسيولوجي عمقا وثراء .وحينما نقول ذلك فإننا لا نقصد – بطبيعة الحال – رد التفسير السوسيولوجي إلى تفسير سيكولوجي وقد نوضح وجه نظرنا هذه بمثال واقعي . فإذا كان الحصول على مستوى تعليمي مطلبا أساسيا للالتحاق بمستوى مهني معين وأن هذا المستوى التعليمي ليس متاحا بالنسبة للمناطق الريفية ، فإننا قد نتوقع بعد ذلك أن تلعب هذه الحقيقة دورا أساسيا في تشكيل معدل الحراك بالنسبة لسكان المناطق الريفية . (٣٢)

ومن الطبيعي أن تحتل القوى السيكولوجية أهمية خاصة في داخل هذا الإطار البنائي الواسع .فالذين يفتقدون إلى القدر

الضروري من الدافعية قد لا يتمكنون من الإفادة من الفرص المهنية العديدة التي يتيحها لهم البناء الاجتماعي كذلك فإن الفرص المهنية المحددة داخل البناء الاجتماعي قد لا تتيح الحراك بالنسبة للذين يتميزون بدرجة عالية من الدافعية والنظرة العابرة للدراسات الحديثة العديدة التي تتناول أصحاب المواهب والمبدعين تشير إلى تأكيد ملحوظ للجوانب البنائية . غير أننا لو حاولنا تجاوز البيانات الإحصائية التي تتناول ومعدلات الحراك الاجتماعي بالنسبة للطبقات المختلفة فسوف نجد أن عامل الشخصية يلعب دورا هاما في تشكيل هذه المعدلات .

ومن ذلك يبدو واضحا كيف أننا لا نختزل عوامل الحراك الاجتماعي إلى عوامل سيكولوجية ، أنها تظل – مع ذلك – عوامل اجتماعية .

وما يقال عن الحراك الاجتماعي يقال أيضا عن جوانب أخرى من سلوك الفرد داخل الإطار الاجتماعي .وإذا كانت أفعال الفرد في أي موقف تتخذ طابعل شخصيا ، إلا أنها تتأثر بالبيئة الاجتماعية تأثيرها على سلوك الفرد من خلال الشخصية وعلى ذلك فإن فهم أي موقف اجتماعي لا يتطلب منا فقط إلماما بالحقائق الأساسية المتعلقة بالبناء الاجتماعي (وهي مجال الدراسة السوسيولجية) ولكنه يتطلب إلماما بالحقائق الأساسية للشخصية

الذي تدخل في نطاق هذا البناء الاجتماعي . حينئذ لن نكــون فــي وضع المفاضل بين التفسيرات السيكولوجية والسوسيولوجية ،ولكننا سنكون في وضع يمكننا من إقامة فهــم متكامــل وتفســير شــامل لظواهر وحقائق بالغة التعقيد . (٣٣)

ولقد اهتم **بارسونز** في دراسته للعلاقة بين الشخصية والبناء الاجتماعي داخل الموقف بتحديد أهمية الدور ، إذ يرى أن الوحــدة الهامة في تحليل البناء الاجتماعي هي الدور لا الشخص .وأرجــع بارسونز ذلك إلى تعدد المشاركات الاجتماعية للفرد في الأنشــطة المختلفة في الحياة ،وتنوع عضــويته فــي جماعــات متعــددة ، فالشخص يتخذ علاقات ثابته نسبيا مع أدوار الآخــرين باعتبارهــا موضوعات للتوجيه ، وبصفتها وحدات للأداء ،ومنابع للجزاءات ، ولا يقتصر الدور عند بارسونز على كونه وحدة أساسية في البناء ، بل هو عنصر أساسي من مقومات الشخصية باعتبارها نســقا ، أي هو عنصر مشترك بين البناء الاجتماعي والبناء النفسي .وفي هــذا الصدد بين بارسونز أن للأدوار إتجاهين ، أحدهما اجتماعي بحت ، فوحدات الأدوار تعمل على تنظيم السلوك ليساير المطالب الوظيفية للمجتمع ،والآخر اجتماعي نفسي وله وظيفتان ، فالدور هو الــذي يشكل سلوك المرء في الموقف الواقعي ،ويحدد توقعــات الســلوك إزاء الآخرين ، هذا من جانب ،ومن جانب آخر فالدور يكون جزءا

من محتوى الأنا الأعلى للفرد ، إذ أن الأنماط التنظيمية فـــي بنـــاء الأدوار هي التي تحدد المعايير الأخلاقية التي تترسب أثناء عمليـــة التنشئة الاجتماعية . وقد وصف بارسونز مشاركات الفرد في أداء الأدوار بأنها عملية ينظمها البناء الاجتماعي ،وفي الوقت نفسه لابد لها من أسباب دافعة باعتبار المشاركة جزء من الشخصية ،وهـــذا يعني أن أنماط النشاط نمط مستقر ومنظم ، إذ أن المشاركات فـــي الأداء هي استجابة لمواقف التفاعل المنظمة.

وتسهل لنا عملية تحليل الأدوار في البناء الاجتماعي تأكيـــد هذا الارتباط الفعلي بين البناء الاجتمـــاعي والشخصـــية .ويـــؤدي تحليل الصور العامة للتفاعل بين الأنساق إلـــى تحقيـــق القضـــية الأساسية للربط بين علم الاجتماع وعلم النفس ، وتحقيق التقـــارب بين الشخصية والبناء الاجتماعي ، فتحليل التفاعـــل يقودنـــا علـــى دراسة نسق الشخصية في حد ذاته ،وعلاقاته بالشخصيات الأخرى بالنسق الاجتماعي .ولقد قدم بارسونز نظرية جديدة مـــن الوجهـــة الاجتماعية في الشخصية وبنائها ، نظر فيها إلى أعماق الشخصـــية ،ومظاهرها بالمتطورة ،وجعلها محور دراسته مخالفـــا فـــي ذلـــك الاتجاه الاجتماعي الدوركيمي ومقتفيا أثر مدرسة التحليل النفســـي الفرويدي لكن في تفسير اجتماعي جديد.

وقد بين بارسونز أن أحد الجوانب الهامة للشخص هو الكائن العضوي ويتجلى هذا الكائن العضوي في السلوك الملموس للشخص الفاعل . فالشخصية عند بارسونز ليست أبدا وحدة بيولوجية ، بل هي سبب ونتيجة ، فهي التي تحكم سلوك الجسد ، وفي الوقت نفسه هي تنظيم يباشر وظائفه من المهد إلى اللحد ، ومن ثم فالشخصية نسق نفسي ، ولا يدرك إلا باعتباره نسقا من أنساق الفعل في الموقف .

وهذا الفهم للشخصية يحول الاهتمام من العمليات الفسيولوجية الداخلية للكائن الحي إلى تنظيم عمليات تفاعل الشخص مع الموضوعات الاجتماعية .

وقد عرض لنا بارسونز تفسيرا جديدا في بناء الشخصية ، يعتمد على العناصر البنائية الفرويدية ، لكنه رفض التقيد بالمضمون الفرويدي لعناصر بناء الشخصية ،وقدم لنا تفسيرا أكثر شمولا ، أكد فيه أهمية المضمون الاجتماعي والثقافي لعناصر الشخصية كلها في إطار نظرية الفعل .وبين فيه أن التفسير البنائي للشخصية يرتبط بنقطتين أساسيتين ، أحدهما اعتبار تنظيم الشخصية نسقا نفسيا والأخرى دراسة علاقة الشخصية بالبيئة الاجتماعية ،وخاصة أثناء عملية نمو الشخصية وعلاقتها بالمجتمع .

وتؤثر علميات التفاعل المستمر في المواقف المتلاحقة على تكوين بناء الشخصية كما تؤثر علـــى علميـــات إدراك الشـــخص وتوقعاته ،ولا تقف علميات التفاعل التي تساهم في تكوين الشخصية عند فترة معينة ،ولا تتقيد بأخرى بل تبدأ مـــن الطفولـــة وتســـتمر متواصلة .

ويرى بارسونز في عرض لنظريته في بناء الشخصـــية أن فرويد كان صائبا في رده لبناء الشخصية إلى عوامل ثلاثـــة فـــي تكوين هذا البناء . العامل الأول : الكائن العضوي ويرتبط بـــالهو .والعامل الثاني : الموقف الاجتماعي ويرتبط بالأنا. والعامل الثالث : أنماط الثقافة ويرتبط بالأنا الأعلى .والأنا الأعلى هو أخر عناصر الشخصية نموا وأصعبها توافقا في الشخصية ، كذلك كـــان فرويـــد صائبا عندما اكتشف أهمية عملية توحد الفرد مع العناصر الأخلاقية التي تعمل على تكوين الضمير ، لكنه أخفق حينمـــا اعتبـــر هـــذه العملية عملية نفسية وحدة ، كما أخفق عندما قصر دور الثقافة على تكوين الأنا الأعلى وخالف الاتجاه الدوركيمي الذي يؤكـــد الـــدور الذي تلعبه العناصر الاجتماعية في تكـــوين الطـــابع الاجتمـــاعي للشخصية .(٣٤)

الفصل الخامس

العولمة والثقافة

* حول مفهوم العولمة
* العولمة والهوية الثقافية
* ظاهرة العولمة بين عدم الوضوح والتوضيح
* مخاطر العولمة علي الهوية الثقافية
* العولمة الثقافية
* وسائل الإعلام وصناعة الثقافة
* آثار العولمة
* حوار حضارات أمام صراع ثقافات
* الثقافة والحضارة
* مفهوم الغزو الثقافي وتطوره
* مقومات التغير الثقافي ومشكلاته
* الميديا والانترنت والصراع الثقافي .

مقدمة :

بالرغم من أن ظهور مرحلة العولمة يعد تطـورا طبيعيـا للتاريخ الإنساني ، فالعولمة تستند إلـي أفـاق ثـورة المعلومـات والاتصالات التي تسود العالم حاليـا ، كمـا أن انهيـار الاتحـاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية قد أعطي الولايات المتحدة قدراً أكبـر من الحرية في القيام بدور الزعامة وفرض آرائها السياسية والثقافية علي العالم كله . رغم ذلك لم يتوقف الجدل الدائر حـول مفهـوم العولمة بل قد امتد ليصل إلي تحليل طبيعة الظاهرة ذاتهـا ، فهـل هي ظاهرة قديمة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ وبالتـالي لا فكاك عنها ويتعين التكيف معها ؟ أم أنها ظـاهرة حديثـة يمكـن مواجهتها علي الأقل بتلافي آثارها السلبية .

ومن الصعب المعالجة الوافيـة لموضـوع متشـعب مثـل موضوع العولمة من حيث تعقيداته وآثاره ومستقبله فالموضوع لـم يكتمل بعد ولم تتشكل معالمه ، فعلي سبيل المثال مـا زال الكتـاب والمعلقين يتداولون في تعبيراتهم : العولمة . الكونية ، وما يتصـل بهما من إشارات متكررة إلي " المتغيـرات الدوليـة " أو العـالم المتغير ، وما شابه ذلك من تغييرات تحمـل كلهـا معنـي معينـا فالمعالجة الوافية شاقة ، وربما كان الأفضل أن تجئ هذه المعالجة علي هيئة الاشارة لأهم ملامح الظاهرة كما بـرزت مـن خـلال البحوث والمناقشات في ظل الندوات الفكرية ومن خلال المقـالات المتناثرة في بعض الدوريات العلمية[١] .

أولا : حول مفهوم العولمة :Globalization

بالرغم من أن لفظة العولمة تعني في معناها اللغوي : تعميم الشئ وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله إلا أنه هناك ثمة اتفاق عام علي عدم وضوح مفهوم العولمة وعلي صعوبة الإحاطة به من الناحيتين النظرية والعملية ، وعلي ضرورة التدقيق في أمره لأنه لا يزال في طور التبلور والتكوين ، هذا فضلا علي أنه ينطوي علي عمليات اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية يشهدها العالم بعد مرحلة إنتهاء الحرب الباردة والثنائية القطبية : (إن صياغة تعريف دقيق للعولمة تبدو مسألة شاقة نظرا إلي تعدد تعريفاتها ، والتي تتأثر أساسا بإنحيازات الباحثين الأيديولوجية ، وإتجاهاتهم إزاء العولمة رفضا أو قبولا) .

ومع تفهمنا لصعوبة الوصول إلي تعريف جامع مانع لظاهرة العولمة لكونه أكثر المفاهيم المتداولة غموضا ، هذا فضلا عن تأثره بانحيازات الباحثين الإيديولوجية ، ويجب القيام بمحاولة الوصول إلي مفهوم للعولمة:-

فالعولمة هي ترجمة للمصطلح الأجنبي Globalization ، وترجمها البعض الكونية ، وقد فضل د . إسماعيل صبري عبد الله لفظ الكوكبة ، مبررا تفضيله : (إن الكوكبة خير ما ينقل إلي العربية معني الكلمة الإنجليزية ، فهذه مستمدة من Globe أو الكرة ، والمقصود هنا الكوكب الذي نعيش علي سطحه اليابس ، وهي ليست العالم World ولا الكون Universe ..) وقد أوضح في بحثه لماذا فضل استخدامه كلمه" كوكبة " مشيرا إلي فعل " كوكب " في اللسان العربي .

ويري سيار الجميل : (العولمة في مفهومنا الضمني ومدلولها الاصطلاحي ليست هي " العالمية إذ لا يمكننا البته أن نقرئها – مثلا – بعالمية الأديان ، أو بعالمية المذاهب السياسية والاقتصادية كالاشتراكية ، لان " العالمية " مصطلحا ومضمونا ارتبطت بالأرض والإنسان ، أما " العولمة " مصطلحا ومضمونا ارتبطت بالكونية وأنظمة الإنسان المتنوعة سواء مع الأرض أو الفضاء) ويري البعض أن العولمة تشير إلي : القوي التي لا يمكن السيطرة عليها داخل الأسواق الدولية والتي تحكمها الشركات متعددة الجنسية التي لا تدين بأي ولاء لأي دولة قومية تعمل داخلها (٢) .

والعولمة باعتبارها مفهوما فكريا يكون شأنها جميع المفاهيم الفكرية التي لا تقف عند حد تعريف واحد محدد ، فعلي سبيل المثال هناك من يعرفها بأنها تشير إلي (القوي التي لا يمكن السيطرة عليها داخل الأسواق الدولية والتي تحكمها الشركات متعددة الجنسيات التي لا تدين بأي ولاء لأي دولة قومية تعمل داخلها) . وهناك من ينظر إليها علي أنها تعني اندماج أسواق العالم في حقول التجارة والاستثمارات المباشرة وانتقال الأموال والقوي العاملة والثقافات ضمن إطار حرية الأسواق ، ثم خضوع العالم لقوي السوق العالمية ، مما يؤدي إلي اختراق الحدود القومية وإلي الانحسار الكبير في سيادة الدولة ، وأن العنصر الأساسي في هذه الظاهرة هي الشركات الرأسمالية الضخمة متخطية القوميات .

وإذا كان التعريف السابق يشير إلي إبراز الاختلافات بينها وبين الاقتصاد الدولي (والذي يركز علي علاقات اقتصادية بين دول ذات سيادة) هناك أيضا من يحاول توضيح مفهوم العولمة من

خلال إبراز الاختلافات بينها وبين النظام الدولي ، فالأخير يشير إلي الهيكل الذي يتم في إطار التعاون بين دولتين أو أكثر يجمعهم تحالف أو إقليم موحد ، بينما تشير العولمة بإطار من التعاون الدولي الذي يتعدى كل الحدود الإقليمية والقومية .

وهناك من يفرق بين العولمة والدولية ، فمفهوم الدولية Internationalization يعطي دورا واضحا وقويا للدولة القومية ويؤمن بسيادتها المطلقة في التفاعلات الدولية ، بينما مفهوم العولمة يشير إلي أي نمط عالمي يختفي فيه دور الدولة القومية وتبرز بدلا منها الشركات متعددة الجنسيات Gummet .

ويمكن القول : تعددت الآراء حول مفهوم العولمة والتفرقة بينه وبين العديد من المفهومات الاخري مثل الاقتصاد الدولي ، والنظام الدولي والعالمية ، وآيا كان الأمر فإن العولمة ظاهرة ارتبطت بنشوء الرأسمالية الصناعية ، ونتيجة لتطورها ، واتخذت أشكالها وأنماطها بحسب درجة تطور الرأسمالية الصناعية العالمية ، ويجري العرف السائد في الأدبيات الغربية علي تعريف العولمة بأنها (زيادة درجة الارتباط المتبادل بين المجتمعات الإنسانية من خلال عمليات انتقال السلع ورؤوس الأموال وتقنيات الإنتاج والأشخاص والمعلومات) . وهو تعريف يقف موقفا محايدا من طبيعة هذا الارتباط المتبادل سواء كان ناشئا عن علاقة متكافئة أم غير متكافئة أي بين تابع ومتبوع أو كيفية توزيع عائد عمليات انتقال هذه الوسائل والأدوات [٣] .

وبرغم الأهمية البالغة والفاعلة لكل القوي والتشكيلات السياسية والاجتماعية والعلمية المتقدمة والخصوصيات القومية والهويات الثقافية المختلفة ، التي تتصدي اليوم لهذه العولمة

والهيمنة الرأسمالية ، فإن دور المثقفين في عصرنا الراهن ، الذي أصبحت فيه الثقافة قوة إنتاجية باهرة ، أصبح دورا حاسما إلي جانب كل تلك القوي والتشكيلات الجماعية التي أشرنا إليها ، لاكتشاف حلول وبدائل للقضايا والمشاكل المختلفة ، سواء علي مستوي كل قطر أو وطن أو إقليم، أو علي المستوي الإنساني عامة إنها مسئولية المثقفين علي تنوع كفاءتهم وتخصصاتهم في تحقيق هذا التحول التاريخي الحضاري ،أي تحويل هذه الغاية الإنسانية المعولمة .

وإذا كان لابد من حسم القضية والإجابة علي التساؤل المطروح ، هل المسألة مسألة حوار حضارات أم صراع حضارات أم صراع ثقافات ؟! فأقول أن كلا من " الحوار " و" الصراع " قد لعب دوره التاريخي في تطور الحضارة الإنسانية بوجه عام ، والحضارات الإقليمية بوجه خاص ، لا يستثني من ذلك إلا بعض الحضارات التي نشأت وتطورت بشكل يكاد يكون كامل العزلة في الأمريكتين وبعض الجزر المحيطة ، قبل أن تعيدها الاكتشافات الأوروبية إلي مجري التطور الحضاري العام . وما يسري علي الحضارات من قبل إلي التواصل والتأثير المتبادلين عبر أساليب مختلفة يسري أيضا علي الثقافة ، وإن يكن ذلك – لأسباب يبدو أنها لم تلق بعد حظها الكافي من الدراسة العلمية – بدرجة أقل ز الحوار والصراع بين الحضارات والثقافات ، إذن يكونان معا أحد أهم الروافد التي تفسر تطور الحضارة والثقافة فلا شك أننا في أمس الحاجة إلي الحوار الثقافي مع الآخر لتبيان حقيقة هويتنا وثقافتنا ، ولدرء كل المقولات المكذوبة عن العرب وعن الإسلام بصفة عامة . كما أننا في حاجة إلي الاعتراف بحقيقة الصراع

الحضاري والثقافي المفروض علينا حتى نتمكن من آلياته ، حتى لو كانت تلك الآليات لابد وأن تبدأ بالحوار .

ولكن هل هويتنا الثقافية قادرة علي خوض هـذا الصـراع الحضاري المعروف ؟!! وسنحاول الإجابة علي هذا التساؤل فـي التحليل التالي للعولمة والهوية الثقافية [٤].

العولمة والهوية الثقافية :

تحتل قضية الهوية والخصوصية الثقافية موقعا هامـا فـي علاقتها بالعولمة ،ـ حيث لم تكد فكرة العولمة – بمعنـي الهيمنـة والقولبة – تبزغ إلي الوجود حتي واكبتها فكرة أخري علي طرفي النقيض وهي فكرة الهوية الثقافية – بمعني التميز والتنوع – وكأن بينهما معركة من نوع ما .

فإذا كانت العولمة أو الكونية Globalization تعني العملية التي يتم بمقتضاها إلغاء الحواجز بين الدول والشعوب التي تنتقـل فيها المجتمعات من حالة الفرقة والتجـزؤ إلـي حالـة الاقتـراب والتوحد ، ومن حالة الصراع إلي حالة التوافق، ومن حالة التبـاين والتمايز إلي حالة التجانس والتماثل ، وهنا يتشكل وعـي عـالمي وقيم موحدة تقوم علي مواثيق إنسانية عامة .

وفي ضوء مقولة العولمة وأهدافها يصبح مـن الضـروري ربط تدويل الاقتصاد بتدويل الثقافة ، حيث إعادة النظر في بعـض المفهومات التقليدية التي كنت سائدة قبل بزوغ هذه الفكرة ، فلم يعد هناك – علي سبيل المثال – شرق يوضح مقابلا للغرب ، واختفـي مفهوم الشيوعية وأصبح النظام الرأسمالي هو النموذج السائد الذي يخفي أوجه التمايز في طرق تنظيم اقتصاد السوق ، وبالمثل فـإن

تقسيم العالم إلي شمال وجنوب ، لم يعد لـــه مكـــان فـــي قـــاموس الجغرافيا ، حيث تم إلغاء الحواجز والمسافات ، وغابت الصراعات التي كانت تميز فترة الحرب الباردة ، وتـــرتبط عمليـــة العولمـــة بتدويل النظام الاقتصادي حيث يتم توحيد الكثير من أسواق الإنتاج والاستهلاك ، وترتبط مصالح الفئات الأكثـــر اهتمامـــا بالأنشـــطة الإنتاجية ، تتداخل فيما بينها ، وتتجه نحو توحيد الثقافات ، وتظهر ثقافة متبلورة ، عالمية تتسم بخصائص مميزة ، كمـــا تقـــوم تلـــك العملية (العولمة) بربط أجزاء العالم ، علي الرغم مـــن تباعـــدها وانفصالها جغرافيا وسياسيا وعرقيا ، بـــروابط عـــدة وإمكانـــات تواصل آنية .

ولكن صناعة العولمة عملت علـــي تشـــويه الهويـــة لـــدي الشعوب الخاضعة للهيمنة الرأسمالية ، وعملت علي نشـــر الثقافـــة الاستهلاكية كآلية فاعلة لتشويه البني التقليدية ، ولتـــدعيم تغريـــب الإنسان وعزله عن قضاياه ، وإدخال الضعف لديه والتشكيك فـــي جميع قناعاته الوطنية والقومية والأيديولوجيـــة والدينيـــة ، وذلـــك بهدف إخضاعه نهائيا للقوي والنخب المسيطرة علي القرية الكونية ، وإضعاف روح النقد والمقاومة عنده حتى يستسلم نهائيا إلي واقع الإحباط فيقبل بالخضوع لهذه القوي أو التصالح معها . وهكذا تعـــد العولمة أحد التحديات التي تقف أمام بناء المجتمعات التقليدية لأنها تحطم قدرات الإنسان فيها ، وتجعله إنسانا مستهلكا غيـــر منـــتج ، ينتظر ما يجود به الغرب ومراكز العالم من سلع جاهزة الصـــنع ، بل تجعله يتباهى بما لا ينتجه ، فهو القادر علي اســـتهلاك مـــا لا يصنعه مما تشكل لديه قيم الإتكالية والتواكل ، والتطلع إلي اقتنـــاء السلع الاستهلاكية التي تتغير يوميا لا في سبيل التطوير فقط بل في

سبيل زيادة حدة الاستهلاك علي المستوي العالمي - ولا جدال في أن النظام العالمي الجديد لا يختلف كثيرا من حيث أهداف تحقيق الهيمنة الخارجية ، نظرا لأنها السبيل الوحيد للمحافظة علي قدرة النظام الرأسمالي في تطوير ذاته ، وتوزيع منتجاته ، وتأمين استقرار أوضاعه ، ووصوله إلي مراحل الرفاهية داخل نطاق حدوده .

ويعد " تعميم ثقافة الاستهلاك " واحد من آليات الهيمنة المفروضة علي الشعوب والأمم التقليدية ، وهو مجال مكمل و " متمفصل " مع أنماط أخري من التدويل في الإنتاج والمال والتقنية ... وتشكلت مؤسسات لهذا الغرض حتى تضمن الفئات الرأسمالية – مديرة الشؤون العالمية – تصريف منتجاتها ، وتوزيعها عالميا وعلي أوسع نطاق . ولعبت الشركات متعدية الجنسية دورا مؤثرا في ذلك واهتمت بإنتاج رموز ثقافة الاستهلاك لتتكامل مع السلع المادية المنتجة ، ولا يختلف ذلك عن استخدام هذه المؤسسات للعلوم الاجتماعية والسلوكية وتوظيفها في خدمة هذا الغرض (٥) .

ويمكن إيجاز أهم الأهداف التي تسعي اليها الفئات الرأسمالية الموحدة وتأثيرها علي تغير البني التقليدية في المجتمعات المحيطية في التالي :

١- التحكم في مسار تطور البني التقليدية بالقدر الذي يسمح فقط بتصريف منتوجات هذه الدول (المركز الرأسمالي المعولم) ، وبالقدر الذي يسهم في تطوير قوي الإنتاج بالداخل ، وقد لعبت آلية تعميم ثقافة الاستهلاك دورا مؤثرا في ذلك حيث يمكن رصد مظاهر التطلعات الاستهلاكية لدي الفئات والشرائح المختلفة في هذه الدول والعالم العربي خير مثال علي ذلك .

٢- العمل علي تغريب الثقافات الوطنية من خلال آليات أصبحت أكثر قوة مثل وسائل الأعلام والتقنية الحديثة واحتكارها علي مستوي المعرفة وعلي مستوي التشغيل وكان لصناعة الثقافة دور مهم في هذا الإطار ، حيث تم توجيه نمط الثقافة من منطق ما بعد الحداثة ، نحو إعادة إنتاج وتقوية منطق الاستهلاك لدي الشعوب . ومن يستعرض – مثلا – الأسواق الخليجية والعربية بوجه عام سوف يشهد بأن التوكيلات التجارية والأجنبية المسيطرة علي هذه الأسواق تستأثر بالنصيب الأعظم من جملة العمليات التجارية القائمة .

٣- توظيف العلم للاختراق الثقافي والهيمنة علي الثقافات التقليدية بهدف طمس هوية الشعوب ، وقد تعددت آليات هذه الهيمنة كما وكيفا بين ثقافة قومية وأخري لا شك أن المتابع للبرامج التي تبثها الإذاعات المختلفة حتى العربية منها يخلط بوضوح إظهار تفوق الحضارة الغربية ، وتغلغل قيم الرأسمالية في المؤسسات الوطنية ذات الصلة بالثقافة ، مناهج المدارس والجامعات ومراكز البحوث كلها تشير إلي ذلك ، بالإضافة إلي ما تقدمه المؤسسات من منح ومواد إعلامية وبحوث تجري عن طريق المؤسسات المالية ، كلها تصب في إطار ترسيخ تفوق الغرب إلي ما عداه من الجنسيات الاخري .

٤- دعم السياسات الاقتصادية والاجتماعية التي تقدمها المؤسسات الدولية (البنك الدولي ، صندوق النقد الدولي ، وغيرهما من المؤسسات) للدول الأقل تطورا طالما أنها تحقق مصالح القوي الرأسمالية الجديدة .

٥- نقل الصناعات التقليدية من المراكز الرأسمالية إلي بعض الأجزاء الأخرى من العالم ، إما لاستغلال الأيدي العاملة الرخيصة في الدول المتلقية لهذه الصناعات ، أو تفادي تلوث البيئة في المراكز . ومع أن هذه العملية (نقل الصناعات) تدخل في عملية تدويل الاقتصاد ، إلا أن أبعادها الثقافية أهم بكثير من أبعادها الاقتصادية ، فهي ترسخ ثقافة " تخليص المجتمعات التقليدية من دائرة التخلف " برغم أن الواقع الفعلي يثبت عكس ذلك حيث تعمل الرأسمالية علي استخلاص فائق إنتاج الدول المتخلفة ، ويضاف لحساب الفئات الرأسمالية العالمية ، ويحل من أزمة الداخل في المراكز وليس في المحيطات.

وإذا كان البعض ينقل ويردد مقولات سائدة في " سوسيولوجيا التحديث " حول ايجابيات الاحتكاك ، والانتشار الثقافي الناتج عن نقل ثقافة المجتمع الحديث إلي ثقافة المجتمع التقليدي ، مع نقل التكنولوجيا إلي داخل البني التقليدية من شأنه أن ينقل المجتمع الأخير إلي مرحلة الحداثة ، ومن ثم يستطيع تخطي الفارق الزمني الذي يفصل بين المرحلة التي يعيش فيها المجتمع التقليدي ، وبين المرحلة التي وصل إليها المجتمع الحديث (الرأسمالي) ، فإننا نقول يخطئ من يتصور أن التبادل الثقافي أمر وارد بين ثقافتين غير متكافئتين ، بل يخطئ أكثر من يري أن الاحتكاك الثقافي والانتشار الواسع يساعد الدول الفقيرة في تخطي مرحلة التخلف، ففي كل حالات التبادل الثقافي غير المتكافئ (الاختراق أو الغزو) فإن الثقافات الادني (التقليدية) تفقد تدريجيا مقومات استمراريتها ، وبذلك تتفكك وتنهار . وعليه نؤكد علي ما توصل

إليه " فريمون " في كتابه " تلاقي الثقافات " والعلاقات الدولية : إن الثقافات الأضعف لا تجد أمامها إلا التفكك والانهيار مما يشكل إشكالية علي صعيد الهوية ، وعلي نمط الحياة الاجتماعية . إن فقدان الاستقرار يشكل الصدر الخفي لضياع المجتمع وتجزئته (٦) .

ظاهرة العولمة بين عدم الوضوح والتوضيح :

اقترن الحديث في الآونة الأخيرة عن العولمة بكثرة الحديث عن الزعم بأننا مقبلون علي عصر جديد تنتصر فيه كل القيم الرفيعة مثل احترام حقوق الإنسان بخاصة النساء ".والديموقراطية والعقلانية والموضوعية والتقدم الثقافي " وكل هذا يصور علي أنه جزء لا يتجزأ من ظاهرة العولمة ، كما يصور كل من يقف في وجه العولمة علي أنه يقف في الحقيقة ضد التحرر من كل هذه الصور من صور الاستعباد : استعباد الدولة ، استعباد الجهل والفقر ، استعباد التعصب .

ويعلق جلال أمين علي هذا القول ، حيث يذكر (كم يكون العالم جميلا لو كان هذا كله صحيحا . ولكن الحقيقة للأسف غير ذلك ، بل لعلها عكس هذا بالضبط . وإنما يساعد علي تصديق كل هذه الأشياء ، وتدعيم هذا الخطأ الفادح أن لفظ العولمة لفظ يصف ما يجري علي السطح من دون أن يفصح عن محتواه الحقيقي ، إذ أن الكلام يجري من العولمة من دون أن يثار السؤال عما تجري عولمته .)

وحول هذا المضمون " الذي أثاره جلال أمين " نستشف من البادية أن ثمة اتفاق عام علي عدم وضوح العولمة وعلي صعوبة الاحاطة بها من الناحيتين النظرية والعملية . فمفهوم العولمة لا يزال في طور التبلور والتكوين . وربما لهذا السبب لا تزال

مرجعية معظم الكتابات العربية في هـذا الشـأن هـي المؤلفـات والدراسات الأمريكية والأوروبية .

ويمكن القول إذا كانت ظاهرة العولمة لم تكتمل علي أرض الواقع بعد ، فإنني اعتقد أن أهم العناصر الأساسية لظاهرة العولمة " العولمة الاقتصادية " قد حققت قفزات نوعية في عصرنا الحالي ، هذا بالإضافة إلي النمو الهائل في عولمـة الإعـلام والاتصـالات والمعلومات ، وقد أفضي هذا النمو إلي مزيد مـن التـداخل بـين عولمة الإعلام وعولمة الاقتصاد .

ومن جانب أخر نجد أنت أهم ما يتسم به عالم اليـوم هـو التداخل الواضح في محاولات الاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدولة ذات السـيادة أو إنتمـاء لوطن محدد أو لدولة معينة ، وهذا يعني ذبول الدولـة أو انتهـاء دورها Withering of the state ... وندرك هذه الظاهرة حـين نتمكن من استعمال أدوات الاتصال والإعلان من قرية في الصعيد (مصر) بمدينة صغيرة في أي مكان في العالم ، كذلك نتمكن من نقل النصوص المكتوبة بالفاكس بنفس الدرجة من اليسـر ، هـذا بالإضافة إلي مشاهدة البث التليفزيوني فـي أرجـاء مـن الأرض متعددة ومتباعدة .. الخ .

فـالثورة فـي تكنولوجيـا الاتصـال Communication Technology أوجدت وسائل جديدة في الاتصـال مثـل البـث التليفزيوني الفضائي والتكنولوجية الرقمية Digital Technology التي وفرت إمكانية هائلة لاستقبال الصـوت بدقـة ونقـاء غيـر مسبوقين وكذلك وسائل الإعلام المرئية التفاعلية والفيـديو تحـت الطلب Video – on Demand والصحافة الالكترونية عبر شبكة

الانترنـــــت ، ووســــائل الاتصـــــال المحمولـــــة Mobile Communication .

فقد أتاحت هذه الثورة التكنولوجيـــة فـــي مجـــال الإعـــلام إمكانيات واختيارات هائلة ، والتأثير في المتلقين الذين ينتمون إلـــي ثقافات متباينة . هذا فضلا عن الدعوة إلي عولمـــة الاقتصـــاد أو الثقافة أو ما يعرف أحيانا بنشر أيديولوجيا العولمة.

ففي ظل العولمة سقطت الحواجز المكانية والزمانيـــة بـــين الأفراد والجماعات والشعوب نتيجة الثورة في مجـــال الإعـــلام ، فتسارعت حركة الناس وتعددت مرات انتقالهم من مكان إلي أخر ، كما تسارعت حركة الأخبار والصور والكلمات عبر شبكات البـــث الإذاعي والتليفزيوني وعبر الهاتف ... إلخ ، حتى صار العالم قرية واحدة تتكلم عدة لغات (٧) .

وفي المجال الاقتصادي تشير ظاهرة العولمة إلـــي النمـــو السريع للتجارة العالمية ، حيث أصبح نصيب التجارة العالمي فـــي الناتج العالمي يزيد عن ٤٠% ، مما يعني أن أكثر من خمس الناتج العالمي يتم تداوله ، ومن ناحية أخري شهد نمط التدفقات الرأسمالية العالمية تغيرا واضحا أسهم في حركة العولمة ، بمعني تعاظم دور الاستثمارات غير المباشرة وجوهرها المعاملات في أسواق المـــال العالمية والتي تضم أسواق العملات وأسواق الأســـهم والســـندات ، ومعظمها يتم خارج إطار مراقبة السلطات النقدية في مختلف الدول ، ويشكل عاملا حاسما في التأثير المباشر علي أســـعار العمـــلات وعلي النشاط الاقتصادي الداخلي .

وبجانب النمو السريع للتجارة العالمية ، أصبحنا نشهد مولد كيانات اقتصادية مستقلة عن الـــدول ، هـــي الشـــركات متعـــددة

الجنسيات والتي تتميز بالضخامة وتنوع الأنشطة والانتشار الجغرافي ، والاعتماد علي المدخرات العالمية . وحول إمكانية هذه المؤسسات الاقتصادية والصناعية العمالة يشير إسماعيل صبري عبد الله نقلا عن مجلة فورشن في يوليو ١٩٩٦ عن أكبر خمسمائة شركة في العالم ، **ونستخلص منه التالي :**

١- يبلغ إجمالي إيرادات Revenues تلك الشركات الخمسمائة (١١٣٧٨) أحد عشر تريليون وثلاثمائة وثمانية وسبعون مليار دولار . وعلي سبيل المقارنة نجد أن مجموع الناتج المحلي الإجمالي لدول العالم في (١٩٩٤) كان أكثر قليلا من ٢٥ تريليون دولار . وكان الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة الأمريكية ستة تريليون وستمائة وثمانية وأربعين مليار دولار . وهكذا يمثل رقم إيرادات الشركات المذكورة (وليس كل الشركات متعددة الجنسيات) ٧١% من الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة الأمريكية و٤٥% من النتاج المحلي الإجمالي للعالم كله .

٢- ويوضح التوزيع الجغرافي للخمسمائة شركة بين الأقطار التي بها مقر الإدارة العليا لكل شركة علاقات القوي في اقتصاد العالم ، وتبين بيانات فورشين التوزيع الآتي لما يسمي Home Countries بالمقارنة مع Host Countries والذي يسقط الجنسية الواحدة عن أي شركة . فالمقر القانوني لا يعني بالضرورة وجود الجزء الأكبر من نشاط الشركة في هذه الدولة .

ويضيف إسماعيل صبري عبد الله (إن أكبر عشر شركات تقع ست منها في اليابان وثلاث في الولايات المتحدة وتكملها شركة

شل التي توصف بأنها بريطانية هولندية . ويبلغ إجمالي إيراداتها ١٣٤٠,٤ مليار دولار أي ١١,٨% من إجمالي الخمسمائة شركة مع أن عددها ٢% فقط من مجموع الشركات ، ويجب الإشارة إلي أن الأوضاع النسبية للشركات متعدية الجنسية تتغير من سنة إلي أخري (٨) .

فشركات " جنرال أليكترك " و " IBM " كانت ضمن العشر الكبار في ١٩٩٣ ولكنها تراجعت في ١٩٩٥ إلي الموقع ١٨،٢٠ علي التوالي . كما أن معدلات الربح والخسارة تتفاوت كذلك . وبمقارنة سنة ١٩٩٤ بسابقتها نجد أن شركة سوني قد تراجعت أرباحها بمقدار ثلاث مليارات . وبنك الكريدي ليونيه الفرنسي خسر ٢,٢ مليار دولار ، وشركة الصناعة المعدنية الألمانية ١,٦مليار . وشركة بل أتلانتيك (الأمريكية) ٧٥٤,٨ مليار دولار .. إلخ . كما تكشف بيانات ١٩٩٥ عن خسائر ضخمة لبعض الشركات : ٥,١ مليار في ألكاتيل و ٤,٤ مليار بنكودو برازيل ، ٤ مليار في ديملربنز (صاحبة مرسيدس) . فضخامة حجم الأعمال ليس ضمانا ضد الخسارة ، بل كثيرا ما تكون الخسارة ضخمة أيضاً . ومن الأمور التي تلعب دورا هاما في إحكام قبضة الشركات متعدية الجنسية علي التجارة الدولية :

١- ظاهرة انتشار اقتصار كل مصنع علي إنتاج بعض مكونات السلعة النهائية ثم ظهور مراكز للتجميع قرب الأسواق الكبرى ، فالآن يصعب علي المرء أن يجد سيارة صنعت بالكامل في قطر واحد ، فالسيارة الواحدة تشارك في إنتاجها عشرات الدول ، كل دولة تنتج المكون الأجود والأرخص ، والكل من مصلحته أن يتم ذلك من خلال نظريات التجارة الدولية ، ويمتد

هذا أيضا إلي الكمبيوتر ، حيث من الصعب أن تجد جهازا قد تم صنعه كاملا في دولة واحدة، وكذلك صناعة الطائرات والأسلحة .. إلخ . فنحن أمام سوق واحد ، فالعولمة تتكلم حرفيا عن عولمة الإنتاج Global Factory فالمصنع الواحد " العالمي " تشارك فيه بلدان من شرق آسيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا وأمريكا الشمالية .

٢- ظاهرة الاستثمار المباشر المتبادل بين دول العالم الثالثوث المهيمن " الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، الاتحاد الأوربي ، اليابان ودول شرق آسيا المسماة بالنمور " فالسلعة التي يستوردها المرء من الولايات المتحدة يمكن أن تكون من إنتاج شركة أمريكية تمتلكها شركة أم مقرها اليابان ، والمنسوجات التي يمكن أن نستوردها علي أنها فرنسية صنعت في الواقع في أندونيسيا فيما أصبح يسمي الإنتاج عن بعد Teleproduction . فما زال مقر الشركة الرسمي في فرنسا حيث توجد الإدارة العليا وأقسام البحث والتطوير وإدارة التسويق ، وتصل الرسوم المطلوبة من المواصفات إلي مصنع في أندونيسيا بالفاكس أو بالبريد الإلكتروني .(٩)

*** مخاطر العولمة علي الهوية الثقافية :**

ومن ثم فإن مخاطر العولمة علي الهوية الثقافية إنما هي مقدمة لمخاطر أعظم علي الدولة الوطنية والاستقلال الوطني والإرادة الوطنية والثقافة الوطنية . تعني العولمة مزيدا من تبعية الأطراف للمركز ، تجميعا لقوي المركز ، وتفتيتا لقوي الأطراف ، بما في ذلك الدولة الوطنية التي قامت بدور التحرير الوطني وتحديث المجتمع ، والتي قاومت شتي أشكال الهيمنة القديمة

والجديدة حتي انهيار المعسكر الاشتراكي . وتقذف عليها مفاهيم جديدة أشبه بالسوط علي ظهر من لا يدخل بيت الطاعة في نظام العالم الجديد : حقوق الإنسان ، حقوق الأقليات ، حقوق المرآة . وقوي الزعم العربي لمراكز حقوق الإنسان بالمفهوم الغربي الفردي دون مراعاة لحقوق المواطنة وحقوق الشعوب ، وانتشرت البحوث عن الأقليات العرقية والطائفية من أجل إبراز الخصوصيات والهويات والتعدديات الثقافية للقضاء علي وحدة الثقافة ، ووحدة الوطن ، ووحدة التاريخ ، ووحدة المصير ، وانتشرت مشاريع دراسات المرآة وجمعياتها ، وأدخل مفهوم النوع Gender في كل شئ في ثقافات لم تعرف بعد مفهوم المواطنة ، التي لا تفرق بين ذكر وأنثي . وقام النضال الوطني بخلق عدو وهمي للمرآة هو الرجل ، بينما المرآة والرجل كلاهما ضحايا عدو مشترك هو التقاليد والتخلف والفقر والقهر والاستعباد . وكل ذلك بداية للهدف الاعظم ، وهو فتح الدولة الوطنية لحدودها الاقتصادية والسياسية ، والسير في نهج الخصخصة والتحول من القطاع العام الذي بنته بعد تحررها الوطني إلي القطاع الخاص ، الذي يساهم فيه رأس المال الأجنبي ويزاحم رأس المال الوطني ، وعلي الاقتصاد الوطني أن يتحول إلي جزء من الاقتصاد العالمي ، برفع الدعم عن المواد الأولية ، وترك كل شئ لقانون العرض والطلب ، في الغذاء والإسكان والتعليم والخدمات العامة . واتفاقية الجات تجعل كل أسواق الدول مفتوحة للمنافسة العالمية من أجل تصريف الفائق الاقتصادي للدول الصناعية ، وبالتالي تنتهي الصناعات الوطنية والحماية الجمركية ، وتنشأ المناطق الحرة للتبادل التجاري الحر ، حتى تصبح الدول الوطنية – بالأمس القريب – كلها أسواقا حرة

مثل هونج كونج وتايوان . ومن لا يقدر علي المنافسة علي الأسواق عليه أن ينزوي إلي متاحف التاريخ ، ولا مكان للأقزام بجانب الكبار [١٠] .

وتعم قيم الاستهلاك والمتعة بالحياة ، ولا تنتظر الامم إلي مشاريع قومية وخطط استراتيجية بعيدة المدي ، فذلك من اختصاص المركز ، وما علي الأطراف إلا ركوب القطار الذي يحدد المركز اتجاهه وسرعته ونوع حمولته وقائده ووقوده ومحطاته التي يتوقف فيها ، أو التي يتجاوزها ، فإذا ما اتسعت المسافة بين الأغنياء والفقراء انتشرت الجرائم المنظمة ، وظواهرها " البلطجة " والحماية الشخصية ، واسترداد الحقوق ، أو نهبها باليد ، وتطبيق الشريعة بالعنف والكرة والإجبار ، ما دام العنف أصبح وسيلة لتحقيق المطالب ، وينتشر الفساد والمضاربة ووسائل الكسب السريع وتهريب الأموال ، ويزداد الغلاء والترف ، ويزدهر الجنس متعة رخيصة لمن يملك المال ، ولمن يبيع الرقيق الأبيض ، وتضيع القيم العامة ، وينتهي ما يربط الناس ، ويزداد التفكك الأسري والتشرم الاجتماعي . كل فرد ، وكل طائفة تبحث لها عن قضية بعد أن غابت القضية العامة ، وبعد أن انحسر الوطن من قلوب المواطنين ، ويسود الشك والنسبية كما ساد في المركز ، وتعم العدمية ، وتنقلب القيم ، ويسري الخواء في الروح ، فتنهار الأمة ، ويغير التاريخ مساره من الشعوب المتحررة حديثا إلي الاستعمار الجديد ، ليستعيد مجده القديم تحت شعارات براقة مثل : النظام العالمي الجديد ، والعالم قرية واحدة ، وثورة المعلومات ، وتنتشر أساطير الثقافة العالمية ، والوعي الكوني ، والكوكبة ، والعولمة ، ويتوحد العالم كله تحت سيطرة المركز ، وتصبح ثقافته

هي نموذج الثقافات . ويتم تنميط كل شئ بحيث يختفـــي الخـــاص لصالح العام الذي كان في بدايته خاصا ، ثم أصبح عاماً بفعل القوة ، مهما نبه علماء الاجتماع علي أن المعرفـــة قـــوة (فوكـــو) أو المعرفة مصلحة (هابرماس) ، وباســـم المثاقفـــه يـــتم انصـــهار الهويات الثقافية الخاصة مع الثقافة المركزية مع أن اللفـــظ ســـلبي Acculturation ، ويعني القضاء علي ثقافـــة لصـــالح أخـــري ، ابتلاع ثقافة الأطراف داخـــل ثقافـــة المركـــز ، وتخفـــف بعـــض المصطلحات الأخرى من مستوي عدم الندية بين الثقافات، فتبـــرز مفاهيم : التفاعل الثقافي ، التداخل الحضاري ، حوار الحضارات ، التبادل الثقافي ، وهي مفاهيم تنتهي إلي ان ثقافة المركز هي الثقافة النمطية ممثلة الثقافة العالمية ، والتي علي كل ثقافـــة احتـــذاؤها . وتنتهي أسطورة التعددية التي طالما قامت عليها حضارة المركز ، وعبر عنها " وليم جيمس " في " عالم متعدد " لصالح عالم أحـــادي الطرف . ثقافة تبدع ، وثقافات تستهلك ، ثقافة تصدر ، وثقافـــات تنقل .

وبطريقة لا شعورية وتحت أثر تقليـــد المركـــز والانبهـــار بثقافته ، يتم استعمال طرق تفكيره ومذاهبه كإطار مرجعي للحكـــم دون مراجعة أو نقد . وتتبني ثقافة الأطراف كل ما يصـــدر فـــي المركز من أحكام خاصة : ثنائيات الحس والعقل، وتعارض المثالية والواقعية ، والكلاسيكية والرومانسية ، تعارض الـــدين والعلـــم ، والفصل بين الدين والدولة ، والانقطاع مع القديم ، وكلهـــا أحكـــام صدرت في المركز بناء علي ظروفه الخاصة ، ولا يمكن تعميمها علي غيره من ثقافات الأطراف .

ثم يفكر الهامش بمقولات المركز ، ويعمم أحكامه ، ويقـع في خطأ الانتقال من الجزء إلي الكل ، دون أن يرد هذه الأحكـام إلي ظروفها التي نشأت فيها ، ويتحـرر منهـا ، ويقـيم أحكامـه الخاصة بناء علي ظروفه الخاصة التي قد تختلـف مـع ظـروف المركز وأحكامه ، وقد تتفق مع ثقافة المركز إذن ، نظرا للانبهـار بها ، وتقليدها ، وتبنيها ، وإطلاقها ، واعتبارها الثقافـة العالميـة الممثلة لجميع الثقافات ، والتجربة النموذجية التي تحذو حذوها كل التجارب الاخري وتمنع إبداعات الأطراف الذاتية والتفكير المستقل ، والإنعكاف علي الذات ، وممارسة قوي التنظير .

ومن مخاطر العولمة علي الهوية الثقافية :

الانقسام الثقافي داخل مجتمعات الأطراف وبمقدار ما يزداد التغريب في المجتمع ، وتنتشر فيه القيم الغربية ، والعادات الغربية وأساليب الحياة الغربية ، خاصة عند الصفوة التـي بيـدها مقاليـد الأمر مع شريحة كبيرة من الطبقة المتوسطة، يزاد تباعد الجماهير عنها واتجاهها إلي ثقافتها ، وتمسكها بتقاليدها ، فـالعقود يولـد رد الفعل المضاد ، ليس المساوي له ، بـل الأعنـف منـه ، فتنشـأ الأصولية عن حق، دفاعا عن الأصالة ، وتمسكا بالهوية . تغريـب في الظاهر وأصولية في الباطن ، انبهار بالغرب عنـد الصـفوة ، ورجوع إلي التراث عند الجماهير ، فباسم الحداثـة يـتم التمسـك بالقديم ، وبدعوى اللحاق بالمستقبل يتم تأصيل الرجوع إلي الماضي والتشريع له ، وباسم الانفتاح والتنوير يتم الانغـلاق والإطـلاع . وينشق الصف الوطني إلي فريقين : العلمانية والسلفية ، كل منهما يستبعد الآخر إن لم يكفره أو يخونه .(١١)

ثالثا : العولمة الثقافية :

هل في ظل العولمة تتعرض الشعوب وخاصة شعوب دول العالم الثالث لثقافات أجنبية وافدة تقوض الهوية الحضارية ، ويشعر القطاع الأكبر من المواطنين بالدونية والاغتراب ؟

من الصعب جدا أن نتنبأ بالإجابة وخاصة ونحن ما زلنا في ظل نظام لم يكتمل تشكيله بعد أو في طور التشكيل ، وفيه مراكز عدة وصراعات وتناقضات ، فعلي سبيل المثال بالرغم من مشاركة اليابان ودول شرق آسيا إلا أن هذه الدول الأخيرة تمتاز بخصوصيات ثقافية فكرية وإيديولوجية واقتصادية واجتماعية ، وهي في نفس الوقت لا تقبل الهيمنة الأمريكية . فالأمر يحتاج إلي التريث وان لم يكن الشك والحذر .

ونحاول أن نوضح – باختصار – الآراء السائدة حول العولمة الثقافية والنتائج التي يمكن أن تترتب عنها في المجال الثقافي وخاصة في مجتمعاتنا . ومن خلال هذه الآراء يمكن القول أن هناك فئة تري أن الثقافة في ظل العولمة يمكنها الحفاظ علي كيانها ومقوماتها الخاصة وتستشهد هذه الفئة بالثقافة العربية وثقافات دول جنوب شرقي آسيا . أما الفئة الثانية فتري ذبول الثقافات المحلية وانصهارها في ثقافة كونية .

١– العولمة والحفاظ علي الهوية الثقافية :

لا شك أن الثقافة بما تتضمنه من تصورات وقيم وسلوكيات أنانية هي القضية الأكثر التصاقا بالخاص الحميم للافراد والجماعات التي تدفعهم للصراع من أجل الاحتفاظ بها . فالثقافات

تسعي بصورة عفوية أو بتدخل إرادي من أهلها للحفاظ علي كيانها ومقوماتها الخاصة (١٢) .

وفي ظل العولمة أو الأخر ، فإن أي ثقافة تزدهر وتنشط بقبول الأخر ، والثقافة العربية وصلت إلي قمة ازدهارها في بعض عصورها لأنها قبلت ثقافات جميع الأمم في تلك العصور ، وتصاهرن معها تصاهرا فكريا وعلميا ، فكان ذلك النسيج المتميز الذي ترك صداه لعصور تالية وعلي أمم مختلفة حتي قبلتها تلك الأمم وأقبلت عليها بشغف ، مع ما كانت تحمله في مضامينها الفكرية والعلمية من مفاهيم وقيم التي ضمنها الدين الجديد في ذلك العصر والتي لم تصادفها تلك الأمم من قبل وحين قامت الدولة الحديثة واستقرت حدودها الجغرافية التي صارت كذلك حدودا سياسية لها ، ومحددا أساسيا لسوقها الاقتصادي .. كانت فكرة النظام العام والآداب المستمدة من القيم السائدة بين كل دولة هي الأساس الأخلاقي للكيانات الفطرية المختلفة ، نعم ظلت القومية رابطة جامعة لكثير من الدول التي تنتمي شعوبها لثقافة واحدة ولكن حدود النظام الأخلاقي ظلت – في الغالب – حدود الدولة ، أو حدود الدولة متداخلة مع حدود الآمة الواحدة التي تربطها رباط ثقافي قومي .

وفي العصر الحديث أقامت دول جنوب شرق آسيا نظما إنتاجية انطلاقا من ثقافتها الذاتية ، وهو ما أدي إلي أقامتها نظما مجتمعية تستقيم مع الجانبين وتحفظ لها هويتها ، وتأخذ شكلا خاصا بالنسبة لأساليب اتخاذ القرار علي المستويات الإنتاجية ، وهكذا أقامت حضارة مماثلة للحضارة الأوروبية ، ولكن بخصوصية ثقافية ذاتية .

ولأن المنظومة الثقافية تتطور نتيجة احتكاك الإنسان وبيئته فإن هذه الدول يمكن أن تتقارب ثقافيا علي المدى الطويل ، لكن تظل الحقيقة قائمة ، هي أن التعامل الواعي مع الثقافة الذاتية هو الذي يكسب حركة المجتمع قوة دفع تجعله فاعلا في تشكيل الحضارة وتطويرها (١٣) .

٢- العولمة وانصهار الهوية الثقافية :

والرأي الأخر أو الرأي المعارض ينظر إلي العولمة علي أنها المفتاح السحري للنظام الثقافي الجديد والتي تزال فيه أية قيود تمييز لصالح ثقافة معينة وضد ثقافة أخري ، وبمعني أخر انتقال الثقافات الوطنية والقومية إلي ثقافة عليا جديدة هي الثقافة العالمية أو الثقافة الكونية ....

فالعالم تسوده ثقافة واحدة تحمل مفاهيما وقيما واحدة من شأنها القضاء علي مشكلة التمايزات الثقافية والحضارية بين الأمم المختلفة ، وهذا لن يتحقق إلا من خلال ثورة الاتصالات والتي ينتج عنها أن تصبح سماء العالم مفتوحة لا يحدها أي عائق ولا تمنعها حدود ثقافية ، فهذه الثورة لا تعترف بحواجز اختلاف اللغة والثقافة والقيم التي تسود كل مجتمع إنما الأصل هو ثقافة واحدة تسود في عالم واحد .

ولعل تطبيق أو امتداد العولمة حتى تصل إلي الثقافة يعد من أهم الارتكازات التي يستند إليها الرأي المعارض لها . فالقول بسيادة ثقافة واحدة من خلال ثورة الاتصالات لن يعني شيئا سوي سيادة وهيمنة الثقافة والقيم الأمريكية علي العالم كله .

الإعلانية علي مستوي العالم كله . ولقد عبر نيكسون – الرئيس الأسبق للولايات المتحدة – عن ذلك بقوله " إنه يتعين علي الولايات المتحدة استغلال تلك الهيمنة الإعلامية في تكوين نموذج أمريكي يسود العالم كله " والخطر هنا شديد الوضوح ، فالدعاوى السابقة ستقضي علي ابرز ما يميز كل أمة عن غيرها وهو التمايزات أو الخصوصيات الثقافية لها .

ولعل ذلك يفسر لنا المعارضة الشديدة من جانب فرنسا لمبدأ حرية الفكر وانتقاله عبر الدول والذي طرحته الولايات المتحدة في إطار اتفاقيات تحرير التجارة العالمية .

كما أن القول بعولمة الثقافة يهدد بصورة أكبر دول العالم الإسلامي الذي تسوده ثقافة وقيم تختلف تماما عن تلك التي تسود في الولايات المتحدة التي تعكس في أغلبها قيم الانحلال الديني والأسري وتروج المصلحة الذاتية قبل كل شئ وأن الحرية الشخصية لا قيود عليها ، هذه القيم مستمدة أو متمشية تماما مع " الفلسفة البراجماتية " التي تحكم المجتمع الأمريكي .

ولعل ابرز الحجج التي تستند إليها الولايات المتحدة في الترويج لقيمها هو أن تلك القيم تعني التقدم تعني التقدم والرخاء ، وارتفاع مستوي المعيشة ، وهو ما دعا البعض إلي التمييز بين " التحديث Modernization " وبين " التغريب Westernization " الذي يعني تبني قيم النموذج الغربي Huntigton .

إن كل هذه التحديات تفرض علي دول العالم الإسلامي ضرورة الاستعداد بكل ما أوتيت من قوة في سبيل مواجهة تلك الهيمنة الغربية والأمريكية تحت مسميات العولمة (١٤) .

إن كل هذه التحديات تفرض علي دول العالم الإسلامي ضرورة الاستعداد بكل ما أوتيت من قوة في سبيل مواجهة تلك الهيمنة الغربية والأمريكية تحت مسميات العولمة (١٤) .

فالمعركة ، إذن بين الخصوصية والعولمة ليست معركة بنائية حسنة النية ، أكاديمية ، علمية بل تمس حياة الأوطان ومصائر الشعوب .

ولقد لعبت وسائل الإعلام دوراً كبيرا في تشويه الهوية الثقافية للمجتمعات الخاضعة للهيمنة الرأسمالية ، وعملت علي خلق بناء ثقافي مشوه يدور في فلك الثقافة العالمية ، أو العولمة الثقافية ، أو الأمركة الثقافية . وذلك ما سيتضح من خلال تحليلنا للقضية التالية .

وسائل الإعلام وصناعة الثقافة :

إن دول العالم تختلف من حيث الإمكانيات الاقتصادية والتكنولوجية والعلمية ودرجة التطور ، وهذا يتجسد في صورة حجم التدفق في المعلومات والاتصال ، وفي درجة استخدام تكنولوجيا الاتصال .

وخلال القرن الحالي تجسد احتكار الغرب لتصنيع معدات وأجهزة الاتصالات Hardware وكذلك سيطرته علي المعلومات software للمعلومات وسيطرته عليه عالميا . وكانت وكالات الأنباء المعروفة تحتكر وتسيطر علي نقل وتوزيع الأخبار في العالم . ومن خلال رؤى هذه الوكالات كان يتم تشكيل رؤى الناس وتفكيرهم في أفريقيا وفي دول العالم الثالث . واستطاعت هذه الوسائل أن تجعل تدفق الاتصال باتجاه واحد ، وكانت تركز علي القيم الإخبارية السلبية وخصوصا تلك تتعلق بدول العالم الثالث .

١- يقوم الغرب بتحديد أخبار العالم وتحريفها واستبعاد قيم العالم الثالث غير الغربية منه ، وهذا يعني بأنه يتم فرض قيم الغرب ويتم عرض صور التطور الثقافي لدول العالم الثالث من خلال عيون الغرب واختياراتهم.
٢- وهذا التحريف الثقافي يستبعد كثيرا من دول العالم التي ليس للغرب مصالح آنية فيها [١٥] .

وتقوم وسائل الإعلام الغربية بنقل معالجة محرفة وسلبية للعالم الثالث والتي تنتقل إلي دول العالم الثالث نفسها نظرا لاعتمادها بشكل رئيسي علي وكالات الأنباء الغربية . إن هذه الصور القائمة الآن لأشكال عدم التوازن في تدفق المعلومات ، وعدم الإنصاف في تناول دول العالم الثالث وتقود إلي أشكال من عدم الثقة في النفس وتؤدي دوليا إلي خلق مناخ غير ملائم في مجالات التفاهم الدولي ، وتقود بكل تأكيد إلي نوع من الهيمنة الثقافية للدول الغربية علي ثقافات الدول الأفريقية ودول العالم الثالث ، ومما يعرض ثقافاتها الوطنية للخطر .

إن أشكال التدفق الإعلامي الحر باتجاه واحد تقود في الغالب إلي الإحساس بالغبن وعدم الإنصاف ولأن الآلة الإعلامية الغربية تقوم بتسويق ثقافاتها وقيمها الاستهلاكية التي تؤثر تأثيرا كبيرا علي مشاريع التنمية في أفريقيا وفي دول العالم الثالث ويؤكد ذلك صدق مقولات " شيللر " عن الاستعمار الإعلامي فيقول : " إنه جهد منظم وواع تقوم به الولايات المتحدة من خلال تنظيماتها الاقتصادية والعسكرية والإعلامية من أجل الحفاظ علي تفوقها الاقتصادي والسياسي والعسكري " ويري أن وسائل الإعلام هي امتداد للإمبراطورية الأمريكية التي بدأت تنتشر عالميا بعد الحرب

العالمية الثانية حيث وجدت مجالا مفتوحا في الدول الحديثة الاستقلال في العالم الثالث . ويستشهد علي السيطرة الثقافية الأمريكية بالبرامج التليفزيونية التي غزت بها أمريكا معظم دول العالم ومنها بعض الدول الاشتراكية بحيث إنها جعلت الدول تأخذ موقف الدفاع عن هويتها الثقافية في مواجهة الغزو الثقافي الأمريكي .

ويشرح " شيللر " رؤيته في إطارها الجديد فيقول : " لقد انشغل صناع القرار السياسي والمفكرون الغربيون بالبحث عن بدائل تضمن استمرار السيطرة الغربية وعلي وجه التحديد الأمريكية علي الأوضاع الثقافية والاقتصادية الدولية فاستقر رأيهم علي التكنولوجيا كبديل . وتتضمن هذه التكنولوجيا شبكات الكمبيوتر ونظم الأقمار الصناعية . وتقوم هذه الشبكات ببث كميات هائلة من الأخبار والمعلومات عبر دوائر عابرة للحدود القومية وأكثر من ذلك فإنها سوف تصبح في مناي عن الرقابة المحلية ولذلك فإن هذا التوسع في الاستخدام العالمي للمعلومات من ناحية البث الالكتروني وشبكات بنوك المعلومات سوف يكون له آثار خطيرة علي الثقافات القومية في الأعوام القادمة " . وهنا يتضح لنا كيف أن التكنولوجيا بشكل عام وتكنولوجيا الاتصال بشكل خاص لا تلعب دورا حيويا في السيطرة الثقافية فحسب ، ولكنها تعتبر بالفعل جزءا من هذه السيطرة .

ويولي " شيللر " عناية خاصة بالشركات المتعددة الجنسية التي تتخذ من الولايات مقرها المركزي وتتميز بتعدد وتنوع استثماراتها وعالمية تمويلاتها وتعتمد علي الأقمار الصناعية وأحد الأجهزة الاليكترونية في تنفيذ سياستها الإعلامية عبر القارات

والدول . وترتبط فروعها في دول العالم الثالث بشـــبكة اتصـــالات شديدة التشابك والتعقيد وتصب فـــي النهايـــة فـــي دول المركـــز بالعواصم العالمية الكبرى . ومن أجل أن تتمكن دول العالم الثالـــث من اقتناء هذه الأجهزة الحديثة في مجال الاتصال عليها أن تضـــع نفسها في خدمة الشركات الخاصة أو المنظمـــات الحكوميـــة ذات الصلة الوثيقة بالشركات المتعددة الجنسية .

ولا ينسي " شيللر " أن يمنح جزءا هاما من جهده لدراســـة وتحليل الدور الذي تقوم به وكالات الإعلان الأمريكية وفروعها في العالم موضحا الأشكال العديدة للسيطرة الثقافية والإعلاميـــة التـــي تمارسها الولايات المتحدة من خلال الإعلانات والأنشطة الملحقـــة بها مثل بحوث السوق والمستهلكين ومسوح الـــرأي العـــام والتـــي تنتشر عبر القارات الثلاث (١٦) .

ويتميز " شيللر " عن سائر كتاب التبعية الثقافية والإعلامية باهتمامه بالسياحة باعتبارها احدي قنوات الاتصال الفعالة في مجال الغزو الثقافي ، فيقول : " دائما تكون نصيحة رجال المال والإدارة في دول المركز لزملائهم في الأطراف بضرورة تشجيع السياحة ، كمصدر مضمون للأرباح والعوائد غير المتوقعة " ، يشير إلـــي أن السياحة تقوم بعدة أدوار لخدمة الاقتصاد الرأسمالي العالمي ككـــل فهي تحقق أرباحا كبيرة للشركات الاحتكارية التي تتمركز في دول المركز كما أنها تعزز وضع الطبقات المتوســـطة فـــي الأطـــراف وتساعد علي خلق شرائح اجتماعية تستمد وجودهـــا مـــن الـــدور الطفيلي الذي يقوم به أفرادها ، كوسطاء وتجار خدمات يجيدون فن المتاجرة بكل شئ من الطقس إلي الإنســـان ، إذ يحولـــون الآثـــار

المتاجرة بكل شئ من الطقس إلي الإنسان ، إذ يحولون الآثار والعادات والتقاليد والفنون الشعبية والملابس والأطعمة إلي سلع قابلة للبيع والشراء .

ويدعوا " شيللر " إلي سياسة الاعتماد علي الذات بالنسبة للدول النامية وتشجيع التعاون الأفقي بين شعوب العالم الثالث ووضع سياسات وطنية للاتصال. وذلك للخروج من دائرة التبعية الثقافية .

وليس هناك من شك في أن " شيللر " كان بعيد النظر حينما حلل وسائل التبعية الإعلامية في السبعينيات ، وكأنه يرسم خطوات عولمة الإعلام في التسعينيات والتي تضخم تأثيرها وتعاظم في بداية القرن الحادي والعشرين .(١٧)

آثار العولمة :

إن الآثار والنتائج والعواقب التي تترتب علي عملية العولمة سواء علي المستوي الثقافي أو السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي آثار في غاية الأهمية والخطورة ومن الصعوبة بمكان في ظل هذا العمل قياس تأثيرات عملية العولمة، إلا أننا نحاول استخلاص بعض الرؤي ووجهات النظر التي قيلت في شأنها وأن الأمر في حاجة إلي مزيد من البحث والتنقيب .

ولقد تعددت الآراء حول الآثار المحتملة التي يمكن أن تترتب علي سيادة العولمة فالرأي الذي يؤيدها يحاول إبراز ما تحمله العولمة من خير عام للبشرية كلها ومن ثم ضرورة الإيمان بها لتحقيق أقصي استفادة ممكنة منها . وعلي النقيض من ذلك نجد الرأي المعارض يبرز سلبياتها وما تحمله من مشاكل وتحديات أمام

العالم الثالث خاصة العالم الإسلامي ومن ثم ضرورة الاستعداد لها بمختلف التدابير لمواجهتها .

وبادئ ذي بدء يمكن القول أن ظاهرة العولمة من حيث مظاهرها ودوافعها في المجال الاقتصادي ، لا تبدو محل خلاف كبير ، إلا أن الكثير من الجدل والخلاف يثور بشأن انعكاساتها علي حياة دول وشعوب العالم وعلي مستقبل البشرية عموما

ونحاول فيما يلي إبراز أوجه الاختلاف بين هذين التيارين في مجال المستويات المختلفة للعولمة (١٨) .

١- علي المستوي الاقتصادي :

يبشر أنصار العولمة بالتقدم والرخاء والازدهار الذي ينتظر الدول التي تؤمن بها وتنفذ الإجراءات والسياسات الاقتصادية التي تنفق معها ، وأولي خطوات العولمة من الناحية الاقتصادية هو الانفتاح علي الأسواق العالمية وإزالة كافة الحواجز التي تعوق حركة انتقال الموارد الاقتصادية من دولة إلي أخري ، كذلك تتطلب العولمة أيضا العمل بكل الوسائل علي جذب رؤوس الأموال الأجنبية وتسهيل انتقال رأس المال الوطني إلي الخارج ويروج المستفيدين من العولمة بأنها تخدم في النهاية مصالح الفقراء ، كما أنها ستتيح للدول النامية الفقيرة فرصا ملموسة للاستفادة من الاندماج في الاقتصاد العالمي ، وأهم جوانب هذه الاستفادة : توسيع أسواق التصدير نتيجة لزيادة الدخل في الدول المستوردة وفتح أسواق جديدة كانت مغلقة من قبل مثل الدول الاشتراكية السابقة ، زيادة فرص التصنيع أمام الدول الفقيرة نتيجة للنمو المتزايد في الدول حديثة التصنيع (النمور) ، هذا بالإضافة إلي التوسع في السياحة وخصوصا السياحة البيئية في الدول النامية التي مازالت

طبيعتها بكرا لم يدركها التوسع الصناعي السائد في الدول الأكثر تقدما ، لكن الرأي المعارض يري أن كل ما سبق مجرد أوهام تحاول بها الدول المتقدمة أن تخدع الدول النامية بتطبيق الأساليب التي من شأنها أن تحقق لها مزيدا من الثروة والهيمنة والسيطرة .

فإذا أخذنا في الاعتبار الاختلاف الشاسع بين هياكل الإنتاج داخل كل من الدول المتقدمة والدول النامية لأتضح لنا أن الدول النامية هي الأكثر تضررا من ذلك .

فأغلب الدول النامية تعتمد في اقتصادياتها علي تصدير ما لديها من مواد خام ، ونصف مصنعه مقابل استيراد السلع تامة الصنع من الدول المتقدمة ، وبالتالي فإن فتح الأسواق علي مصراعيها يعني انخفاض أسعار المواد الخام لأدني مستوي ممكن – نظرا لزيادة الكميات المعروضة من أطراف متعددة – مقابل ارتفاع أسعار السلع تامة الصنع لأعلي مستوياتها – نظرا لانخفاض الأطراف التي تعرضها – وهذا الوضع بالتأكيد يعني زيادة الدول المتقدمة غني والدول النامية فقرا كما أنه يقضي علي أية حالة من أية دولة نامية لتنمية الصناعة الوطنية بها نتيجة لضعف قدراتها التنافسية .

كذلك العمل علي حرية انتقال رأس المال لا يعني إلا مزيدا من ظلم الدول النامية ، فرأس المال بطبيعته " جبان " لا يعمل إلا في المجالات المستقرة ذات أعلي ربحية ممكنة والتي تتمثل في مجالات المال والأوراق المالية وكلها لا تساهم بأي حال في تحقيق تنمية حقيقية للدول النامية ، كما أن المحصلة النهائية ستكون انخفاضا في حجم رأس المال المتاح محليا حيث سيكون خروج رأس المال الوطني أكثر من حجم تدفق رأس المال الأجنبي إليها

وهو ما يعرف في الدراسات الاقتصادية بمصطلح "هروب رأس المال Flight Capital " .

ومن جانب أخر يمكن القول أن العولمة تحدث تغيرا في أنماط الاستهلاك فتجعل من السيارات الفخمة والمشروبات والوجبات السريعة .. الخ جزءا من الحياة اليومية مما يضاعف من حد الحرمان النسبي . بل أن هذه الأنماط الاستهلاكية يمكن أن تزيد من الفقر المطلق ، وذلك من خلال القضاء علي إنتاج بعض السلع التي يعيش عليها الفقراء ، نظرا لتحول الطلب إلي السلع المستوردة (١٩) .

٢- علي المستوي السياسي :

فإن أنصار العولمة يرون أن تطبيقها أو إيمان كل الدول بها سيعني حتما سيادة الديموقراطية واحترام حقوق الإنسان وحريته ، كذلك يساعد علي حل المشكلات التي تواجه العالم كله مثل انتشار أسلحة الدمار الشامل والتلوث البيئي وإحلال السلام العالمي . لكن الرأي المعارض يفند هذه الآراء والتوقعات مرتكزا إلي الواقع الحالي والذي يشهد لحد ما سيادة العولمة بدرجة أو باخري ، فعالم اليوم يضج من المشكلات والحروب والأزمات سواء علي المستوي الدولي أو علي المستوي المحلي لكل دولة .

كما أن قيام الولايات المتحدة بدور " شرطي العالم " الذي يحكمه وينظمه ويفرض القوانين قد نتج عنه إدراك كثير من دول لمصلحة الولايات المتحدة من الترويج لهذه الشعارات ، كيف أنها تستخدمها لإنهاك قوي العالم الإسلامي بصفة خاصة ، فتحت هذه الدعاوى تقوم الولايات المتحدة بتوجيه الضربات العسكرية القاصمة إلي العراق ، وتفرض الحظر الاقتصادي علي إيران وليبيا

والسودان وكأن العقوبات لم توضع إلا لتطبق علي دول العالم الإسلامي .

وما نخلص إليه من الدراسة الراهنة أن العولمة أو الكوكبة " لغة العصر القادم " هي نتاج التقدم العلمي ، هي بذلك ظاهرة موضوعية شاملة لا يمكن ردها وإبطالها برغبة ذاتية ، إنما المطلوب هو إجراء التكيف اللازم لعمل آلياتها " ومن أهم آلياتها عمليات الدمج والاستهلاك " بما يكفل دفع عملية التقدم الإنساني للأمام وتقليص الأخطار الناجمة عنها بالعمل الجاد الواعي المتكامل الشامل المبني علي الإرادة الذاتية والتعامل مع العالم من منطلق الثقة بالنفس والإيمان بقدراتنا وحضارتنا [٢٠] .

حوار حضارات أم صراع ثقافات :

منذ ظهور كتاب " صموئيل هنتنجتون " "صراع الحضارات " في التسعينيات من القرن الماضي ، وقضية صراع الحضارات أصبحت مطروحة بقوة علي الساحة الدولية ، خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر التي جعلت قضية الصراع الغربي ضد الإسلام بمقولة أخري أو طرح آخر تحت مسمي " حوار الحضارات " في محاولة لإقصاء شبح الصراع .

وعلينا الآن أن نتناول القضية بشئ من الموضوعية لبيان ما إذا كانت الأوضاع في حقيقتها صراع حضاري وثقافي أم أن هناك إمكانية واقعية للحوار بين الحضارات المختلفة في الوقت الراهن .

ولكي نبدأ تحليلنا القضية علينا أولا التعرض للفارق بين الحضارة والثقافة إضافة لما سبق :

ويكمن الفارق بين الحضارة والثقافة في أن الحضارة هي ثقافة تطورت تطورا ذاتيا مما دفعها ويدفعها إلي تجاوز حدودها المجتمعية المحلية الخاصة ، والي التوسع والامتداد ، فارضة نفسها علي مجتمعات وأقاليم وتشكيلات اقتصادية واجتماعية وثقافية أخري في مرحلة تاريخية معينة ، إنها نقلة متطورة من الخاص إلي العام مهما كانت حدود هذه النقلة ، أي أن الحضارة هي خصوصة ثقافية معممة سائدة خارج نشأتها الأولي ، فهكذا تحققت وتشكلت الحضارة المصرية القديمة والصينية ، الفارسية ، واليونانية والرومانية والعربية الإسلامية وغيرها من ثقافات معممة تطورت ذاتيا ، ثم توسعت خارج منبعها الأصلي ، وأخذت تسيطر علي مناطق ثقافية أو حضارية أخري ، وأضيف إلي هذا إضافة مهمة ، هي أنه عندما تنهار ثقافة من الثقافات أو حضارة (بمعني الثقافة المعممة) نتيجة لسيادة وسيطرة حضارة أخري أشد قوة وأكثر تطورا ، فإن خصوصيتها الثقافية تظل حية – بمستوي أو بأخر – داخل الثقافة أو الحضارة السائدة الجيدة ، ولهذا نجد داخل الحضارة الواحدة في أغلب التجارب التاريخية الحضارية ، أكثر من ثقافة ثانوية هي امتداد لثقافات أو حضارات سابقة . ولهذا – كذلك – نشهد داخل الحضارة الواحدة – بالمعني الذي ذكرت – اختلافا وصراعات وتفاعلات بين هذه الثقافات الثانوية والثقافة السائدة ، فضلا عن صراعات أخري بالطبع . ففي أوج ازدهار الحضارة العربية الإسلامية – علي سبيل المثال – في القرن الثاني والثالث والرابع الهجري ، احتوت الحضارة العربية الإسلامية في

امتدادها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، عديدا من الثقافات الاخري ، مثل : البيزنطية والفارسية والهندية والمصرية وغيرهـا ، ولعل الاختلافات الثقافية المذهبية داخل هذه الحضارة آنـذاك – كانت ترجع إلي هذا الاختلاف والتنوع الثقافي والمعرفـي والاجتماعي داخلها ، في إطار سيادتها الثقافية العامة ، بل لعل هذا الاختـلاف والتنوع يفسر لنا ظاهرة الشعوبية وغيرها من ظـواهر الخـلاف والاختلاف والصراعات الاخري داخل هذه الحضارة (٢١) .

إن هناك تفاعلا وتضاربا ، تفاصـلا وتواصـلا ، حـوارا وصراعا ، تراكما وتجاورا ، بين الثقافات المختلفة مع كل توسـع ثقافي أو حضاري جديد في مجري التاريخ الإسلامي العام . فـي ضوء هذا ، أي أن مصطلح العولمة في عصرنا الراهن ، هو تعبير عن ظاهرة تاريخية موضوعية تمثلت في البدايـة ، فـي ثقافـة – بالمعني الانثروبولوجي – تخلقت في رحم الأنساق الإقطاعية فـي أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي ، وتتسم بـنمط إنتـاجي جديد مختلف هو نمط الإنتاج الرأسمالي ، الذي أخذ يمتـد نتيجـة لطبيعته التوسعية التنافسية داخل أوروبا ثـم خارجهـا ، بمختلـف أساليب التدخل والسيطرة العسكرية والتجارية والثقافية الرمزيـة، حتي شمل اليوم كل أرجاء الأرض جميعا من أدناها إلي أقصاها ، وأصبح يمثل بتوسعيته وسيطرته الشاملة حضارة العصر الراهن ، وأن تفاوت مستواه من مجتمع إلي أخـر ، وبـين مـن أسـهموا ويسهمون في إنتاج وإعادة إنتاج وتطوير هـذا الـنمط الإنتـاجي الرأسمالي ، وبين من يسهمون في إعادة إنتاجه اسهاما هامشـيا . وبين من يغلب علي علاقاتهم بهذا النمط طابع التبعيـة الكاملـة . ولهذا لم تعد هذه العولمة أو هذه الثقافة التي أصبحت معممة عالميا

، لم تعد محض حضارة اوروبية او غربية – كما توصف عـادة – الا من حيث مصدر نشأتها الأولي ، وانما هي – رغم هذه النشـأة الاولي – حضارة رأسمالية عالمية ، تعد امتدادا متجاوزا لمختلـف الثقافات والحضارات الإنسانية السابقة عليها ، والتـي مـا تـزالا معالمها وآثارها باقية حية داخل نمطها الإنتاجي الرأسمالي الجديد ، هذا النمط الذي يتنوع بتنوع هذه الثقافات ، مـع اسـتمرار سـيادة طابعها النمطي الرأسمالي ، وخاصة المالي في وقتنا الراهن .

إننا – علي سبيل المثال – لا نستطيع اليوم أن نقول بوجود حضارة عربية إسلامية ، أو حتي حضارة عربية ، وإنمـا هنـاك ثقافة عربية إسلامية ، أو ثقافة عربيـة ، تهـيمن علـي بلـدانها وأوضاعها المختلفة ، هذه الحضارة الرأسمالية الراهنة، التي تأثرت في نشأتها الأولي بتراث الحضارة العربية الإسـلامية ، وبتنـوع مستوي الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لهذه البلـدان العربية .

ومفهوم نمط الإنتاج لا يقتصر – كما يتصـور الـبعض – علي طابعه الاقتصادي فحسب ، وإنما هو مركب سياسي اقتصادي ثقافي ، ولهذا فسيطرته العالمية ليست مجرد سـيطرة اقتصـادية ، مالية ، كما يقال نتيجة لبروز طابعه المالي في الشركات العملاقـة متعددة الجنسية ، كما أنها ليست مجرد سيطرة تكنولوجية لاسـتناده علي ما تحقق من ثورة علمية تكنولوجية ، وأسهمت في التوسع من عملية التوسع الرأسمالي ، فضلا عن تنمية قدراته الإنتاجية عامـة والعسكرية خاصة ، وليست كـذلك مجـرد سـيطرة إعلاميـة أو ايديولوجية نتيجة لسيطرة الدول الرأسمالية الكبرى علـي وسـائل الاتصال والمعلومات العالمية ، وتوظيفها لتقديم رؤيتهـا الثقافيـة

الخاصة التي تخدم مصالحها الاقتصادية والتوسعية . إن العولمة هي كل هذه الأشكال المختلفة من السيطرة الاقتصادية والتوسعية .
إن العولمة هي كل هذه الأشكال المختلفة من السيطرة الاقتصادية والمالية والسياسية والإعلامية والأيدلوجية التي أخذت تسعي الدول الكبرى الرأسمالية إلي تنميط العالم بها تنميطا سياسيا واقتصاديا وثقافيا وبخاصة بالنسبة للبلاد النامية ، مستخدمة لتحقيق ذلك أبشع وأشرس أشكال التدخل والعدوان والقمع ، وإهدار المشروعية الدولية ، وشل منظماتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل تسعي لتوظيفها لخدمة مصالحها التوسعية والاستغلالية . كما تسعي عن طريق شركاتها المتعدية الجنسية ومؤسساتها الاقتصادية ، وبخاصة البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ، إلي إدماج واستتباع اقتصاديات البلاد النامية في بنيتها الرأسمالية وتفكيك مؤسساتها وقطاعاتها الاقتصادية العامة ، وتصفية الدور الإنتاجي والخدمي لدولها ، اكتفاء بدورها الامني لحماية مصالحها ، وتفكيك الروابط القومية والإقليمية ، وخلخلة الهويات الثقافية ، وإشاعة الاتجاهات اللاعقلانية والاستهلاكية والفردية والنفعية وروح المتاجرة بكل شئ وتسليع القيم الثقافية ، وبناء اقتصادها علي المضاربات المالية ، وعرقلة المشروعات التنموية التصنيعية خاصة .

والعولمة – من ناحية أخري – ليست ظاهرة موضوعية مستوية ، وإنما تتفاوت دولها وبلدانها من حيث مستوي المشاركة في إنتاج هذا النمط الرأسمالي ، مما يدفع إلي خلافات وصراعات داخلية ، فيما بين بعضها البعض ، ولهذا فهي تتسم بهيمنة عدد من الدول الرأسمالية الكبرى علي العولمة نفسها ، وعلي رأس هذه الدول المهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية ، وما أكثر ما يتم الخلط

بين العولمة والهيمنة ، مما قد يغيب طبيعة الصراع المحتدم داخل العولمة نفسها . فالعولمة ظاهرة موضوعية – كمال ذكرنا – نتيجة للطابع التوسعي التنافسي لنمط الإنتاج الرأسمالي ، فضلا عن السيطرة علي المكتشفات العلمية والتكنولوجية في مجال الاتصالات والمعلومات وخاصة بعد انهيار التجربة السوفيتية وتفكك المنظومة الاشتراكية ، أما الهيمنة فهي نتيجة لما يتحقق داخل ظاهرة العولمة نفسها من تركز وتمركز واستقطاب بسبب التفاوت الإنتاجي والعسكري والعلمي والتكنولوجي بين البلاد الرأسمالية نفسها في إطار نمط الإنتاج الرأسمالي السائد نفسه(٢٢) .

الثقافة والحضارة

تدرس الانثروبولوجيا الثقافية العادات والمعتقدات وسائر التصورات التي تؤلف نسقاً فكرياً يؤثر في سلوك أفراد المجتمع .

إن كلمة " ثقافة " من الكلمات التي تدل على معان وتصورات كثيرة تعتمد على الغرض من استخدامها وعلى السياق الاجتماعي الذي تستخدم فيه . واللغة العربية ثرية في تعريفها ووصفها لكلمة " ثقافة " . ففي لسان العرب نجد أن الثقافة تعني الفهم والحذق وسرعة التعلم . فثقف الشيء أي حذقه وفهمه وأحاط به . ورجل ثقف لقف إذا كان ضابطاً لما يحويه قائماً به . وثقف الشئ أي هذبه وجعله مستوياً كما هو الحال عند أخذ فرع من الشجرة بغرض تثقيفه أي تسويته . ومن المعاني المتداولة والشائعة للثقافة والتي يستخدمها الأفراد في حياتهم اليومية نجد على سبيل المثال أولاً التعليم ، ثانياً الإلمام بالمعارف العامة ، وثالثاً آداب السلوك .

يرتبط مفهوم الثقافة بمعناها الشائع في ذهن كثير من الأفراد بالدرجة أو الشهادة العلمية التي يحصل عليها شخص معين . فمـــن يحصل على شهادة جامعية يفترض أنه يتمتع بثقافة أعلى من الذي حصل على تعليم متوسط بينما يكون في نفس الوقت أقل أو أدنـــي ثقافة من الذي حصل على دراســـات عليـــا مثـــل الماجســـتير أو الدكتوراه .[٢٣]

ويميز بعض الأفراد بين الشخص المثقف وبين المتعلم على أساس الإلمام بالمعارف العامة وسعة الأفق . فليس من الضروري أن يكون المثقف بمعني الحصول على أجازة أو شهادة علمية مـــن جامعة أو مدرسة . وتوجد أمثلة كثيرة علـــى أشـــخاص يتمتعـــون بثقافة عريضة وعلى درجة كبيرة من الإلمام بالمعارف المتنوعـــة لكنهم لم يحصلوا على درجات علمية جامعية . وأيضاً يوجد المتعلم المثقف الذي لم يقتصر على ما حصله من تعليم بـــل اســـتمر فـــي عملية التثقيف مستخدماً الوسائل السمعية والبصرية المتنوعة مـــن تحقيق ذلك . هذا علي خلاف الشخص الذي اقتصر علـــى القـــدر الذي حققه من التعليم سواء كان تعليماً جامعياً أو دون ذلك .

ومن المعاني الشـــائعة أيضـــاً لمفهـــوم الثقافـــة والمـــرتبط بالمعارف العامة القدرة على التحدث بلغة أجنبية أي غيـــر اللغـــة الأصلية التي يتحدث بها الشخص . حيـــث نجـــد أن شخصـــاً مـــا يوصف بأن ثقافته إنجليزية أو فرنسية أو أسبانية نظراً للغة حتـــى يتقن التحدث بها .

وأخيراً نجد الثقافة في معناها الشائع تستخدم لتشير إلى آداب السلوك وحسن التعامل مع الناس وكياسة التصرف فـــي المواقـــف الحرجة أو التي تتطلب مرونة عالية في معالجة الأمور . فالسلوك

الفظ غير المتحضر لا يكون متوقعاً من الشخص المتعلم أو المثقف ، وبالتالي يرتبط في عقول الناس أن الشخص المهذب هـو شـخص مثقف . وللقارئ أن يتصور أو يسترجع ما يقوله الناس عن شخص المفروض أنه متعلم أو مثقف لكنه يتصرف بحماقة أو عدم كياسة في موقف اجتماعي معـين . ويجـب أن نلاحـظ هنـا أن تلـك الاستخدامات السابقة لمعني الثقافة إنما هـي اسـتخدامات تـرتبط بالمعني الفردي أو الشخصي للثقافة . بمعني أن الثقافة تنسب إلـى شخص معين كأن نسمع الأقوال التالية أنه شخص ذو ثقافة رفيعة ، أو شخص ثقافته ضحلة أو سطحية أو أنه شخص متعلم في مقابـل الشخص الأمي أو الجاهل أو أنه شخص يتحلي بالسـلوك القـويم ونحو ذلك . وهذا الاستخدام بالطبع لا يطبق في مجال الدراسـات الأنثروبولوجية .(٢٤)

*** مفهوم الغزو الثقافي وتطوره :**

هناك من الكتاب مـن يعرفـه بأنـه الأسـلوب الجديـد " للإمبريالية " العالمية التي تحاول من خلاله ضمان استمرار هيمنتها على البلدان النامية ، من خلال ما أطلق عليـه بعـض المنظـرين الأمريكيين (البعد الرابع) ويعنون به أحكام النفوذ من خلال الثقافة باعتباره بعداً جديداً ، يضـاف إلـى أبعـاد السـيطرة السـابقة : الاقتصادية، والسياسية ، والعسكرية ومن خلال التغلغل الثقـافي ، يتم نشر مفاهيم ثقافية وفكريـة معينـة ، تخـدم وجـود الدولـة " الإمبريالية " حيث يتم مسخ الثقافة الوطنية ، وتشويهها ، والإقنـاع بأنها ثقافة متخلفة لا تواكب العصر ومتطلباته الحضارية ، فيصبح كل ما هو أجنبي له السيطرة والتفوق ، وهو المثال والنمط الـذي يجب أن يقلد في ميادين الحياة كافة ، الآداب ، والفن ، والموسيقي

، وتقاليد الحياة اليومية من المسكن والمأكل والرقص ولغة التخاطب .

أن الغزو الثقافي من أحدث الأساليب " الإمبريالية " لضمان فرض الهيمنة والتبعية ، لأن غزو العقول أخطر من غزو الأرض ، لأنه غزو غير منظور وغير مباشر ، مما يعني أن مكافحته أصعب وأقسى ، ويلاحظ أن الغزو الثقافي أو " غزو العقول " ملازم للقوة السياسية والعسكرية والاقتصادية ، مما جعل الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الأقوى في استعمال هذا الأسلوب ، وهذا ما يفسر العدد الهائل للوكالات والإدارات والأجهزة الأمريكية العاملة في خدمة هذا الميدان ، وصولاً إلى هيمنة النمط الأمريكي في السلوك والتفكير على أوسع بقعة في العالم ، بما فيها أوربا ذاتها .

من الكتاب من يفرق بين مفهوم الغزو الثقافي والاحتكاك المطلوب بين الحضارات، فيفرق بين جانبين : جانب الثقافة الإنسانية الرفيعة التي تحمل بطبيعتها قيماً إيجابية ففي ميادين الأدب والفن والفكر لا يصح أن تثار فكرة مثل الغزو الثقافي ، لأن الأمر هنا هو تبادل خلاق ، ولا يتصور قيام ثقافة بإنغلاقها على ذاتها ، وطردها لعوامل التأثير ، أي التفاعل النشيط في جو من احترام الحرية وتقدير المسئولية في وقت واحد .

والدارسون لتاريخنا المصري الحديث يعلمون أن عملية إحلال الثقافة الأوروبية محل ثقافتنا الأصلية لم تجر ضمن حدود التنافس الحر بين الثقافتين ، وأن تدخلاً مؤثراً واسعاً قد حدث لصالح الثقافة الأجنبية ، على أيدي الفرنسيين الفاتحين في نهاية القرن الثامن عشر ، فلقد أدخل بونابرت من (البدع) الكثير ،

الأمر الذي كان سبباً في ثورات المصريين عليه ، كما يقرر (كريستوفر هيرولد) وكما قرر (الجبرتي) و (نقولاً الترك) من قبل . ويذكر هؤلاء المؤرخون أن بونابرت حاول (ربط الشعب المصري بالعادات والنظم الفرنسية) وأن الجنود الفرنسيين استهتروا استهتاراً بالآداب وأن النساء خرجن (خروجاً شنيعاً مع الفرنساوية) ، وبقيت مدينة مصر (أي صارت القاهرة) مثل باريس في شرب الخمر والمسكرات ، والاشياء التي لا ترضي رب السموات ، وأنشأ الفرنسيون بعض الخمارات في المساجد وكان المصريون يتمنون الموت كل ساعة من شدة الحنق والغيظ .

وربما قال القائل إن هذا كله لا يعدوا أن يكون مسلكا عاديا من جند فاتح غشوم ، وليس فيه احلال ثقافي ، ولا زلزلة للقيم الأصيلة ، ولا ترويجا للعادات والاخلاق الفرنسية المناقضة ، ونقول له حسبك فلا يزال هناك الكثير ، المصريون المعاصرون للاحداث أدركوا أنها عملية (فرنسة) لمصر ، والمؤرخون يشهدون بصدق إدراكهم ، ونحن لا يسعنا الا ان نقرر أنها كانت عملية إحلال ثقافي اصطناعي مخطط وليس مجرد تنافس حر (طبيعي) بين ثقافتين (٢٥) .

ومن الكتاب من يصحح المفهوم – فيما يري – فيقول بأنه لا يوجد غزو ثقافي لأن المعرفة شئ متوارث لا يختص به شعب دون شعب وإلا توقفت حركة الاستمرار الحضاري ، وأن هناك حوالي عشرين حضارة سبقت الحضارة المعاصرة ، وظهرت في أماكن متعددة من العالم ، وكل حضارة ترث ما سبقتها وتضيف اليه، ويقول : ولكن أحب أن أصحح الكلمة ، الغزو الذي نتعرض له غزو اعلامي لا ثقافي ،وقهر قواة المعنوية ، وقد استعمل هذا

زمنا طويلا ، ولعل ابرزه ما عرفناه باسم " الطابور الخامس " في الحرب العالمية الثانية .

ومنهم من يقطع بأننا واقعون تحت استعمار ثقافي ، وأنه عندما بدأت اوربا تستيقظ من الغزو العربي ، وبعد أن علمتهم الحروب الصليبية استخدام الاستعمار الثقافي مع الاستعمار السياسي فأرسلت بعثات المستشرقين التي ظاهرها الاهتمام الزائد بالعرب ، لكن معظمها كان يعمل علي تغيير الفكر العربي لاستعماره ثقافيا ، تمهيدا للاستعمار السياسي ، ويقول : لقد تخلصنا من الاستعمار السياسي ونحاول الان التخلص من الاستعمار الاقتصادي ، ولكن ما زلنا واقعين تحت الاستعمار الثقافي ؛ فلا توجد تراثية مطلقة ، ولا تغرب مطلق ، قد يتغلب جانب علي الجانب الاخر لكن الاثنين موجودان .

إن مفهوم الغزو الثقافي كان يستخدم في مطلع العقد التاسع من القرن العشرين الميلادي – في اللغة العربية أكثر من غيره للاشارة إلي حركة انتقال الافكار والعقائد ، والقيم والعادات الغربية بشكل مكثف وغير مسيطر عليه إلي المجتمعات العربية ، ثم يمضي الدكتور " برهان " في تعريف مصطلح التبعية اعتمادا بنيويا في انتاج القيم والمعاني والافكار والمعارف التي تحتاج اليها مجتمعاتها علي ثقافات اخري تمارس تجاهها سيطرة ما ، سواء كان ذلك بسبب تفوق هذه الثقافات الموضوعي في مقدرتها علي مثل هذا الانتاج أو بسبب انعدام الثقة بالنفس لدي الثقافات الضعيفة ، وقد أطلق المفهوم بشكل أساسي علي العلاقة بين الثقافات التقليدية والثقافات الغربية الحديثة ، ولكن التبعية ترتبط بالظواهر التي تفرزها علاقات التبعية هذه من انعدام الاتساق داخل الانساق الثقافية التابعة ، والميل نحو التحلل والتفكك الثقافي ، فالتبعية

تفرغ الثقافة المحلية من قيمتها الذاتية ، وتجعل أنظمتها ولوائحها وأفكارها ورموزها جميعا مفتقرة للصدق في نظر أصحابها ، ومن هنا فإنها تدفع بالضرورة إلي نشوء ظواهر الاغتراب ، واهتزاز الشخصية ، وأزمة الهوية ، وليس التأكيد المتزايد علي الهوية الثقافية لدي الشعوب النامية في الربع الاخير من القرن العشرين الا رد الفعل المباشر علي هذه الازمة ومشاعر القلق والخوف علي الذات الثقافية .

ولمزيد من وضوح الصورة الذهنية عن مفهوم الغزو الثقافي لابد من اجلاء معني الاتصال الثقافي ، لأن الخيط الفاصل بينهما هو الخيط الذي يحدد هوية كل منهما ، وبقدر الاحكام في تحديد هذا الخيط وتميزه يكون الصواب في التعريف وفي التطبيق بين المفهومين المتناقضين : الغزو الثقافي – الاتصال الثقافي .

مفهوم الاتصال الثقافي :

يقصد بالاتصال الثقافي او الاتصال الحضاري – وهما تعبيرات يعبران عن حقيقة واحدة – اتصال ثقافة او حضارة بثقافة اخري ، أو بيئة ثقافية اخري أو بحضارة اخري او ببيئة حضارية اخري بغض النظر عن مستوي الثقافة او درجة التطور الحضاري في المتصل (بكسر الصاد) أو المتصل (بفتح الصاد) وكلا التعبرين في الحقل الاعلامي يقصد به الدائرة الاوسع في الاتصال بين البشر إلتي تبدأ بالاتصال الذاتي وهو اتصال الانسان بنفسه ، ثم الاتصال الشخصي وهو اتصال الانسان بأصدقاؤه وأهله وزملائه ، ثم الاتصال الجماهيري مثل الاتصال الجماهيري مثل الاتصال بجماهير غفيرة عن طريق التليفزيون والراديو والصحيفة

، ثم الاتصال الثقافي أو الحضاري الذي يمثل أوسع دوائر الاتصال .

ويشترك المفهومان المتناقضين : الغزو الثقافي – الاتصال الثقافي في استخدام وسائل الاعلام ، ولكن ذلك لا يعوق الفصل بينهما ، بل إن لكل منهما وسائل يختص بها غير الوسائل المشتركة ، والتداخل بين النقيضين يبدو ظاهريا فحسب ، لأن الفروق هي الخيط الذي يبين لنا بيانا جليا هوية كل منهما (٢٦) .

ويمكننا أن نجمل هذه الفروق الرئيسية في ثلاث فروق هي :

١- الاكراه والخضوع في الغزو الثقافي ، وفي المقابل التلقائية والايجابية في الاتصال الثقافي ، مبدأ الحرية إذن هو المبدأ الاول الذي يفرق بين الغزو الثقافي وبين الاتصال الثقافي .

٢- خلق الاستعداد للانفصال عن الجذور الثقافية والحضارية الوطنية بل والتنكر لها واحتقارها في الغزو الثقافي ، وفي المقابل خلق روح الانتقاء والمفاضلة في الاتصال الثقافي ،مبدأ عدم التنكر للتراث الحضاري والثقافي والانتقاء في الوقت نفسه يمثل (بشقي عدم التنكر من جانب والإنتقاء من جانب اخر) المبدأ الثاني الذي به نفرق بين الغزو الثقافي وبين الاتصال الثقافي .

٣- صياغة العقول في الغزو الثقافي ، وفي المقابل بالإضافة واستكمال البناء العقلي في الاتصال الثقافي ، هذا هو المبدأ الثالث الذي نفرق به بين المفهومين المتناقضين مفهوم الاتصال الثقافي – مفهوم الغزو الثقافي .

ولمزيد من وضوح الصورة الذهنية عن مفهوم الغزو الثقافي بعد أن أمسكنا بخيط يفصل بينه وبين نقيضه ينبغي أن نقلب النظر في المحاولات السابقة لصياغة تعريف محدد غير التعريفات التي

ولمزيد من وضوح الصورة الذهنية عن مفهوم الغزو الثقافي بعد أن أمسكنا بخيط يفصل بينه وبين نقيضه ينبغي أن نقلب النظر في المحاولات السابقة لصياغة تعريف محدد غير التعريفات التي وردت في سياق أقوال المفكرين ، ولأن أسماء الغزو الثقافي متعددة وربما هي أسماء أشكاله المختلفة وأن مصطلح الحرب النفسية هو أكثر الأسماء حظاً في محاولات التعريف ومرد ذلك – أن الحرب النفسية جزء من حرب للإنسان التي واكبت رحلة البشرية علي ظهر الأرض .

ولقد حظي مفهوم الحرب النفسية بسيل من المسميات منها ما يشترك فيه مع مفهوم الغزو الثقافي ، فمن المسميات التي أطلقت علي الحرب النفسية : غسيل الأدمغة ، حرب الأعصاب ، الطابور الخامس ، الحرب السياسية ، النضال من أجل الحصول علي عقول الرجال وإرادتهم ، حرب الأفكار ، الحرب الباردة ، حرب الكلمات (٢٧) .

معوقات التغير الثقافي ومشكلاته :

لا شك أن طبيعة التغير الثقافي تتسم بأنها يمكن أن تتم بشكل متناغم أو بشكل مختل ، ويتميز التغير الثقافي المختل بوجود فروق كبيرة واضحة في السرعة التي يتم بها ، والمدى الزمني الذي يحدث في محاولات التنمية علي الصعيد التكنولوجي الفني ، والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، كما قد يميز التغير الثقافي المختل عمليات الاندفاع إلي الأمام والتقهقر ، والنمو والجمود والدينامية والاستاتيكية ، كما أن هذا التغير الثقافي المختل يؤدي إلي تناقضات وصراعات حادة في المجتمع ، وتلك الظاهرة هي التي يطلق عليه وليام اوجبرن اسم الهوة الثقافية Cultural lag .

وبهذا فإن معوقات التغير الثقافي هي عقبات تحد من طاقة النسق الثقافي وديناميته . وهي مشكلات يمكن أن تؤدي إلي تباطؤ أجزاء ثقافية في مقابل سرعة أجزاء أخري ، قد تؤدي إلي تغيير ميكانيزمات التفاعل الاجتماعي في اتجاه التنمية (٢٨)

ويمكن أن نحصر في هذا الصدد أهم معوقات النسق الثقافي علي النحو التالي :

(١) العزلة الاجتماعية :

وتمثل حالة العزلة الاجتماعية عندما يتمسك الفرد بالسنن القديمة وتقاليد المجتمع التي تؤدي إلي جمود نسبي في مظاهر الحياة الاجتماعية . وحينما يحدث أي تغير ثقافي في المجتمع تحدث هنا حالة من الصراع الثقافي الناجم عن مقاومة التغير والارتباط بالعالم الخارجي والتمسك بالمعايير والسنن الأخلاقية القديمة ، وتتميز المجتمعات المحافظة كالمجتمع الريفي والبدوي بأنها أكثر التفافا حول الذات من المجتمعات الحضرية ، حيث يظهر التضامن العائلي إلي أقصي حدود التضامن ، فتحول الأسرة دون امتزاج أفرادها في جماعات . فتمحو الشخصية المستقلة والآراء الذاتية ، ولذا يشعر الفرد بالعزلة الاجتماعية عن أي اتصال خاص إلا في الحدود التي ترسمها له أسرته وتقاليده وبيئته ولذا يظل محروما من كل تجديد لبعده عن مؤثرات التطور .

(٢) انعدام التكامل الثقافي

باعتبار الثقافة كما يقول مالينوفسكي وحدة كلية وظيفية تتصل فيها الأجزاء والعناصر اتصالا وثيقا مباشرا ، فإن كل ثقافة تخضع لعمليات التغير والتغير عادة ما يكون بطيئا في المجتمعات

الثابتة نسبيا أو المنعزلة عن المجتمعات الاخري ، وقد يكون التغير في المجتمعات الدينامية سريعا جدا في ميادين كثيرة مثل التكنولوجيا والعادات والاتجاهات .

لكن في حالة ما إذا حدث أن عمل عنصر ثقافي منفردا ومستقلا عن باقي العناصر الثقافية الاخري التي تؤلف الثقافة جميعا فإن الأثر الأكبر هو اتجاه مظاهر الارتباط والتكامل إلي الانفصال والتفكك وعدم التكامل الثقافي .

(٣) سوء التكيف الثقافي Maladptation

باعتبار أن الثقافة كما تقول "روث بندكت" تشبه الفرد من حيث أنها نمط متسق بدرجة تقل أو تكبر للفكر والسلوك ، فكل ثقافة تشهد مجموعة متميزة من الأهداف والغايات التي قد لا يشترك منها بالضرورة مع مجتمعات أخري ، ومن ثم فان كل شعب عليه أن ينظم خبراته ، وأن يتجه اللاتجانس بين أنماط السلوك إلي ان يأخذ شكلا أكثر تكاملا في ضوء متطلبات الأغراض المتميزة للثقافة . فإن الثقافة تخضع باستمرار للتغير الثقافي . ولذا فإن أي تغير في عناصر الثقافة لابد أن يتبعه تكيف من جانب الأفراد الذين يحملون عناصر الثقافة . لأن ظاهرة التكيف هي عملية قبول أفراد المجتمع للمواقف الجديدة التي تسود الآراء والاتجاهات المستحدثة في جوانب الحياة الاجتماعية وسعي الإنسان إلي التكيف مع البيئة والمحيط الذي يعيش فيه .

وعلي هذا فحينما لا يتقبل أفراد المجتمع التجديدات التي تحدث في المجتمع وفي عناصر الثقافة فإنه يحدث ما يسمي بسوء التكيف وبالتالي عدم تقبل أنماط الثقافة الجديدة .

ولعل أهم مشكلات التغير الثقافي اليوم تستلزم العمليات الثقافية ، وتتضمن تلك العمليات مشكلة الشخص المجدد ، وتبني بعض الباحثين الرأي القائل بأن التغير لا يمكن ان يدرس دراسة مفيدة إلا في ضوء اتجاهات الأفراد وسلوكهم ، وبالرغم من تأكيد بعض الدراسات بأن أكثر الأفراد ايجابية هم أولئك الذين يشغلون مواقع رفيعة في المجتمع ، إلا أن بارنت Barnett قال بأن وجود الأفراد المجددين والأشخاص الذين يتقبلون التجديد هم أكثر احتمالا لان يكونوا منشقين عن المجتمع أو ساخطين عليه . وتبني آخرون وجهة النظر القائلة بان هناك عمليات دينامية في الثقافة والمجتمع تنطوي علي التغير وانه من الممكن عزل تلك العمليات ودراستها (٢٩) .

وسائل الاتصال والصراع الثقافي :

تثير وسائل الاتصال الحديثة وفي قلبها شبكة الانترنت مشكلات متعددة معرفية وعملية . ولعل أهم هذه المشكلات هو تضارب الآراء حول الآثار الايجابية السلبية لهذه الوسائل الجديدة .

ويذهب عديد من أنصار الثورة الاتصالية – أن العالم أصبح أكثر شفافية بفضل شبكة الانترنت ، وما تتيحه من إمكانيات الحوار المفتوحة بين البشر من كل أنحاء العالم ، أم أن الوضع علي العكس من ذلك ، حيث لم تؤد العولمة الاتصالية إلي الشفافية المطلوبة ، بحكم الحواجز والقيود المختلفة التي تمنع فئات عريضة من البشر لا تستطيع النفاذ إلي شبكة الانترنت ، ولا الاستفادة من جميع المواقع علي الشبكة ، لان عددا كبيرا منها أصبح مثلا النوادي المغلقة ، لا يسمح للغرباء بدخولها إلا إذا دفعوا الثمن .

وإذا أضفنا إلي ذلك المرحلة التاريخية الراهنة تتسم بصراع ثقافي واسع المدى بين أطراف متعددة ومختلفة ، يحاول كل طرف أن ينتج خطابا يهيمن فيه علي الآخرين ، سياسيا واقتصاديا أو ثقافيا ، لأدركنا صعوبة الإبحار في محيط شبكة الانترنت بغير منهج تحليلي مرهف ، ورؤية نقدية بصيرة .

والمتتبع لهذا الصراع الثقافي سيدرك أنه يدور في مجالات قديمة وان كان بأساليب مستحدثة ، أبرزها الصراع الايديولوجي ، حيث تحاول الرأسمالية المعاصرة باسم العولمة أن تجعل خطابها بكل ما يتضمنه من حقائق وأساطير أن يكون هو الخطاب السائد ، نافيا بذلك كل الخطابات المنافسة . فالليبرالية هي المذهب السياسي المعتمد ، وحرية التجارة ورفع كل القيود أمامها هي المبدأ المقدس ، والتنافس العالمي في ظل وهم الندية الكاملة بين جميع الدول ، لا فرق بين المتقدمة منها والنامية ، هي الفلسفة الجديدة .

غير ان هناك مجالات جديدة يدور فها الصراع الثقافي باسم الخصوصية الثقافية التي تحاول الوقوف ضد موجات العولمة المتدفقة . وبعض هذه المحاولات ينطلق من مبادئ مشروعة تريد تأكيد حق الهويات الثقافية المختلفة أن تعيش وتحيا وتزدهر في عصر العولمة ، بدلا من الدعوات البدائية لتنميط وتوحيد أساليب حياة البشر وفق قيم الحضارة الغربية . غير أن هناك في هذا المجال محاولات تنطلق من رؤية مغلقة للتاريخ ، لا تؤمن بالتقدم الإنساني ، وتريد إقامة أسس المجتمع المعاصر في ضوء الارتداد إلي مرجعيات الماضي ، من خلال اتجاه انعزالي يظن انه يستطيع ان يحمي الثقافية والمجتمع من مفاسد العولمة المعاصرة . ومن هنا يختلط في حلبات الصراع الثقافي الكوني علي شبكة الانترنت ذاتها

دعوات الأحياء الثقافي الأصيلة ، مع نزعات الرجعية السياسية والمحافظة الثقافية (٣٠) .

غير انه يمكن القول أن الصراع الثقافي الدائر علي شبكات الانترنت ليس سوي أحد مظاهر الثورة الاتصالية الحديثة ، غير أن لهذه الثورة آثارا اجتماعية ونفسية وثقافية ومعرفية بالغة الأهمية ، ولعل ابرز هذه الآثار ما يتعلق بالممارسات التي تتم فيما يطلق عليه الواقع الافتراضي أو الظاهري . فقد أصبح اليوم ممكنا – بفضل شبكة الانترنت – أن ينعقد مؤتمر يضم ثلاثمائة أكاديمي لمناقشة أحد الموضوعات السياسية أو الاقتصادية كحركة " الطريق الثالث " علي سبيل المثال دون أن يجتمعوا بالفعل !

وذلك عن طريق دعوة علي شبكة الانترنت من جامعة معينة ولتكن في انجلترا أو فرنسا للعلماء الراغبين في تسجيل أسمائهم في المؤتمر ، أن يرسلوا – عن طريق البريد الالكتروني – بأبحاثهم في الموضوع المحدد حسب اختيارهم . وهذه الأبحاث ستنشر علي الشبكة ، وسيتم النقاش والحوار حولها ، إلي أن يصل المؤتمر إلي نهايته بنشر تقرير كامل عن اتجاهات المناقشة . وهؤلاء العلماء يمكن أن ينتموا إلي أي دولة في العالم ، ومن هنا قد نجد في مثل هذا المؤتمر الافتراضي إسهامات من الصين والهند واليابان بالإضافة إلي الإسهامات الأوروبية والأمريكية .

نحن نعيش إذن في عالم جديد يقف فيه الواقع الافتراضي جنبا إلي جنب جوار الواقع الحقيقي ، لدرجة أنه يمكن القول إن هذا الواقع ليس هو الواقع غير المادي أو غير الملموس ، ولكنه واقع جديد لا يقل أهمية عن الواقع الحقيقي .

وإذا أضفنا إلي ذلك أن قوة العمل – وفق بعض التقديرات – في دول الشمال التي ستعمل من خلال وسائل الاتصال الحديثة بمعني عدم ضرورة توجههم كل يوم إلي مكان العمل ، لن تقل عن نسبة ٢٠% لأدركنا أي تغيير عميق سيصيب العمل الإنساني ، ونوعية الحياة الاجتماعية ذاتها.

وإذا ولينا وجهنا ناحية التعليم ، لوجدنا أن التعليم عن بعد ، سيصبح هو ، بفضل وسائل الاتصال الحديثة ، وسيلة التعليم المثلي التي يمكن أن تتلافى سلبيات وسائل التعليم التقليدية . ومن ناحية أخري ، فإن لوسائل الاتصال الحديثة آثار بالغة العمق فيما يتعلق بالجوانب المعرفية للإنسان . فعمليات مثل التدريب والتذكر والنشاط البحثي ، لن تتعامل بعد الآن مع معرفة متجمدة ، ولكنها ستتعامل مع معرفة متغيرة ومتجددة في كل لحظة ، مما سيجعل هذه العمليات بذاتها تسهم في خلق المعرفة الجديدة ، وهذه المعرفة الجديدة سيتم استخلاصها من ركام ضخم من المعلومات المتناثرة والمفتتة . وهذا الواقع يدعوا إلي القيام بثورة تعليمية ، تؤدي إلي تشكيل العقلية التحليلية والنقدية ، القادرة علي الربط الذكي والفعال بين هذه المعلومات والمتناثرة ، وصياغتها في شكل خطاب معرفي متسق .

ومن هنا ، فوجهة النظر الساذجة التي تظن أن شبكة الانترنت تحتوي مضامين المعلومات ، بحيث يستطيع أن يعرف منها أي إنسان ما شاء ، تقعد عن فهم أهمية الانتقال من المعلومات إلي المعرفة ، ومن أهمية الالتفات إلي أننا نعبر الآن من مجتمع المعلومات العالمي ، إلي مجتمع المعرفة العالمي من خلال جسور التحليل والنقد والتركيب ، ومن هنا أصبح الاتجاه الآن إلي تشكيل

مجتمعات المعرفة ، التي تقوم علي اقتصاديات المعرفة ، والتي لا تقنع بالمعلومات وإنما ترتقي بها من خلال أدوات شتي إلي مستوي المعرفة الراقية والفعالة والمنتجة (٣١)

*** ثراء المعلومات والفقر الإتصالي :**

وإذا كنا قد عرضنا الجوانب المشرقة من الثورة الاتصالية الكبرى ، إلا أن هذا قد يحمل علي الظن بأننا بصدد يوتوبيا أو مدينة فاضلة تكنولوجية يتاح فيها لكل أنماط البشر بغير تفرقة علي أساس الجنس أو اللون أو الدين أن يتفاعلوا معا وينعموا بثمار المعلومات المتنوعة ، والمعارف الإنسانية التي لا حدود لها .

غير أن بعض الباحثين البارزين ومن أهمهم "جيروم" عالم الاجتماع الفرنسي يذكرنا بالجانب المظلم من الصورة . ويقرر أن هناك في العالم المعاصر ٦٠٠,٠٠٠ مدينة وقرية تفتقر إلي الكهرباء تضم نحو بليوني إنسان . ومن هنا السؤال : ماذا تعني الوسائل الاتصالية الحديثة بالنسبة لهم ؟

وهناك أيضا ٨٠% من سكان العالم ليست لديهم الوسائل الأساسية للاتصالات السلكية واللاسلكية .

ويقرر"بانديه" أنه لو نظرنا إلي الميديا التقليدية ، وركزنا علي توزيع الكتب لاكتشفنا أن هناك جوعا عالميا في مجال توفير الكتب للناس ، في كثير من البلاد النامية . وقد أجري اليونسكو مسحا عالميا في ٩٣ بلدا تبين منه أن نحو ٦٠% من التلاميذ الذين أنهوا دراستهم الثانوية لم تكن لديهم كتب مدرسية كافية .

ويضيف "بانديه" أن المشكلة ليست ثقافية فقط ولكنها سياسية أيضا ، وتتعلق بالأوضاع الديموقراطية من ناحية وحرية التفكير والتعبير وحرية الاتصال لتبادل المعلومات من ناحية أخرى .

غير أننا في الواقع لسنا من أنصار هذه الصورة المتشــائمة التي ترتكز علي الوضع الراهن وكأنه سيظل هكذا إلي الأبد !

وتستطيع الدول النامية أن تجيد استثمار إمكانياتها ومواردها بصورة أفضل تتيح لمواطنيها حرية سياسية حقيقية ، وقدرة أكثــر فعالية في مجال الاتصال العالمي .

فقد زال وانقرض عصر الانعزال ، ومن لــم يــتقن فنــون العصر الجديد سيحكم علي نفسه بــالانقراض بــالمعني التــاريخي للكلمة (٣٢) .

العــــرب

الإعلام " الاقتصاد والعولمة "١

يهتم الإعلام العربي بكم التكنولوجيا العاملة في فضاء المنطقة العربية دون التعمق في مناقشة التكنولوجيا وارتباطها بقضايا اتصالية مختلفة ودون الاهتمام بتطويعها لخدمة أهداف وقضايا الوطن العربي .

وتركز الاهتمام في المنطقة العربية على كيفية توافق الاقتصاديات الناشئة في دول العالم الثالث ومنها الدول العربية مع الفجوة التكنولوجية المتسعة بينها وبين الدول القادرة على التعامل مع التكنولوجيا . حيث تعكس التحليلات الحديثة لوسائل الإعلام العالمية تنامي نوعاً من الاحتكار والسيطرة لفئة محدودة من القطاعات الخاصة على البناء ألاتصالي الحديث حيث يتواجد هذا الاحتكار سواء على المستوي الوطني أو الإقليمي أو العالمي فيما

١- انظر / سوزان القلينى / شئون الشرق الأوسط / مجلة ربع سنوية ، العدد الثالث ٢٠٠٢ ص ٦ مركز الشرق الأوسط ، جامعة عين شمس .

يتعلق بمسألة ملكية وسائل الإعلام حيث تسيطر مؤسسة أو أكثر أو اندماج تجاري بين عدة مؤسسات على القطـــاعات الرئيسية للبث الفضائي المسموع أو المرئي وبالتالي تستشعر الحكومات الوطنية الخوف من قيام احتكار قد يكون أجنبيا لوسائل الاتصال داخل دولها مما دفع العديد من دول الجنوب إلي تبني نظام الخصخصة الأجنبية الوطنية Privatizing The Ariwaves لتلعب دورا للخصخصة الأجنبية في دولها كما هو الحال في الهند بإطلاقها بعض القنوات الخاصة مثل (Zee Tv) التي أصبحت الفضائية الأولى في الهند والتي وصل عدد جمهوريا إلي مليار نسمة أو يزيد .

وفي هذا الإطار لابد من إعادة التفكير العربي في منهج علمي للاتصال الفضائي في سباق اقتصادي مستقبلي يقوم علي فكرة الخصخصة والاحتكار خاصة أن الاتصال الفضائي يتسم بكونه اتساع في سرعة تدفق رؤوس الأموال والبضائع والأفكار والإنتاج عبر الحدود مما يخلق ما يسمي بالمواطن العالمي ، وفي إطار وجود شركاء غير أكفاء يمتلكون وسائل الإعلام عابرة القارات تحتاج إلي استثمارات مالية كبيرة لاستخدام تكنولوجيا الاتصال وتطويعها لخدمة أهدافهم وبين دول ليس لديها مقدرة علي الامتلاك أو الحصول لوسائل الاتصال المتقدمة عابرة للحدود . نجد أن الفضائيات أدت إلي خلق نوعا من التباين والتفاوت بين الأمم ليس فقط في المجال الاقتصادي ولكن أيضا في مجال الحركة والتبادل وأشكال الوسائل الإعلامية وهي أحد مظاهر النظام الإعلامي العالمي الجديد ولذلك فإن أي استراتيجية خاصة بالعمل في سوق العولمة الإعلامية يجب أن تكون في آن واحد محلية ودولية وهو ما يطلق عليه العولمة المحلية Glocalosation كذلك

يجب أن يتسع هذا المفهوم ليشمل التكامل بين العربية والدولية أو ما يطلق عليه Globarabision أو العولوعربية وذلك حتي لا تترك فرصة لقلة من أثرياء العالم يتحكمون في توزيع المعلومات وتداولها علي الكرة الأرضية وحتي لا تصبح معني العولمة الاعلامية أنها قلة اقتصادية قادرة علي الوصول إعلاميا لتحويلهم الي مجرد متلقين لخدماتها الاتصالية .. ولقد سادت هذه النظرة بعد مؤتمر القمة الاقتصادية السنوي الذي عقد في سويسرا ١٩٩٥ والذي توصل الي ان ثقافة العولمة تصاحب دائما عولمة الاقتصاد بما يطلق عليه ثقافة ديفوس Davos Culture نتيجة ما تتطلبه الأعمال الاقتصادية من استخدام الحاسبات الآلية والهاتف المحمول وخطوط الطيران واسعار الصرف والتي أصبحت تنطوي علي نوع من التنشئة الاجتماعية تؤثر في فكر الافراد والاسر بحيث أصبحت التكلفة والربح وغيرها تتغلغل الي الحياة الخاصة للأفراد كما أتاحت الفرصة للثقافة الاستهلاكية الأمريكية الوافدة عبر الفضاء والتي تقوم علي ارتداء الـ تي شيرت والجينز وشرب الكوكاكولا وأكل الماكدونالدز أن تتسلط علي الثقافات الاخري مما جعل العديد من الدول الأوروبية تعيد النظر في السياسة الاتصالية والبرامجية علي مستوي التليفزيونات الوطنية أولا ثم الفضائيات ثانيا وأخيرا علي مستوي التكتلات كما حدث من تكتل أوربي اقتصادي من خلال عملة (اليورو والتكتل الاعلامي من خلال الفضائيات الاوروبية اليورفيزيون Eurovision واليورونيوز Euronews حتي تقف أمام ثقافة الماك Make World Culture

ما أحوج المجتمع العربي الي تكتل اقتصادي لمواجهة تكتلات عالمية وافدة وما أحوجنا أكثر الي تكتل اعلامي عربي يقوم علي فلسفة التكامل وليس التنافس . والتكامل بمفهومه الواسع لكل عناصر العمل الاعلامي المادي والبشري والتقني حتي تصنع رسالة عربية موجهة الي مجتمع بلغته وفلسفته ووفقا لدراسات للجمهور واتجاهات الرأي العام الخارجي . تصيغا استراتيجية اعلامية عربية موحدة .[1]

ما المقصود بالعولمة ؟ وما هي طبيعتها ؟

يقصد بالعولمة ازالة الحدود الاقتصادية والعلمية والمعرفية بين الدول ، ليكون العالم أشبه بسوق موحدة كبيرة يضم عدة أسواق ذات خصائص ومواصفات تعكس خصوصية أقاليمها – كما تعكس المتطلبات التي يفرضها التكامل الاقتصادي العالمي.

والعولمة ليست مصطلحا جديدا في التنمية الاقتصادية ، وانما هي امتداد طبيعي لانسياب المعارف ويسر تداولها بين أرجاء المعمورة ، مما يجعل الصمود أمام تضاعفها المتنامي وتدفقها السريع أمراً صعبا لان حجم الطاقة الكامنة في هذه المعرفة وتفعيلها في حياة البشر أصبح ضروريا .

ولابد أن نعترف بأن الدخول في العولمة لم يعد خيارا ، وإنما يفرضها الواقع والتطور العلمي والتكنولوجي ، بل ومصلحة الدول ذاتها ، إن فكرة العولمة هي عملية بدأت منذ أمد بعيد ، لكن الجديد هو السرعة الفائقة التي تمت بها ، والنطاق الواسع الذي تشمله تحت تأثير رغبة الاقتصادات متعدية التأثير اقتصاديا

---

[1] - المرجع السابق .

وتكنولوجيا وسياسيا لاعادة ترتيب النظام العالمي الجديد . ولقد أسهمت التحولات التكنولوجية والتدفق الغزير واللامتناهي في المعلومات في إحداث تغير في المفاهيم والأفكار والسياسات المتعلقة بالتكامل بن الدول والاقتصادات المختلفة علي نحو من المشاركة التنافسية . ويمكن القول أن العولمة تؤدي الي سرعة نقل الابتكار وسرعة للتكامل مع دول أخري . [1]

أما عن طبيعة العولمة فهي : العملية التي من خلالها تصبح شعوب العالم متصلة ببعضها في كل أوجه حياتها ثقافيا واقتصاديا وسياسيا وبيئيا . وعلي ذلك تدفع العولمة الي الالتقاء والتقارب بخصوص القضايا والممارسات الخاصة بالتنافسية مثل التعليم والتدريب وإدارة الموارد البشرية والابتكار التكنولوجي والانتاجية . وفي اطار عمليات التقارب تنشأ تعارضات .

أن الزيادة الهائلة في أنسياب المعلومات والنفوذ والبضائع تمثل قوة دفع كبيرة للعولمة ، وهي تحدث من خلال الشركات متعددة الجنسيات والتي تعتمد عادة علي قوي بشرية أرخص في منطقة ما ومواد رخيصة في منطقة أخرى ، ثم أسواق في منطقة ثالثة وإمتداد مالي في منطقة رابعة .

مع تعتقد التكنولوجيا وارتفاع درجة الحاجة بشأنها ، يصبح التعليم هو العنصر المؤثر الضرورى لإدارتها . ويمثل ذلك التقاء أو تقاربا بين التعليم والتكنولوجيا والتقاء أو تقاربا من أجل تعليم متقدم وبذلك تم تحويل ألاف الوظائف في تصميم البرامج من

---

[1]- لمزيد من التفاصيل انظر : بثينة عمارة ، العولمة وتحديات العصر ، دار الأمين للنشر والتوزيع ٢٠٠٠ ص ٢١ ص ٢٦ .

الولايات المتحدة إلى الهند وبنجلاديش حيث يوجد متعلمون على مستوي عال ويعملون بأجر أقل من أقرانهم في أمريكا .[1]

ما هي إيجابيات العولمة في حياتنا المعاصرة ؟

هناك العديد من الايجابيات نذكر منها ما يلي :

أولا : ايجابيات اجتماعية نذكر منها :

١ – العولمة هي حتمية التعامل اليقظ مع الواقع العالمي بكل مفرداته . لذلك فإنها تأتي اتساقا مع نظم الحياة التنافسية – شأنها شأن الكائنات – إما أن تتكيف مع البيئة وإما أن تموت ، وأن البقاء دائما للأصلح من حيث التكيف مع الظروف .

٢ – إنها دعوة لا ستنهاض الهمم والثورة على قبول المسلمات بعد أن أصبح قبولها أخر المطاف وليس بدايته . أما أول المطاف فسماء مفتوحة نصعد فيها ما استطعنا أن نصعد .

٣ – أن العولمة تقتضي السعي إلى التميز والإتقان والارتفاع بمستوي الطموح للفرد وللجماعة .

٤ – أن العولمة تهدف إلى مناشدة الكمال وقبول التغير . لذلك فإنها تسعي إلى تهميش النزعات العنصرية والمذهبية من أجل التوحيد مع الأسرة العالمية في مسعاها لحقوق الإنسان وحريته .

٥ – إنها تحمل في طياتها عدم المغالاة والاستسلام للغيبيات وإعادة النظر في ترتيبها على سلم الأولويات اللازمة لرقي المجتمع ونهضته .

---

[1]- بثينة عمارة ، المرجع السابق ص ٢١ .

٥ – إنها تحمل في طياتها عدم المغالاة والاستسلام للغيبيات وإعادة النظر في ترتيبها على سلم الأولويات اللازمة لرقي المجتمع ونهضته .

٦ – إن العولمة تنمي الصدق والجرأة في الحق والوضوح في التعامل مع النفس والآخرين ، بعد أن أزاح العلم القناع عن طبيعتها لينكشف المختفي منها . وبعد أن أصبحت مبادئ السلوك عند علماء الانثروبولوجي لا تخضع لمنطق العقل في تصنيف للحلال والحرام ، بل باتت أحكاما نسبية تمليها ظروف المكان والزمان وتتفوق فيها الشعوب تفوقها في المنافع والأهداف .

٧ – إن العولمة تسعي إلى تبني وترويج الفكر المستقبلي لأبناء الوطن ، بصياغة عقولهم بعيداً عن الفكر التقليدي والتمسك بالماضي ، وبانفتاحهم على التعليم الحر ووسائط المعرفة المادية والالكترونية بدلاً من التوقع داخل شرنقة الأنا أو الاكتفاء بالذات والانكفاء عليها .

ثانياً : إيجابيات اقتصادية منها ما يلي :

إن أهم العناصر الأساسية لظاهرة العولمة " العولمة الاقتصادية قد حققت قفزات نوعية بالإضافة إلى عولمة الأعلام والاتصالات والمعلومات . [1] – [2]

١ – ليست العولمة قاطرة للتنمية الشاملة بقدر ما هي قضبان يسير عليها فكر جديد.

---

[1]- بثينة عمارة ، مرجع سابق ص ٢٢ .

[2]- عبدالرحيم أبو كريشة ، التراث والعولمة ، المحروسة للنشر ، المعادي ١٩٩٩ ص٢٦

٢ - إنها محك حقيقي لاختبار ما درجنا عليه من أفكار ، وجهاز قياس لما نطبقه من ممارسات عملية في شتي قطاعات الاقتصاد القومي .

٣ – إنها النتاج الشرعي لتحرير التجارة العالمية ، ومحصلة القوي للعديد من المنظمات الدولية التي تتقاسمها فكر الاعتماد المتبادل بين الدول .

٤ – إن العولمة هي البديل المقبول للدول النامية في خلاصها من مأزق التخصص في تجارة منتجات أوليه – متدنية القيمة المضافة وذلك عن طريق :

(أ) تطعيم المؤسسات القائمة بشركات متعددة الجنسيات ، مع ضرورة الاهتمام بالمهارات التفاوضية وتقنين الأطر الحاكمة لتشغيلها في الدول المضيفة .

(ب) التعرف على المميزات النسبية والتنافسية للسلع الأولية في كل دولة ، مما يتيح لها فرص الاندماج أو التكامل ، ومن ثم الاحتفاظ بصبغتها الكثيفة في العمالة وتحسين مستويات الدخول.[1] – [2]

ثالثاً : تنمية التعاون الاقليمي بين مصر وجيرانها عن طريق :

تعد مصر عبر التاريخ المعاصر واحدة من الدول النامية المعدودة ذات النشاط الملموس والمؤثر على صعيد التنظيم الدولي

---

[1] - بثينة عمارة ، مرجع سابق ص ٢٣ .

[2] - أسامة المجدوب ، مستقبل العالم العربي في التجارة الدولية ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٩ ، ص٢١٩ .

بوجه خاص ، وفي الإطار الإقليمي على وجه الخصوص تحفزها على ذلك مجموعة من العناصر :

١ – إمكانية التعامل مع منتجات وسيطة أو نهائية الصنع بدلا من المنتجات الأولية مع توحيد المواصفات القياسية للمنتجات العربية .

٢ – ضمان التدفق الحر للعمالة ورأس المال .

٣ – توحيد معدلات الصرف بين الدول العربية بالشكل الذي يخدم حرية انتقال عناصر الإنتاج ، وزيادة التجارة البينية ٣ % عن واقعها الحالي من حجم التجارة الخارجية .

٤ – دعم تطوير الطرق ووسائل النقل متعدد الوسائط إلى البلاد العربية والأفريقية مع خفض الرسوم الجمركية على الشاحنات والسيارات حتى لا تصل تكاليف التصدير إلى أكثر من ٤٠ % من إجمالي التكاليف .

٥ – الاهتمام بتنظيم رحلات جماعية للدول العربية لتهيئة الأجيال القادمة للتقارب في التعامل التجاري .

رابعاً : النظام العالمي لإستغلال المواني :

الاستفادة من النظام العالمي لاستغلال مواني شرق وغرب أفريقيا بالإدارة أو الاستئجار بحقوق امتياز لعدد من السنوات كمخازن ترانزيت واستقبال الحاويات – إن هذا الاتجاه من شأنه :

١ – أن يعمل كمعارض دائمة ومحاور ارتكاز لتكثيف الوجود . المصري في الدول الأفريقية الكوميسا كأفضل السواق ملاءمة للمنتج المصري .

٢ – حقن المجتمعات الأفريقية بالعادات والتقاليد والأنماط الاستهلاكية المصرية – ومن ثم سهولة الترويج للمنتج المصري والإقبال عليه .

٣ – التعرف على متطلبات الأفارقة من سلع وخدمات وعلى القوانين والأعراف الحاكمة لهذه الأسواق .
٤ – زيادة الحصيلة النقدية من تجارة الحاويات والاستفادة من وفرة الائتمان والسيولة الحالية في أسواق المال العالمية .

خامساً : الموائمة مع أنظمة التصدير الحديث [١] :

يسهم النظام العالمي الجديد في سرعة المواءمة مع أنظمة التصدير الحديث وذلك عن طريق :

١ – تبني نظام الترويج والتوريد الفوري للبضائع في الأسواق المحتملة والمأمولة .
٢ – سهولة اختراق الأسواق العالمية (الكائنة – والالكترونية) بالتعرف على الوكلاء المتخصصين في التسويق الدولي .
٣ – سهولة جذب مستثمرين لامتلاك طائرات لنقل البضائع للعمل بنظام B.O.T ، لتطوير وإنشاء مطارات متخصصة في أعمال الشحن الجوي بما يحقق اللامركزية والسرعة في نقل الصادرات .
٤ – المراجعة المستمرة لتعريفه الشحن بالشركات المصرية للتأكد من تماشيها مع الأسعار المنافسة محليا وعالميا .
٥ – ترحيب شركات التأمين العالمية بتوفير مظلة من الأمان والتغطية لمخاطر الصادرات .
٦ – إمكانية المساعدة الفنية في تحسين وضع البنوك المتخصصة في تنمية الصادرات ، لتلائم طبيعة العملية الإنتاجية من حيث تخفيض عمولة اعتمادات التصدير والقبول بالعقود كضمان

---

[١]- بثينة عمارة ، مرجع سابق ص ٢٣ – ٢٤ .

للتسهيلات الائتمانية وتحفيز البنوك على التوسع والقيام بدور الوسيط للمصدر لتأدية خدمات الخصم والتحصيل وغيرها .

سادساً : الفكر الحديث والعولمة :

تسعي العولمة أيضاً إلى إعادة تقييم الفكر التقليدي للتنمية القائم على حجم الانفاق في المشروعات الكبري ، وقبول البديل الذي يرتضي فلسفة القفز بالمجتمع منهاجا للارتقاء بنوعية الحياة ومستوي جودتها وذلك عن طريق :

١ – عدم تحصين النقود عند التغيير والترحيب بإيقاعه السريع في نظم الإدارة الحديثة ، وتقليص القطاع الحكومي كلازمة للتخلص من التعويق البيروقراطي وخلق واستغلال الموارد المتاحة .

٣ – الاهتمام بالتدريب التحويلي للعاملين لتنمية مهاراتهم وتوحدهم مع النظام في احتياجه السوقي .

٣ – السعي للانتشار عالميا بزيادة حجم التعامل الدولي في أسواق النقد والمال وشركات التأجير التمويلي وغيرها .[١]

سابعاً : إيجابيات سياسية من أهمها ما يلي :

يري أنصار العولمة أن تطبيقها سيعني زيادة الديموقراطية واحترام حقوق الإنسان وحريته والمساهمة في حلا المشكلات التي تواجه العالم مثل إنتشار أسلحة الدمار الشامل والتلوث البيئي

---

[١]- المرجع السابق .

وإحلال السلام ، إلا أن المعارضون يرون أن العالم اليوم يضج من الحروب والمشكلات والأزمات على المستويين الدولي والمحلي .[١]

إننا لا نري العولمة متوائمة سياسيا ضد الدول النامية أو الفقيرة ، إنها هي عودة للفلسفة القائمة على فكر القوة والغلبة لمن يستطيع أن يدخل في المنافسة . إن العولمة :

(أ) سوق للاستثمار السياسي في توازن المصالح بدلاً من توازن القوي .

(ب) أهلية العالم واستعداده لقبول متعدد الأقطاب يسمح باعتلاء القمم ويستنكر احتكار القمة الواحدة .

(ج) فرصة لتعميق الانتماء والانتشار الوطني بتسويق الأفكار الأكثر مصداقية والأقرب تطبيقاً والأكثر اتساقا مع مسيرة الفكر العالمي .

(د) محاكاة النظم الديموقراطية وتعدد النظم الحزبية في اهتمامها بحقوق الإنسان ، ودوره في قيادة المجتمع المدني وإطلاق طاقاته .

(هـ) وأن العولمة هي الصيغة التي تبشر بإسقاط كافة الحواجز الاقتصادية والاجتماعية ، فإنها دعوة مفتوحة لتقوية الروابط والتكتلات الدولية واستغلال المواهب الوطنية في تنشيط الذكاء القومي للانتشار إقليميا وعالمياً .

ما هي سلبيات العولمة

في حياتنا المعاصرة ؟ وما هو العلاج ؟

تنحصر سلبيات العولمة في حياتنا المعاصرة في صعوبات عديدة نلخصها فيما يلي :

---

[١]- عبدالرحيم أبو كريشة ، مرجع سابق ص ٣٥ .

١ – الدول المتقدمة ستكون هي صانعة القرارات وموزع الأدوار على الدول النامية تحت رغبة الاقتصادات المتقدمة التأثير اقتصاديا وتكنولوجيا وسياسيا . وأيا كانت الدوافع فإن العولمة وما تعنيه من السوق الموحدة أو شبه الموحدة تحمل في مضمونها الصراع الاقتصادي أي المنافسة . هذه المنافسة ستكون من طبيعة معقدة ومركبة . إذ بالإضافة إلى المنافسة بين المشروعات في داخل السوق الموجدة نجدها تتسع لتضم مشروعات تنتمي لعدة اقتصادات ذات قدرات اقتصادية متباينة إلى حد كبير وتحتاج إلى مقومات وقدرات أكبر من ذي قبل .

٢ – المنافسة ستكون كونية لا تقف عند حد خفض الانتماء وتحسين جودة السلعة بل تشمل الجودة البيئية وغيرها ، ستكون منافسة على أساس القدرة على الإبداع والابتكار ، أي دخول السوق بمنتجات جديدة لم تكن نسمع عنها ، منافسة تتسم بالديناميكية المستمرة . هذه المنافسة في السوق العالمية الموحدة تعني أنها في حاجة إلى المقومات والقدرات التي تستند إلى ما يشهده العالم من تحولات تتمحور أساساً حول ازدياد الوزن النسبي لدي القدرات العقلية الفائقة والمهارات الرفيعة التي يمتلكها العنصر البشري .

٣ – في ظل هذا المناخ الجديد نجد أن العولمة تفرض تحدياً مهماً يتمثل في أن كل اقتصاد عليه أن يصنع فرص نجاحه اعتماداً على ذاته في الأسس وتحت مسمع ومرأى من الجميع بل وتحت وطأة منافسيهم . إذ أن قيام السوق الموحدة في ضل العولمة لا تعني أن هناك فرصا متساوية للجميع بل أن القدرة على التنمية تعتمد على القدرة على التفاعل في السوق العالمية ، آخذين في الحسبان طبيعة العلاقات التي تسود فيها .

إذ بات من المعروف أن الدول ذات الاقتصاديات التي تتسم بالديناميكية ستحقق مكاسب من العولمة ، هذا في حين ستحقق الاقتصادات الأخرى الخسائر خاصة في الدول الأفريقية جنوب الصحراء ، من هذا يمكن القول أن التغييرات السابقة أدت إلى إحداث بعض التغييرات على أرض الواقع ، وكذلك في المفاهيم التي ظلت سائدة حينا من الدهر إذ لم يعد الإنتاج يتم وفقاً للمعايير التقليدية بل يجب أن يتم وفق المعايير الدولية على نهج الحكمة الدولية القائلة " فكر عالميا ونفذ محليا " حيث أن ما يصنع في مكان ما يجب أن يكون وفق مفاهيم العولمة والدولية وليس مفاهيم الإقليمية والمحلية .

٤ – المحك الأساسي هو اعتبارات الكم من الكيف في وقت واحد . والكيف أهم من الكم في عمليات الإنتاج والتسويق وتفرض العولمة تحدياتها كذلك على الأشخاص الفاعلة في كل اقتصاد وطني . إذ لم يعد في وسع المشروعات في دولة ما أن تعتمد على مساندة الدولة لها ، في مواجهة المنافسة الأجنبية بل عليها أن تعتمد بصفة رئيسية على مقوماتها الذاتية أي أن على كل مشروع أن يطور قدراته من خلال الحرص على اكتساب أفضل العقول والمهارات .

٥ – وليس من قبيل المبالغة القول أن الحصول على موضع قدم في السوق العالمية يقف عند أعتاب مدارسنا وجامعاتنا ، وما يدور من تفاعل بين كل عناصرها من أسس ومبان وتجهيزات وغيرها . فالتعليم وما يرتبط به من تدريب يقع موقع القلب في أي إصلاح أو تطوير اقتصادي منشود . فالواقع أن التعليم في أي دولة أصبح ذات أبعاد دولية متعددة الجوانب حيث أصبح من الواجب أن تتوافر مهارات وقدرات عقلية وذهنية رفيعة المستوي ومطلوبة عالميا لكي

التدفق السريع للمعلومات الحاجة إلى رأسمال بشري قادر على تحقيق ذلك .

لقد أثبتت الدراسة أن القدرة على جذب الاستثمارات الأجنبية المباشرة في القطاعات الأكثر تقدماً تعتمد على استرداد التكنولوجيا الأجنبية وتطويعها وتكون قاعدة تكنولوجية وطنية يقف وراءها عنصر بشري متفهم وقادر على أنجاز المطلوب . **إن التعليم في ظل العولمة يجب** أن يراعي العديد من الاعتبارات المهمة والتركيز على دور التدريب في مواجهة المشاكل المحلية بالإضافة إلى متطلبات السوق العالمية باعتبارها جزاءاً متكاملاً ومتفاعلاً مع الاقتصاد العالمي ، وهنا وجب التركيز على ما يعرف بتعليم المستقبل بل وما يعرف بصناعات المستقبل هذه الصناعات التي تعني أن من يقف وراءها من أيد عاملة يجب أن يكون ذات مواصفات عالمية أي يعني ضرورة توافر الجودة الشاملة في العنصر البشري ذاته .

وعلى ذلك يجب أن ندرك أن التعليم يعد أحد المرتكزات المؤسسية التي تدخل في إطار ما يعرف بنظرية التجارة الاستراتيجية التي تعني بالتدابير المؤسسية والتنظيمية والسياسيات التي تتخذها الدول بقصد إعادة ترتيب البيت من الداخل في علاقاته مع الخارج وزيادة القدرة التنافسية .[١]

ويتطلب ذلك ضرورة تخطيط الموارد البشرية التي من مقوماتها تحقيق مستوي الاستخدام الأمثل للقوي العاملة ، حيث

---

[١]- انظر : بثينة عمارة ، مرجع سابق ص ٢٤ – ص ٢٦ .

يجب التنسيق بين سياسة التعليم وسياسة التدريب ، ويتم ذلك عن طريق رسم السياسة التعليمية والتدريب في ضوء التقدير الطويل الأمد لاحتياجات التنمية .[1]

ما هو العلاج للتقليل من هذه السلبيات ؟

ومن كل ما سبق ينبغي أن ندرك الأهمية الثقافية والقيمية للتعليم ، إذ يعد ضرورة للحفاظ علي التراث الثقافي والأصالة بما يتفق وحركة المجتمع دون إنكار إمكانية الاستفادة مما لدي الغير والتفاعل معه .

يجب أن نهتم ليس فقط بالتعليم قبل الجامعي ، بل نؤكد أهمية التعليم الجامعي أكثر من أي وقت مضي حيث تزداد أهمية هذا النوع الأخير في عصر المعلومات والانترنت واللغات واقتصاد السرعة والحاجة إلي الإبداع والابتكار .

يجب العمل علي رفع كفاءة عنصر الإدارة علي كل مستوياتها ، لما لها من عامل حيوي فاعل في تنظيم الاستفادة من الموارد المالية من ناحية وعدم التذرع بنقص الموارد المالية اللازمة للعملية التعليمية . إذ يمكن زيادة مشاركة المتعلمين أنفسهم في تحمل جزء من الإنفاق العام علي التعليم خاصة وأنهم يجنون مكاسب خاصة من وراء ذلك ، كما يمكن فتح المجال للتمويل الأهلي وقبول التبرعات . وإفساح المجال للقطاع الخاص ليسهم قي إيجاد فرص التعليم في ظل الضوابط المحكمة والإشراف الدقيق من قبل الحكومة . فلابد أن نعترف بأننا أصبحنا نعيش في عالم يختلف عما

---

[1]- عبدالغني سعيد ، نظم وسياسات التعليم والاستخدام والإعداد الأمثل للقوي البشرية المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة الكويت ١٩٧٦ ص ٧٨ .

التعليم في ظل الضوابط المحكمة والإشراف الدقيق من قبل الحكومة . فلابد أن نعترف بأننا أصبحنا نعيش في عالم يختلف عما عهدناه من قبل . ومن هنا وجب أن نتكلم اللغة التي يتكلمها العالم ونستعمل الأدوات التي ستعملها بحيث نستطيع بما لدينا من موارد بشرية تحقيق أهدافنا .

ما هو دور الإعلام في التوعية الثقافية في ظل العولمة؟

تثير ظاهرة العولمة اهتمام خبراء الإعلام باعتبارها من أهم القضايا التي سيكون لها تأثيراتها علي هويتنا الإعلامية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ومواجهة هذه القضية أصبحت أمرا ضروريا وأن الاستعداد لهذه المواجهة تتطلب الكثير حتى بعد الخطوات الايجابية التي تم اتخاذها .

- يمكن القول أن نتائج العولمة ستخدم الدول الكبرى أكثر من خدمتها للدول النامية ومنها مصر ، بمعني آخر المكاسب ستكون للأولى والخسائر للثانية .

- إن خطر العولمة يكمن في المعلومات المتدفقة التي تبثها شبكات الإعلام الدولية والتي غالبا ما تسيطر عليها القيم الغربية التي لا تتناسب مع تقالدينا وقيمنا الشرقية الأصيلة وأن هناك شكاوى من الكثيرين تقول إن المعلومات التي تقدمها الشركات الأمريكية تسيطر عليها قيم هوليود – وأن القنوات التي كان من المفروض أن توجد جوا من التنوع أصبحت تتحدث عن موضوعات محددة وتعكس عالما يغلب عليه العنف والجنس معا .

- إن مركزية مؤسسات البث العالمي أدت إلي الحد من المعلومات التي يمكن أن تختزن وسائل الإعلام وهذا يشكل تحديا خطيرا لإعلامنا المصري وهو يخطو نحو العالمية .

علي المجتمع وتصبح المؤسسات العالمية هي وحدها القادرة علي تحريك عملية العولمة .[1]

– أن من مصلحة الثقافة العربية أن توجه حوارها وتعاونها علي نحو يهدف إلي تغيير النظام الاقتصادي والثقافي والإعلامي القائم حاليا وإنشاء نظام عالمي جديـــد يمكن شعوب العالم النامي من التخلص من كل أثر للسيطرة والاحتكار .[2]

– هل يمكن للإعلام المصري أن يقيم سدا في مواجهة التيار العالمي الجارف الذي يملأ الشاشات الصغيرة والكبيرة ويحتل موجات الأثير والصحف المطبوعة وهل يستطيع الاقتصاد الوطني الذي يشق طريقة إلي النمو بصعوبة بالغة أن ينافس الاقتصاد العالمي بإمكاناته الاغراقية عبر الحدود ، إن الخوف من أن تهتز أسس وقواعد الهوية الوطنية تحت ضربات هذه العولمة وأن التحدي الحضاري الأكبر مع عولمة وسائل الإعلام هو تجويد الرسالة الإعلامية من حيث الشكل والمضمون تتجاوب معها الجماهير داخليا وخارجيا ليصبح إعلامنا عنصر جذب للمستمع والمشاهد .

وقد اتخذ الإعلام المصري خطوات بناءة وقيمة لتحقيق هذه الغاية وذلك بإنشاء القنوات الفضائية التي تتحدث ببعض اللغات الأجنبية . وأطلق القمر الصناعي المصري نايل سات وأنشأ وطور

---

[1] - بثينة عمارة ، مرجع سابق ص ٢٣ – ص ٢٤ .

[2] - عبدالسلام المسدي ، العولمة والعولمة المضادة : كتاب سطور ، ١٩٩٩ ص ٨ .

مدينة الإنتاج الإعلامي ودخل بتلك المشروعات العملاقة القرن الحادي والعشرون .

إن الصمود أمام إغراءات البث الأجنبي ليس مسئولية أجهزة الإعلام وحدها ولكنها مسئولية مشتركة تقوم بها كل أجهزة الدولة المعنية ببناء الإنسان والحفاظ علي هويته وربطه بجذوره الأصلية النابعة من دينه وتراثه الحضاري والثقافي .[1]

المداخل النفسية والاجتماعية لتكوين الرأي العام[2]:

أن لكل تصور جمعي نمط من التداخل النفسي بين أحادية الوعي الفردي واتجاهه تجد نفسها مغمورة أو متنحية ، ولكن هذا لا يعني أن لكل تصور جمعي أو رأي جمعي قيمة ثقافية حقه ولا يطلق هذا على أي رأي من الآراء ، وأن كان يتجلى في إجماعه كمعني تضامني وفق قانون التركيب وعلي أقل تقدير يعبر الإجماع عن نمط من الاتجاه بين أحادية الوعي والاتجاه . هذا وإذا ما هيمن عليها النفع الفعلي للرأي ، يرتد إلي خاصية الإبقاء علي دوام اتحاد الجماعة وتكاتفها .

فهناك من المؤثرات كمداخل نفسية واجتماعية للرأي العام تكوينه .

---

[1]- بثينة عمار ، مرجع سابق ص ٩٧ .

[2]- صلاح مدكور ، الاتجاهات الحديثة في مجالات العلاقات العامة ، مرجع سابق ص ٣٤٧ – ص ٣٢٣ .

فهناك من المؤثرات كمداخل نفسية واجتماعية للرأي العام تكوينه .

لاشك أن الرأي الشخصي أو الفردي الذي يمثل أحد أجزاء الرأي العام تتوقف علي الشخصية وهي تركيب نفسي داخلي يتميز بوجود قوة مركزية توجه السلوك وهي ما نطلق عليه الاتجاه وتحاول تلك القوة خفض التوترات التي يشعر بها الفرد ، وهي التنظيم الدينامي داخل الفرد لأجهزته والتي تحدد توافقاته مع البيئة بمفهومها الشامل.

الفصل السادس

الثقافـــــة والشخصيـــــة

أ- الشخصية : عوامل تفاعلها وأنماطها وتوصيفها

ب- الثقافة : عوامل نشأتها واستمراريتها وتطورها

ج- الشخصية : وتأثير التنشئة الاجتماعية والسياسية علي تفاعلها

الفصل السادس

الثقافة والشخصية :

الشخصية : وتأثير التنشئة الاجتماعية والسياسية على تفاعلها وتوصيفها .

الشخصية والبناء الاجتماعى .

التنشئة الاجتماعية والشخصية

العموميات الثقافية

الشخصية والتفاعل الاجتماعى

الاتصال والتفاعل الاجتماعى

نشأة الثقافة واستمرارها

عوامل نشأة الثقافة

التطور الثقافى

انتشار الثقافة

التباين الثقافى وأثره فى التنشئة الاجتماعية

الشخصية والذات الاجتماعية

التنشئة السياسية والشخصية

النفس والأخر

توصيف الشخصية

العلاقة بين أنماط الشخصية والبناء الاجتماعى :

– يرى علماء الاجتماع أن هناك مجموعة من الموجهات الثقافية التى تقود لدراسة التنشئة بوجه عام كالتحولات الثقافية المتتابعة بين الأجيال أو عمليات الاعداد والتدريب وما إلى ذلك من عمليات تؤدى إلى المشاركة فى الحياة الاجتماعية ولكن التحول الهام الذى يكتنف الفرد نتيجة لعمليات التنشئة التى يمر بها هو التحول من الخاص إلى العام ، أو بمعنى آخر كيف يتحول اهتمام الفرد بنفسه إلى اهتمامه بالمجتمع الذى يعيش فيه ، ويركز علماء الاجتماع اهتمامهم فى دراسة العلاقة بين أنماط الشخصية والبناء الاجتماعى الذى يضم هذه الشخصية . فعالم الاجتماع يهتم برد فعل أنماط الشخصية على النسق الاجتماعى . حيث أن الهدف الأساسى من عملية التنشئة هو محاولة تكييف الأفراد مع البناء المعيارى لمجتمع . أى أنها من هذه الناحية – أى عملية التنشئة – تهدف إلى تدريب الفرد على المشاركة الاجتماعية . وعلى هذا يمكننا القول أن التنشئة الاجتماعية هى أحد العوامل التى تساعد فى العملية الاجتماعية الكبرى على نطاق المجتمع ككل .

ومن وجهة النظر هذه يمكن القول أن عملية التنشئة ما هى إلا تصور لكيفية ملائمة الفرد لحاجات المجتمع . وعليه فهى تقوم بدور أكثر من هام فى التنسيق وخلق الظروف الملائمة بين الدور والحاجات.

ووفقا لما سبق فإن هناك مراكز أو محاور معينة تستند إليها عملية التنشئة فى المجتمع يمكن ابرازها فى الأسرة والمدرسة وجماعة النظراء وجماعة العمل ، حيث يفترض التواجد فى مثل هذه

الجماعات نوعا من الصراع والتغير كما يحدث في أى نسق اجتماعى آخر.(٣٣)

دور الأسرة فى عملية التنشئة :

تعتبر الأسرة أول واهم المؤسسات التى تنهض بعملية التنشئة فى المجتمع بالإضافة إلى مؤسسات أخرى لها دور لا يمكن انكاره فى عملية التنشئة الاجتماعية وذلك كالمدرسة والمؤسسات التعليمية فضلا عن موقع الفرد فى الجماعة التى يعيش فى كنفها . وتقوم الأسرة بأول مرحلة من مراحل التنشئة حيث يبدأ الطفل فى تعلم اللغة وبعض أنماط السلوك التى يراها داخل أسرته . هذا ما يتعلمه الطفل فى تلك الفترة قد يتحول إلى سلوك اجتماعى أو قد يندمج الطفل فيما هو اجتماعى على الأقل . وتكون التنشئة الاجتماعية فى الأسرة تنشئة مباشرة ، أى ترتبط بالقيم السائدة فى محيط الطفل الاجتماعى الضيق وهو يكّون من خلال ذلك مجموعة من العلاقات متفاعلا مع أعضاء أسرته ، مرتبطاً بأنماط سلوكهم خلال سنوات التكوين فى حياته.

وتبدأ خلال هذه الفترة الذات الاجتماعية فى التشكيل والتكوين – إذ يبدأ الطفل فى التطلع إلى والديه محاولا معرفة اتجاهاتهم نحوه على الأقل خلال غضبهم أو سرورهم . ثم يبدأ الفرد فى الانضمام إلى جماعات اجتماعية معينة فى سن مبكرة كالطبقة الاجتماعية أو الجماعات الدينية والثقافية أو ما إلى ذلك من جماعات يكون لها فى العادة نشاط عام.

وعندما يذهب الطفل إلى المدرسة يبدأ فى الاهتمام بالنظم الرسمية للتنشئة فى المدرسة وقد يصل اهتمام الطفل بالأنشطة الرسمية أكثر من اهتمامه بما يزاوله من انشطة فى الأسرة . ومن

هنا يصبح الطفل أكثر اتصالا وتفاعلا مع النظم الاجتماعية التـــى تتباين وتتمايز فيها الأدوار أكثر منها فى الأسرة . ويـــتعلم الطفـــل التعود على طاعة المدرس ، فضلا عـــن أن الموضــــوعات التـــى يتلقاها الطفل فى المدرسة يكون لها أثر هام فى تعديل سلوك الطفل رغبة فى أن يكون مواطنا له موقعا متميزاً فى مجتمعه .

وعلى هذا تكون المدرسة عن درجة كبيـــرة مـــن الأهميـــة كمؤسسة من المؤسسات التى تشارك مشاركة فعالـــة فـــى عمليـــة التنشئة الاجتماعية حيث ينمو ويتزايد الاهتمام بالعمـــل الجمـــاعى والنشاط الجمعى فى هذه المرحلة من واقع تجربة الطفل وتفاعلـــه مع النظم القائمة فى المجتمع والمدرسة.

وبالرغم من ذلك تظل الأسرة هى المؤسســـة الهامـــة فـــى مؤسسات التنشئة الاجتماعية نظراً لأنها تنهض بالعديد من الوظائف التربوية والبيولوجية والاجتماعية وكل هذه الوظائف تؤثر تـــأثيراً مباشراً فى بلورة شخصية الطفل.(٣٤)

التنشئة الاجتماعية والشخصية :

تدخل عناصر كثيرة ومتعددة فى تكوين شخصـــية الفـــرد ، منها ما هو اجتماعى وما هو ثقافى وقد يكون الجانب الاقتصـــادى له دور أيضاً فى تكوين شخصية الفرد . ولكن العوامل الاجتماعية تأتى فى مقدمة المكونات الأساسية للشخصية . وعلى الرغم من أن موضوع الشخصية يعتبر من الموضوعات التـــى أولاهـــا علمـــاء النفس اهتماما خاصاً ، فإن هذا لا يمنعنا من تناول هذا الموضــــوع بالعرض من خلال ما توصل إليه علماء الاجتماع خاصة إذا كانت الشخصية تنبثق من خلال علاقات الفرد ســـواء أكـــان كبيـــراً أو صغيراً بأعضاء هذه الجماعة على مســـتوى الأســـرة والمدرســـة

والحى والعمل وما إلى ذلك . ولهذا نقول أن البيئة الاجتماعية لها دور جوهرى فى تكوين شخصية الفرد عن طريق ما اصطلحنا على تسميته بالتنشئة الاجتماعية .

أن فكرة الشخصية رغم الدراسات العديدة التى تناولتها ولازالت فكرة تتسم بصعوبة مبدئية وهى التى كانت سببا فى عدم اتفاق أو قبول الباحثين فى مجالى علم النفس والاجتماع تعريف محدد لها . وإذا ما تفحصنا البحوث والأعمال التى تناولت الشخصية سوف نعثر على حد تعبير "البورت" على ما يزيد عن خمسين تعريف لها. ومن المعروف أن الشخصية ترتبط بالفرد ذاته وبالسلوك الذى ينتج عن استجاباته المختلفة للبيئة أو المحيط الاجتماعى الخارجى الذى يحيا فيه .

أن فكرة الشخصية تمثل لدينا هنا اهتماما خاصا من حيث ارتباطها بفكرة التنشئة وانعكاس أثر هذا الارتباط على النسق الاجتماعى الذى يحتوى أو يضم هذه الشخصية وذلك من حيث أن عملية التنشئة تعتبر فى المقام الأول هى خالقة الشخصية ، الأمر الذى نستطيع معه القول بأن عملية التنشئة تقدم لنا نمطا معينا من الشخصية ، إلا أن العلاقة بين هذه الشخصية أو تلك والنسق الاجتماعى ميدان أعم وأشمل . فالاختلاف بين الأشخاص يؤدى إلى صعوبة قياس أبعاد تلك العلاقة بين الشخصية والنسق الاجتماعى . هذا بالإضافة إلى ما تعارف عليه العلماء والباحثين من اختلاف بين المجتمعات سواء على المستوى الريفي أو الحضرى أو المجتمعات البدائية . فلكل مجتمع من هذه المجتمعات أسلوباً ومنهاجاً فى التنشئة يختلف عن المجتمعات الأخرى مع تباين فى درجة الاختلاف وتلك نتيجة مسلم بها وهى اختلاف المجتمعات

فى العادات والتقاليد والثقافة التى تكون فى الغالب ذات طابع معين . وهذا يؤدى بدوره إلى صعوبة أساسية وهى محاولة الوصول إلى تعميم أو قانون حول علاقة التنشئة والشخصية بالنسق الاجتماعى . إلا أننا نستطيع القول بأن نمط التنشئة فى مجتمع من المجتمعات ينعكس بطريقة أو بأخرى على البناء الاجتماعى ، ويبدو ذلك واضحا فى المجتمعات البدائية التى تتداخل فيها الأدوار بصورة ظاهرة وقد يتطابق ذلك مع ما يحدث فى المجتمعات المتقدمة أو المجتمعات الأكثر تعقيداً من المجتمعات البدائية . ذلك لأن العلاقة بين الأسرة والبناء الاجتماعى ككل تتم عن طريق الكثير من النظم التى تتداخل أدوارها فى الغالب أو التى قد يكمل بعضها البعض.(٣٥)

ولقد تناولت بعض الدراسات الشخصية وقامت بتنميطها إلا أن الاتفاق حول طبيعة هذه الشخصية لا يزال محل اختلاف . فقد ركز عدد من الباحثين اهتمامهم حول نمط معين للشخصية ، واهتم البعض الآخر من الباحثين بنماذج الشخصية على وجه العموم . أن هناك محاولات عديدة قام بها الباحثون لتوصيف الشخصية إلا أنها محاولات تتسم بالطابع الفردى. والنقطة الهامة من وجهة نظر عالم الاجتماع تكمن فى أن دراسات الشخصية تعتبر خطوة هامة بالنسبة لبعض العمليات التى تحدث تحت ما يسمى بالمضمون الاجتماعى فضلا عن أن هذه الدراسات تساعد على فهم توزع الأنماط السيكولوجية للشخصية فى ميدان علم الاجتماع ، حيث أننا نعلم الكثير من الخلفية الخاصة بالأسرة والتعليم والمكانة وما إلى ذلك . ولكننا لسنا على علم بأى الأنماط التى تبدو فى المجتمع على أنها أنماط نظامية فى البناء الاجتماعى لها تأثير أكثر من غيرها من

الأنماط على هذا البناء وهذا يعد مشكلة جوهرية فى دراسات علم الاجتماع.

ولذلك فإن مناقشة العلاقة بين الميول أو النزعات السيكولوجية والبناء الاجتماعى فى المجتمع مسألة على درجة كبيرة من الأهمية ففى المجتمع الحديث والآوروبى على وجه الخصوص يستطيع الفتى أو الفتاة الانفصال عن الأسرة ويخطط حياته بنفسه وبالطريقة التى يراها ملائمة بالرغم أنه فى كثير من الحالات لا يكون السلوك رشيدا نتيجة لنقص الخبرة والثقافة ونتيجة لهذا السلوك ظهر فى هذه المجتمعات ما يمكن أن نطلق عليه اللامبالاة الاجتماعية . وقد أدت هذه اللامبالاة إلى عدم الالتزام إلا بما هو شخصى أى عدم الالتزام بما هو عام والذى تنطلق منه المسئولية العامة والتى يأتى الإحساس بها نتيجة لعمليات التنشئة الاجتماعية . ففى المجتمعات السابق الإشارة إليها نجد أن تبعية الفرد لم تعد للأسرة أو العائلة وأنما أصبحت تبعية طبقية وقد انحسر دور الأسرة فى التنشئة بوجه عام وبشكل ملموس وأخذت وسائل الاتصال الجماهيرى تحل محل الأسرة رويداً رويداً.

ولما كانت نزعات وميول الفرد تتحكم فيه إلى حد كبير بل وتديره فى كثير من الأحيان وتتدخل فى تشكيل سلوكه بأسلوب يختلف كثيراً عنه عندما يكون عضوا له دور فى جماعة . ويستطيع أى باحث مدقق أن يرى انعكاس هذا السلوك بصورة واضحة على البناء الاجتماعى فى المجتمع الآوروبي مما أضعف الاحساس بالمسئولية العامة إلي حد كبيير بحيث ظهرت فيه الشخصية كنمط فردي ذا مسئولية فردية يتفاعل فيها أثر الأسرة في التنشئة الاجتماعية (٣٦) .

العموميات الثقافية :

إن تعقد الثقافة يظهر فى أنه على الرغم من أن المجتمع كله تسوده ثقافة واحدة ذات طابع موحد فليس من الضرورى بحال أن توجد كل السمات التى تؤلف تلك الثقافة الموحدة ، فى كل قطاعات ذلك المجتمع . بل كثيرا ما يقتصر وجود بعضها على قطاع منها أو على مجتمع محلى معين بالذات دون بقية القطاعات أو المجتمعات المحلية التى تؤلفه . والمعروف أن الذى يعطى الثقافة طابعها المميز ومقوماتها الخاصة هو وجود طائفة من السمات الرئيسية العامة التى تسود المجتمع كله وتفرض نفسها عليه والتى تعرف لذلك باسم"العموميات universals" وتتمثل هذه العموميات الثقافية فى وحدة المشاعر ووحدة التقاليد والعادات والممارسات التى يشترك فيها كل أعضاء المجتمع ، كالشعائر والمعتقدات الدينية واللغة وما إليها من السمات التى تعتبر أسسا جوهرية فى تكوين المجتمع ، والتى تحرص الجماعة عليها أشد الحرص وتعاقب على الخروج عليها . بيد أن هذا لا يمنع من أن توجد فى كل قطاع من قطاعات المجتمع ، أو فى كل جماعة محلية فيه ثقافته الجزئية الخاصة . فعلى الرغم من وحدة السمات الثقافية الأساسية أو " العموميات" فقد ينفرد الرجال ببعض قواعد السلوك وبعض الممارسات من دون النساء ، كما قد يكون للمتزوجين أو الآباء عادات اجتماعية تميزهم عن العزاب وعن الأبناء وهكذا . وإذا كانت "العموميات" هى التى تعطى المجتمع وحدته الثقافية وتعبر فى الوقت نفسه عن تلك الوحدة ، وبذلك تعتبر عاملا من عوامل التكامل والتماسك فى المجتمع ، فإن "الخصوصيات Speialites" تؤدى إلى ظهور التمايز والتغاير والتفاوت داخل نطاق المجتمع ،

دون أن يتعارض ذلك مع التجانس الثقافى العام . والواقع أن التجانس الثقافى يتوقف إلى حد كبير على مدى التناسب بين العموميات والخصوصيات ، بمعنى أنه كلما زادت العموميات ظهر المجتمع كوحدة ثقافية متجانسة ، كما هو الشأن فى المجتمعات الصغيرة والمجتمعات المنزوية بعض الإنزواء. ولكن هذا لا يمنع من القول بأن "العموميات" أقل فى العدد دائماً من "الخصوصيات" رغم أنها تسود المجتمع كله . وليس معنى هذا أن "الخصوصيات" لا تكون معروفة إلا فى المجال الضيق الذى تمارس فيه . فقد يدرك أعضاء المجتمع الكبير وجودها ، ولكنها لا تؤلف جزءا من أنماطهم السلوكية أو من تقاليدهم إما لأنهم لا يحتاجون إليها فى حياتهم اليومية ، وإما لأن ممارستها تحتاج لنوع معين من المران أو الاستعداد لا يتوفر لهم جميعاً . فالشأن هنا إذن شأن بعض النظم الاجتماعية التى قد يقتصر وجودها على قطاع معين من المجتمع ، والواقع أن كلمة " العموميات" نفسها تحتاج إلى شئ من التوضيح ، لأنها قد توحى إلى الذهن بأن السمة الثقافية العامة تمارس بحذافيرها فى كل المجتمع وتفرض نفسها على جميع أفراده بغير استثناء ، وهو أمر غير صحيح تماماً . فالموقف الواحد كثيراً ما يمكن معالجته بطرق مختلفة وبأساليب ثقافية متنوعة . فإذا كان طهى اللحم وإنضاجه بطريقة معينة بالذات . بل إن ذلك قد يتخذ أشكالاً عديدة تختلف من شخص لآخر ، بل ومن وقت لآخر بالنسبة للشخص الواحد. أى أنه يمكن التميز فى كل سمة من هذه السمات العمومية بين عدد من "البديلات alternatives" أو الأنماط المختلفة التى يمكن تطبيقها فى الموقف الواحد.(٣٧)

وعلى أية حال ، فالذى يهمنا هنا هو أن ندرك أن "العموميات" الثقافية هى التى تعطى المجتمع تجانسه الداخلى ضد قوى التغاير التى تمثلها "الخصوصيات" الثقافية . وليس من شك فى أن أية محاولة لدراسة الثقافة التى تسود أى مجتمع من المجتمعات المحلية ، مهما صغر حجمه ومهما بدا من تجانس ثقافته وبساطتها ، ينطوى على كثير من الصعوبات الناشئة عن ضرورة البحث عما تنطوى عليه السمات الثقافية العامة من "بديلات" وما يختفى تحتها من "خصوصيات" حتى يمكن فهم الثقافة فى وحدتها وتكامل أجزائها ، فالمهم فى الأمر ليس هو البحث عن السمات التى تؤلف الثقافة والعناصر التى تدخل فى تكوين كل سمة على حدة ؛ وإنما المهم هو دراسة تكامل هذه العناصر والسمات والملامح رغم كثرتها وتعقدها إذ مهما يكن من تعقد الثقافة وتركيبها فإنها ليست فى آخر الأمر مجرد مجموعة من الملامح المستقلة المنعزلة إحداها عن الأخرى ، بل هى بالأحرى " كل واحد متكامل ، تتألف فيه جميع العناصر الجزئية رغم اختلافها وتنوعها بل وتضاربها فى بعض الأحيان وكثيرا ما توجد سمات ثقافية بعينها فى أكثر من مجتمع واحد ، ولكن ترتيب هذه السمات وعلاقاتها بعضها ببعض يختلف فى كل مجتمع عنه فى المجتمعات الأخرى ، مما يؤدى فى النهاية إلى اختلاف صورة الثقافة أو شكلها فى كل منها . أى أن تشكيل الثقافة يتوقف إلى حد كبير على ترتيب هذه السمات داخل المجتمع وفق مبدأ معين أو عدد من المبادئ أو أنساق القيم السائدة هناك.

فالأمر هنا أيضا يشبه إلى حد كبير ما سبق أن ذكرناه عن تداخل النظم الاجتماعية المكونة للبناء الاجتماعى . والواقع أن

علماء الأنثربولوجيا الثقافيين لا يغفلون هذه المسألة ، بل أنهم ينهجون فى دراساتهم النهج الوظيفى الذى تتبعه الدراسات البنائية ، وإن كان هذا لا يمنعهم من أن يؤولوا الثقافة تأويلات سيكولوجية أو تاريخية . فهم جميعاً يؤمنون بأن السمات الثقافية فى المجتمع الواحد تندمج بعضها مع بعض ، بل أنها قد تتفاعل مع عناصر وسمات أخرى من خارج ذلك المجتمع ، وهذا هو ما يدفع الكثيرين منهم إلى محاولة تتبع السمات الثقافية فى المكان مثلما يتتبعونها فى الزمان .(٣٨)

الشخصية والتفاعل الاجتماعى :-

تعتبر الثقافة نموذجاً لتجربة مستمرة حقق لها ذلك عملية التفاعل الاجتماعى للجماعات المختلفة ، وإذا كانت الجماعات هى حاملة للثقافة ، فإن الفرد يكتسب معظم سلوكياته من هذه الجماعة ففى مجتمعنا يتعلم من الأسرة الكثير ثم بعد ذلك جماعة الرفاق ، ثم أخيرا نتعلم عن طريق الكنيسة والمدرسة والمؤسسات الرسمية الأخرى ، وذلك طبقا للوضع الاجتماعى والثقافى ويوضح ذلك أهمية العلاقة بين المجتمع والثقافة والشخصية ، وهذه الموضوعات مترابطة مع بعضها البعض لدرجة أنه يمكن فصلها فصلاً نظرياً وليس عملياً .

إن التفاعل الاجتماعى عامل هام لتكوين الشخصية إننا نكتسب اتجاهاتنا التى نعتقد فيها من خلال اتجاهات الآخرين فنحن وقورون ، مغرورون واثقون أو جبناء بسبب الاتجاهات التى يصوبها الآخرين نحونا ، فالذات التى هى لب الشخصية لا يمكن أن تكون معزولة عن الآخرين.(٣٩)

كما أن للكائن البشرى جهازا موروثا يجعله قادرا على تعلم السلوك الذى يتوقعه المجتمع ، ولذلك فإن الطريقة التى يشارك من خلالها فى هذه العلاقات تحدد شخصيته ، ويمكن له تعديل استجاباته لتلبية وتحقيق أية توقعات ثقافية من خلال إمكاناته الوراثية والبيولوجية ، وأن كانت هذه العوامل تختلف من شخص إلي آخر . وليس ثمة شخصان لديهم تشابه تام من ناحية الجينات الوراثية ، ومن هنا كانت الفروق الفردية لهذه الاختلافات الوراثية مهمة جداً فى تحديد أساس الشخصية ، وتشكل عنصرا مرشداً للبيولوجي وعالم النفس ، ولكن الباحثة هنا تهتم بالتأثيرات الاجتماعية والثقافية التى تكون مع الجانب البيولوجى أساساً لتكوين الشخصية المتكاملة ، ولهذا فإن الشخصية الإنسانية هى نتاج لسنوات التعلم من أوضاع اجتماعية وثقافية مختلفة ولهذا فإن الشخصية تؤسس على ظروف بموجبها يشارك الفرد فى التفاعل الاجتماعى . إن هذه العملية تبدأ من اللحظة التى يأتى فيها الفرد إلى الدنيا كحيوان صغير متمتعا بموهبة إمكانات أن يصبح كائنا بشريا ، ولكنه يحتاج إلى علاقات اجتماعية واسعة لرعاية هذه الامكانات إن هذه العلاقات تشمل اهتمامات الحب من أمة ، وسعادته مع رفاقة فى اللعب ، وتعليمات مدرسية ، ونشاطه فى المجال الرياضى أن عملية التفاعل عملية مركزية ولازمة لهذا النمو ، ولهذا فإن الشخصية تنشأ وتستمر للتواجد فى العلاقات المتبادلة بين الأفراد.(٤٠)

كما أن التنشئة الاجتماعية عملية واعية (شعورية) ، وغير شعورية فالجماعة الاجتماعية قد تلقن الطفل عمدا توقعات ملائمة حتى يستطيع أداء سلوك مسئول خلال حياته . فالأم تعلم إبنها كيف

يتحدث ، وكيف يمشى وكيف يأكل وهى بهذا تقدم مثالا حيا للتنشئة الاجتماعية الواعية ، أما عندما يتعلم مجموعة من المهارات والأدوار والتطلعات فهو يتعلمها بدون إدراك لما يفعله ، فقط هو يفعل ذلك عن طريق الارتباط بالتفاعل مع الآخرين . وبهذا ينشئ الطفل اجتماعيا عن طريق مجموعة من الطرق . فمثلا جماعة اللعب حيث يقدمون لبعضهم البعض نماذج من المثاليات التى اكتسبوها ، كما تعدل النماذج غير المثالية عن طريق بقية الرفاق ، ومن ثم تتعلم هذه الجماعات الخاصة بالمراهقين عادات وأعراف المجتمع ككل.

الاتصال والتفاعل الاجتماعي :-

يحدث التفاعل الاجتماعى من خلال الاتصال الرمزى . ويمثل الرمز كلمة أو إشارة أو إيماءه تقبلها الجماعة ، وقد يتراوح معنى الرمز اللفظى من تلك التى تمثل كلمة مثل (قلم رصاص) إلى مضامين أكثر تعقيداً مثل كلمة (الله) ، ولهذا فإن القدرة على الاتصال من خلال رموز مجردة هى أساس للتفاعل الاجتماعى ولنمو الشخصية أيضا ، وهذه صفة وهبها الله للكائن البشرى ، أما الحيوانات فاتصالها يكون من خلال الصيحات والإيماءات .

ويوضح ذلك أهمية اللغة كعامل أساسى لتنمية الشخصية ولهذا تمتلك الرموز اللغوية خصائص عامة بالنسبة لجميع المجتمعات وذلك على النحو التالى :-

١- اللغة نظامية ، إن رموز اللغة نظامية لأنها تمثل أنظمة للمعانى . فأى جزء للنظام لا يمكن فهمه بدون فهم باقى الأنظمة . فكلمة (زوج) تكون ذات معنى على ضوء نظام

الرموز المشتمل على كلمة (زوجة) ولهذا فإن الطفل يطور شخصيته بواسطة تعلم نظم لمعانى ثقافية .

٢- اللغة ذات طبيعة اجتماعية موروثة ، عندما تستمد اللغة المعنى من خلال استخدامها ، ومن خلال الموافقة أو القبول المتبادل ، وهى تعطى ردود أفعال متشابهة بالنسبة للمتكلم ، وبالنسبة للمتلقى لأن لها معنى واحد يفهمه الطرفان .

٣- إنها تنطلق بشكل اختيارى ، فرموز اللغة يمكن أداؤها بواسطة أى شخص وفى أى وقت سواء كان وحيدا أو فى صحبة الآخرين ، ولهذا فإن الطفل يتابع عملية التنشئة الاجتماعية عن طريق التحدث مع نفسه فى غير وجود الآخرين ، ولذلك تنمو الشخصية من خلال الاتصال ، وتكون بدايات اللغة بالنسبة للطفل اعتباراً من الشهر العاشر عندما يحدث صرخات ذات معنى.

إن كلمة ماما هى الكلمة الأولى لدى الطفل ، إن هذا الرمز يمثل أهم الجوانب التى تدرس فى حياة أى طفل وبيئته الأولى .

كما حنان الأم يساعد الطفل على استخدام إيماءات وإشارات عفوية تعطى معانى معينة . إنها أى الأم تحس وتشعر من لهجة طفلها ماذا يريد سواء إذا كان يريد أن يشرب أو يغير ملابسه أو لمجرد أن يكون متضايقا إن الأم هنا تمثل حلقة وصل بين الطفل وبيئته بما يسمح له بالشعور بالأمن ويشعر الطفل بالسعادة وبانه امتلك ناحية المبادرة عندما ينادى (ماما) .

ويجب على الطفل أن يطور وينمى مفرداته الكلامية أو اللغوية حتى يستطيع الاتصال بالآخرين وعندما يصبح فى عامة الثانى من العمر يكون لديه حوالى ٢٥٠ مفردة أو كلمة يتحدث بها وتتسم

شخصيته بمزيد من الثبات وتزيد اتصالاته وتداخلاته مع الآخـرين ويعرف أن للأشياء أسماء حيث يعرف الأسماء أولاً ومن ثم يعرف الأفعال ثم بعد ذلك يتعلم كيف يشارك بطريقة أكثر وبشكل كامـل فى المجتمع ، ومع استمرار تدفق المفردات لديه فإنه يبدأ أيضاً فى اكتساب التوقعات المتعارف عليها فى المجتمع ويبدأ فـى معرفـة الصواب من الخطأ وأن يفرق بين هذا وذاك وذلـك علـى هـدى وضوء تعريفات الثقافة لديه ، وقبل أن يخبر والدتـه بالشـجار أو المشاجرة التى حدثت بينه وبين آخرين فى الملعـب أو (الحـوش) يجب أن يصيغ هذه الخبرة فى شكل مجرد ورمـزى ، إن عمليـة الصياغة هذه وعملية الإخبار بالأحداث هى فى حد ذاتهـا تربيـة وتعليم له ، وتزيد من رصيد الخبرات داخل عقله ، وبهذه الطريقة ، فإن الخبرات اليومية تصبح جزءاً مـن شخصـيته المتناميـة ، ويسترجع الطفل ويختزن فى عقله ما حدث له مع الأصـدقاء مـن الأشياء الإيجابية أو السلبية ، ويتخذ دفاعات وآليات دفاع مناسـبة مع أعدائه ومع الآخرين ويختزن عندئذ الاسـتجابة الوجدانيـة أو الانفعالية وتزيد خبرته وتقوى شخصيته من خلال رموز اللغـة أن الطفل الذى يشب وينمو فى ظل أسرة مثقفـة أو متعلمـة يكتسـب مبكراً مفردات لغوية كثيرة يختلف عن قرينه الذى ينشأ بين أسـرة ضعيفة أو متواضعة ثقافياً.(٤١)

نشأة الثقافة واستمرارها

يرجع الاهتمام بالبحث عـن الأصـول التاريخيـة للثقافـة وانتشار الملامح الثقافية إلى القرن التاسع عشر ، وهو اهتمام ناشئ إلى حد كبير من تصور العلماء للثقافة على أنها حصـيلة النشـاط البشرى ، وقبولهم بالتالى لفكرة استمرار الثقافة عبر الزمن ، وقـد

كانت الفكرة العامة التى سيطرت على أذهان العلماء فى ذلك الحين هى فكرة التقدم والإطراد . إذ كانوا يعتقدون أن الثقافة تتقدم بالضرورة من المستوى البدائى إلى المستويات الراقية مارة بمراحل معينة اختلف العلماء حول تحديد عددها وخصائصها ومقوماتها ، ولكنها تتفق كلها فى أن المرحلة اللاحقة أعلى وأرقى من التى سبقتها ولكنها تهيئ وتمهد الطريق لظهور مرحلة أخرى أرقى منها هى ذاتها وأكثر تقدما . وقد اضطر هؤلاء العلماء إزاء النقص الشديد فى المعلومات الإثنوجرافية المؤكدة عن ماضى تلك الثقافات إلى الالتجاء إلى التاريخ الظنى او التخمينى ، ولكنهم كانوا فى الوقت ذاته يحاولون الاستعانة بالمعلومات التى بدأت ترد بكثرة عن المجتمعات "البدائية" المعاصرة لهم. وكانوا يفترضون فى ذلك أن ثقافات هذه الشعوب والمجتمعات تمثل المراحل الأولى للثقافة البشرية فى عمومها ، على زعم أن " الرجل البدائى" يمثل طفولة الجنس البشرى ، مثلما يمثل الطفل الصغير أولى مراحل نمو الإنسان إلى النضج والإكتمال . وأدى بهم ذلك كله إلى نظريات ونتائج ليس هناك ما يسندها أو يبررها ، وليس هنا مجال التعرض لها بالدراسة والتحليل.(٤٢)

كذلك استرعى أذهان هؤلاء العلماء قدرة الثقافة على الإنتشار من مجتمع لآخر وانتقالها عبر الحدود السياسية ، وما يوجد بالتالى من تشابه فى السمات الثقافية لدى كثير من المجتمعات المتباعدة فى المكان والتى تؤلف وحدات سياسية بل وسلالية ولغوية متمايزة . وقد وقف علماء القرن التاسع عشر إزاء تفسير هذا التشابه موقفين مختلفين . أما الموقف الأول فإنه يرد تشابه السمات الثقافية فى مختلف المجتمعات إلى تشابه الظروف الطبيعية السائدة فى تلك

المجتمعات ، وذلك على أساس أنهم كانوا يسلمون بتشابه التفكير الإنسانى فى كل زمان ومكان نتيجة لتشابه التكوين العقلى عند جميع البشر . ويعرف هذا الاتجاه فى الكتابات الإثنولوجية باسم "مدرسة النشأة المستقلة" . وقد تأثرت تعاليمها على الخصوص بفلسفة التنوير وحتمية الظروف الطبيعية والبيئية ، بحيث نجد أن كبار أتباعها – وهو العالم الإثنولوجى الألمانى أدولف باستيان Bastian – يذهب إلى حد القول بأنه إذا توافرت ظروف طبيعية وجغرافية معينة لظهرت أنواع ميعنة بالذات من الاختراعات والابتكارات . فكأن الاختراعات تظهر تلقائيا إذن استجابة للحاجات الطبيعية وبشكل يكاد يكون غريزيا ورغبة فى سد هذه الحاجات . وقد وجهت عدة انتقادات لهذه المدرسة على أساس أن كثيرا من القبائل البدائية تفتقر أصلا إلى عنصر الأصالة لأنها وصلت إلى درجة من التأخر الفنى والتكنولوجى يصعب معها أن نعزو إليها أية قدرة على الخلق والابتكار . كما أن قبول مبدأ تحكم الحاجات الطبيعية المتشابهة فى إنتاج أشياء متشابهة فى المجتمعات المتباعدة، سواء فى الزمان أو المكان ، يكاد يصل إلى حد إقرار وجود غرائز معينة تؤدى إلى إنتاج هذه الأشياء تلقائياً . وبذلك فقد يمكن الكلام – كما يذكر تايلور فى معرض نقدة لهذه المدرسة– عن "غريزة صنع القوس والسهم " مثلما نتكلم عن غريزة حب " قاء مثلا" .(٤٣)

وأما الموقف الثانى فإنه يرد التشابه الثقافى إلى انتشار السمات الثقافية من مجتمع لآخر نتيجه لاتصال هذه المجتمعات بعضها ببعض عن طريق الحروب والغزوات أو عن طريق الهجرة أو التجارة أو غير ذلك من الوسائل . أى أن أنصار هذا الاتجاه

يرفضون على العموم فكرة تلقاية الثقافة أو الابتكار والاختراع بالنسبة لكل مجتمع على حدة ، ويرون أن من غير المعقول أن تتمتع كل شعوب الأرض بقدرات متماثلة على الخلق والابتكار ، ولكنها تستطيع بسهولة أن تستعير من غيرها ما تعجز عن ابتكاره بنفسها . وقد يتخذ الانتشار الثقافى شكل الهجرة الشاملة ، بمعنى أن ينتقل المركب الثقافى برمته وبكل ملامحه وسماته وعناصره من مجتمع لآخر ، كما هو الحال مثلا فى انتقال "مركب الماشية" من قبيلة لأخرى فى كل شرق وأواسط إفريقيا ، أو انتقال "مركب الأرز البرى" بين قبائل سهول أمريكا إذ نجد فى كل من الحالتين تشابها عاما حتى فى أدق التفاصيل عند كل هذه القبائل فيما يتعلق بنظرتها إلى الماشية فى الحالة الأولى ، وإلى الأرز البرى فى الحالة الثانية ، ولكن كثيرا ما تكون هجرة المركب الثقافى جزئية فقط ، بمعنى أنه لا ينتقل منه إلا بعض عناصره دون البعض الآخر ، كأن تنتقل الطريقة التى يتبعها شعب معين أو قبيلة معينة فى زراعة أحد المحصولات إلى الشعوب أو القبائل المجاورة دون أن تنتقل فى الوقت ذاته الأفكار والمعتقدات والطقوس الدينية التى ترتبط بهذه الزراعة فى المجتمع الأصلى . ولقد حاول كثير من العلماء الانتشاريين أن يتتبعوا السبل التى سلكتها السمات الثقافية المختلفة فى انتقالها وهجرتها من وطن نشأتها الأولى إلى بقية أنحاء العالم ، مثلما فعل العالم البريطانى إليوت سميث فى كثير من كتاباته . ولكن الملاحظ هنا أيضا هو انعدام وجود الأدلة القاطعة اليقينية على صدق معظم هذه النظريات وصحتها . فقد كان يكفى وجود بعض نواحى الشبه بين السمات الثقافية فى مجتمعين مختلفين للزعم بوجود اتصال سابق بينهما ، والقول بالتالى بانتشار أحدهما

للاخر ، حتى ولو لم يكن هناك ما يدل بأى حال من الأحوال علـــى وجود مثل هذا الاتصال فى الواقع . كما يلاحظ أيضـــاً أن معظـــم كتاباتهم كانت تتناول الثقافة فى إطلاقها وعمومـــا دون أن تركـــز على ثقافة شعب واحد معين ، فضلا عن ثقافة مجتمع محلى محـــدد على ما يفعل العلماء المحدثون ، ومن هنا كانـــت جهـــود هـــؤلاء العلماء تنصب على محاولة إعادة تركيب تاريخ الثقافـــة الإنســـانية ورسم المراحل التى مرت بها خلال تاريخها وتطورها ، والطـــرق التى سلكها فى انتشارها ، وما طرأ عليها أثناء ذلك كله من تغيرات (٤٤).

عوامل نشأة الثقافة واستمرارها

أما عن عوامل نشأة الثقافة واسمرارها فقد اختلفـــت الآراء حول تحديد أهم العوامل التى مهدت لنشـــأة واســـتمرار الثقافـــة أو الحضارة ، وقد أرجعها بعض علماء الاجتماع إلى العوامل الآتية:- (٤٥)

أولا :- الجبرية المكانية (الحتمية الجغرافية) :-

وتدعوا إلى أن العوامل الجغرافيـــة تقـــرر وتصـــمم حيـــاة المجتمعات من حيث توزيع السكان على الأرض ، طراز المساكن البشرية ، وكذلك وسائل النقل واللباس والطعام وما إلى ذلك ، وأن أى تغير يصيب البيئة سيكون تغيرا فى استجابة الكائن الحى لهـــا ، وأن كل اختلاف فى البيئة الطبيعية يعنى اختلافاً فى العادات وفـــى أساليب المعيشة ، وبمغنى آخر أن عادتنا وأساليب حياتنـــا ســـوف تختلف كلما اختلفت البيئة الطبيعية . ولقد ذهب العـــالم الانجليـــزى بكل Bukle إلى التأكيد على الحتمية الجغرافية حيث لعـــب دوراً بارزا فى ابتداع شكلا من أشكال الحتمية الجغرافيـــة فـــى الفكـــر

السوسيولوجى ، فقد اعتقد أن للبيئة الجغرافية أثرها القوى عند البدائيين غير أن هذا التأثير يأخذ فى التناقص كلما تقدمت الثقافة ، حيث تتميز المراحل اللاحقة بسيطرة الإنسان على الظواهر الطبيعية الخارجية ، ويعطى كل من أوجبرن ونيمكوف التوضيح الكافى حول هذا الموضوع فيقولان أن الطبيعة إذ تخلق كل الظواهر الطبيعية فإنها لا تخلق معها وسائل استغلالها والإفادة منها و إنما يرجعان إلى أهمية دور العقل والحضارة البشرية فى النمو فى الوصول إلى استخدام هذه البيئة لمصلحته والتحرر منها حسبما تقتضيه مصالحة ، ويضيف ماكيفر بأن الحضارة نفسها قادرة على أن تعدل من تأثيرها الجغرافى ولا يمكن لها أو عواملها أن تحدد بنفسها مجرى الأحداث الإنسانية ، ولهذا نرى كثيراً من الجغرافيين المعاصرين قد أخذ بأهمية الجانب الاجتماعى ، فالقول بأهمية عامل الجبرية المكانية التى نادى بها الجبريون الطبيعيون قد قضى عليه الإنسان أوكاد ، فقصة الحضارة – إلى حد كبير – هى قصة صراع الإنسان مع هذه الجبرية ، وقد تمرد وتغلب عليها الإنسان ، وهذا يتضح من تمهيده للأرض – وزراعتها وإنارة الظلمات واستئناسه للحيوانات وغير ذلك من سلطات الإنسان على البيئة الطبيعية .(٤٦)

ثانيا :– التفوق العنصرى :–

ويؤكد هذا الاتجاه بأن الحضارات العظيمة ، قد اختص بها عنصر من الجنس وهم الاريون ، وأن عناصر أخرى من شأنها أن تنتفع بتلك الحضارات وتحافظ عليها ويقصد بذلك الجنس الأبيض ، أما العناصر الأخرى وهم الملونين ،فشأنهم فى هذه الحياة هو القضاء على الحضارات العظيمة التى صنعها قوم وانتفع بها

آخرون ، وأن صيانة الحضارة واجب مقدس ، وهذا الواجب يفرض سيادة العنصرى .

ويعتبر آرثر جوبينو باعث النظرية العنصرية فى علم الاجتماع ، فقد أكد على أهمية العامل العنصرى فى التطور الاجتماعى وأسباب ظهور المدنية ، وانحطاطها ولقد استمرت النظرية العنصرية Racism من بعد جوبينو ، وظهرت من خلال عمل شامبرلين الذى سار على منوال سلفه ، إلا أنه اعتقد بأن الاختلاط العنصرى لا يكون دائماً معوقاً ثقافياً ، فيمكن أن تظهر نتيجة لهذا الاختلاط أنواعاً مرغوبا فيها ، ولقد انتقد جنزيرج أسطورة العنصر فى السيطرة على البيئة الاجتماعية ، وناقش أصحاب النظرية العنصرية فى تحديد معالم الحضارة والتقدم بالنقاط التالية .

١- أرجع بعضهم أسباب المستويات الحضارية إلى الاختلافات والمواهب الفطرية الكامنة فى الجنس ، فى حين أوضح جنزيرج بأن هذا الادعاء تافهة .

٢- ادعى أصحاب النظرية العنصرية أن أسباب تدهور المدنيات أو الحضاره يرجع إلى أسباب عنصرية ، والواقع أن هذا يعوزه الدليل العلمى . حيث أن للعوامل الاجتماعية والاقتصادية المتشابكة دورها الفعال .

٣- عند بحث علماء الآثار فى بحوثهم قبل التاريخ الأوروبى ، نلاحظ أنهم ربطوا الحضارات بجماعات معينة من الأجناس ، بينما تدل الشواهد أن حملة الحضارات هى الشعوب وليس الأجناس .

ثالثا:- الجبرية الزمانية :-

وينادى بها التطوريون منهم والمحدثون متأثرين فـــى ذلـــك بالمنهج الحيوى وبالتفكير الداروني في جعل التطور الثقافي يبدأ من البسيط ويسير إلى المعقد كما يحدث فـــى العـــالم البيولـــوجي ، أو الطبيعي لكن لم تصب هذه النظرية كثيرا فيما ذهبت إليـــه حيـــث نشاهد وجوها للثقافات البشرية المختلفة فى المجتمعات المعاصرة ، فالطقوس الدينية اليوم – وفى أرقى المجتمعات – أقل تعقيداً وأكثر بساطة مما يزاوله الاستراليون القدامى مثلا وأيضاً تعـــد اللغـــات البعيدة الانتشار والتى تعبر عن أكثر المسائل العقلية تجريدا أبســـط من كثير من اللغات البدائية من حيث تركيباتها واستعمالاتها بل أن هذه اللغات نفسها تطورت عن لغات أخرى كانت أصـــولها أكثـــر تعقيدا منها ، والنظام العائلى كنظام آخر ، إذ أن الأسرة الزوجيـــة التى انتشرت فى المجتمعات المعاصرة ، أقل حجما ووظيفة عـــن الأسرة الكبيرة التى عرفتها البشرية فى صورها المختلفـــة وهكـــذا يخفق أصحاب هذا الاتجاه فى إسنادهم نشأة الثقافـــة إلـــى عامـــل الجبرية الزمانية كلية .

رابعاً : الحتمية الاقتصادية :-

ويرى أصحابها أن العامل الاقتصادى هو الأساس فى نشـــاة الثقافة وتغير المجتمعات فهو الذى سيؤدى إلى تغير العلاقات والقيم الاجتماعية والمؤسسات الاجتماعية والأسرة والدين وما إلى ذلك .

وتتلخص نظرية كارل ماركس فى أن كل ما يحـــدث فـــى المجتمع البشرى مرجعة وأساسه العامل الاقتصادى ، وهـــو فـــى نظره أساس الأنشطة اليومية والتحولات الاجتماعية والقيم الأخلاقية

بمعنى أن العمل الذى يحدد عملية التطور هو العامـــل الاقتصـــادى ولهذا فقد قسم المجتمع إلى البناء التحتي وهو القاعدة الاقتصـــادية والبناء الفوقي ويتجسد في الجوانب القانونية والسياســـية القانونيـــة والسياسية وغيرها واعتبر أن أى تحسين علـــى وســـائل الإنتـــاج يتطلب من جهة نموذج جديد للإنسان ومميزات جديدة من مهارات ومواقف – هذا ولقد وجهت انتقادات كثيـــرة مـــن قبـــل البـــاحثين للنظرية الماركسية فى التطور ، فنيقولا تيما شيف يقول أن ماركس اعتمد على جانب واحد من الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وهـــو العامل الاقتصادى فى التـــأثير وتحريـــك كـــل محتويـــات البنـــاء الاجتماعى واعتبار القيم والفن والفلسفة نتيجة الأساس الاقتصـــادى المادى .

على الرغم من أهمية هذا العامل إلا أنه من العسير تفســـير كل الحضارات على هذا الأساس وذلك أن الإنسان فى سبيل نشاطه الاقتصادى قد استخدم أمورا غير اقتصادية من نظم وقـــيم ، الـــخ لذلك فالعامل الاقتصادى هو أحد العوامل وليس العامـــل الأوحـــد المفسر ، لنشأة الثقافة ، ففى واقع الأمر لا يوجد سبب اجتماعى أو ميتافيزيقى أو فلسفى أو نفسى أيا كان ، هو السبب الوحيد والمفسر لنشأة الثقافة وتطورها ، لأن تلك الأسباب هـــى مـــن اختراعـــات الإنسان وتصوراته ، واكتشافاته فى ظل حضارات معينة وأوقـــات متباعدة كما أن النظريات التكاملية التى تذهب إلى الإيمان بالأسباب المتعددة فترفض إرجاع نشاة الثقافة أو انتشارها إلى عامل واحـــد فكل تلك العوامل والأسباب تعتبر أساســـية وجوهريـــة إذ تعتمـــد وتتساند مع بعضها البعض لتنتج مركباً جديداً يختلف كل الاختلاف عن مكوناته فى صورته النهائية وإن كـــان ذلـــك لا يـــنقص مـــن

حصيلة كل الأسباب سالفة الذكر معا ، بعد أن تكون قد دخلت في علاقات مع مختلف النظم والتنظيمات القائمة ، وصيغت في القوالب والرموز الاجتماعية واختلفت شخصيتها الفردية وذابت كينونتها في الكل النهائي الذي هو مجتمع متحد مركب وليس هو منفرد ومستقلا »وفي هذا الصدد يعن لنا أن نطرح تساؤلا هاما وهو كيف يتم انتشار الثقافة من جماعة التي أخرى أو من وسط ثقافي إلى آخر في الواقع أن انتشار الثقافة معناه انتقال الخط الثقافي من جماعة إلى أخرى أو من وسط ثقافي إلى آخر ، وتنتشر الثقافات عن طريق الأفراد والجماعات فالأنماط الثقافية لا حياة لها في ذاتها ولا تنتقل إلا بواسطة الأشخاص الذين يحملونها.(٤٧)

أن الصبغة العامة التي كانت تميز التفكير الانثربولوجي في القرن التاسع عشر كانت هي الصبغة التاريخية ، وذلك إذا أخذنا "التاريخ" بالمعنى الواسع بحيث يشمل للتاريخ الظني أو التخميني ، مما كان يجعلها أقرب إلى الإنثربولوجيا ومنهجها التاريخي ويكفي أن نعرف أن تايلور نفسه كان يعتبر الانثربولوجيا علما تاريخيا في المحل الأول ، وكان لذلك يهتم بتتبع نمو الثقافة أو الحضارة وتطورها من عصور ما قبل التاريخ حتى الأزمنة الحديثة . ولقد كان هذا الاتجاه السائد في تأويل الظواهر الثقافية سببا من أكبر الأسباب التي دعت ميتلند maitland إلى أن يقول رأيه المشهور الذي لا يزال بعض العلماء يستشهدون به من أنه سوف يتعين عن الانثربولوجيا في القريب العاجل أن تختار بين أن تصبح "تاريخا" أو لا تصبح شيئا على الاطلاق وهو قول لم يتحقق تماما بفضل الاتجاه البنائي الذي ينفر على العموم نفورا شديداً من التاريخ إلا في بعض حالات خاصة تتعلق بدراسة المجتمعات التقليدية ذات الحضارات

الراقية القديمة ، كما هو الحال مثلا فى دراسة إيفانز بريتشارد للحركة السنوسية فى برقة .

ومع ذلك فإن رأى ميتلند يصدق إلى حد كبير على الانثربولوجيا الثقافية المعاصرة التى ترتبط ارتباطا شديدا بالانثربولوجيا ، فمع أن معظم الانثربولوجين الثقافيين لم يحفلون بدراسة الثقافة الإنسانية كلها بنفس الطريقة التى كان يتبعها علماء القرن التاسع عشر ، ومع انهم لم يعودوا يهتمون بتتبع المراحل التى مرت بها هذه الثقافة والسبل سلكتها فى انتقالها وهجرتها وانتشارها من مكان معين يفترضون أنه موطنها الأصلى ، فالواقع أنهم لم ينبذوا المنهج التاريخي تماما ، وإن كانوا يستخدمونه بطرق أخرى مختلفة تتفق مع تغير النظرة إلى الاثربولوجيا ذاتها . ذلك أن الاتجاه السائد الآن فى الانثربولوجيا نحو تركيز الدراسات الحقلية على مجتمعات محلية محدودة اقتضى من الانثربولوجيين الثقافيين أن يكتفوا بدراسة الثقافة التقليدية فى ذلك المجتمع بالذات والتغيرات التى طرات عليها نتيجة للاحتكاك الثقافى ، دون أن يضطرهم الأمر إلى البحث عن أوجه الشبه أو الاختلاف بين هذه الثقافة المعينة وغيرها من الثقافات فى بقية أنحاء العالم وفى العصور والأزمان السابقة ، أو محاولة ترتيب هذه الثقافات بحسب رقيها أو انحاطها مع تبيين موضع تلك الثقافة المحددة من النسق كله .

التطور الثقافى

ويظهر ذلك بشكل واضح فى كتابات فرانزبواس Frany Boas الذى يعتبر بحق شيخ الانثربولوجيين المحدثين فى أمريكا ، فقد كان بواس يعارض بشدة الفكرة السائدة عن وجود صيغة واحدة ثابتة للتطور الثقافى ، تنطبق على الماضى مثلما تنطبق على

المستقبل بالنسبة لكل المجتمعات وبغير استثناء ،وأن التطور الثقافى يسير دائماً من البسيط إلى المركب فى مراحل معينة ومرسومة تحدد بالضرورة درجات التقدم التى أحرزها الجنس البشرى كله ، وذلك لم يمنعه من أن يؤمن بامكان دراسة التطور فى نطاق كل ثقافة على حدة ، كما لم يمنعه من الإقرار بحدوث التقدم فى بعض ميادين الثقافة كالتقدم فى ميدان التكنولوجيا مثلا : ومن هنا كان بواس يرى ضرورة الاكتفاء فى الأبحاث الأنثربولوجية على دراسة ثقافات معينة بالذات ، مع تتبع انتشار سماتها وملامحها فى مناطق ثقافية محددة وليس فى العالم أجمع ، وذلك تبعا لتوفر المعلومات والحقائق والبيانات اليقينية المؤكدة ، فلم يكن استخدام المنهج التاريخى فى نظر بواس يعنى إذن البحث عن تاريخ ثقافة الجنس البشرى كله ، وإنما هو دراسة تاريخ ثقافة مجتمع محدد بالذات ، كما أن الأنثربولوجيا ذاتها لم تكن تعنى عنده دراسة تطور الثقافة البشرية ومراحل ذلك التطور بقدر ما كانت تعنى دراسة ثقافات معينة يؤلف كل منها وحدة وظيفية متكاملة ومتماسكة . ولسنا نقصد بذلك أن بواس أسقط من حسابه كلية مسألة الاهتمام بالتاريخ الفلسفى للحضارة الإنسانية . وكل ما فى الأمر هو أنه كان يرى أن الوقت لم يحن بعد لمعالجة مثل هذا الموضوع الشائك المعقد ، وأنه يتعين على علماء الأنثربولوجيا قبل أن يقدموا على مثل هذه الدراسة أن يدرسوا أولا ديناميات الثقافة وعمليات التغير الثقافى التى تحدث بالفعل فى ثقافات محددة ومعينة بالذات دراسة تفصيلية مركزة ، ثم ينتقلوا بعد ذلك إلى تحليل عمليات التغير الثقافى فى هذه الثقافات تحليلا مقارنا لتحديد النماذج الثقافية الأساسية التى ينطوى عليها تاريخ الثقافة الإنسانية ككل . وهذا معناه ببساطة أن الخطوة الأولى التى يجب أن تقوم بها الأنثربولوجيا

الثقافية قبل أن تشغل نفسها ببحث مشكلات تطور الثقافة فى عمومها ، هى دراسة العمليات الثقافية التى تحدث فى المجتمعات القائمة الآن بالفعل . فلكل جماعة ثقافية تاريخ خاص بها نشأ نتيجة التطورات الداخلية التى حدثت فى تلك الثقافة وحدها ، وكذلك نتيجة للتأثيرات الغريبة الطارئة الى تتعرض لها هذه الثقافة من الخارج . وعلى ذلك فليس هناك أية "ضرورة سيكولوجية" تحتم سير التطور فى العالم بأسره حسب خطوات معينة بالذات ، كما أن أى محاولة لتحديد مثل هذه المراحل التطورية لن تساعد بحال على تفسير تاريخ الثقافة فى أى مجتمع واحد معين .

وواضح من هذا أن بواس كان يتبع فى دراساته منهج التأويل التاريخى رغم إيمانه بضرورة التركيز على دراسة مجتمعات وثقافات معينة بالذات ورغم أنه يعتبر من أكبر أنصار الاتجاه الوظيفي وأحد الذين وضعوا أسسه . إلا أنه اتجه هذا الاتجاه التاريخى لاعتباره أن أية ثقافات ليست فى حقيقة الأمر إلا حصيلة لنمو تاريخى معين يجب أن يلم به الباحث ليتمكن من فهم هذه الثقافة فهما دقيقا . ولكنه لم يكن يقصد بالتاريخ تلك الحتمية التاريخية الشاملة التى لا تترك شيئا للمصادفات أو للفرد لكى يؤثر فى سير الثقافة وفى التغير الثقافى . ومع ذلك فالظاهر أن هذا الموقف لم يكن يبدو كافيا فى نظر بعض العلماء الأمريكيين – وبخاصة كروبر KROEBER – لأن يضعه ضمن مدرسة التأويل التاريخى للثقافة ، وهى المدرسة التى يتبعها عدد كبير من علماء الثقافة أو الأنثربولوجيا الثقافية المعاصرين فى أمريكا .(٤٩)

وتنتشر الثقافة عادة عن طريقتين : (٥٠)

الأولى بطريقة عرضية :-

ومنه يتم انتشار الثقافة عن طريق الهجرات التى يقـوم بهـا الشخص فيتركون بلادهم بفعل عوامل الضغط الاجتماعى أو عوامل الطرد المادى حاملين معهم الأنماط الثقافية السائدة فى بلادهـم فـإذا لائمت الأنماط الثقافية الوسط الجديد الذى هاجروا إليه ، انتقلت هـذه الأنماط إلى ثقافة الوسط الجديد.

الثانية : الطريق الشعورى المتعمد :

وفيه يتم انتشار الثقافات عن طريق الهجرات الاستعمارية أو التجارية التى تهدف من خلال فرض ثقافتها إلى استغلال الشـعوب المستعمرة ويلعب عامل التحكم الجغرافى دورا هامـا فـى انتشـار الثقافات فإن السلالات البشرية تتخذ فى هجرتها وحركتها الطريـق الأقل ، مقاومة والتى تتشابك مع ثقافـة الشـعوب المهـاجر إليهـا (الأصلية) لتختلط مع ثقافتها أو تحل محلها أو تسيطر عليها وكثيـر من التغييرات التى طرأت على الثقافة المادية والفنية والروحية التـى ترجع فى كثير من الحالات إلى هجرات الشعوب وانتصار بعضـها على البعض الآخر . ذلك لأن تصادم الثقافات المختلفة نتيجة للغـزو أو الهجرة يعمل على سهولة انتشار الأفكار الجديـدة ، ويزيـد مـن صلابة ومقاومة الثقافة الخاصة بكل مجتمع ونلاحـظ أن المنـاطق المعزولة جغرافيا ذات ثقافات فيما يتعلق بانتشـار الثقافـة ونشـأة الأنماط الثقافة إلى مصدر واحد ومنهم من يرجعهـا إلـى مصـادر متعددة .

أ. نظرية المصدر الواحد :

يذهب أنصار هذه النظرية إلى أن الأنماط الثقافية نشأت من مصدر واحد ومن هذا المصدر انتقلت من وسط إلى وسط أو من جماعة إلى جماعة أخرى .

ب.نظرية المصادر المتعددة :

يذهب أنصار هذه النظرية إلى القول بأن الأنماط الثقافية نشأت فى منطقتين منفصلين عن بعضها ولكن أنصار هذا الراى ينقسمون إلى فريقين:-

فريق يقول بظاهرة المتوازيات الثقافية وهى أن نمطا ثقافيا معينا ينشأ فى منطقتين منفصلين وينتشر فى كل منهما بشكل متماثل وفريق آخر يقول بظاهرة الثقافات المتلاقية ، إذا كان هناك نمطان ثقافيان أو أكثر نشأت فى مناطق متعددة وقدر لهذه الأنماط الثقافية أن تتطور بصفة مستقلة وبشكل متباين حتى تبدو متشابهة بدون اتصال ثقافى .(٥١)

ويجد ربنا أن نشير فى هذا المجال إلى نظرية ، الاستمداد الثقافى أو الاستعارة الثقافية CULTURAL BORROWING التى كثيرا ما يعتمد عليها الاستعمار فى محاولة بسط سيطرته الثقافية على مستعمراته ومناطق نفوذه المختلفة عنه ثقافيا ومن النظريات الهامة فى هذا الصدد نظرية العلامة "تونبى" عند كلامه عن نمو وازدهار الثقافة أو انحطاطها ويكفى أن نشير إلى ملخصها فيما يلى:

أ. إن الخصائص الفردية المميزة للثقافة الأجنبية تكون أكثر قبولا وانتشارا من خصائصها العامة .

ب. إن قوة النفاذ لأى إشعاع ثقافى تكون عادة نسبة عكسية للقيمة لذلك الإشعاع .

ب. إن قوة النفاذ لأى إشعاع ثقافى تكون عادة نسبة عكسية للقيمة لذلك الإشعاع .
جـ- إن قبول عنصر من ثقافة أجنبية سيجر وراءه سائر عناصرها الأخرى .
د- إن هذا العنصر المفرد قد يكون أكثر إزعاجا للمدنية أو الثقافة القابلة أكثر مما لو تبنت كل المظاهر الثقافية الأجنبية كلها .
وآية ذلك أن الاستمداد التكنولوجى سيجلب بالضرورة تغيرات فى المواقف الاجتماعية والفكرية وتلك التغيرات ستجر ألوان أخرى من الاستمدادات العلمية والفلسفية والخلقية والدينية ...... الخ .
فضلا ما تتطلبه الذاتية الثقافية من ضمانات سياسية .

هذا ولتحقيق الانتشار الثقافى يجب توافر عدة عوامل منها وجود عناصر جديدة أو أنماط ثقافية مستحدثة بالنسبة للبيئة الاجتماعية المنتقلة إليها ، ومنها تقبل المجتمع الذى تنتقل إليه هذه الأنماط الجديدة أو بعض طوائفه لتلك العناصر وخاصة إذا كانت تتمشى مع إمكانياته المادية وتساير إلى حد ما أيدلوجيته المذهبية والفكرية وتجارى أساليب الترابط الثقافى بين البيئتين المنقول منها والمنقول إليها تلك العناصر الثقافية كأن يجمعها وحدة اللغة والسلالة كما هو الشأن فى المتحد الثقافى بين أجزاء الأمة العربية فهناك جذور أصلية متداخلة من وحدات حضاراتها منذ النشأة الأولى ، فهذه الجذور تعتبر نواة ونقطة للإشعاع الثقافى ويعبر عنها اصطلاح CORE ومنها تشع المتغيرات المحدثة فى الثقافة التى تمهد السبيل لنمو وازدهار الثقافة.(٥٢)

التباين الثقافى وأثره فى التنشئة الاجتماعية :-

من الملائم هنا أن نبدأ بسؤال يتصل بتباين الثقافات فى المجتمعات المختلفة وأثر هذا التباين فى تنشئة الذكور والإناث . وعند محاولتنا لتناول هذا الموضوع فإن عملية تعلم الدور عند الذكر أو الانثى تدفعنا إلى ضرورة الالتفات إلى الثقافة التى يعيش فى كنفها من نريد أن ندرس أساليب تعلمه لهذا الدور على أساس أن الثقافة هى المؤثر الأساسى فى تشكيل أساليب التنشئة . ومن ثم ، واتساقا مع ما سبق أن ذكرنا يصبح الابوين أو الأسرة على وجه الخصوص هم حجر الزاوية فى تعلم نماذج الدور الذكرى أو الانثوى إذ يجد الطفل نفسه مدفوعا بالرغبة فى التقليد لمن هم حوله من الكبار بطريقة أو أسلوب غير واع أو هو أسلوب إلى أى دون تفكير . فهو يحاول – أى الطفل – أن يتصرف بالأسلوب أو الطريقة التى يتصور أن أباه أو أمه كانا سيتصرفان بها أن وجدا فى نفس الموقف والطفل فى الغالب لا يدرك أنه مدفوع إلى ذلك أو أنه يضع نفسه فى اطار بعينه أو بمثل هذا الشكل وهذا ما يطلق عليه علماء النفس عملية التوحد ، هذه العملية التى يمكن أن نصوغها على هيئة افتراضات يمكن عن طريقها تبيان أو توضيح الاختلاف فى الأدوار النوعية . فاولا يتوحد الأطفال سواء أكانوا ذكورا أو اناثا مع الأم فى المقام الأول ثم لا يلبث الأطفال من الذكور أن يتحولوا من هذا التوحد المبكر بالأم إلى توحد بالأب وهو ما يسمى بالتوحد الذكرى ثانيا يكون الأب فى العادة بحكم ارتباطه بالعمل خارج المنزل أقل فعالية من الأم فى عملية تربية الأطفال وتنشئتهم ومن ثم تجد الطفلة الأم كنموذج تتوحد معه مدة أطول مما يجد الطفل الذكر نموذج الأب ليتوحد معه . ثالثا فى

العديد من المجتمعات يعطى دور الذكر حقوقا أكثر مما يعطى لـــدور الانثى . كما أن لدور الذكر فى عدد ليس قليل من المجتمعات يأخـــذ قدرا أعلى من دور الأنثى .

وثمة مؤشرا على درجة كبيرة من الأهميـــة بالنســـبة لـــتعلم الأدوار التى تنبع من افتراض أن الطفل الذكر عليه أن يحول عمليـــة توحده من الأم إلى التوحد بالأب فى الوقت الذى ليس مطلوبـــا مـــن الفتاة أو الطفلة أن تحول توحدها مع الأم بنفس الطريقة وهذه العملية قد تسبب للطفل الذكر شيئا من القلق وانعدام الأمن .(٥٣)

هذا ويفرق "لين" بين نوعين من التوحد يحدثان أثنـــاء عمليـــة التنشئة الاجتماعية الأول يشير إلى التوحد مع الدور النوعى ويعنـــى ادخال الدور الذى يعد مناسبا لجنس معين ، كما أنه يشير إلـــى ردود الفعل اللاشعورية الخاصة بذلك الدور . أما النوع الثانى من التوحـــد فيطلق عليه التوحد الوالدى يعنى ادخال خصائص شخصـــية الوالـــد وردود اللاشعورية للفعل المشابه لتلك التى لدى الوالد .

وتتضمن عملية تعلم الدور النوعى بواسطة التوحد مع الأم اكســـاب الفتاة طريقة للتعلم يدخل فى اطارها العلاقـــة الشخصـــية والتقليـــد والمحاكاة فى الوقت الذى يكتسب الفتى طريقة للتعلم تتضمن اكتشاف الهدف من خلال دوره الذكرى .

هذا ويتحدد الدور وفقا للثقافة التى يشب فى أحضانها الفرد . فعندما يقوم الفرد بدور من الأدوار الاجتماعية فى مجتمع مـــا فإنـــه يكتشف أن هذا الدور معدا ومنظما تنظيما مسبقا وذلك عـــن طريـــق أنواع معينة من السلوك التى يباح له أن يقوم بها فى الوقت الذى يمنع أو يحال دونه واتيان أنواع أخرى مـــن الســـلوك حيـــث أن الأدوار الاجتماعية تكون أدوار معدة سلفا فى أى مجتمع من المجتمعات ومن

ثم فإن مجال الاختيار هنا أمام الفرد يكون محدودا . وعلى هذا لا يستطيع الفرد أن يتأتى له الاختيار أو الانتقاء إلا بدرجة محدودة من بين تلك الأدوار التى يمكن أن ينتقى – إذا كان هناك مجال للانتقاء – منها الدور الذى قد يتلاءم معه لأن الدور هنا يمثل مراكز معينة لا يستطيع هو التحكم فيها على أساس الجنس والعمر .

وعملية التنشئة الاجتماعية إنما تسعى إلى إعداد الفرد لكى يتسق مع النظم الاجتماعية السائدة فى المجتمع ومن ثم فهى تكسب الاتجاهات المشتركة بين أفراد المجتمع وكذلك المعايير والايديولوجيات التى تسود النظام الاجتماعى وتوجهه وكلما تكيف أعضاء المجتمع واتسقوا مع أدوارهم ووظائفهم كان قيام المجتمع بوظيفته أكثر كفاءة (٥٤) .

الشخصية والذات الاجتماعية :

تعتبر النفس أو الذات هى العنصر الأساسى فى حياة كل شخص تنشأ الذات داخل عملية التفاعل الاجتماعى وتستمر من خلال هذه العملية وبدون خبرة مبكرة ومستمرة مع الأشخاص الآخرين ، فإن النفس أو الذات لا يمكن أن تظهر أبداً لأن النفس تعتمد وتتبع المجتمع ، كما تعكس النفس موقف الجماعة والمشاركة الاجتماعية عندما يسمح للفرد أن يتصل مع الآخرين من خلال تداخلاته وتكوين اتجاهاته نحو نفسه .

كما أن الطفل الذى يشب دون أن يحصل على حب من الآخرين فسوف يجد صعوبة فى منح الحب للآخرين ، وسوف يعبر عن أحاسيسه الذاتية السلبية ، وبصفة عامة سوف يعمل على مهاجمة وتدمير هيبة الآخرين ويرجع ذلك إلى تقديره المنخفض لذاته ولنفسه ، إن كل شخص يحب نفسه ويقدر نفسه ويلوم نفسه ويكره نفسه

ويعاقب نفسه ، إن كلا من الفاعل والمفعول به لهذه الأفعال هو النفس (الذات) ، فالنفس هى نتاج التفاعل مع عدد من المواقف الجماعية ، فإذا اتسمت هذه المواقف بالحب والود خلال المرحلة المبكرة من العمر فإن التوجه العام عن الذات يصبح مأمون الجانب ومستقر ، والعكس صحيح .

وقد نجد أن الجوانب الذاتية والموضوعية قد اهتم بها "ميد" وآخرين على ضوء الضميرين الشخصية وهى (I AND ME) حيث تمثل I الجوانب أو الاتجاهات الذاتية للشخص و ME تمثل المفعول به . إن I تمثل الجانب النشط للذات وهو الجانب الذى يفعل الأشياء كما هى حينما كانت ، أما (ME) فتعكس التوقعات والأحكام الصادرة من الآخرين .

وأن هذه الاتجاهات الذاتية تعطى إشارة إلى ما أسماه ساليفان (الجيد لى GOODME والسيئى لى BAD ME) وما يعنيه ساليفان من ذلك هو أن أى تقدير أو استحسان أو "ود" يحصل عليه المرء يمثل (الجيد لى) . أما ما يتعرض له المرء من خبرات سيئة فينصب على (السي لى) ، أما عن الجيد لى فأول مصدر له يكون من جانب الأم التى تحب طفلها ، أما السيئ لى فيعكس عدم الرضا الناشئ من نقص الحب والود من جانب الأم او من أى شخص آخر بديل وعلى نفس درجة الأهمية وقد يعكس الأخير ويضفى على الشخصية الجبن والخجل وانعدام الإحساس بالأمن بسبب القلق فى مجموعة العلاقات المتبادلة بين الذات والآخرين (التفاعل الاجتماعى) ، كما اهتم سالفيان بالعلاقة بين الذات والتقديرات الخاصة بالآخرين لذواتهم ، إن كل شخص يرى نفسه من خلال عيون الآخرين.(٥٥)

ضرورة الذات :-

يظهر النمو الاجتماعى للذات من خلال التفاعل الاجتماعى ، فقد يولد الطفل فى البداية غير حساس بأراء الآخرين فهو أعمى ، وطاغية صغير ، ثم لا يلبث أن يتعلم أن هناك أشخاصاً آخرين لابد أن يختلط بهم ويتعامل معهم ، ويحظى بالمحبة والود والتقدير وهى مشاعر لازمة وجدانيا ، وفى هذا المعنى فإن النفس مؤسسة مكونة من خبرات لا تعد ولا تحصى منذ النشأة الأولى ، ويتعلم الطفل عند تنمية ذاته الأعراف والعادات الاجتماعية خلال العملية المبكرة من التفاعل بينه وبين الذين يهمونه ، ولكى نجعل الطفل يطيع هذه الأعراف فلابد من تواجد الأم تواجدا فعليا إذ تعبر عن استحسانها أو استهجانها لما يفعل ، وهى بهذا أيضاً تدعم المفاهيم الإيجابية والأعراف الثقافية لديه او على طريق بناء الشخصية ، وكلما تقدم الطفل فى عمره ولهذا فإن التنشئة الاجتماعية هى العملية التى من خلالها تكتسب الشخصية عن طريق العلاقات الاجتماعية . إن كل مجتمع تواجهه ضرورة صنع عدد مسئول من الأطفال المولودين به ، ولهذا فعلى الطفل أن يتعلم توقعات المجتمع حتى يمكن أن يعتمد الأخير على سلوكه ويثق به .

ومن هنا أيضا فعلى الطفل أن يكتسب سنن وأعراف الجماعة حتى يأخذ فى حسبانه سلوك الآخرين . إنه فى عملية التنشئة الاجتماعية يتعلم الاستجابات المتبادلة للمجتمع ، ولهذا وجب أيضا على المجتمع أن ينشئ كل فرد حتى يكون سلوكه ذا معنى فى المستقبل على ضوء مجموعة من الأعراف وأن يكون متنبأ بهذا السلوك بالنسبة للآخرين .

إن التنشئة الاجتماعية و اكتساب الشخصية هما وجهان لعملة واحدة ومن أجل ذلك فهناك تشابه بين أهداف الفرد و أهداف الجماعة . كما أنه فى عملية التنشئة الاجتماعية تمنح الجماعة أشكالا مختلفة . لتوقعات الفرد هذه التوقعات تبدأ من عادات الطعام وحتى أشكال العبادة الدينية ، ومن الاتجاهات الجنسية وحتى تعريفات الإنفاق و الادخار ويتأثر الفرد بالأنماط المختلفة من التوقعات المعتمدة على معايير الجماعة التى تقوم بعملية التنشئة الاجتماعية ، إن بعض هذه الأنماط تكون مألوفة بالنسبة لكل فرد فى المجتمع ، وبعضها الآخر يتشكل حسب كل طبقة من طبقات المجتمع .

ويمكن توضيح عملية التنشئة الاجتماعية عن طريق تحديد مدى التوقعات المتضمنة بها ، وتشتمل هذه العناصر على ما يلى :-

١- النظم الأساسية : وهى النوع الأول للتنشئة الاجتماعية الخاصة بكل فرد من جهة الوقت ، والتى تتضمن النظم المادية الطبيعية الأساسية ، عندما يتعلم الطفل أشياء معينة مثل ماذا يأكل وكيف يأكل ، وفى ظل أية ظروف يمكنه التخلص من التوترات الناتجة عن تقلصات الأمعاء ، وامتلاء المثانة ، والدرجة التى يجب عندها التحكم فى عواطف الحب والبغض والخوف .

٢- التطلعات المقبولة : حيث أن المجتمع معنى أيضا بتقديم الأهداف الأساسية والتطلعات والقيم التى من شانها أن تهئ الطفل وتوجهه نحوُ كل ما يحقق له الاستقرار ، فالطفل يتعلم المعايير المقبولة للنجاح سواء كانت مبنية على أساس مادى أو على أساس السلطة السياسية ، أو على أساس الإنجاز الفنى والتحصيل العملى أو على أساس التقوى والورع أو عليها جميعا ، وإن كانت بعض هذه

المعايير قد تحدد من قبل الصدفة مثل اللون و الدين و الاسم و هى التى ليس للطفل يد فى اكتسابها أو اعتبارها من ضمن التطلعات.

٣- المهارات اللازمة : عندما يبدأ الطفل فـــى اكتســـاب المهـــارات اللازمة لتعلم الأهداف المقبولة اجتماعيا ، أنه يتعلم أولا كيف يتحدث وبالتالى يؤكد قدرته على الاتصال بالأفراد الآخرين أولا عن طريق التحدث وبعد ذلك عن طريق الكتابة والقـــراءة إن كـــل المهـــارات الأخرى قد تكون مبنية على أساس الاتصال بالشكل الرمزى ، وبعد ذلك تأتى الأساليب التى يجب أن يؤديها كعضو مسئول فى المجتمع .

إن هذه الأساليب تعكس طريقة حياة المجتمع ومكانة الفرد فيه .

٤-الأدوار الملائمة : إن العنصـــر الأخيـــر فـــى عمليـــة التنشـــئة الاجتماعية هو فى اكتساب الأدوار الاجتماعية المناسبة التى يتوقـــع من الفرد أن يلعبها ولهذا فإن الدور الاجتماعى قد يعتبر شـــكلا مـــن أشكال السلوك المتوقع المناسب لوظيفة معينة أومركـــز اجتمـــاعى معين فى المجتمع .

فإنه يبدأ فى الحكم بنفسه على المواقف المختلفة فالطفـــل هنـــا لديـــه أحكام ذاتية يحكم بها من تلقاء نفسه حيث تشكل هنـــا وعيـــه (الأنـــا العليا) كما يمثل هذا الجانب مجموعة الأحكام القيمية للثقافة .

إن هذه العملية الخاصة بالحكم الذاتى على القضايا الحياتية جزء منها يكون شعوريا والجزء الآخر غير شعورى ، وتتضح هذه الجوانـــب أيضا من خلال التفاعل الاجتماعى ، ويرى "كولى" إن المرء يكـــون فكرة عن نفسه من خلال تفاعل ثلاث عوامل هم :

أ. تخيل مظهرنا امام الآخرين .

ب. تخيل حكم الآخر على هذا المظهر .

جـ. بعض انواع الاحساس الذاتى مثل الفخر أو غيره ، فنحن نسلك بحيث نأمل أن نحظى بإعجاب الآخرين .(٥٦)

التنشئة والسلوك السياسى :

أن تأثير الأسرة على سلوك أعضائها السياسي محدود أن لم يكن غير واضح وفى غالبية الأحوال يكون الانتماء الطبقى هو المحدد الأول للانتماء السياسي ، حيث تمثل الطبقة الاجتماعية المصلحة المشتركة بين أعضائها على هذا قد ينحصر الصراع فى هذه الحالة فى النطاق الداخلى للطبقة وقليلا ما يخرج عن نطاقها . إلا إذا كان الصراع من أجل مصلحة مشتركة وفى مواجهة طبقات أخرى فى المجتمع والسلوك السياسى هنا يكون سلوكا جماعيا وليس فرديا ، إذ ينحصر الأخير فى الصراع حول مناصب القيادة داخل الطبقة .

وينشأ الطفل فى المجتمع الصناعى عادة بين أحضان الأسرة والأقرباء والجيران ، ويكون مع كل هؤلاء علاقات ويتفاعل معهم مما يؤدى إلى التزامه بقيمهم وسلوكهم خلال سنوات التكوين هذه فى حياة الفرد . وخلال هذه الفترة أيضا تبدأ السياسة – كما يقول علماء النفس – فى التشكيل والتكوين . فيبدأ الفرد فى التطلع إلى القادة السياسيين ويحاول معرفة الاتجاهات السياسية ، وكذلك الجماعات السياسية التى قد يجد نفسه عضوا فى احداهما أو زميلا أو صديقا لبعض هؤلاء الذين يقودون أو ينتمون إلى جماعات أو أحزاب سياسية . ومن ثم فقد يندمج فى إحدى هذه الجماعات أو الأحزاب ، وبالتالى يصبح عضوا فى المجتمع السياسي ، فضلا عن أنه فى سن معينة يمارس حقوقا معينة تعرف بحقوق المواطن السياسية .

ويبدأ الفرد فى الانضمام إلى جماعات اجتماعية معينة فى سنة مبكرة كالطبقة الاجتماعية أو جماعة دينية أو ثقافية وما إلى ذلك من

جماعات قد يكون لها على نحو أو آخر نشاط يمس من قريب أو بعيد الكيان السياسى للمجتمع . فالطفل يبدأ منذ سن السابعة تقريبا فى الاهتمام بالنظم الرسمية للتنشئة فى المدرسة وقد يحاول الانضمام إليها أو ممارسة النشاط فيها ، بحيث يكون اهتمامه مركزا عليها أكثر من الأسرة . ولذلك يصبح الطفل أكثر اتصالا وتفاعلا مع النظم الاجتماعية التى تختلف فيها الأدوار وتتمايز أكثر منها فى الأسرة ، حيث تكون سلطة المدرس أقرب إلى السلطة السياسية من سلطة الوالدين فى الأسرة . ويتعلم الطفل التعود على طاعة المدرس الذى يتشابه دوره مع دور السلطة السياسية التى يخضع لها الأفراد ويكون للموضوعات الدراسية التى يتلقاها الطفل فى المدرسة أثر كبير فى هذا السلوك ويحاول أن يتمثل هؤلاء الأشخاص العظماء فى تاريخ مجتمعه وبالتالى تنمو فيه الرغبة فى أن يكون مواطنا صالحا .

ومن هنا تصبح المدرسة ذات أهمية خاصة فى عملية التنشئة السياسية ، حيث ينمو الاهتمام بالسياسة فى تلك المرحلة من واقع تجربة الطفل وتفاعله مع النظم القائمة فى المجتمع والمدرسة ، فضلا عن ما يتلقاه من موضوعات دراسية تساعد فى توجيهه وتكوين الاتجاهات السياسية والاجتماعية لديه .

التنشئة السياسية والشخصية :

أن دراسة الشخصية وبناؤها من الموضوعات المحورية فى علم النفس ، سواء أكانت الدراسة تدور حول القضايا العامة أو حول قضايا فرعية أو خاصة . فبناء الشخصية يمثل مركزا هاما فى دراسة السلوك الفردى والجمعى ، وإن كانت الثانية تدخل فى نطاق علم النفس الاجتماعى . فهى الأهم – عند عالم الاجتماع السياسى –

حيث أن الفرد لا يسلك منفردا أو منعزلا عن الجماعة التى يعيش فيها ، ومن واقع القيم والعادات والتقاليد والثقافة التى ينشأ فى أحضانها .

وفكرة الشخصية برغم الدراسات العديدة التى قامت وتقوم حولها فكرة غاية فى الصعوبة ، إذا ما حاولنا صياغة تعريف لها . فقد فشل علماء النفس والاجتماع والسياسة فى الاتفاق حول تعريف محدد لها يقبله المجتمع ، أو على الأقل لغالبية منهم . فقد أعطى "البورت" – على سبيل المثال – فى دراسته عن الشخصية حوالى خمسين تعريف لها . ومن ثم فإن الشخصية تبدو وكأنها مرتبطة بالفرد ذاته وبسلوكه الصادر عن استجاباته المختلفة للبيئة أو المحيط الخارجى الذى حوله .

وفكرة الشخصية لا تمثل اهتماما خاصا لدينا هنا إلا من حيث ارتباطها بفكرة التنشئة ، وانعكاس ذلك على النسق السياسى ، فالشخصية ذات الاتجاه التسلطى لا شك تمثل موضوعا أساسيا من موضوعات اهتمام هذه الدراسة ، حيث تتسم هذه الشخصية بالاتجاه القوى نحو السلطة . وعلى النقيض من ذلك أن الشخصية المتدينة او تلك التى تميل إلى الاذعان أو الخضوع تحمل شعورا عدائيا نحو من يعلونها ، ولذلك فهى تتخذ موقفا دفاعيا – وأن كان عن طريق الطاعة – قويا . كما أن الأقليات والجماعات الصغيرة تبحث دائما عن مخرج لها يقوى من موقفها تجاه السلطة مثل السيطرة على بعض وسائل الانتاج أو وسائل الإعلام كما يحدث فى المجتمع الأمريكى أو المجتمعات الغربية بالنسبة لليهود . وقد تكون عملية التنشئة هى ذاتها خالقة الشخصية التلسلطية ، وذلك عندما يكون الوالدان صارمين فى تنفيذ أو فى ممارسة سلطانهما على الطفل امعانا فى اجباره على الالتزام والطاعة والاذعان ، ومن ثم ففى هذه الحالة تفسر الأدوار فى

نطاق الأسرة بلغة السيطرة والطاعة . وكثيرا ما تستخدم القـوة فـي الحصول على الاذعان وتأكيد سلطة الوالدين . ولذلك فقد ينمو مـع الطفل شعور بالعداء للسلطة أو حب التسلط تشـبها بوالديـه . وقـد تصبح هذه هي البداية في عملية التنشئة لتكوين ما يسمى بالشخصـية العدوانية التسلطية تجاه الآخرين . ومن هنا يستطيع القول بأن عملية التنشئة تقدم لنا نمطا معينا من الشخصـية ، ولكـن العلاقـة بـين الشخصية والنسق السياسي ميـدان أوسـع وأعـم ، إذ أن التبـاين والاختلاف بين الأشخاص يؤدى إلى صعوبة سير غور تلك العلاقة . هذا فضلا عن الاختلافات المتعارف عليها بين المجتمعـات سـواء أكانت حضرية أو قروية أو حتى مجتمعات بدائية . فكل مـن هـذه المجتمعات يتخذ منهاجا في التنشئة قد يختلف في كثير أو قليل عـن المجتمعات الأخرى ، نظرا لما يسود كل من هذه المجتمعـات مـن عادات وتقاليد مرعبة وثقافة ذات طابع معين وما إلى ذلـك ، ممـا يؤدى إلى صعوبة الوصول إلى تعميم أو إلى قـانون حـول علاقـة التنشئة و الشخصية بالنسق السياسي . بالرغم من ذلك نستطيع القول بأن نمط التنشئة في مجتمع من المجمعات ينعكس بطريقة أو بأخرى على البناء السياسي وخاصة في المجتمعات البدائية كما بـين الأدوار من تداخل في تلك المجتمعات ، بينما قد لا يكون ذلك مطابقا تمامـا لما يحدث في المجتمعات المتقدمة أو المجتمعات الأكثر تعقيدا . ذلك لأن العلاقة بين الأسرة والكيان السياسي ككل تتم عن طريق الكثيـر من النظم التي قد تتداخل أدوارها أو قد يكمل بعضها أدوار الـبعض الآخر .

أن الشخصية عند بعض علماء النفس أنما تقوم على ظـواهر سيكولوجية في المقام الأول استنادا إلى ذلك التمايز بين الأفراد والذى

يطبع كل منهم بطابع معين ، أو بخصائص أو صفات معينة ، ومن هذا السلوك السياسى للأفراد . حيث يلتفت الباحثون إلى تلك السمات التى قد يتقاسمها الأفراد بدرجات متفاوته فى قطاعات كبيرة من المجتمع . كما أن بعض الدراسات تناولت الشخصية السياسية وقامت بتنميطها إلا أن الاتفاق حول طبيعة هذه الشخصية لا يزال محل اختلاف ، حيث ركز بعض الباحثين اهتمامهم حول نمط معين كالشخصية التسلطية أو الشخصية الاستسلامية ،واهتم البعض الآخر بنماذج الشخصية على وجه العموم وقد قدم "لاسويل" عددا من النماذج منها – على سبيل المثال – الداعية السياسى والمدير السياسى الذى يجيد فن التنظيم واستخدام المواقع ، ثم المنظر السياسى الذى يجيد المناورة بالأفكار واقناع الجماهير بها . هذا بالإضافة إلى تصنيف "ريسمان" للشخصية والذى وضعه على أساس ثلاثة أنماط : (٥٨)

الأول : يرتبط بذلك الشخص الذى يوجه عادة عن طريق التقليد ، وهذه الشخصية فى العادة يعوذها أى مفهوم سياسى .

الثانى : يرتبط بذلك الشخص الموجه داخليا ، أى الذى تنبثق اتجاهاته السياسية من مرحلة الطفولة ، ومن أهم صفاته أنه لا يستجيب للمؤثرات الوقتية.

الثالث : يرتبط بذلك الشخص الذى يديره أو يوجهه الآخرون ،وهو فى العادة يوجه عن طريق المؤثرات المؤقتة أو التى قد تطرا فى حينها .

ولكن "أدورانو" يعتبر إلى حد كبير أفضل من صنف الشخصية التسلطية ، وذلك بوضع مجموعة من الصفات أو الخصائص السلوكية لهذه الشخصية نورد أهمها فيما يأتى :-

١- الميل للسيطرة على الخاضعين .
٢- الميل للتميز والاستعلاء .
٣- الحساسية الفائقة تجاه علاقات القوة .
٤- الميل إلى تصور العالم على هيئة بناء غاية في السمو والرفعة.
٥- الميل المفرط في استخدام المثل مع تجسيمها.
٦- الميل إلى الاعتقاد فيما هو خرافي او وهمي .
٧- الاستغراق في تلك الخصائص المسماة بالرجولة .
٨- الميل إلى التشاؤم نحو الطبيعة البشرية .
٩- الميل إلى التمسك بوجهات النظر الاخلاقية القوية .
١٠-الميل إلى عدم الصبر مع المعارضة .

وبالرغم من مطابقة عدد من هذه الخصائص للشخصية التسلطية إلا أننا لا نستطيع القول بأن هذه الصفات عامة بالنسبة للشخصية السياسية المتسلطة . إذ أن عددا ليس بالقليل من هذه الصفات لا ينطبق على كثير من الشخصيات التي يمكن أن نطلق عليها صفة التسلطية عبر التاريخ ، خاصة تلك الشخصيات التي أدت دوراً لا يستهان به في تاريخ بلادها القومي . وكيف تكون الشخصية من هؤلاء الذين يؤمنون بالخرافة والوهم أو ممن يتصفون بأنهم من أصحاب الخيال المريض وفي الوقت نفسه يؤمنون بوجهات النظر الأخلاقية القوية . لا شك أن " لاسويل" قد جاوز الواقع والمنطق عندما وصف هذه الشخصية . مما يدعونا إلى التحفظ في قبول بعض آرائه .(٥٩)

النفس والآخر : THE SELF AND THE OTHER :

نحن نستخلص اتجاهاتنا الذاتية عن طريق اسقاط أنفسنا داخل عقول الآخرين ، إن هذه العملية تعرف باسم أخذ دور بعد الآخر – "يضع الفرد نفسه فى مكان الآخرين"– ويحاول أن يتخيل ماذا عساه أن يعتقد فى ظروف متشابهة ، فالوعى بالذات ينشأ عندما يبدأ الطفل فى أخذ دور الآخرين ، فيحس بما يحس به الآخر وجدانيا ، وهذا النوع من الاستجابات للآخرين هو أساس التفاعل الاجتماعى الذى يعتمد على التوحد ومع ذلك فإن الاستجابات الوجدانية تتباين من شخص إلى آخر وتأخذ درجات مختلفة ، فهناك العاطفيون ، وهناك الذين يعانون من التبلد العاطفى ويتعاملون بشكل رسمى مع الآخرين ، ومع ذلك فإن الفروق بين هؤلاء وأولئك فروق نسبية .

وتنمو شخصية الفرد عن طريق أخذ أدوار الآخرين ، ففى أولى مراحل خبرة الطفل يتعلم كيف يأخذ دور الآخرين فيأخذ مثلا دور أمه ، وأبيه أو إخوته ويتعلم من الأدوار المختلفة القيم الأخلاقية

إن هذه المرحلة الخاصة بأخذ الأدوار يمكن تصويرها عن طريق لعب كرة القدم ، إن كل لاعب له دور مختلف تحدده قواعد اللعبة ويجب أن يكون كل لاعب واعيا بأدوار الآخرين إضافة إلى وعيه بالدور الذى يلعبه . إنه يستجيب فى مخيلته لهذه الأدوار . كما أن كل فرد من الفريق يجب أن يكون واعيا بنفس الدرجة ومستجيبا لأدوار الآخرين . إن فعل كل لاعب إذن يتوقف على معرفته بجميع الأدوار التى تكون مجملها لعبة كرة القدم .

إن النفس تنمو او الذات تنمو عن طريق أنشطة تعاونية متشابهة تأخذ أشكالا مختلفة من المجتمعات . إن أطفال الصين لا يلعبون كرة القدم لتنمية الاتجاهات التعاونية اللازمة للذات

الاجتماعية فكل مجتمع له أنشطته الجماعية الخاصة به والتى يتوقع أن تفرز سلسلة محددة من الاستجابات المتبادلة . وبهذه الطريقة ن فإن كل فرد بالغ يتعلم أن يأخذ دور الآخر صوب نفسه ومن ثم ينمى ذاته الخاصة به .(٦٠)

الذات والآخر المعمم THE SELF AND THE BE :BERALIZED OTHER

تكمن المرحلة المعقدة فى تنمية الذات اجتماعيا عندما يبدأ الفرد فى أخذ دور المجتمع ككل أو دور قطاع حيوى منه لنفسه ، ويقصد بالآخر المعمم تقلد الفرد لدور معترف به اجتماعيا ، مثل هذه الأدوار تتمثل فى الاتجاهات والتوقعات الخاصة بكل الأشخاص الآخرين وخاصة الموقف الاجتماعى هذا بالمعنى الضيق ، وهى تشير بالمعنى الأوسع إلى أشكال الثقافة المنظمة للمجتمع بكاملة ، إن الآخر المعمم يشمل طرق حياة الناس ، والآداب العامة والقيم والأعراف المتفق عليها من خلال ثقافة المجتمع الخاصة به .

ويعتقد أن الطفل يصبح تدريجيا واعيا بهذه التوقعات ويبدأ فى الحكم على نفسه على ضوئها ، ويتباين الآخر المعمم من فرد إلى آخر ، فلكل فرد همه الخاص وتوجهه المحدد فى حياته . وإن كان هناك بعض التشابه فى المجتمعات البسيطة ، وذلك على العكس من المجتمعات المعقدة التى لا نجد تجانس فيها بالنسبة للآخر المعمم ، ذلك الآخر الذى يتباين من طبقة اجتماعية معنية إلى طبقة اجتماعية أخرى ، فالمنتمى لطبقةٍ اجتماعية عليا يحس بعدوانية نحو ذاته بينما المنتمى إلى طبقة أدنى يحس بعداوته نحو الطبقة الأعلى .

وقد طور "ميد" مفهوم الآخر المعمم ، وتعدد الآخر المعمم داخل المجتمع الواحد من خلال الطبقة الاجتماعية أو الأسرة التى

ينتمى إليها مما يساهم فى تنمية ذات الطفل اجتماعيا ، فيتعلم الطفل على سبيل المثال من جماعة الرفاق كثيرا من قواعد اللعبة (أى التصرف) بما يهيئ الطفل للعب أدوار مماثلة له فى المستقبل ، وهنا لابد للطفل من تعلم أن المجتمع له الكثير من المعايير الأخرى التى تتعدى حدود مطالبه ورغباته ، ويجب أن يصل إلى الحد الذى يقبل فيه ويفهم هذه المبادئ العامة الأخلاقية .

التفاعل الاجتماعى والآخر المعمم :

يكتسب الآخر المعمم كجزء من الشخصية من خلال عادات اللغة ، فالطفل فى سن سنتين أو ثلاث سنوات لم يبدأ بعد فى أخذ دور الآخر المعمم ، ومن ثم فهو لا يفكر فى نفسه كعضو فى مجتمع متعاون ، ويقل التمحور على الذات كلما مر الزمن بحيث يدرك أن هنالك آخرين لهم اعتبارهم ومصالحهم مثلهم مثله ويبدو مفهوم الآخر المعمم جليا عندما ندرس اتجاه الشخص نحو الممتلكات الخاصة ونحو الوطن ونحو الحكومة ونحو الديمقراطية ولكل هذه القيم اتجاهات عامة يضمها الفرد إلى ذاته الاجتماعية التى هى لب الشخصية ، تلك النفس أو الذات تدخل المرحلة النهائية من النمو عندما يأخذ الفرد دور المجتمع بصفة عامة أو عندما يحكم على نفسه فى ضوء أشكال الأعراف التى تضمها ثقافة مجتمعه ، ومن ثم تصبح الروابط بينه وبين الأشخاص مدعمة ومتعاونة – ومع ذلك فقد يوجه انتقاد إلى مفهوم الآخر والذات مؤداه أن تواصل الذات مع غيرها يدمر الخصوصية والتفرد لكل كائن بشرى ، ولكن ردنا على هذا الانتقاد هو أن نمو كل ذات من خلال أشكال التفاعل هى متباينة من شخص إلى شخص آخر حتى بالنسبة للتوائم المتماثلة فى نفس الأسرة

فإنهم يتفاعلون بدرجة مختلفة مع الآخرين ، داخل أو خارج الأسـرة وينمون ذوات مختلفة .

وعلى الرغم من التشابهات العامة ، فإنه حسب ما تقول "ميد" كل ذات فردية لها تفردها الخاص بها . ولها شكلها الفريد الخاص بها ... ومع ذلك فإن كل شخص يشارك في العملية الاجتماعية ويطـور وينمي ذاته عن طريق أخذ الآخرين في الحسبان . والنـاتج النهـائي لكل خبرة فردية هو كائن بشري فريد .(٦١)

توصيف الشخصية :

وثمة محاولات عديدة قام بها الباحثون لتوصيف الشخصية السياسية ، ولكنها محاولات تتسم في الغالب بالطابع الفردي ، فهي لا تعدو أن تكون محاولات اجتهادية – أن صح التعبير – نورد منها محاولـة " أزنيك" H.J.EYSENCK التي ذكرها عندما تناول " تنظيم الاتجاهات الاجتماعية " في كتابه " علم نفس السياسة " وقد أقام "ازنيك" تصـنيفه على أساس عاملين أطلق على الأول الاتجاه الراديكـالي المحـافظ RADICALISM-CONSERVATISM وقسم الاتجـاه الثـاني إلـى قسمين وأطلق عليهما الاتجاه جامد العقـل والاتجـاه مـرن العقـل TOUGH – MINDER – MINDED ، والعامل الأول لا يحتاج إلـى تعليق فهو يكاد يكون معروفا ، أما العامل الثاني فقد اعتمد "ازنيـك" في عرضه على وجهة نظر W.TAMES ، ذاكر أن "جـيمس" قـدم نمطين متعارضين "للمزاج العقلي" يقودان إلى معتقدات متضادة وهما TENDER – MINDED – TOUGH – MINDED ولكل نمط منهـا سمات معينة –تميزه عن الآخر وترتيبا على ذلك فـالنظم الفلسـفية تتأثر في الغالب بمزاج مؤلفيها ، ومن ثم فهناك اختلافـات أساسـية نجدها في الأدب والفن والحكم والفلسفة .. ولا تتوقف هذه الاختلافات

عند حدود الفكر ، بل أننا نجدها أيضا فى السلوك . فهناك من يسلك بأسلوب غاية فى الجمود و الرسمية ، و غيره يسلك بأسلوب يتسم بالتحرر ، فضلا عن هؤلاء الذين يسلكون بأسلوب يتميز بالبساطة وعدم التكلف وبالتالى نستطيع أن نميز فى مجال عملية الحكم بين هؤلاء المتسلطين أولئك الفوضويين كذلك نعلم أن فى مجال الأدب ما يسمى بالأدب الكلاسيكى و الأدب الرومانسى ، وتقف الفلسفة فى مقدمة هذه التصنيفات حيث نجد المذهب العقلى أو المذهب التجريبي . وكل هذه الاتجاهات فى مختلف أنواع الفكر و السلوك أنما تنبثق عن مزاج خاص بالمؤلف أو بهذا الذى يسلك . و على هذا الأساس قدم لنا " ازنيك" تصنيف "جيمس" للعقول كما يلى : (٦٢)

- حسى .... عقلى
- مادى .... مثالى
- تشاؤمى .... تفاؤلى
- لا دينى .... دينى
- جبرى .... اختيارى (حر الإرادة)
- تعددى .... فردى
- شكى .... دجماطيقى

ويرى كل من "رش و التوف " أن العاملين اللذين أقام عليهما "ايزنك" تصنيفه – و هما R-FACTOR الذى يتزامن فيه الاتجاه الراديكالى مع الاتجاه المحافظ T-FACTOR و الذى يتزامن فيه العقل الجامد أو العقل المتصلب مع العقل المرن – أنما يقومان على أسس سيكولوجية . حيث يقوم العامل الأول R-FACTOR على التعليم ، أى عن طريق عملية الثواب و العقاب ، ويقوم العامل الثانى T-FACTOR على شروط معينة ، أهمها تأثير ترابط تداعى المعانى أو استمرارها و هى

على ذلك سلسلة لا إرادية من الاستجابات الشعورية . هذا فضلا عن ارتباط العقل الجامد بما هو خارج عنه ، وارتباط العقل المرن بما هو داخله . كما أن العقل الجامد – من وجهة نظر رش والتوف – ينطوى على العدوان والسيطرة وضيق الأفق ، وتتضح الرابطة بين العاملين من صياغة "رش والتوف" لها اتفاقا مع الايديولوجية الانجليزية كما يلى :–

١–الاتجاه الفاشى : اتجاه محافظ جامد العقل .

٢–الاتجاه الشيوعى : اتجاه راديكالى جامد العقل .

٣–الاتجاه المحافظ : اتجاه محافظ مرن العقل وسط .

٤– الاتجاه العمالى : اتجاه راديكالى مرن العقل وسط .

٥–الاتجاه الليبرالى : اتجاه محافظ راديكالى مرن العقل وسط .

وإذا ما تفحصنا هذا التصنيف لا نلبث أن تعترينا الدهشة لنخلص إلى تساؤل ما الذى يجب أن يبدأ منه الباحث ؟ المثال أم الواقع ، أيبدأ الباحث من المحسوس أم من الخيال وكيف يبدأ الباحث من المثال دون الالتفات إلى الواقع ، وهل العقل المثالى أو الخيالى يفضل العقل الشكى ، وما الذى يدفع المفكر الذى لا يعيش منعزلا ، وإنما هو دائماً يعيش فى مجتمع يتأثر به ويؤثر فيه ويعكس تجربته الواقعية فى هذا المجتمع فيما يكتب ، فإن كان المفكر مقتنعا بالواقع الذى يعيش فيه فهو يكتب مؤيدا ومبررا لهذا الواقع ، وإن كان المفكر غير راض أو مقتنع بهذا الواقع فيبدأ برفضه ويحاول أن يتبنى فكرة جديدة ليقيم عليها واقعا أفضل من ذلك الذى يعيش فية سعيا لتحقيق ما هو أحسن أى سعيا الى المثال من وجهة نظرة. فالأمر لا يعدو من وجهة نظرنا خروجا عن الواقع وانما سواء أكان هذا أم ذلك فلا بدأن يبدأ كل من الواقع اما بالرفض أو بالتأييد .والتصنيف السابق

لا يعدو الا أن يكون انحيازا لايديولوجية حيال اخرى ، فهو يصف الاتجاهات المرتبطة بالنظم الرأسمالية الغربية بالعقلانية المرنة والمثالية ويصف الاتجاهات الاخرى ممثلة بالطبع فى أشخاصها بالتصلب والجمود وحب السيطرة والتسيد .وصفة العقل كما نعلم مرتبطة بالاتجاه المحافظ حتى فى السلوك العام أو مواقف الناس من التطور أو مما هو جديد ، حيث يوصف السلوك الغير مألوف بأنه متطرف (٦٣).

ان غالبية هذه المحاولات التصنيفية للشخصية السياسية والمتسلطة غير كاملة ولا نستطيع أن نخرج منها بتعميم يصف هذه الشخصية كما سبق أن ذكرنا. ولا تزال المشكلة قائمة طالما لم نصل الى تحديد واضح ومجرد – وغير متأثر بأيديولوجية معينة – للسمات الخاصة بالسلوك السياسي على وجه التحديد . وقد تكون محاولة ربط هذه المفاهيم بأنساق سياسة معينة عملا مفيدا يساعد على الاسهام على حل المشكلة.

وعلى الرغم من التحفظ الذى وضعناه على معيارى "ايزنيك" ، الاأننا اذا طبقناهما على أنساق سياسية معينة خاصة فى بلدان العالم الرأسمالي مثل أمريكا أو ألمانيا الغربية فانهما قد يحققان بعض النجاح .ولكن اذا حاولنا أن نطبقهما على بلدان أخرى من العالم كالدول الاشتراكية أو بعض دول العالم الثالث أو العالم الرابع (دوال البترول)، فهل يحققان نفس النجاح ؟ ان نجاح التطبيق فى هذه الحالة مشكوك فيه، نظرا لاختلاف الانساق السياسية وكذلك العلاقات الاجتماعية والايديولوجية التى تؤمن بها هذه المجتمعات . ومن ثم فان الأمر يحتاج الى تطوير معايير أخرى تصلح للتحليل فى هذه المجتمعات ، لان محاولة تنميط الطابع القومى لا تزال محفوفة

بمخاطر وصعوبات جمة ، منها عدم توفير الحيدة لـدى البـاحثين ، خاصة فى العلوم الاجتماعية ،وذلك لسيادة الاتجاهات الايديولوجيـة وسيطرتها على عدد غير قليل من الباحثين . فضلا عـن صـعوبة دراسة النظم الاجتماعية من خارج هذة النظم ،حيث تقـوم الدعايـة والدعاة بالتأثير الذى لا يستهان به على جهود الباحثين .

وبالرغم من ذلك تبقى الشخصية عاملا هاما فى عملية التنشئة السياسية ، نظراً لأنها فى النهاية تعتبر نتائج لشخصية الفرد وخبراته السياسية وثقافته . وقد لا تكون هذه الخبرات سياسية تماما ، ولكنهـا تشكل إلى حد كبير سلوكه السياسى ، إذ أن الخبرات الاجتماعيـة أو الاقتصادية ليست بمنأى عن الخبرات السياسية ، وقد تتخذ فى كثيـر من الحالات أهمية سياسية معينة .

أن النقطة الهامة من وجهة نظر علم الاجتماع السياسى ، هى أن هذه الدراسات تعتبر خطوة لا يستهان بها خاصة بالنسبة لـبعض العمليات التى تحدث عادة تحت ستار ما يسمى بالمضمون السياسى ، فضلا عن أن هذه الدراسات قد تساعد إلى حد ما على فهـم تـوزع الأنماط السيكولوجية للشخصية فى ميدان علم الاجتماع السياسـى . لأننا نعلم الكثير عن الخلفية الخاصة بالأسرة والتعلم والمكانة ، ومـا إلى ذلك ، ولكننا لا نعلم أى الأنماط التى تظهر نظاميـا فـى بنـاء اجتماعى معين أكثر منها فى بناء اجتماعى آخر . وهذا هو جـوهر المشكلة فى علم الاجتماع السياسى .

ولما كان الأمر كذلك فإن مناقشة مشكلة العلاقة بين الميول أو النزعات السيكولوجية والبناء الاجتماعى فى المجتمع مـن الأهميـة بمكان . فقد لاحظ بعض الباحثين أن ظهور جماعات اليمين السياسية المتطرفة فى الولايات المتحدة ما هو إلا رد فعل للتغير التكنولـوجى

السريع الذى تبعه تغير اقتصادى وسياسى نتج عنه تغيرات أساسية فى المكانة الاجتماعية . وقد أدت هذه التغيرات المتلاحقة إلى خلق طبقات جديدة فى المجتمع لم تكن موجودة من قبل ، فى مقابل الجماعات والطبقات القديمة التى كان من الصعب عليها أن تعى أو تفهم الحركة السياسية التى صاحبت ظهور هذه الطبقات الجديدة ، كما كان من الصعب عليهم أيضاً معرفة أن المجتمع الجماهيرى المعقد هو الذى يشكل الكيان السياسى اليوم . ومن ثم فقد شايع الطبقات القديمة احساسا بفقدان الأمن نحو المكانة الاجتماعية ، وفى الوقت نفسه شايع الآخرين احساس بإمكانية الوصول إلى مكانة اجتماعية أعلى ، فقد أصبح الأطفال – على سبيل المثال – يتوقعون أن يحتلوا مكانة اجتماعية لم يكن أباؤهم قادرين على الوصول إليها من قبل . ولذلك فقد اعتبر الكتاب هذه التغيرات سببا جوهريا ومباشرا فى خلق الشعور بالقلق لدى الطبقات التقليدية ، بينما ظهرت لدى الأطفال – فى الوقت نفسه– رغبة قوية فى السلطة ، نتيجة لاستقلال الفرد التدريجى عن الأسرة وظهور سيادة السلوك الفردى كظاهرة تميز هذه المجتمعات ، والمجتمعات الأوروبية منها على وجه الخصوص . ففى سن مبكرة يستطيع الفتى أو الفتاة الانفصال عن الاسرة ويخطط حياته بنفسه وبالطريقة التى يراها ملائمة ،وفى كثير من الحالات لا يكون السلوك رشيدا نظرا لنقص الخبرة والثقافة فى مثل هذه الحالة . وقد أدى هذا السلوك الفردى إلى ما نستطيع أن نسميه بالامبالاة الاجتماعية فى تلك المجتمعات ، وبالتالى أدت هذه اللامبالاة إلى عدم الالتزام إلا بما هو شخصى ، فعم الفساد والانحلال وتفككت الأسرة . (٦٤)

الفصل السابع

المجتمع والشخصية والعلاقة الجدلية

* التنشئة الاجتماعية والشخصية
* التنشئة الاجتماعية والشخصية المصرية
* الشخصية والانتماء والتجديد الاجتماعي
* المجتمع والواقع
* ترابط المجتمع
* موروثات التقاليد
* الثقافة صانع الشخصية
* الثقافة والتنشئة الاجتماعية
* المجتمع والحياة الاجتماعية
* أهمية القيم والمثل والاتجاهات في تشكيل السلوك
* أثر الشخصية في الثقافة
* الدين واللغة وأثرهما في تحديد الشخصية
* أثر العوامل الوراثية والبيئية على الشخصية
* المرونة النسبية في مكونات الشخصية
* التراث الشعبي
* مظاهر التراث الشعبي في التراث العربي
* المصادر الأساسية للضبط والسيطرة
* الطرق الشعبية
* محددات عضوية الجماعة
* أهمية الثقافة في المجتمع

التنشئة الاجتماعية والشخصية :

أن الفرد لا يكون في عملية التنشئة الاجتماعية – التي يكتسب من خلالها العضوية في جماعات مختلفة – مجرد عنصر سلبي أو عنصر قليل القيمة ، فحتى الأطفال الحديثي الولادة يستجيبون استجابات مختلفة لنفس المعاملة ،ولو أنهم لا يمكن أن يستجيبوا أصلا ، إلا إذا أثار الكبار المحيطون بهم (كالأم ، أو الجدة ،والمربية أو غيرهم) رد فعل معين عندهم ، وأن يغير هؤلاء الكبار سلوكهم تبعا لتلك الاستجابات / فالأطفال الرضع قد يبدأون – مثلا – " صرعات " مع الأم حول ما إذا كان يجب عليها أن ترضعهم في كل مرة يجوعون فيها ويصرخون أم أن تظل الرضاعة موقوتة بأوقات معينة ، بصرف النظر عن جوع الطفل أو صراخه .وتتوقف نهاية هذا الصراع على اعتبارات كثيرة منها قوة أعصاب الأم ومدى تحملها صراخ الطفل دون أن تبادر إلى إرضاعه . ومدى قوة هذا الصراخ وعنفه ،وطبيعة ظروف المسكن الذي تعيش فيه هذه الأسرة ،ووجود أقارب للأسرة (الجدة أو الجد) الذين قد يرفضون تصرف الأم وتأخذهم الشفقة بالطفل ويحملونها على الاستجابة له .....الخ ذلك من متغيرات يمكن أو تؤثر على هذا الموقف . فالنتيجة تتوقف إذن على طبيعة القواعد التي تعلمتها الأم من أمها عن رعاية الأطفال وتربيتهم ، أو إذا كانت قد قرأت تلك القواعد وتعلمتها .وسواء رضخت الأم أو رضخ الطفل ، فالخلاصة أن هناك عملية تاريخية قد بدأت ،ولا يمكن الرجوع فيها ، وسوف يكون لها أثارها على العلاقة بين الطرفين (أيا كانت النتيجة) طوال حياة هذه الأطراف . فكل قرار يستبعد تلقائيا احتمال أخرى ويضع للأختيار فيما بعد حدودا جديدة .

ولكن الملاحظ أنه كلما كلما اتضح خـط التطـور وازداد تحديدا – أي كلما أخذت الشخصية في التكون – كلما اتسعت حدود البيئة الاجتماعية المعروفة للفرد. فهذا الإنسان الجديـد يمكـن أن يصبح عضوا في عدد متزايد باستمرار من الجاعات وهو لا يلعب في هذا التطور دورا سلبيا على الإطلاق . حقيقة أن الطفل يولد في أسرة معينة (ليس له دور في اختيارها) ،ولكن مـا أن يتعـرف علىمجموعة من أصدقاء اللعب ، حتى تتاح لـه فرصـة معينـة للاختيار بينهم ، وقد يقتصر دوره في أسوأ الأحوال علـى رفـض الصداقات التي يحاول الوالدان دفعه إلى تكوينها . المهم أنه لـيس سلبيا ولا متلقيا فقط ،ولكن له قدر – ولو محدود – من الفاعلية .

وهو يتعلم في هذه السن أن العلاقات الاجتماعيـة ، تتبـادل التأثير في بعضها: فالأطفال الآخرون يمكنهم أيضـا أن يرفضـوا صداقته وأن يرفضوا اللعب معه .

وفي سن المدرسة تتسع دائرة عملية الاختيار ، أن يختار هو الأخرين ،وأن يختاره الأخرون ، في الجماعات المختلفة . فهنـاك جماعات اللعب المختلفة – اللعب البرئ وغيـر البـرئ ،وهنـاك جماعات النشاط ــ،وهناك فئات المتفـوقين ...الـخ ،ولا شـك أن عضوية تلميذ في مدرسة ثانوية في جماعات معتادة على ممارسـة تدخين السجائر – سرا وبالمخالفة لتعليمات إدارة المدرسة – تجعل من الصعب على هذا الطفل نفسه أن يلتحـق بجملاعـة دينيـة أو جماعة نشاط حسنة السمعة ،ومعنى ذلك أن عضـوية الفـرد فـي جماعة معينة تؤثر على نحو معين في قبوله عضوا في جماعـات أخرى ،ولو عاد كل منا إلى مشاعره في تلك السن ، لتذكر مـدى قوة المشاعر والأحاسيس التي كانت مرتبطة بعضويته في جماعة "

مختلفة " أو أقل مكانة ، أو أحقر من أن ينتمي واحـد منهـا إلـى جماعته ، إن تلك المرحلة تشهد بداية تكون الشعور " بالنحن " لدى الفرد .

ويرجع الفضل إلى العالم الأمريكي ويليام جراهـام سـمنر (عاش من عام ١٨٤٠ حتى ١٩١٠) في التمييز بين المصـطلحين اللذين شاع استخدامهما اليوم وهما : الجماعة الداخلية (أي جماعتنا نحن) ،والجماعة الخارجية (أي جماعـة الآخـرين) . فالجماعـة الداخلية هي " النحن " ، هم أصحاب الحقيقة ،والحق ، والمستقبل . أما الجماعة الخارجية فهم الآخرون ، فهم لا يتمتعون بشيء ممـا نتمتع به نحن من الإنسانية وهم لا أهمية لهم في الحياة ، بل وقـد يكونون أشرارا أيضا [١].

وقد تكون الفروق البارزة بين هذه الجماعات غير واضـحة (أو تكاد) بالنسبة للملاحظ الخارجي .ومن هنا مثلا عنـدما يقـوم ملاحظ خارجي يتأمل قبيلتين ميلانيزيتين (ميلانيزيا مجموعة جزر في المحيط الهادي كانت منعزلة – حتى وقت قريب) تعيشان منـذ الأزل على نفس الجزيرة في حالة حـرب دائمـة ، أو جمـاعتين ثوريتين متنافستين ، أو عصابتين في أحد احياء مدينـة أمريكيـة كبيرة . فهذا التشابه بين الجماعتين في التاريخ والبناء والأهـداف ،والمظاهر ...ألخ ليس هو العامل الحاسم فـي خلـق الإحسـاس بالاختلاف ،وإنما العامل الحاسم في ذلك هو هذا الشعور " بالنحن " الذي يترسخ في نفوس أعضاء كل جماعة ،وتصـوراتهم الجمعيـة أنفسهم وعن الآخرين . فالجماعة تؤكد وجودها بأن تقابـل بينهـا وبين شيء أخر على نحو يبرز الاختلاف .

ويحدث ذلك على سبيل المثال عندما ينسب أعضاء إحـــدى العصابات الإجرامية إلى أنفسهم نوعا خاصا من الشجاعة ، مـــثلا الشجاعة التي تتسم بالدهاء، أو الشجاعة في مواجهة الشرطة . وفي نفس الوقت تنفي عن العصابات الأخرى هذا اللون مـــن الشـــجاعة (فهي التي تتميز به دون سواها) بل إنها تصف العصابات الأخرى بالسذاجة أو الغباء (فالمهم أننا لســـنا ممتـــازين فقـــط ،ولكـــن أن الآخرين أيضا سيئون).

وقد قام جورج هومانز بإجراء مقارنـــات بـــين عـــدد مـــن الجماعات الصغيرة (الجماعات الأولية) واستخلص بعض العمليات التي تصدق في رأيه على كل الجماعات التي من هذا النوع : على جماعات العمل في المصنع ،وعلى الشلل الموجـــودة فـــي إحـــدى المدارس الثانوية ،وعلى جماعات الصيد في أحد المجتمعات البدائية وعلى العائلات الكبيرة ، وعلى عصابات المجـــرمين .ويمكـــن أن نطلق على هذه العمليات المتكررة عمليات تهذيب وصقل كل طرف للأخر (بالتبادل) من أعضاء الجماعة ، فعلاقاتهم ببعضهم البعض تخضع لبعض القواعد المحددة – بدرجات مختلفة مـــن الوضـــوح والتأكيد – ومع ذلك فهم لا يخضعون لتلك القواعد مائة بامائة (أي خضوعا تاما) أبدا ، فالأفراد وأدوارهم لا تنصهر أبدا في وحـــدة واحدة ، أي أن الفرد ودوره لا يصيران شيئا واحدا إطلاقا ، كمـــا أن العلاقات لا تمر هكذا بدون مشاكل على الإطلاق ،ولكنها تعرف على الدوام قدرا من الاحتكاك والتوتر وربمـــا الصـــراع .ولكـــن التخلي عن محاولة المحافظة على الالتزام بالمعايير داخل الجماعة يعني على الفور تحلل الجماعة وتفككها .

ويمكن أن تضرب مثلا على ذلك ، من دنيا العلاقات غير الرسمية في الصناعة ليفترض أن هناك جماعة عمل تعمل في مصنع معين .وفقا لنظام القطعة وقد طورت الجماعة ميعارا لعملها هو ألا ينتج أي عنصر من أعضائها أكثر أو أقل من عدد معين من الوحدات . فإذا حدث في أحد الأيام أن أنجز أحد الأعضاء عددا من الوحدات أقل من المتفق عليه كثيرا فإن الآخرين يقبلون على مساعدته دون تردد .ولكن إذا دأب أحد الأعضاء على إنتاج عدد أكبر من المتفق عليه دائما، فإنهم يعمدون إلى إجباره على الالتزام بالمعيار المحدود أو يمزحون معه ، وأحيانا قد يفعلون معه ما هو أسوأ من ذلك كثيرا .

كما اكتشف " جورج هومانز " وجود نظام للتدرج داخل الجماعة ، حيث يكون الاعتبار الحاسم في تحديد مكانة الشخص في هذا النظام هو مدى التزامه بمعايير الجماعة وقواعدها ، وعلى ذلك فلاحظ أن زعيم عصابة المجرمين ليس أكثر أعضائها حرية في التصرف على هواه ، بحيث يفعل ما يريد ويتمنع عما لا يريد . إن الواقع على عكس ذلك تماما ولأنه يجسد بتصرفاته التصور المثالي لعضو تلك العصابة أدق ما يكون التجسيد . ولو انحرف عن هذا بعض الشيء فإنه يخاطر بمركزه القيادي في هذه الجماعة .وفي مقابل هذا نجد أن عضوا جديدا بالعصابة ، ويشارك معهم في بعض العمليات فقط (مراعاة لإمكانياته وقلة خبرته) ، ولا يحظى باحترام بقية أعضاء العصابة ، فإنه يتعرض للنقد دائما ، وتوجه إليه ملاحظات لا توجه إلى عضو العصابة " بالمعنى الصحيح "

وغالبا ما يوجد إلى جانب هذا التدرج تبعا لدرجة التكيف معايير أخرى لتقييم العضو من هذا مثلا أن يحظى فرد بمكانة أو

بتقدير خاص بسبب مهارته في استخدام المطواة . كما يوجد نظام معين لتوزيع المهام والأعباء ،من هذا مثلا مسئول عن الشئون الداخلية للعصابة ،ومسئول عن التعامل مع البيئة الخارجية .ولكن المؤكد على أي حال أن كل جماعة تفرض قواعدها الرئيسية على أعضائها وتحملهم على الالتزام والانصياع لها . (٢)

والأرجح ألا يعتبر أفراد الجماعة هذا الالتزام إلزاما ، بل إنه يعتبر ميزة وتشريفا على الأقل في الجماعات التي يلتحق بها الفرد طوعيا . ففي هذا النوع من الجماعات يقوم الفرد نفسه بعملية الاختيار المبدئي ، أي يختار الجماعة التي ينتمي إليها . فهناك بعض الأفراد الذي يشعرون بميل (في ضوء ظروفهم وسماتهم الاجتماعية طبعا ،وليس ميلا بيولوجيا موروثا) إلى الالتحاق بعصابة إجرامية معينة بينما لا يتجه أفراد آخرون إلى هذا الاتجاه إطلاقا .وفي نفس الوقت تختار الجماعة بدورها الأعضاء الذين يعرضون أنفسهم عليها وتنتقي من بينهم ، وتضمهم إلى عضويتها ،وكثيرا جدا ما يوضع الأعضاء الجدد فترة معينة تحت الاختبار ،وقد تنتهي تلك الفترة بشكل غير رسمي .على حين قد تحتفل بعض الجماعات بانتهاء فترة اختبار العضو الجديد احتفالا طقوسيا كبيرا ملئ بكثير من المظاهر والمراسيم .

وتعرف كل المجتمعات البدائية طقوس " العبور " ، وهي الطقوس التي تمارس احتفالا بقبول الشاب البالغ أو الفتاة البالغة عضوا أو عضوة في المجتمع . ويمثل هذا الموضوع أحد الموضوعات المفضلة للدراسة عند الانثروبولوجيين . ولكن كل مجتمع – حتى في عصرنا هذا – له طقوس العبور الخاصة به . ولكنها تتميز بأنها أكثر تنوعا وأكثر عدداً نظرا لتنوع الجماعات

الاجتماعية في مجتمعنا المعاصر ، وهي لذلك أقل وضوحا للملاحظ من الخارج ، وتبدو لنا أمرا بديهيا مسلما به ، ومن أمثلتها في العصر الحاضر : حفلات التثبيت وتناول القربان لأول مرة عند المسيحي الكاثوليك ،وحفلات السبوع أو الختان ،وحفلات التخرج في المدارس والجامعات (خاصة الصحبة بارتداء أرواب خاصة وتسليم الشهادات وغير ذلك من المظاهر الاحتفالية) والالتحاق بناد معين أو جمعية معينة ، والانتماء إلى جماعة أصدقاء وحلف اليمين عند الأطباء الجدد والمحامين الجدد قبل ممارسة المهنة ،والالتحاق بتنظيم سياسي معين ...الخ ، فتلك كلها مناسبات يعلن فيها شخص معين عن رغبته في الالتحاق بجماعة معينة ،ويتعهد بالالتزام بقواعدها ،ويحصل على موافقة الجماعة على قبوله ،وتقييم الأعضاء القدامى لصلاحيته وقدراته .

ومن الطبيعي أن الجماعة التي توافق على إلحاقنا بها تملك في نفس الوقت حق فصلنا منها أو إبعادنا عنها ، كما أننا نستطيع بإرادتنا – غالبا – أن نترك الجماعة التي التحقنا بها بإرادتنا أيضا . وإن كان ذلك لا يتم عادة دون خسائر أو أثار سلبية معينة . فجماعة الأصدقاء (الذين تجمعهم هواية لعب الشطرنج) قد تبديا أسفها لخروج عضو من أعضائها ،والحزب السياسي قد يضغط بوسائل معينة على العضو لحملة على عدم ترك الحرب،ولكن العصابة الإجرامية الخطيرة قد تقتل من يحاول الكف عن ممارسة نشاطه فيها أو الخروج عنها .

ويختلف الوضع عن ذلك بالنسبة للجماعات التي وجدنا أنفسنا منتمين إليها بحكم المولد أي بدون إرادة صريحة منا أصلا . فنحن لم نختر الطبقة الاجتماعية التي ننتمي إليها ،ولا المستوى

التعليمي الذي حصلنا عليه ،ولا الشعب الذي ننتمي إليه ،ولا الدين الذي نعتنقه ....الخ ، ولو حاولنا أن نحصر أنواع الجماعات التــي ننتمي إليها بحكم مولدنا ، لملأت تلك القائمة بضع صفحات ،وفــي كل يوم تكشف لنا بحوث علم الاجتماع إلى أي مدى تتأثر اتجاهاتنا السياسية ،ودرجة التزامنا بأحكام الدين ،وميولنا المهنية ،واختيــار شريك حياتنا بتلك الانتماءات الأولى إلى مثل هذه الجماعات التــي لم نخترها بإرادتنا ، حتى في ظل أكثر المجتمعات تقــدما ورقيــا وديموقراطية .[٣]

التنشئة الاجتماعية والشخصية المصرية :

عند هذا العنوان ســأبدأ الســؤال ..وهــو . هــل التنشــئة الاجتماعية في مصر الفرعونية بكل ما حملته من معــاني تربويــة هي التي أسهمت في تحديد الشخصية المصرية عبر حضــاراتها ؟ أن التنشئة الاجتماعية هي العملية التعليمية التي ينمو بهــا الفــرد ويتطور على كيان اجتماعي قادر على أداء وظيفتــه الاجتماعيــة ،ومن خلال هذه التنشئة يتطور الكائن البشري الذي يولد عاجزا لا يدرك من أمره شيئا، فهو لا يستطيع أن يشكل كيانــه الاجتمــاعي ومهاراته ومعارفه إلا باعتماده على الآخرين . فتعدد نماذج سلوكه وهذا يعني أن الفرد لا يكتسب حصيلته المعرفية نتيجة مشــاهداته المباشرة وتجاربه الخاصة فحسب ،وإنم بواســطة تعلــيم الأبــوين خاصة ،وتعليم الأخرين بصفة عامة ويمكن أن نتصور تلك الحقيقة من خلال الشواهد التي بين أيدينا والتي ترجع إلى ما قبــل الدولــة الوسطى ، حينما قام أحد الملوك بتعليم إبنه " مري كــارع" كيفيــة السلوك الاجتماعي وأساليب العبادة . وأيضا في الدولــة الحديثــة حينما كتب " أنى" كتابا يتسع لكثير مــن الموضــوعات التربويــة

تتضمن المسلك الأخلاقي في المجتمع والمسلك العقائدي الديني ، وهي تأتي في النصوص التالية : [٤]

- كن كريما ولا تأكل خبزا حين يكون هناك آخر يتضرر جوعا .
- من الخير أن تبكر في الزواج ،وان يكون للشخص أطفال كثيرون .
- عامل زوجتك برعاية إن كنت تعرف أنها ممتازة .
- أعد لأمك كل ما فعلته من أجلك وأعطيها المزيد من الخبز وأحملها كما حملتك ثقلا وحين ولدت بعد تمام شهورك حملتك على عنقها .
- كن وقورا حين تتناول طعامك واعتدل في شرب الجعة .
- غض النظر عما يجانب الصوب في بيت أجنبي . فإذا رأته عينك . اسكت ولا تقله لغريب .
- احترس من أن تكشف أسرارا وإن قالها رجل في بيتك فتظاهر بالصمم .
- الفضيلة الرئيسية للمرء هي الحشمة والحياء .
- لا تبق جالسا حين يكون شخص أكبر منك سنا أو مركزا واقفا .
- لا تدخل منزلا أجنبيا ما لم تكن مدعوا .
- لا تجاوب رئيسا غاضبا بل حاول تهدئته .
- لا تدخل المحكمة أوتخرج منها حتى لا ينتن اسمك
- لا تضع ثقتك في الغنى ولا تعتمد على الميراث .
- احتفل بعيد إلهك ..إن الإله يسلط على من يهمل هذا الواجب .
- التظاهر بالتقوى شيء ممقوت .
- صل من قلب مبتهل تظل فيه الكلمات خفية .
- الإله يضع ما أنت في حاجة إليه ويستمع إلى كلامك ويتقبل .

لقد وضع "أني مبادئ وأسس العلاقات القيمية في مجـــالات الأسرة ، والعقيدة، والعمل والمعاملات من أجـــل مجتمـــع فاضـــل .وبعد ذلك بحوالي ثلاثة أو أربعة قرون كان الخط الفكري للتنشئة الاجتماعية كما هو قائما وهو ما يتضح من نصائح " أمون أم أبي" إلى ابنه والتي تضمنها في ثلاثين حكمة لا تخـــرج عـــن المعـــاني السابقة إلا أن أهميتها تأتي في نصوصها التي ذكرت فـــي أمثـــال سليمان ، ومنها إلى الكتاب المقدس .

وسأعرض بعض فقرات من هذه النصائح :

- الإنسان من تراب وقش ،وأن الإله هو الذي صنعه .
- لا تقل ليست لي خطيئة من شأن الله وهو الـــذي يضـــع عليهـــا خاتمة .
- في كل مشاجرة ومشادة مع أعدائك لا تضع كل ثقتك في نفسك . بل أترك نفسك بين ذراعي الإله فصمتك (أي هدوءك) سيســـقط أعدائك .
- لا تشترك في أي مشادة مع شخص ثائر . إن الإله يســـتطيع أن يجيبه على كلامه .
- لا تغمس قلمك في المحبرة حتى تؤذي شخصا آخر .
- لا تفيش في المقاييس والأوزان ولا ترتش .
- أقض بعدل ،ولا تظلم الضعيف لصالح الغني .
- لا تطرد من كان ملبسه غير مناسب .
- لا تغش في جباية الضرائب ،ولا تكن قاسيا فيها .
- إن جميع ما تفعله في غير عدالة لن يجلب لك بركة .
- إذا جاءك أحد بثروة على طريقة اللصوص فإنها لا تبقى معك ليلة واحدة .

- كن رحيما في كل شيء ، فلا تهزأ بالأمي وتسخر من القميء.
- لا تسبب ضررا لمقعد ،ولا تزور رجلا في يد الإله . (٥)

الواقع أن جوهر الدين في مصر وفي كل عصورها ،واحد ، فالوثنية المصرية القديمة في جوهرها الأصلي إدراك للعقيدة وقد وصل الخاصة عندهم إلى التجريد وإلى فكرة الإله الواحد . وعلى الديانة المصرية القديمة قامت عادات وتقاليد اجتماعية لازمت المسار التاريخي للعقائد الدينية، اليهودية والمسيحية ،وأقر بها بعض ولاة مصر في ظل الديانة الإسلامية .

إن الشيء الذي تنفرد به مصر هي شخصيتها الحضارية التي تحمل اسمها، دون اقترانها بحاكم من الذين حاولوا ونجحوا أن فشلوا في الاستقلال بمصر في تجليات ومظاهر تكوين المجتمع المصري ، خلال الثلاث آلاف سنة الأخيرة ، وخصوصا خلال العشرين قرنا الأخيرة ، منذ العصر اليوناني المسيحي القبطي ، وصولا إلى العصر الإسلامي بمراحله العربية والكردية والشركسية والتركية والعثمانية والعلوية – الألبانية .

إن التاريخ القومي للخصائص المصرية هوتاريخ لكل المصريين من كل الفئات والطبقات والأديان ، في الريف وفي الحضر وعلى السواحل عبر العشرين قرنا وما يزيد ، كان المجتمع المصري متماسك الحلقات والمراحل ، متفتح العقل، قادر على الاستيعاب وعلى الإبداع المتجدد في كل فنون المعرفة التي حددت هويته بين الحضارات ،ومع ذلك لا نستطيع أن ننفي إن كان لها محكات مع الحضارات الأخرى ، بمعنى أنها أثرت وتأثرت مع مظاهر الثقافة الصادرة والواردة ، ولا نستطيع أن نضع ملامح هذه الهوية في شخصية الإنسان المؤمن بعقيدته ،واحترام عقيدة غيره ،

الصابر لمقدراته المرتبطة بأرضه في الرخاء والفرح والأحزان تكون المشاركة ، بصدق العواطف ،وفي أزمات الخطر يتجلى الوعي الجماعي في المواقف والتوحد في الفداء ،مازالت الشخصية المصرية تعي موروثات الثقافة عن الأجداد ، وما زالت للعادات والتقاليد المصرية ، ما تميز شخصيتها المجتمعية التي تلازمت مع المسار التاريخي في كل عصور حضارتها حتى هذا العصر . (٦)

التنشئة والانتماء والتجديد الاجتماعي :

ولكن يجب أن نكون على وعي – في نفس الوقت – بأن القواعد المحددة لسلوك الرجل ولسلوك المرأة تختلف من مجتمع إلى آخر ،ومن فترة زمنية إلى فترة .وكلما ازداد معدل التغير في المجتمع وزادت سرعته كلما تعرض مزيد من تلك القواعد للتغيير ،والتعديل ،ولكنه لا يعني أبدا تساهلا من المجتمع في التمييز بين النساء والرجال .

كما أن الانتماء إلى جماعة الرجال وجماعة النساء يعتمد على أسس بيولوجية بحتة كذلك يعتمد تقسيم المجتمع إلى جماعات عمرية على اعتبارات بيولوجية ،ولكن كما رأينا كيف أن المعايير الاجتماعية للتمييز بين الرجال والنساء تنطلق فقط من الأساس البيولوجي وتبنى عليه ، كذلك الأمر في حالة فروق العمر، حيث يتخذ الفارق العمري أساسا لبناء مركب كامل من معايير السلوك الخاصة بكل جماعة من جماعات العمر .

فنلاحظ في البداية أن تحديد عدد المراحل العمرية ومدة كل منها يتم اجتماعيا تماما وأعني مراحل : الطفولة ،والشباب ،والنضج والشيخوخة .

ولأن حياتنا أصبحت أطول أمدا كما أنهـا أصـبحت أكثـر تعقيدا ، فقد زاد عدد تلك المراحل ،ويبدو ذلك بصورة أوضح فـي المجتمعات الغربية الصناعية المتقدمة ، حيث زاد متوسـط العمـر كثيرا . فقد أضيفت مراحل وتحديات جديدة ، وتعدل موقع بعـض الفئات العمرية . فهناك الآن مرحلة المراهقة ،والشباب الناضـج (أو صغار البالغين Young Adults) وتعـدل التحديـد الزمنـي لسنوات العمر الوسطى (لـم تعـد الأربعينـات والخمسـينات) ،وجاءت بعدها فئة الكبار Seniors ، أما الشيوخ(االشيخ الهـرم) فقد أصبحوا شيئا نادرا ،والملاحظ علـى العمـوم أن التقسـيمات الاجتماعية لجماعات العمر لا تعتمد على مراحل التطور البيولوجية إلا بشكل تقريبي فقط . فقد كانت المجتمعات الصناعية الغربيـة لا تقر في الماضي حق الشابين البالغين جنسيا في الـزواج إلا بعـد اكتساب المواصفات الاجتماعية اللازمة لتكوين الأسـرة (وأهمهـا الاستقلال الاقتصادي عن الوالدين والقدرة على إعالة الأسـرة) . أما اليوم فإن شدة الاختلاط وموجبات التحلل الموجودة قد أدخلـت في مجتمع كالمجتمع الأمريكي فكرة زواج الأطفال – بدءا من سن الثانية عشرة – حيث تتم نسبة أكبر من ٨٠% من الزيجات الجديدة بين أزواج دون الرابعة عشرة (كما دلت على ذلك مؤخرا دراسة حديثة أجريت عن مجتمع محلي أمريكي . أما سلامة هذا الـزواج واستمراره وقوة العلاقة بين الزوجين فتلك قضية أخرى .

ولا نستطيع أن نحدد في ضوء الحقائق العلمية المتاحة مـا إذا كانت المعايير القديمة أم المعايير الحديثة أشـد قهـرا للشـباب ،ولكننا نستطيع أن نقرر على أي حال أن اتباع كل نظام معيـاري سيخلق نمطا مختلفا من الشخصية .

ولا يختلف الأمر عن ذلك بالنسبة للتجديد الاجتماعي (الرسمي) للشيخوخة، أي تحديد السن التي يحال فيها الإنسان إلى المعاش ، أو لسن الرشد (الأهلية لممارسة حقوقه كاملة) ، أو للسن التي يحق له فيها أن يمارس حق الانتخاب أو حق الترشيح " في المجلس النيابي وهكذا .وعلى الرغم من أننا نعرف جميعا أن تحديد سن المعاش " ملائم" بالنسبة لأغلبية المواطنين ، إلا أنه من المؤكد أنه ينطوي على قدر كبير من القهر والإيلام بالنسبة لعدد آخر من المواطنين ،ويلاحظ كذلك أن معايير السلوك الملائم لسن معين معروفة علميا لكل شخص، وكل من يخرج عليها يواجه في كل زمان ومكان باللوم والتقريع والاستهجان وربما ما هو أكثر من هذا . (٧)

ونلاحظ في النهاية أن المعايير الموضوعة للتمييز بين سلوك أبناء الأجناس (السلالات) المختلة في المجتمع الواحد ،والمعمول بها في بعض المجتمعات القائمة على التمييز العنصري (كالمجتمع الأمريكي ، ومجتمع جنوب أفريقيا ، والمجتمع الإسرائيلي) تتصف هي الأخرى بأنها من صنع المجتمع ، لأنها تتخذ فقط من الفروق في لون البشرة أو من الدين منطلقا لها ،ولكنها ذات طبيعة اجتماعية كاملة (اقتصادية وسياسية ...الخ) .ويحرص المجتمع على فرضها بقدر كبير من القهر والإلزام (وإن اختلفت درجته من المجتمع لآخر) .ولكي ندلل على أن هذا التمييز لا ينهض على أساس بيولوجي على الإطلاق ، أن مفهوم الزنجي في الولايات المتحدة ليس محددا تحديدا دقيقا . فهو يشمل في الولايات المتحدة (ولكن ليس في أمريكا الجنوبية) الزنوج

الأصليين – أي السود تماما – كما يشمل المولدين ، حتى ولو كانت بشرتهم أقرب إلى البياض ، من بيض وهنود حمر .

إن معرتنا العلمية أن كل ثقافة تستغل بعض الفروق البيولوجية بين الناس لكي تبني عليها نسقا معقدا من الفروق الاجتماعية ، هذه المعرفة لم تعد جديدة على أحد ،ولكنها ما زالت محل تجاهل بعض المجتمعات (كتلك التي أشرنا إليها، والتي يمثل فيها التمييز العنصري دعامة من دعامات البناء الاجتماعي) ، أو بعض الطبقات ،ولكن ليس معنى ذلك أنها ليست محل اعتبار الجميع .وما زال كثير من التنظيمات والقيود ينسب إلى (قوانين الطبيعة الدائمة) على حين أن معظمه أو كله يرجع إلى بعض المعايير الاجتماعية ، وهي معايير تغيرت أكثر من مرة على طول التاريخ الإنساني ،وسوف تتعرض لمزيد من التغيرات في المستقبل .ولكن المؤكد أن هناك أمرا لم يحدث في أي مجتمع في أي عصر ،وهو أن الثقافة قد تجاهلت تجاهلا تماما الفروق بين الجنسين ، أو بين جماعات أو بين سلالات المختلفة ولم تهتم بوضع معايير لتنظيم العلاقات بينهم .

لقد ازداد عدد الانتماءات الاجتماعية المجتمعات الحديثة المعاصرة ، وتنوعت المكانات والأوضاع التي يشغلها الناس نتيجة هذه الانتماءات ،ولكنها أصبحت في نفس الوقت أشد عرضة للتغير وأصابها قد كبير من المرونة والقابلية للتعديل . حقيقة أننا ننتمي بحكم مولدنا إلى عدد من الجماعات التي لا نملك قرار الاختيار إزاءها ،ولكننا نلاحظ في نفس الوقت أن الحراك الاجتماعي قد زاد معدله وزاد انتشاره ، وتعاظمت ، أثاره في المجتمعات الحديثة . وأصبحنا نجد على سبيل المثال كثيرا من الناس يجتهدون لكي

يحصلوا على مستوى تعليمي أرفع من المستوى الذي وصل إليه آباؤهم وأن هناك أعدادا كبيرة من اللاجئين والمهاجرين الذين تكاملوا مع شعوب أخرى ...الخ .

مع ذلك تؤكد لنا بحوث علم الاجتماع دائما وفي كل مكان قوة تأثير تلك الانتماءات الأولى على الأوضاع التي يشغلها الفرد فيما بعد في مستقبل حياته .

فاتجاهاتنا السياسية ودرجة تديننا ،وميولنا المهنية وطريقة اختيارنا لشريك حياتنا تتأثر إلى مدى بعيد – وإن لم يكن مطلقا – بانتماءاتنا الاجتماعية الأولى في الحياة .وما زال هذا التأثير أقوى بكثير مما نتصور أو نعي . (٨)

المجتمع والواقع :

يتقاسم الإنسان واقع حياته اليومية في العادة مع أناس آخرين ،وهذه حقيقة مسلم بها ،وليس هناك خلاف عليها منذ العصور القديمة ، أو منذ البدايات الأولى لمجتمع بني الإنسان .ولكن السؤال الهام هو : كيف أن هؤلاء الأخرين ، أنفسهم يتمرسون في الحياة اليومية ،وهنا نستطيع أن نميز بين أنماط أو نماذج عديدة لمثل هذا التمرس أو ما يسمى بالخبرة اليومية .

من المتعارف عليه أن أهم تجارب الإنسان تأخذ مكانها عندما تكون الممارسة أو الاحتكاك اليومي وجها لوجه . أي أن الاتصال هنا يكون اتصالا مباشرا ، حيث يحدث أو يجري أول تفاعل اجتماعي بين اثنين أو أكثر في الحياة اليومية سواء أكان ذلك على مستوى الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات . الأمر الذي يؤدي إلى أنواع أخرى كثيرة من التفاعل الاجتماعي .

إن تجربة الإتصال المباشر أو التعامل –وجها لوجـــه فـــي الحياة اليومية تؤدي إلى إحســـاس طرفـــي الاتصــــال أو التعامـــل بالمشاركة في المواقف . وكلما طال أو استمر الاتصـــال يســـتمر بالتالي عندئذ تبادل الانطباعات والخبرة أو التجربة فيما بينهما . إذ أن كل تغير لأي منهما تجاه الأخر يلقي استجابة لديه سواء أكانـــت استجابة إيجابية أو سلبية .وفي هذا الموقف يكـــون الإنســـان فـــي الغالب الأعم واقعيا، وهذه الواقعية هي جزء من الواقع الكلي للحياة اليومية .

ومن خلال هذا التصور البسيط يعتقد بعـــض البـــاحثين أن المجتمعات المعاصرة لا تختلف عن المجتمعات الأولى ،ومن ثـــم يمكن فهمها عن طريق جمع الوقائع حولها ،وذلك بطـــرح بعـــض التساؤلات في استمارات البحث ثم استخدام الوســـائل الإحصـــائية للوصول على نتائج معينة يمكن استخدامها في تفسير وتعليل الواقع الاجتماعي .ولكن المسألة في الحقيقة ليست بهذه البســـاطة ، إذ أن هناك صعاب جمة تواجه الباحثين ، وترجع في الغالب إلى اختلاف وجهات النظر التي تؤدي إلى اختلاف الآراء ، الأمر الذي يقضي إلى اختلاف نتائج البحوث حول المجتمع .

وكان هذا الاختلاف في النظرة والرأي والمنهاج المســـتخدم في الدراسة ، سببا أساسيا في قول البعض بأن علم الاجتماع لـــيس علما بمعنى Science فعلماء بالاجتماع يريدون معالجـــة الحيـــاة الاجتماعية ومشـــكلاتها علـــى نمـــط معالجـــة العلـــوم الطبيعيـــة لموضوعاتها المادية في الطبيعة والكيمياء وغيرهـــا مـــن العلـــوم الطبيعية . إلا أن الحقيقة أنه حتى إذا ما عرفنا علم الاجتماع بأنه علم بمعنى Science فهو علم يظل مختلفا كثيـــرا عـــن الطبيعـــة

والكيمياء وسائر العلوم الطبيعية ، فهو لا يملــك مجموعــة مــن الإجابات الجاهزة أو منهاجا معد سلفا للوصول إلى حلــول كاملــة ومبرهن عليها .

وإذا كان الأمر كذلك فإنه بإمكاننا القول أنه في دراسة الحياة الاجتماعية أو الواقع الاجتماعي ، لابد أن تعتمد الحقائق أو الوقائع الاجتماعية على كيفية تفسيرها .وعلى هذا فسوف تتنــوع وتتبــاين التفسيرات تبعا لنوع الافتراضات الموضوعة حول ما هــو عليــه الواقع الآن وما يجب أن يكون عليه .وكنتيجة لهذا السياق فإننا نجد أنفسنا لم نبتعد كثيرا عن تصور أو مفهوم المفكــرين المثــاليين ، أمثال " أفلاطون " ومن حذا بحذوه من المفكرين عنــدما اتجهــوا بجهودهم إلى دراسة " ما يجب أن يكون " وفي هذا الاتجاه عــودة إلى الفلسفة المثالية . (٩)

ولكننا إذا ما أخذنا مثالا من الواقــع ولــيكن عــن " أزمــة الإسكان في مصر " فسوف نلاحظ أن الكل يسمع نفــس الحقــائق ،ولكن كيف يفهم كل فرد من هذا الكل المشكلة؟ لا شك أن فهم كل فرد يعتمد على بعض الافتراضات التي يحتمــل ألا توضــع فــي الحسبان على الإطلاق ، فالبعض سوف يرجع المشكلة إلى هبــوط مستوى المعيشة ،والبعض الأخر يرى أنها مشكلة اقتصادية بحتة ، والثالث سوف يرجعها على طبيعة النظام السياسي وسوء التخطيط ،وقد يرى من يعاني من المشكلة رأيا ويلجأ إلى افتراض لم يدرك على الإطلاق .

إن ملاحظة الوقائع في هذا السياق من الصــعوبة بمكــان ، فضلا عن صعوبة تشخيصها ،وعلى هذا لا يمكن معالجة الوقــائع على هذا المنوال لأن اختلاف الثقافات ، بل وتناقضها مــع وجــود

إمكانية توفر دلائل على المفاهيم البديلة للوقائع، في الثقافة الواحدة . إذ أنه في الوقت الذي نقول فيه أننا نعتقد فيما نرى، نقول أيضا " عن الأشياء ليست دائما هي كما تبدو عليه " .وكنتيجة لهذا الاتجـــاه الثقافي يزيد الميل أو الاتجاه نحو التأكيد علـــى الوقـــائع . ولكـــن الفرصة قليلة أو غير متوفرة لفحص الحقائق أو الوقائع الاجتماعية . فضلا عن ضآلة الفرصة نفسها لاكتشاف البدائل . ففـــي بعـــض موضوعات التعليم كاللغة والموسيقى – على سبيل المثـــال – يـــتم التركيز على التفسير والشرح الذي لا يقبل الجدل ، ومن المفروض تشجيع الفرد على الاستجابة .وبالمقارنة بعلم الاجتماع فثمة اتجـــاه لتعليم علم الاجتماع مثل الموضوعات الأخرى أحيانا . وعلى هـــذا فهناك احتمال كبير بأن دارس علم الاجتماع يقال له " أن هذا كذلك ، وذاك هكذا " ، ومن هنا يشعر الطالـــب أو الـــدارس بـــأن علـــم الاجتماع هو علم مشوش ليس بسبب صعوبته ،وإنما لكونه يعتمـــد على وقائع سريعة التغيير . الأمر الذي يؤدي إلى أن علم الاجتماع يتطلب تلميذا أو دارسا مفكرا ، إذ لابد له عاجلا أم آجلا أن ينشغل بالافتراضات والمفاهيم الأساسية عن المجتمع والتي لا تتطرق إليها العلوم الأخرى . (١٠)

ترابـــــط المجتمـــــع :

إن الشرط الأول من شرط ترابط المجتمع يكمن فـــي تقليـــد السلوك الظاهر . فهذا التقليد بالرغم من انعدام قصد الاتصال فيه ، له القيمة التي ينطوي عليهـــا الاتصـــال المـــؤدي إلـــى التفاعـــل الاجتماعي . إذ أنه في عملية الاتساق مع طرق المجتمـــع يوافـــق الفرد بالفعل على المعاني التي تنطوي عليها هذه الطرق . فإذا مـــا تعلم الفرد – على سبيل المثال – الذهاب إلى المسجد محتذيا فـــي

ذلك حذو أفراد المجتمع الآخرين ، فالأمر يبدو كما لو كـــان ثمـــة اتصال قد حدث ثم ترتب عليه تصرف أو سلوك . ووظيفة اللغـــة في مثل هذه الحالات هي بيان ومنطقة المحتـــوى الكاملـــة لهـــذه الاتصالات غير الرسمية في نمو خبرات الفرد الاجتماعية .

أما الإيحاءات الاجتماعية فلها طابع اتصالي أقل من السلوك الظاهر وتقليده، إذ أنها محصلة أعمال فريدة ومغان جديدة أصبحت ممكنة ضمنا ، نتيجة لأنماط من السلوك الاجتماعي .وعلى هذا فإن تعود بعض الناس على عدم الذهاب إلـــى المســـجد فـــي بعـــض المجتمعات – والذي يبدو متناقضا مع القيم التقليدية الموروثة لهذه المجتمعات – يمكن إرجاعه في الوقت نفســـه إلـــى مـــا نســـميه بالإيحاءات الاجتماعية المترتبة على ســـلوك بعـــض أفـــراد هـــذه المجتمعات .

وتكمن أهمية الاتصال في التفاعل الاجتماعي فـــي أنهـــا لا تبدو كصيغة من صنع المجتمع التي لا يعبر عنها لغويا ،وإنما هي في أن الفرد الغريب عن هذا المجتمع قد يحار فـــي فهـــم بعـــض ضروب السلوك حتى وإن كان على دراية تامة بأشكالها الخارجية ،وبالرموز اللغوية التي تصاحب هذه الأنماط من السلوك . ويلفـــت ذلك نظرنا إلى أنه من وظائف الفن في المجتمع أن يجلو مثل هـــذه المقاصد الخفية من السلوك الاجتماعي .

ولا تنطبق عملية الاتصال على المجتمع بهذا المفهوم فحسب ، لأنها تتنوع تنوعا غير محدود فيما يتعلق بالشـــكل والمضـــمون بالنسبة للأنماط المتباينة للعلاقات الشخصـــية التـــي يقـــوم عليهـــا بالمجتمع. (١١)

موروثـــــات التقاليـــــد :

لقد كان نهر النيل أحد العوامل التي جمعت بين المصـــريين وقلقهم فكان فيضه خيرا ،وعجزه مصدرا للقلق ، مما كمان يـــدفع المصريين من يهود ومسيحيين ومسلمين إلـــى صـــحراء مصـــر يحملون الكتب المقدسة ، ويبتهلون إلى الله بأن يجري مياه النيـــل . من هنا تبدو مؤشرات التكوين الاجتماعي الثقافي في وحدة المجتمع التي تعبر عنها مواقف المشاركة الجماعية في عـــادات وتقاليـــد موروثاته .

وقد تكون الشواهد المعاصرة لهذا التراث تبدو بشكل واضح في مصر في احتفالات شم النسيم الذي يشـــارك احتفالـــه جمـــوع المجتمع المصري بكل فئاته وطبقاته ،ولقد أطلـــق مصـــطلح شـــم النسيم على فصل من فصول السنة تتفتح فيه الزهور اسم " شموه " التي تحررت إلى شم ، ثم أضيفت لهذه الكلمة " النسيم " في وقـــت لاحق ، فصار يوم شم النسيم ،وقد أطلق الفراعنة على هذا اليـــوم تسميات أخرى مثل " عيد ربط البصل حيث كان الناس يلقون بـــه تحت أقدام الألهة ، كما يصنعون منه العقود .

وتشير الأساطير إلى أن عيد ربط البصل يشير إلى تصـــور لإحدى منجزات هذا النبات في علاج ابنه أحد الملوك بعد أن فشل الأطباء والكهنة والسحرة في علاجها فقد أشار كاهن مـــن النوبـــة على الملك أن يقدم قرابين من البصل للألهه ، بالإضافة إلى قيـــام ابنته بشم البصل ،وتواكب ذلك مع الاحتفال ببداية الربيع ومن هنـــا جرت العادة وما زالت – حيث تقوم الأمهات بكسر البصل ووضعه

على أعتاب المنازل وأبوابها ،وفي صباح شم النسيم يكسر ويشم . (١٢)

وفي دراسة للأثرى الدكتور على حسن (١٩٧٨) يذكر أن الفراعنة في احتفالاتهم بعيد الإله " سكو" في سقارة كانوا يستخدمون " البصل" في تقاليد هذا الاحتفال بالشكل الاجتماعي الشائع ، أما عن عادة أكل الفسيخ في هذا اليوم ، فقد وجدت بعض النفوس الفرعونية التي تشير إلى تناوله في مثل هذه الأعياد ،وذكر هيرودوت حوالي "٤٥٠ ق.م) أن الفراعنة كانوا يحفظون السمك في الشمس أو يملحونه ويأكلونه في مثل هذه المناسبات ، أما عن البيض الملون ، فكان الفراعنة يعتبرون البيض رمزا لخصوية الطيور ،وباعتبار الربيع هو فصل الزهور والنضج والخصوبة ، فكان الفراعنة في احتفالاتهم به يأكلون الخس والملانة باعتبارهما من الخضر التي تنضج في الربيع ،ولاحتواء الخس على مادة تجلب الخصوبة ، فكانوا يقدمونها قربانا لإله التناسل " مين " . وحينما ننتقل إلى التقاليد الشائعة في المجتمع المصري . ككل إلى شكل آخر من ثقافته الإقليمية ، نجد إحدى مظاهرها تبدو في منطقة العريش الذي يمارس فيها أهلها طقوسا ينفردون بها عن باقي المجتمع المصري ، تلك التي تشكل ظاهرة مجتمعية تمارس لحظة غروب الشمس الأربعاء من الأسبوع قبل يوم شم النسيم ،وهو ما يطلقون عليه مصطلح " ربوع أيوب" وفيه يخرج أهل هذه المنطقة بشكل جماعي إلى البحر والغطس فيه بملابسهم ٧ مرات. والدعاء إلى الله بقضاء حاجاتهم . تيمنا بقصة أيوب عليه السلام الذي يؤكد اعتقادهم بأن شاطئ العريش هو المكان الذي جلس فيه أيوب

،وتلقى سبع موجات متتابعة خرج منها معافيا من مرضه بإذن الله ،وما زالت تمارس في تاريخنا المعاصر .

والواقع أن النزول الجماعي للرجال والنساء والأطفال في البحر الأبيض المتوسط هو شكل من أشكال المعتقدات الشعبية حول القصص الدينية التي استند إليها ،وأضفوا عليها تبريرا لممارستهم ،ومن ثم أصبحت موروثا ثقافيا لا طابعا فولكوريا تتعاقبه الأجيال واستمرت ببساطة عن طريق الإرث الثقافي .

يكشف ذلك عن خصوصية الثقافة المصرية التي تحملها التقاليد في تجسيد المعتقدات المتوارثة والمتأصلة في نفوس أجيال المجتمع المصري ، والمنتشرة في وجود الجماعة العامة والخاصة.

والواقع أن أهمية التقاليد هي عامل من العوامل القوية في تماسك الجماعة ، ويرجع ذلك على أنها تجسيد لأنواع القيم والمعتقدات القديمة المتوارثة (١٣)

الثقافة " صانع الشخصية " :

يمكننا أن نرى بوضوح الآن ، الصلة الوثيقة بين الثقافة والشخصية . فكما أن الفرد يولد داخل مجتمع ما ، فهو يولد أيضاً داخل ثقافة خاصة تشكل شخصيته فالثقافة هي الإطار الأساسي والوسط الذي تنمو فيه الشخصية وتترعرع ، فهي التي تؤثر في أفكاره ومعتقداته ومعلوماته ومهاراته وخبراته ودوافعه ، وطرق تعبيره عن انفعالاته ، ورغباته ، كما تحدد له القيم والمعايير التي يسترشد بها وتفرض عليه التقاليد التي يتمسك بها . وتدل الملاحظات وأبحاث الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع على أن طابع الشخصية ذو علاقة وثيقة بنمط الثقافة الذي تخضع له هذه الشخصية . أي أن الشخصية مرآة تعكس صورة الثقافة أ، كما

يقول " دوسن " (Dawson) وجيتيز (Gettys) أن الشخصية ممثلة للثقافة التي نشأت بها " .

لهذا نجد أن الأفراد الذين ينشأون في مجتمع معين وثقافة معينة ، يتشابهون بعض الخصائص التي تميز شخصيتهم عن شخصية غيرهم من أبناء المجتمعات والثقافات الأخرى ، وأننا رغم ما نلاحظه بين أفراد المجتمع الواحد من تباين وتفاوت وفروق فردية تجعل لكل فرد شخصيته الخاصة به ، نري أنهم يتشابهون في طابع الشخصية العام الذي تتميز به ثقافتهم .

فالمصريون مثلاً يختلفون في الطابع العام للشخصية عن الإنجليز ، وعن الأمريكيين ، وكل من هذه الشعوب الثلاثة يختلف عن الاسكيمو أو قبائل " الارايش " في غينيا الجديدة ، وذلك لأن لكل شعب في الأرض ثقافته الخاصة به وأسلوب حياته الذي يميزه .

هذا وتختلف شخصيات الأفراد في الثقافة الواحدة المنبثقة من " رحم ثقافي " واحد (Socio – Cultural Matrix) تبعاً لأنواع أو نماذج الثقافات الفرعية (Sub Cultures) التي يضمها هذا الرحم أي الثقافات المحلية والمذهبية إلى آخره فمصر تعد رحما ثقافيا واحد ، له ثقافة عامة تميز المصريين عن غيرهم ، هي الثقافة المصرية . ومع أن شخصية المصريين ذات طابع خاص ، فنجد أن شخصية أهل الصعيد تختلف عن شخصية أهل الوجه البحري ، وأن شخصية أهل الريف تختلف عن شخصية أهل المدن . كما أن لرجال الدين طابعاً يختلف عن طابع رجال السياسة مثلاً . ومعني ذلك أن أنواع ونماذج الشخصية تتبع أنواع ونماذج الثقافة ، لأن الثقافة هي التي تصوغ الشخصية وتشكلها .[١٤]

الثقافة والتنشئة الاجتماعية :

لا يمكن للثقافة أن تشكل الشخصية وتصوغها وتتبلور فيها إلا عن طريق عملية الصياغة الاجتماعية أو التنشئة الاجتماعية (Socialization) وهي عملية إدماج الطفل في الإطار الثقافي العام عن طريق إدخال (internalization) التراث الثقافي في تكوينه وتوريثه إياه توريثاً متعمداً بتعليمه نماذج السلوك المختلفة في المجتمع الذي ينتسب إليه وتدريبه على طرق التفكير السائدة فيه ، وغرس المعتقدات الشائعة في نفسه ، فينشأ منذ طفولته في جو ملئ بهذه الأفكار والمعتقدات والأساليب فلا يستطيع التخلص منها لأنه لا يعرف غيرها ولأنه يكون قد شب عليها وتكون بدورها قد تغلغلت في نفسه وأصبحت طبيعة ثانية له ، أي أصبحت من مكونات شخصيته .

فالتنشئة الاجتماعية إذن عملية وتربية وتعليم ، ترتكز على ضبط سلوك الفرد ، بالثواب والعقاب ، وكفه عن الأعمال التي لا يقبلها المجتمع وتشجيعه على ما يرضاه منه ، حتى يكون متوافقاً مع الثقافة التي يعيش فيها . وفي هذا يقول " دوركايم " إن جميع أنواع التربية تنحصر في ذلك المجهود المتواصل الذي نرمي به إلى اخذ الطفل بألوان من الفكر والعاطفة والسلوك التي ما كان يستطيع الوصول إليها لو ترك وشأنه وبيان هذا أننا نضطره منذ حداثة سنة إلى الأكل والشرب والنوم في ساعات معينة ونوجب عليه النظافة والهدوء والطاعة ثم نجبره على التعلم وعلى مراعاة حقوق الغير وعلى احترام العادات والتقاليد كذلك نوجب عليه العمل وغير ذلك من الأمور . وإذا لم يشعر الطفل بهذا القهر كلما تقدم به

العمر فإن السبب في ذلك يرجع إلى أن القهر يخلق لديه شيئاً فشيئاً بعض العادات والميول الداخلية التي تجعل القهر عديم الفائدة .

وعملية التنشئة الاجتماعية هذه تبدأ من المهد ويقوم بها الآباء والمربون كممثلين للثقافة وكوسطاء لها . وهي تهدف دائماً لمساعدة الفرد على أن يستدمج الثقافة ويتمثلها في شخصيته . وبذلك نستطيع أن نقول أن التنشئة الاجتماعية هي وسيلة الثقافة في تشكيل الشخصية الإنسانية وصياغتها .

وتعرف " مارجريت ميد " (Margaret Mead) التنشئة الاجتماعية بأنها العملية الثقافية ، والطريقة التي يتحول بها كل طفل حديث الولادة إلى عضو كامل في مجتمع بشري معين ويري " والاس " (Wallace) أن التنشئة الاجتماعية هي همزة الوصل بين الثقافة والشخصية . فبدون عملية نقل الثقافة إلى الأفراد عن طريق هذه العملية لا يمكن أن نتوقع منهم انصياعا لمعايير مجتمعهم ، ولا لقيمه ونظمه .

وعملية التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعي ، هي نقطة التقاء البيولوجيا ، وعلم الاجتماع ، والانثروبولوجيا ، وعلم النفس الاجتماعي . وهي بؤرة اهتمام الآباء والمربين والقادة الدينيين . ففي عملية التنشئة الاجتماعية يكتسب الفرد العادات والأفكار والاتجاهات المتفق عليها ثقافياً . وهو مجموعته الاجتماعية عندما يتعلم حقوق وواجبات مركزه ودوره . أما دوافعه فتوجه إلى منافذ معينة معترف بها . ويستدمج الفرد هذه القواعد والقيود الثقافية ، لدرجة أنها تصبح جزءاً من شخصيته . وربما حاول الكثير من الناس مقاومة عملية التنشئة بعض الشيء ، لأنها تتدخل في الإشباع المباشر لدوافعهم ، ولكن نود أن نشير هنا إلى أنه ليست هناك إلا

هوة جد ضيقة بين ما يريده معظم الناس ، وما يريده المجتمع. أما أولئك الذين لا يستطيعون أن يتمشوا أو يتكيفوا مع المجتمع دون كثير من الاستياء والامتعاض والإحباط فيعدون شيئي التوافق .(١٥)

ونظراً للأهمية البالغة لعملية التنشئة الاجتماعية ، فإن كل مجتمع ينظمها Institutionalize it أي يجعلها تنشط ويصير لها فعالية في إطارها المحدد باعتبارها نظاماً اجتماعياً . وهناك مجريان رئيسيان نسير فيهما عملية التنشئة الاجتماعية ، الأول عن طريق السلطة على الفرد ، والثاني عن طريق المساواة مع الفرد .

أما المجري الأول لعملية التنشئة الاجتماعية ، فيتمثل في الأسرة ، والمدرسة ، والمؤسسة الدينية . وتمارس كل منها سلطة على سلوك الطفل وتعد مسئولة عن تهذيبه وانضباطه.

وأما المجري الثاني لعملية التنشئة الاجتماعية فيتمثل في شلة الأقران (Peers) التي تعلم الطفل ثقافة الأطفال (Child Culture) ومن خلال تفاعله مع هؤلاء الأقران يتعلم الطفل كيف يتوافق معهم . وتظل عملية التوافق مع شلة الأقران هذه مستمرة طوال حياته .

ويذهب " فردريك الكن " (Fredric Elkin) إلى أن التنشئة الاجتماعية هي تلك العملية التي يتعلم بها الفرد كيف يصبح عضوا وظيفياً (Functioning Member) في المجتمع . ويتعلم الوظائف التي تفرضها عليه ثقافته من التفاعل مع الآخرين . فعن طريق هذا التفاعل يتحدد دور الفرد ، ويتبلور مركزه ، ويؤدي وظائفه التي تعين له في كل مرحلة من مراحل حياته ، وفق كل مجموعة ينتمي إليها ويصبح عضواً فيها .

ويري " جورج هربرت ميد " G. H. Mead ، أن الكلمة المنطوية هي وسيلة الإشارة الفعالة . وأنها عندما تثير كلا من المتكلم والسامع موقظة فيهما الاستجابة نفسها ، أو الشعور نفسه ، تكون عندئذ رمزا ذا دلالة (Significant Symbol) والمجموعة الشائعة من الرموز ذات الدلالة التي يشترك فيها أعضاء مجتمع ما ، هي ثقافته . وما المجتمع إلا نسق من العلاقات بين الأشخاص وتكون هذه العلاقات مؤسسة على ثقافته . والفرد الذي يستدمج مجموعة من الرموز المنظمة ذات دلالة يكون قد اكتسب ذاتا .

وتنمو الذات في عملية التنشئة الاجتماعية أو التطبيع . فالطفل حديث الولادة ، ليس لديه تصور عن نفسه كجهاز فردي بمعزل عن الاخرين لكنه عن طريق تفاعله بوالدته والآخرين ، يستطيع إدراك شخصيته المنفصلة وهكذا تنمو ذاته ، وتتطور بالتدريج ، وهذا ما يعرف بعملية " التشخصن " ، ويبدأ الطفل ، في سن السنتين تقريباً ، في استخدام كلمات مثل أنا ، وأنت ، وهي تشير إلى أنه أصبح واعياً بذاته وبالآخرين كأفراد مثله .

وقد أوضحت دراسة " مارجريت ميد " عن الشخصية في ثقافات مختلفة ، أن الحقائق البيولوجية المتعلقة بالجنسين ، ليس لها شأن يذكر في تحديد دوريهما ، وأن الأهمية كل الأهمية ، كانت لتعريفات الثقافة ، وتحديدها لتلك الفروق بين الجنسين أي أن المجتمع هو الذي يخلق أو يغرس السمات الذكرية والأنثوية في الأفراد . وبمقارنة ثلاثة قبائل في غينيا الجديدة New Guinea وهي قبائل " الأرابش " " والموندوجومور " " والتشامبولي " لاحظت " مارجريت ميد " أن قبيلتين منهما لا تجعلان أبداً أية فروق شخصية حادة بين الذكور والإناث ، فعند الأرابش

Arapesh سكان الجبال الذين يعيشون ليحققوا هدفين ، هما زراعة اليام وتربية الأطفال ، نجد أن كلاً من الرجال والنساء يسلكون بطريقة يمكن أن نسميها – في ثقافتنا – أنثوية . ذلك لأنهم جميعاً رقيقو الطباع هادئون مدللون يتمتعون بصفات الأمومة والحنان والوداعة .(١٦)

على هذا فإن كلمة " مجتمع " يشير إلى جماعة من الناس – من الجنسين – ومن مختلف الأعمار يرتبطون معا بروابط نظامية وبثقافة متميزة . وفي الواقع أن تجمعات بشرية من هذا القبيل إنما تقوم على أسس وحدود سياسية توضح أو تحدد العلاقة بين " الدولة " و " المجتمع " من حيث المفهوم السوسيوسياسي .

ولقد عرف المجتمع أيضاً على أنه " النظام والثقافة " المتميزة لجماعة تقطن أو تعيش في مكان واحد – من الجنسين ومن كل الأعمار – حيث أن هؤلاء يعيشون في كل مكان مأهول من العالم في جماعات يتاثر سلوكها بمجموعة من القيم والمعايير التي يتقاسمونها . ومن ثم يتصل بعضهم ببعض ويسلكون وفقاً لها. ففي العصور الوسطي لم يكن ثمة فرق بين " المجتمع المدني " و " المجتمع السياسي " إذ كان الفرد تابعاً للمجتمع السياسي ، وفي الوقت نفسه تابعاً للكنيسة التي كان دورها السياسي بارزاً ومسيطراً . وبدأ التمييز أو الفصل بين الدولة والمجتمع يظهر تدريجياً من خلال ثورات القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ولم ينقض القرن الثامن عشر إلا وكان التمييز واضحاً بين الدولة والمجتمع .(١٧)

المجتمع والحياة الاجتماعية :

وهناك مطلبان أساسيان في الدراسات الاجتماعية كأي دراسات أخرى :

ويدور المطلب الأول حول محاولة تفسير الحقائق ، وذلك باستخدام المنهاج الملائم لهدف الدراسة ، وعلى هذا تسمي علما . والمطلب الثاني هو محاولة الآخرين فحص الأفكار والمناهج التي استخدمت في التفسير . وعندما تستخدم هذه الأفكار وهذه المناهج على نطاق واسع تسمي في بعض الأحيان بالفلسفة التحليلية. إلا أنه في الدراسات الاجتماعية يظل الأمر معلقا وقابلاً للنقاش طالما أن ميدان الدراسة هو المجتمع الديناميكي والمتغير دائماً في النظم والثقافة والعادات والعرف والتقاليد.

أن محاولة فهم كيان بالغ التعقيد كالمجتمع هو في حاجة إلى بذل جهد شاق بلا شك . ولكن هذه الصعوبة لن تحول دون استخدام الناس لكلمة " مجتمع " باستمرار في مناقشاتهم وأحاديثهم اليومية العادية . كما أن الكلمة – المجتمع – تستخدم أيضاً بصورة متواترة في أحاديث قادة ورواد المجتمع ، فهذا سياسي يقول: " سوف نعمل لكي يساعدنا كل فرد من أفراد المجتمع " ، وناظر مدرسة يقول : " أن التلاميذ في المدرسة ليتعلموا كيف يتخذن أماكنهم في المجتمع " ، وثمة سياسي آخر يقول : أن عودة عقوبة الإعدام هي من اجل حماية المجتمع . ويري بعض الكتاب أنه لابد أن تعمل الحكومة علي المحافظة على مستوي اجتماع معين لتساعد في قيام مجتمع متحضر أو متمدين .(١٨)

وبنظرة سريعة إلى الفقرة السابقة نستطيع أن نتبين أن كلمة " مجتمع " لا تشكل مشكلة من نوع ما في الاستخدام اليومي العادي

. إلا أنه من المفيد هنا أن نخضع للفحص هذا الاستخدام للكلمــة . ففي جملتين سابقتين تحدث المستخدم للكلمة عن مجتمعنــا ولكــن مجتمع من وهل ثمة معني تطبيقياً لهذه الكلمة ؟ إذ أنه أينما وجــد مجتمع فئمة أناس يتبعونه جميعاً ، أو بمعني أقرب إلى الواقع هناك أناس يكونون هذا المجتمع أو ذلك . وهل هذا يتضــمن فكــرة أن هؤلاء جميعاً يتبعون هذا المجتمع بمقياس أو بمعيار متساو ، وهــل ثمة خبرة أو تجربة متشابهة لكل فرد ؟ هذا بالإضافة إلى أن هناك مظهرا أو جانباً أخر لهذه الأمثلة السابقة ، فهي تعني إشارة قويــة بأن المجتمع يأتي وراء الفرد ، وعلى هــذا فــالمجتمع المتحضــر يعرف بالرجوع إلى مستويات معينة . ولقد وجدت هذه الفكرة عن المجتمع مستقلة عن الفرد في كثير من أحاديــث الساســة وقــادة المجتمع . ونحن إذا ما أعطينا المجتمع مثل هذه المكانة فنحن فــي هذه الحالة في ميدان أو مجال مشكوك فيه لأن المجتمع إنمــا هــو معني مجرد . إذ أننا لا نستطيع أن نلمس أو نتذوق أو نشم المجتمع . فالمجتمع لا يملك خصائص يمكن أن نخضعها لمثل هذه الحواس ، ولكنه يوجد كمفهوم فقط . ولما كانت المجتمعات ليست أشياء بأي مفهوم مادي ، فلا يمكن دراستها كأشــياء ماديــة . إذ أن مفهــوم المجتمع هو مفهوم المجتمع هو مفهوم " علاقة " وليس واحداً مــن المفاهيم المادية . فالوجود في أي موقف اجتماعي إنما ينسحب على الناس المشاركين في الموقف نفسه .

ونتيجة لما سبق فما الذي نعنيه عندما نستخدم كلمة " مجتمع " في سياق ما؟ نعتقد أن محتوي أو مدلول هذه الكلمة إنما يعني : " أن ثمة أناس مرتبطين ببعضهم البعض بطرق نظامية يشغلون مكانا ما في زمان ما " . وعلــى هــذا فــإن عمــل علمــاء الاجتمــاع

والانثروبولوجيا إنما يدور أو يتركز حول اكتشاف هــذه الطــرق ودراستها، فالمجتمع تبعاً لذلك عبارة عن شبكة من العلاقات ، هي السياق الذي ينشغل به علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا .

ولما كان المجتمع عبارة عن سلسة من العلاقات بين الناس ، فإن طبيعة هذه العلاقات هي ما يجب على العلماء والبــاحثين أن يتناولوه بالدراسة والفحص . ومن ثم فإنــه يتبــادر إلــى الــذهن مجموعة تساؤلات أساسية يحاول علماء الاجتماع الإجابــة عليهــا مثل :

ما نوع تلك العلاقات التي تتميز بدرجة عالية من الأهميــة للمحافظة على الاستقرار الاجتماعي ، وما هي القوي التي تعمــل على تشكيل هذه العلاقات ؟ وهل يظهر المجتمع ببساطة نتيجة لقيام مجموعة من العلاقات بين عدد من الناس؟.

أن مشكلة المجتمع لا يمكن أن تحل بمجرد تعريف المجتمع على أنه مجموعة أو شبكة من العلاقات ، برغم أنها تساعدنا فــي تذكر طبيعة ما نحن بصدد دراسته . لأننا نميل في حياتنا اليوميــة إلى الاعتقاد بأن المجتمع كيان أو وجود واقعــي بالفعــل، ويعبــر بعض الباحثين عن ذلك بقولهم : " أن المجتمع لن يسمح بــذلك " ، أو " وفقاً لحاجات المجتمع " أو " أن الصــفوة الحاكمــة مســتودع لأجهزة وأدوات الإدارة والضبط .(١٩)

أهمية القيم والمثل والاتجاهات في تشكيل السلوك الإنساني:

لقد كان لروث بنديكت فضل كبير في توكيــد أن الســلوك الإنساني في أي ثقافة من الثقافات يمكن فهمه على أفضل وجه في ضوء القيم والمثل والاتجاهات العامة التي تسود هذه الثقافة بالذات ، كما أن ثمة ضوابط محددة تحكم انفعالات الأفراد . وتختلف هذه

الضوابط والمثل من مجتمع لآخر ، وهذا الاختلاف هو الذي يساعد على تفسير ما يبدو لنا من أن بعض الاتجاهات في المجتمعات الأخرى اتجاهات شاذة أو غير سوية ، وذلك حين نقيس تلك الاتجاهات ومظاهر السلوك من وجهة نظرنا الخاصة التي نستمدها من ثقافتنا الخاصة . وهذا معناه في نهاية الأمر نسبية السواء أو الشذوذ والانحراف، ونسبية ما هو اجتماعي أو لا اجتماعي . وبقول أخر فإن ما يعتبر " منحرفاً " أو " شاذا " أو " غير سوي " بالنسبة للصيغة الثقافية العامة السائدة في المجتمع ككل قد يعتبر " سوياً " في نطاق محدد معين داخل هذه الصيغة ذاتها ، فالاتصال الجنسي قبل الزواج مثلاً ظاهرة شائعة في كل المجتمعات المعروفة ، ولكن الثقافات المختلفة تقف منها مواقف مختلفة تتفاوت بين الإباحة التي قد تصل إلى حد التشجيع من ناحية والاستنكار أو توقيع العقوبات الشديدة من الناحية الأخرى . ولذا كان يجب دراسة هذه الظاهرة داخل الصيغة الثقافية المتصلة بها في كل حالة على حدة . وهذا معناه أن سلوك الأفراد أو الجماعات يجب أن يدرس في ضوء ما تعلموا أنه صواب أو خطأ ، وكذلك في ضوء فكرتهم عن السلوك المباح والمحرم . بل إن هذا يصدق على الثقافة الواحدة. فالجنسية المثلية homosexuality مثلاً قد تعتبر ظاهرة غير سوية في نظر المجتمع ككل ، ولكن ليس كذلك بالنسبة للأشخاص الذين يمارسونها في ذلك المجتمع نفسه . ولذا كان هؤلاء الأشخاص يميلون إلى التجمع معا ليؤلفوا فيما بينهم جماعة متماسكة تسودها صيغة ثقافية موحدة ، مما يشعرهم فيما بينهم بنوع من الطمأنينة التي يستمدونها من اشتراكهم في أداء عمل معين بالذات ينفردون به عن بقية المجتمع . لذلك كانت " روث

بنديكت " تري أن كل ثقافة – أيا ما يكون مدي انتشارها – تؤلف وحدة متمايزة ، وأن النظم التي توجد في هذه الثقافة تعكس نمطها الخاص المعين وتعبر عما تسميه " بالنوايا " أو " الأغراض " الثقافية المتعلقة بذلك المجتمع بالذات ، أكثر مما تعبر عن الحاجات البشرية العامة التي يقوم بها بعض العلماء من أمثال مالينوفكي . وهذا هو ما كانت " روث بنديكت " تقصد إليه حين تكلمت عما تسميه " مبدأ النسبية الثقافية Prineipte of cultural relativirty (٢٠).

فكأن القضية السياسية في تفكير بنديكت هي أن كل ثقافة من الثقافات تسيطر عليها اتجاهات عامة شاملة تطبعها بطابع خاص يميزها عن غيرها . وهذا هو يميز في الحقيقة نظريتها التي تعرف عموماً باسم " الصيغة الثقافية العامة " عن الاتجاه الوظيفي في الأنثربولوجيا فهي تركز اهتمامها على دراسة الاتجاهات الأساسية للثقافة أكثر مما يركزه على دراسة العلاقات الوظيفية لكل سمة من السمات الثقافية. وعلى الرغم من اعترافها صراحة في بداية كتابها بضرورة اعتبار كل ثقافة كوحدة متماسكة ، فإن ثمة اختلافات واضحة بينها وبين مالينوفسكي على الخصوص . فقد بدأ مالينوفسكي نظرته للثقافة من الفرد واعتبر الظواهر الثقافية مشتقات من الحاجات الفردية . أما روث بنديكت فقد بدأت من " الصيغ الثقافية " واعتبرت السلوك الفردي مجرد أتفاق وتوائم مع التعاليم والمثل والقيم والاتجاهات الثقافية الموجودة بالفعل . وما دام الأمر كذلك فإن الباحث الأنثربولوجي قد يستطيع أن يصل إلى تأويل وظيفي للثقافات المختلفة ولكن ليس " الثقافة " في عمومها والواقع أنه بحسب هذه النظرة لا يمكن قيام " علم للثقافة " بالمعني

الدقيق لكلمة " علم " وذلك نظراً لوجود كل تلك التغايرات والاختلافات والأشكال والصيغ المختلفة أشد الاختلاف ، ولأن أي ثقافة من الثقافات تتألف في نظرها من عدد من الصيغ الثقافية التي تتكامل داخل نمط واحد عام سائد يختلف بالضرورة عن غيره من الأنماط كما تختلف مكونات تلك الأنماط الأخرى . وهذا كله من شأنه أن يجعل من الصعب الوصول إلى تفسير " علمي " أو إلى تعميمات كلية تقوم مقام " القانون " في العالم .(٢١)

أن ظهور " أنماط الثقافة " أدي إلى ازدياد الاهتمام بدراسة الفرد باعتباره عنصراً هاماً في تحليل الصيغ والأنماط الثقافية . والواقع أن هذا التأثير لم يكن قاصراً على علماء الأنثربولوجيا الثقافية وحدهم ، بل إنه ظهر في كتابات عدد من علماء النفس والتحليل النفسي من أمثال إبرام كاردينر Abram Kardiner الذي اهتم اهتماما بالغا بإبراز الفرد كعامل دينامي في الموقف الثقافي ، وذلك باعتبار الفرد كائنا عضويا بيولوجيا له حاجات ودوافع سيكولوجية تتفاعل مع قوي الأوضاع والمبادئ الثقافية التي يخضع لها . وقد كانت روث بنديكت قد أبرزت عقل الفرد على أنه " صفحة بيضاء " يمكن لأي ثقافة أن تترك طابعها الخاص عليها أي أن الفرد في نظرها لم يكن أكثر من مجموعة كبيرة من الإمكانات التي تستطيع الثقافية – أي ثقافة – أن تنتقي وتختار منها ما يتلاءم ويتفق مع نمطها الخاص . وهذا معناه أن موقف الفرد في كتابات روث بنديكت من عملية التربية والتعليم موقف سلبي إلى حد كبير . وهذا أمر يعارضه كاردينر أشد المعارضة إذ أن كاردينر يري أن الفرد يخرج في عملية التعليم لكي " يقابل " ثقافته – حسب تعبيره – ويحصل منها على شيء من الإشباع الذاتي ، مما يؤدي

بالتالي إلى ظهور أنماط السلوك الفردية في النطاق الذي تسمح بـــه الثقافة .

وقد استعان كاردينر في كتاباته ببعض مفهومـــات التحليـــل النفسي بقصد التعمق في فهم العلاقات المتداخلة المعقدة التي تقـــوم بين أفراد المجتمع . إلا أنه لم يكن يعتقد رغم ذلك بـــأن الأفكـــار السائدة في الكتابات والنظريات الســـيكو تحليليـــة تصـــدق كلهـــا بالضرورة على الثقافات البدائية ، ولذا كان يري ضرورة تحويـــل وتعديل هذه الأفكار – أو بعضها على الأقل – بما يتلاءم مع تلـــك الثقافات وأفضل مثل لذلك هو ما ذهب إليه من عدم أمكان تطبيق " عقدة أو ديب " على المجتمعات الأموية التي ينتسب فيها الأبناء إلى أمهاتهم وإلي الجماعة القرابية التي تنتسب إليها الأم (ليس إلـــى الأب كما هو الحال في المجتمعات الأوربية) والتي لا يتمتع الأب فيها بالتالي بسلطة متميزة على أفراد عائلته . والواقع أن هذه نقطة هامة يثيرها كثير من الأنثربولوجيين في نقدهم لمـــدارس التحليـــل النفسي والمحاولات التي يبذلها بعض العلماء لتطبيق نظريات ذلك العلم على الرجل " البدائي " ، وقد تعرض لها مالينوفسكي نفسه في كتابه عن الجنس والكبت في المجتمع المتوحش .[٢٢]

وقد دلت الأبحاث العلمية المتوالية في مجال علم الاجتمـــاع والانثروبولوجيا على أن الاعتقاد بأن هناك طبيعة خاصة للمـــرأة ، وطبيعة أخرى للرجل ، من حيث السلوك الاجتماعي لكل منها ، لا يخرج في جوهره عن كونه عمليـــة تنشـــئة اجتماعيـــة أو تطبيـــع اجتماعي وقد أدت تلك الدراسات وعلى الأخص تلك التي قامت بها " مارجريت ميد " . (Margaret Mead) ، و" روث بنـــدكت " (Ruth Bendict) ، إلى أن يعيد كثير من الباحثين النظـــر فـــي

الخصائص السلوكية لكل من الذكر والأنثى . تلك الخصائص التي كان ينظر إليها فيها مضي على أنها خصائص فطرية تكوينية ، وذلك بالنظر إليها من خلال منظور اجتماعي .

فقد كان نشاط اللعب ، مثلاً موضوعاً لكثير من الدراسات وكان يفترض أن البنات يلعبن بالعرائس ، وذلك لدافع أموي فطري ، أو سمة انفعالية خاصة بجنسهن ، كما اعتبر اختفاء هذا النوع من نشاط اللعب بين البنين ، دليلاً على اختلاف بيولوجي أساسي ، إلا أن دراسات " مارجريت ميد " في جزيرة مانوس Manus بغينيا الجديدة ، غيرت من هذه النظرة . فعندما وضعت بعض العرائس الخشبية أمام الأطفال هناك ، تقبلها الأطفال من البنين دون البنات بشغف زائد ، وحنو بالغ، مترنمين لها بألحان جميلة ، ونستطيع أن نفهم هذا السلوك إذا ما وضعناه في إطاره الثقافي . فالنساء هناك نتيجة لانشغالهن طوال النهار بالعمل ، لا يستطعن المكوث بجوار أطفالهن ، في حين أن الآباء يجدون فترات طويلة من الراحة يستطيعون خلالها مرافقة الأطفال أكثر من الأمهات . وقد انعكس هذا التمايز بين دوري الأب والأم ، على سلوك الأطفال الذكور ، والإناث .[٢٣]

أثر الشخصية في الثقافة :

رأينا في مطلع هذا العمل جزءا من الحوار المستمر بين الثقافة والشخصية، بينا فيه تأثير الثقافة على الشخصية . وفي هذا الجزء يتم الطرف الثاني من الحوار ألا وهو تأثير الشخصية في الثقافة لنري في النهاية أن الشخصية تلعب في التفاعل الاجتماعي دور **الذات والموضوع** معاً ، وأنها لذلك تتأثر بالثقافة وتؤثر فيها .

الإنسان هو صانع الثقافة ، ومبتكرها ، وناقلها ، ومغيرها وفي الوقت الذي يحدد فيه البناء الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع طابع النشاطات الاجتماعية البشرية وجوهرها ، فإنه هو ذاته نتاج لهذه النشاطات .

وفي هذا يقول ماركس " إن القوي الإنتاجية نتاج الطاقة البشرية العملية ، إلا أن هذه الطاقة ذاتها تتحكم فيها تلك الظروف التي يجد الناس أنفسهم موجودين فيها ، كقوي الإنتاج المكتسبة ، والأشكال الاجتماعية القائمة قبلهم ، والتي لم يخلقوهم هم أنفسهم ، وإنما هي نتاج لجيل سابق ذلك أن كل جيل لا حق يجد في حوزته القوى الإنتاجية التي تخدمه بوصفها المادة الخام لإنتاج جديد . إن التاريخ الإنساني يتطور بصورة مترابطة . وهكذا يتضح لنا أن تاريخ الإنسانية هو في جوهره تاريخها منذ أن بدأت القوى الإنتاجية للإنسان وبالتالي علاقاته الاجتماعية تصبح أكثر نموا وتطوراً .

ويترتب على ذلك بالضرورة أن التاريخ الاجتماعي للأفراد ليس إلا تاريخ نموهم الفردي ، سواء أكانوا على وعي به أو على غير وعي به . إن علاقاتهم المادية تشكل أساس جميع علاقاتهم وهذه العلاقات المادية هي وحدها الأشكال الضرورية التي يتحقق من خلالها نشاطهم المادي والفردي بما في ذلك النشاط الذي يستهدف إعادة وضع هذه الأشكال ويواصل " ماركس " في هذا الصدد قوله: إن الناس يخلقون تاريخهم بأنفسهم إلا أنهم يفعلون ذلك في بيئة معينة تكون بمثابة الشرط الذي يحدد كيفية حدوث ذلك ، وعلى أساس من العلاقات الفعلية القائمة سلفاً ، ومن بينها العلاقات الاقتصادية التي مهما كان مدي تأثرها بعلاقات أخري، أساسية ،

وايديولوجية ، فإنها تشكل الخيط الأساسي الذي يمتد عبرها جميعاً ، والذي يؤدي وحدة بنا إلى الفهم .

إن الإنسان عبارة عن مجموع علاقات اجتماعية وهو نتاج أشكال اجتماعية معينة . وهو يتغير بفعل تأثير التغير الذي يطرأ على العلاقات الاجتماعية ، إلا أن العلاقات الاجتماعية ، والأشكال الاجتماعية للتفاعل الاجتماعي تتغير بدورها ، بفعل النشاط البشري .

ويؤكد لنا " ماركس وانجلز " أن الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم لكن ذلك لا يحدث بعد بإرادة جماعية ، أو وقف خطة جماعية ، أو حتى في مجتمع محدد معين . إن رغباتهم تتطاحن ولهذا السبب عينة تحكم مثل هذه الصدفة ، إن الضرورة التي تؤكد نفسها هنا تستبعد كل صدفة ، وهي في نهاية المطاف الضرورة الاقتصادية .

إن الإنسان ، خلال نشاطه المادي والمعنوي يخلق ظروف حياته الذاتية والحياة الاجتماعية معا . إن الأفعال الاجتماعية للناس تلتحم بنسيج النظام الاجتماعي ، كما أنهما – معا – موضوع لهذا التفاعل ومصدر له في أن واحد وهذا هو السبب في أن دراسة النظام الاجتماعي – والثقافة – يقتضي بحث العوامل الذاتية والموضوعية ، وعلاقات الموقف الاجتماعي المعين ، والشخصيات الفعلية ، وأفكارهم وتصوراتهم لوضعهم وللوضع الموضوعي في كليته .(٢٤)

إن الإنسان ليس عنصراً سلبياً في الثقافة ، أو النظام الاجتماعي بل أنه ليسهم مساهمة إيجابية فعالة ، ويتخذ قرارات

معينة ، يمكنها ، اعتماداً على دوره في المجتمع ، وعلى مبلغ مسئوليته ، أن تكون ذات أهمية بالغة بالنسبة للآخرين .

ويؤكد " أريك فروم " (Erich Fromm) أن التاريخ الإنساني يتميز " بالصراع والنزاع " لأن " كل خطوة في اتجاه نمو الفردية تهدد الناس بضروب جديدة من انعدام الأمن . إن الروابط الأولية ما أن تتمزق حتي لا يصبح هناك أمل في إصلاحها . وإذا لم تتح الظروف الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية ، الأساس اللازم لتحقيق هذه الفردية ، في الوقت الذي يفقد فيه الناس تلك الروابط التي كانت تمنحهم الأمن ، فإن ذلك يجعل الحرية ، عبئاً يصعب تحمله ، وينشأ هناك ميل إلى الهرب من هذا النوع من الحرية ، إلى الخضوع ، أو إلى نوع ما من العلاقة بالعالم وبالإنسان تتيح التخلص من انعدام اليقين حتى ، ولو أدت إلى تجريد الإنسان من حريته .

إن فروم إذن يعتبر الإنسان عنصراً مستقلاً في عملية التغير الاجتماعي . وقد كتب " بليخانوف " (Plekhnov) ذات مرة يقول : " إن العادات الجمعية القديمة ، والطقوس القديمة ، تخالف حين يدخل الناس في علاقات متبادلة جديدة ، ويجد الصراع بين المصالح الاجتماعية تعبيراً في الصراع بين العادات الجمعية ، والطقوس الجديدة مع القديمة .

وليست هناك عادة جمعية واحدة أو طقسا رمزيا واحداً يمكن في حد ذاته أن يؤثر على ظهور علاقات جديدة ، ونموها سواء بالسلب أو بالإيجاب ، وإذا دافع حماة العادات الجمعية عنها بحماس فإن ذلك لأن فكرة الاستخدامات الاجتماعية المعتادة بالنسبة لهم والعزيزة عليهم ، والتي في صالحهم ترتبط في أذهانهم ارتباطا

وثيقاً بفكرة هذه العادات الجمعية . وإذا كان المستحدثون يكرهون ويحتقرون هذه العادات الجمعية ، فإن ذلك يرجع إلى أن فكرة هذه العادات الجمعية ترتبط في أذهانهم بفكرة العلاقات الاجتماعية التي ليست في صالحهم ومقيدة لهم وغير سارة . ويتبع ذلك أن الأمر كله عبارة عن ترابط أفكار ، وإن ظهور ، وتغير ، وانهيار الارتباطات بين الأفكار تحت تأثير ظهور وتغير وأنهيار، ارتباطات معينة بين القوي الاجتماعية يفسر إلى حد كبير تاريخ الايديولوجيات .

والخاصية الجوهرية لتكون الشخصية ليست ببساطة معرفة حقيقة أن الشخصية نتاج علاقات اجتماعية وتعليم وتربية ، ولكن معرفة أن الإنسان ذاته هو القوة التي تقيم هذه العلاقات ومختلف أشكال التعليم . وفي مقالة عن فيورباخ (Thesis on Feurbach) يرى ماركس القصور الرئيسي لكل المادية السابقة في فهمها للموضوع والواقع والحسية على أساس شكل الموضوع ، أو شكل التأمل فقط وليس على أساس أنها نشاط حسي إنساني " إن المقولة المادية أن الناس نتاجات للظروف والتربية " ، وعلى هذا فإن الناس المتغيرين نتاجات لظروف أخرى وتربية متغيرة تنسي أن الناس هم الذين يغيرون الظروف وإن المعلم نفسه يحتاج تعلماً . وهكذا فإن هذه المقولة تصل بالضرورة إلى شطر المجتمع شطرين، أحدهما يكون متعالياً على المجتمع .

ويري ماركس أن المشكلة الأساسية في علم المجتمع هي تفسير كيف يمكن أن تتغير البيئة بواسطة الناس الذين هم أنفسهم من خلقها . وقد أوضح أن علاقات الإنتاج تشكل بظروف مستقلة عن الإرادة الإنسانية . ولكن العلاقات قد لا تتغير في الاتجاه

المرغوب . ولا تعتمد طبيعة " البناء الاقتصادي " والاتجاه الذي تتغير فيه على الإرادة الإنسانية فحسب بل على حالة قوي الإنتاج ، وعلى التغيرات في علاقات الإنتاج نتيجة لازدياد نمو هذه القوى .

وقد كتب " بليخانوف " (Plekhanov) يقول : إن للعلاقات الاجتماعية منطقها الخاص . فطالما كان الناس في علاقات متبادلة معينة فإن من الضروري أن يشعروا ويفكروا ويتصرفوا تماماً كما يفعلون . ولا يستطيع أي شخص في مركز عام أن يحارب هذا المنطق . فالمسار الطبيعي للأحداث (وهو نفس منطق العلاقات الاجتماعية) سوف يجعل كل جهوده عديمة الجدوى ولكن إذا عرفت في أي اتجاه تتغير العلاقات الاجتماعية بسبب تغيرات في العملية الاجتماعية والاقتصادية للإنتاج ، فإنني أعرف حينئذ أيضاً في أي أتجاه سوف تتغير السيكلوجيا الاجتماعية وحينئذ أكون في وضع يمكنني من التأثير فيها . والتحكم في السيكلوجيا الاجتماعية هو التحكم في الأحداث الاجتماعية وهذا يعني بشكل معين أنني ما زلت أستطيع أن أصنع التاريخ وليس على أن أنتظر حتى يصنع .

وجدير بالذكر ، أنه يمكن القول بوجه عام ، أن العلماء الغربيين ، وعلى رأسهم الأمريكيين ، يؤكدون دائماً تأثير الثقافة على الشخصية ، بينما نجد أن العلماء الماركسيين ، والراديكاليين يبرزون تأثير الشخصية على الثقافة ، بل إنهم يحملون على علماء الغرب اتجاههم الثقافي ، ويتهمونهم ، بأن الهدف من وراء هذا الاتجاه هو إبقاء الحال على ما هي عليه .[٢٥]

إن النقطة الأساسية في كل تفكير كاردينر هي فكرته عن " بناء الشخصية الأساسية basic personality structure " وهو

يتصور ذلك البناء على أنه " مجموعة الخصائص السيكولوجية والسلوكية التي تظهر نتيجة للاتصال بالنظم الاجتماعية " وقد حاول لينتون Linton توضيح الفكرة فوصف بناء الشخصية بأنه نوع من الاشتقاق من المفهوم السيكولوجي للشخصية ، ولكنه يختلف عنه في أن تحديد " البناء " يتم عن طريق دراسة الثقافة وليس عن طريق دراسة الفرد . وهذا معناه أن بناء الشخصية الأساسية يمثل تجمع أو ارتباط كل خصائص الشخصية التي يبدو أنها تتطابق مع كل النظم والعنصر والسمات التي تؤلف أي ثقافة من الثقافات . وليس من الضروري أن يتحقق ذلك البناء الأساسي للشخصية في كل عضو من أعضاء الجماعة ، بل إنه يكفي أن يوجد لدي غالبية الأفراد حتى يمكننا التعرف عليه وتحديد الملامح والعناصر التي تدخل في تكوينه والتي تعطي المجتمع بالتالي طابعاً معينا متمايزا ، خاصة وأن هذا " البناء الأساسي للشخصية " لا يظهر عند الأفراد إلا نتيجة للتجارب السابقة التي يكتسبونها منذ مرحلة الطفولة المبكرة ، بمعني أنه لا يظهر تلقائياً نتيجة للغرائز أو الدوافع أو القوى الأساسية ، وإنما هو شيء يستمد ويكتسب من الثقافة ذاتها (٢٦).

وعلى أية حال ، فالذي يهمنا هنا هو أن نبين أن العلماء المشتغلين بموضوع الثقافة والشخصية يهتمون في المحل الأول بالتعرف على العلاقة بين التراث الاجتماعي الشامل الذي يعيش فيه الفرد ويستجيب له بطريقة شعورية أو لا شعورية ، وكذلك كل التجارب التي مر بها الفرد في نطاق الثقافة التي تسود المجتمع الذي يعيش فيه ، وينظرون إلى هذا المزيج كله على أنه وحدة متكاملة متماسكة . فالثقافات في رأيهم تؤثر على الفرد وفي سلوكه

وتطبعه بطابع معين بالذات . مما يؤدي إلى اختلاف الفرد ليس من ثقافة لأخرى فحسب ، بل وأيضاً في الثقافة الواحدة إذا اختلفت الظروف التي يعيش فيها ، أي حين تختلف عناصر الثقافة التي تحيط به . مثال ذلك اختلاف نظرة الشخص الواحد إلى قيمة " الوقت " وتقديره لعنصر الزمن حين تتغير ظروف حياته العامة . فالقروي أو البدوي الذي يعيش في الصحراء لا يعطي للوقت القيمة ذاتها التي يعطيها هو لنفسه له حين تتغير أحوال معيشته ويلتصق بالعمل في إحدي الصناعات ، كما حدث بالفعل بالنسبة للبدو في المملكة العربية السعودية أو في ليبيا حين التحقوا بشركات البترول وأصبحت حياتهم اليومية تسير حسب توقيت دقيق لم يكن له وجود أو أهمية في حياة الرعي . ولكن من ناحية أخرى ، فإن النمط الثقافي لا يمكن في رأي هؤلاء العلماء أن يمحو ويزيل كل الفروق المزاجية التي تميز الأشخاص بعضهم عن بعض في نطاق الثقافة الواحدة . وهذه نقطة انتهت إليها " روث بنديكت " نفسها وذهبت فيها إلى القول بأن من الصعب دراسة أنماط الثقافة دراسة صحيحة إذا أغفلت العلاقة بين هذه الأنماط وعلم النفس الفردي .[٢٧]

فكان البحث في تنوع نماذج الشخصية الأساسية يتطلب ضرورة الرجوع إلى الثقافات التي ترتبط بها هذه النماذج المختلفة . وقد ترتب على ذلك من الناحية الأخرى أن ذهب بعض الباحثين في الاجتماع والأنثربولوجيا إلى القول بامكان دراسة أي ثقافة من الثقافات عن طريق دراسة الأفراد الذين يعيشون في نطاق هذه الثقافة ، والتعرف على خصائص ومقاومات شخصيتهم . ولعل أهم دراسة يمكن الاستشهاد بها في هذا الصدد هي الدراسة التي قام بها توماس وفلوريان زنانيكي Thomas & Florian Znaniecki

عن الفلاح البولاندي وضمناها كتابها The Polish Peasant in Furope and America وهي دراسة مستفيضة للأسرة الريفية والحياة الجمعية والتأثيرات التي طرأت عليها نتيجة للتصنيع وهجرة الفلاحين إلى ألمانيا وأمريكا . وقد اعتمد المؤلفان في ذلك على دراسة الشخصية والثقافة عن طريق تتبع تاريخ حياة الأفراد ودراسة ذكرياتهم الشخصية ومواقفهم ومشاكلهم ومصالحهم الخاصة . ويبين الكتاب عناصر ومكونات الشخصية وعوامل ومظاهر تفككها ، وكذلك العوامل التي قد تؤدي إلى إعادة تكوينها وتماسكها ، والأنساق الاجتماعية المتغيرة نتيجة الظروف الجديدة . ويذكر لنا " ما كيفر وبيج " في ذلك أنه " منذ نشر كتاب الفلاح البولندي ضاعف السسيولوجيون من هذه المحاولة . فاشتمل عملهم على دراسة الدوائر المكانية للمدينة الحديثة حيث يشيع التفكك الاجتماعي والثقافي ، وذلك باستخدام تاريخ حياة الأفراد الذين لحقهم التفكك والحالات الخاصة بهم وكذلك حللوا الأنماط المتغيرة للأسرة بواسطة فحص مشكلات الشخصية عند أفرادها ، ثم صوروا مظاهر الصراع الاجتماعي والثقافي بين الأقليات بدراسة تاريخ حياة أعضائها .(٢٨)

الدين واللغة وأثرهما في تحديد الشخصية :

من المعروف عند علماء الأنثربولوجيا الثقافية أن تفاعل الأمم بعضها مع بعض يؤدي في غالب الأحيان إلى ظاهرة التأثير والتأثر بينها . وليس من الضروري أن يكون التأثير والتأثر شاملين لكل ملامح وعناصر الثقافات المتفاعلة، ولا متأثرين ومؤثرين بالدرجة نفسها ، لكل جوانب هذه الحضارات ، فقد تنتشر مثلاً ثقافة معينة انتشاراً ملموساً بين أهل حضارة ثانية بسبب الاحتكاك

الحاصل بينها دون أن يتأثر فيها الجانب الديني كلية أو بالدرجة نفسها ، وقد يتأثر الجانب الديني لمجتمع ما أكثر من نظيره اللغوي ، وأثناء عملية تفاعله مع ثقافة مجتمع أخر.[٢٩]

والملاحظ أن عملية نشر الثقافة نادراً ما تكون عملية متبادلة بالتساوي بين حضارتين أو المجموعتين المحتكتين ، إذ يبدو الطرف الذي هو في موقع الدونية أو الهامشية بمعناها العام هو الذي يميل إلى تقبل أو السماح بتسرب العناصر الثقافية من الطرف الآخر المهيمن وليس العكس .

وحينما نضع هذه الاعتبارات بالنسبة للحضارة المصرية نجد العكس الصحيح في ذلك ، إذ تقمص الغزاه الثقافة المصرية ، وجعلوا من العقيدة الدينية من خلال إرضاء كهنتها ، كما أن اللغة الهيروغليفية المقدسة والفنون التشكيلية ظلت باقية على جدران المعابد والمسلات والمقابر لترمز إلى جوهر العقيدة الدينية، بل ظل الدين واللغة والفن التشكيلي يرسخون الهوية القومية المصرية التي تجاوزت تأثيرها الثقافات الغازية ، خاصة الإغريقية والرومانية .

من المسلم به أن الدين واللغة من الأهمية بمكان في دراسة الموروثات الثقافية لأي مجتمع ، إن لم تكن كذلك من أهم العوامل في تحديد شخصيته ، وحينما نضع هذين المتغيرين في سياقهما التاريخي بالنسبة للحضارة الإنسانية نجد أن مصر هي الدولة الوحيدة في العالم التي غيرت لغتها وديانتها ثلاث مرات تعبيراً عن الرقائق الحضارة التي مرت بها واستوعبتها ، والمتأمل لهذه الرقائق بشفافيتها وتداخلها قد ثبت هذه الحضارة والأديان واللغات فوق بعضها البعض ، ولكن أثارها مجتمعة باقية في فكر وثقافة ووجدان كل مصري ، فقد تكلم المصريون اللغة المصرية

الفرعونية القديمة لآلاف السنين ، وهي لغة واحدة ، ولكنهم كتبوها بأشكال مختلفة ، فكلنا نعرف الرموز الهيروغليفية المقدسة المسجلة على الآثار وهي كتابة المعابد والمقابر ، ولكن ذات اللغة كانت تكتب للكهنة والخاصة والعلماء بحروف خاصة سميت بالهيراطيقية ولكن عامة الشعب كانوا يكتبو عقودهم ووثائقهم وأحجبتهم وتعاملاتهم بالحروف الديموطيقية (وقد أسماها اليونانيون كذلك من ديمو ، (أي الشعب) ، وظل الأمر على هذا النحو إلى أن دخل اليونان الإسكندرية وزاد نفوذهم الثقافي مع فتح الأسكندر للإسكندرية عام ٣٣٢ ق.م. ، فانبهر المصريون بالأبجدية اليونانية ، وبعد عدة قرون . دخلت المسيحية مصر في القرن الأول الميلاد فوجدها المصريون فرصة وقد اعتنقوا دينا جديدا ان يكتبوا اللغة المصرية القديمة المنطوقة بحروف يونانية ، ولكن الأبجدية اليونانية لم تسعفهم في تحويل المنطوق المسموع إلى كلمات تتكون من حروف وتكتب لتعطى ذات النطق المسموع ، فكان أن استعادوا سبعة حروف من الكتابة الديموطيقية وأضافوها إلى الأبجدية اليونانية فكانت ولادة اللغة القبطية – نطقا وكتابة – لغة المصريين جميعا إلى نحو القرن العاشر أو الحادي عشر الميلادي ، ومع انتشار الإسلام تحول الأغلبية المصريين إلى الدين الجديد ، واستمر قلة المصريين متمسكين بالديانة القديمة ، وعندما أصبحت اللغة العربية هي السائدة في القرن الثاني عشر ، اتجه احد بطاركة الأقباط غبريال بن تريك ١١٣١م – ١١٤٥م ، قراراً تاريخيا أن تعم اللغة العربية كل المصريين [٣٠]

وعلى العموم ، فالموضوع الذي تدور حوله كل هذه الدراسات هو ذلك المركب المؤلف من " الشخصية والثقافة "

والعلاقات المتبادلة بينهما عن طريق تحليل الشخصية والمظـــاهر التفصيلية لسلوك الأفراد ، والدور الذي تلعبه الثقافة فـــي تكـــوين ملامح وسمات الشخصية الأساسية ، ولعل أهم المشكلات تتعرض لها معظم هذه الدراسات في هذا الصدد هي نوع العناية التي يحظى بها الطفل وبخاصة في فيما يتعلق بالقواعد التي يخضع لها كل من الجنسين ومسألة الرضاعة والفطام ، وغيرها من الأمور التي يعتقد علماء التحليل النفسي أن لها دخلا في تكوين شخصية الفـــرد . إلا أنهم يدركون في الوقت نفسه إن بناء الشخصية الأساسية الذي ينتج عن النمط العائلي لا يلبث أن يؤثر بدورة في الفولكلـــور والـــدين وبقية النظم ، على ما يقول أو جبرن ونيمكوف ولقد ذهب بعـــض العلماء في ذلك إلى حد استخدام الاختبارات السيكلوجية وبخاصـــة اختبار الرورشاخ – على الأهالي في المجتمعات البدائيـــة ، مثلمـــا فعلت كوزا ديبوا de bois مثلا في دراساتها لشعب الور alor فقد اهتمت بدراسة مشكلة تحلل تفكك الشخصية عند البالغين وردها إلى التربية السلبية الغير مطردة وغير منهجية ، إلى ما يترتـــب علـــى مثل هذه التربية من شعور الطفل بعدم الطمأنينة وانعـــدام الحـــب والحنان، وقد استعانت فى ذلك بثمانيـــة وثلاثـــين اختبـــارا مـــن اختبارات الرورشاخ التي قام بتحليلها علمـــاء اخـــرون ، فجـــاءت النتائج مؤيدة ما ذهب إلية ديبوا في تحليلها للثقافة والشخصية ولقد استخدمت اختبارات الرورشاخ أيضا في دراسة موضوع الثأر في قرية بنى سميع ، وذلك بقصد التعرف على خصـــائص ومكونـــات الشخصية الأساسية في تلك الثقافة المحدودة . ولكن لم يـــتم لـــلان تحليل تلك الاختبارات .[٣١]

وواضح من هذا كله أنة على الرغم من كل ما يقال عن نشأة الاهتمام بدراسة البناء الاجتماعي والثقافة ومحاولة ردها الى الظروف التي لابست الدراسات الحقلية التي قام بها الانثربولوجيون الأوائل بين القبائل الأفريقية من ناحية والهنود الحمر من ناحية أخرى ، وعلى الرغم مما يقال أيضا من أن التفرقة بين البناء الاجتماعي والثقافة تفرقة مصطنعة ، ثم على الرغم من أن التسليم بان البناء الاجتماعي والثقافة مظهران لشيء واحد وان اية محاولة لدراسة احدهما تتطلب بالضرورة فهم الآخرين، فالاختلاف بين الاتجاهين البنائى والثقافي اختلاف جوهري وعميق . فهو اختلاف فى الأسس الأولى التى يقوم عليها كلا منهما اذ تمتد جذور احدهما الى ما يمكن تسميته بعلم الاجتماع الكلاسيكي الذى تمثله المدرسة الفرنسية اصدق تمثيل بينما ترجع جذور الاخرالى انثروبولوجيا القرن التاسع عشر وقد ترتب على ذلك ، كما راينا اختلافات فى المنهج وفى مستوى التفسير أو التاويل.

وعلى الرغم من كل هذه الاختلافات التي تثير أحيانا كثيرا من النقاش والجدل العنيف فهناك بعض محاولات التوفيق والتقريب بين الاتجاهين ، أو على الأصح بين المدخلين . ولكنها محاولات تصطدم بكثير من الصعوبات والعقبات الناشئة عن الاعتبارات المنهجية ولذا لم يقدر النجاح بل وقد لا يكون من الضروري ، أو حتى من المهم لها أن تنجح إذا ليس ثمة حكمة بالغة في محاولة التقريب بين مختلف وجهات النظر أو التوفيق بين الآراء المتلاطمة فكل من هذين المدخلين : المدخل البنائى والمدخل الثقافي . يخدم اغراضا معينة واضحة قد تختلف فيما بينهما ولكنها تساعد بغير

شك فى النهايـــة إلـــى تحقيـــق فهـــم أعمـــق وأفضـــل للإنســـان والمجتمع .[٣٢]

شخصية الفرد نتيجة لتفاعل العوامل الوراثية والبيئية :

وبعد توضيح اثر الثقافة فى كل ناحية من نواحى الشخصية لم يعد هناك معنى لتفسير الفروق بين الشخصيات على أساس الغدد الصماء وحدها أو الذكاء وحده.... الخ كما لم يعـــد هنـــاك معنـــى للتساؤل اى ناحية من نواحى الشخصية فطرية صرفة وأي ناحيـــة مكتسبة صرفة ، فيكاد يكون هناك اتفاق تام بين العلماء المعاصرين على ان شخصية الفرد بجميع نواحيها بكليتها وجزئيتها نتيجة تفاعل مستمر بين الوراثة والبيئة فليس هناك اى نشاط انسانى يمكـــن ان نعتبره نشاطا فسيولوجيا بحتا اى " فطريا " ومســـتقلا عـــن البيئـــة فحتى العمليات العضوية مثل التنفس الافرازات الداخلية والهضـــم والدورة الدموية رغم انها تحدث داخل الجسم لا تسلم من اثر البيئة فهذة العمليات تتاثر بالتهوية ونظام التغذية من حيث نـــوع الأكـــل وطريقة طهوه وعدد الأكلات فى اليـــوم ....الـــخ ، كمـــا تتـــأثر بالظروف والمواقف التى يخضع لها الشخص كظروف الأمـــان أو الخطر والاطمئنان او القلق والأمـــل او اليـــاس والخـــوف اى ان العمليات الفسيولوجية خاضعة لأسلوب حياة الشخص فى البيئة التى يعيش فيها .[٣٣]

المرونة النسبية فى مكونات الشخصية :

ومن الضرورىً ان نلفت النظر فى هذا المقام الى ان البيئة لا تؤثر بدرجة واحدة فى جميـــع اســـتعدادات الفـــرد ومكوناتـــة

الشخصية من قدرات وصفات فبعض هذة القدرات والصفات ثابتة نسبيا اى لا تغيره عوامل البيئة الا فى حدود ضيقة .

كالصفات الجسمية والحركية والحسية وتليها الصفات المزاجية والذكاء وتسمى هذه بالصفات أو القدرات العصبية فالبيئة العادية لا تستطيع ان تغير لون الجسم من الاسود الى الاصفر أو تحيل المزاج الدموى مزاجا سوداويا كما انها لاتستطيع ان تزيد من ذكاء شخص أو تنقصة منة الا بمقدار جد طفيف كما ظهر ان بعض الصفات والقدرات مرن نسبيا قد تغيرة العوامل الخارجية العادية تغيرا كبيرا ، كاللغة وكالصفات الخلقية والاجتماعية ففى وسع البيئة ان تزيل ما لدى شخص من خصال ، كالغش او الكذب او الشعور بالنقص وان تنمى عاطفة الولاء للوطن عنده وان تخلق في نفسة صفات واتجهات جديدة كالتسامح والشعور بالواجب وتسمى هذة بالصفات الطيعة وبين الاستعصاء والطواعية درجات ومستويات شتى ء من المرونة النسبية ونحن نميل فى العادة الى اعتبار القدرات والصفات العصبية فطرية وراثية واعتبار الطبيعة المرنة مكتسبة والحقيقة كما قدمنا ان كل منها فطرى ومكتسب فى وقت واحد .

والمكونات الوراثية البيولوجية للشخصية لا يمكن ان تقوم لها قائمة أو يتضح اثرها بدون اثر البيئة كما ان البيئة لا تستطيع ان تخلق شخصية من عدم فالمكونات البيولوجية للشخصية هى الكنوز المدفونة فى الارض هى المواد الخام هى الاستعدادات والقدرات التى تتفاعل معها البيئة وعوامل المحيط الاجتماعى فتشكلها بالشكل الذى ينسجم مع الثقافة المطلوبة اى ان – الثقافة هى التى تعين ظهور او عدم ظهور هذة المكونات البيولوجية فى

قدرات فعلية كذلك تعين مدى ودرجـــة وطريقـــة ظهورهـــا اى ان الثقافة هى صانع الشخصية الذى يحورها ويشكلها ويخرجهـــا فـــى النموذج المطلوب .

لا شخصية بدون مجتمع :

إن الشخصية الإنسانية لا تنمو وتتطور فى الفراغ مســتقلة عما حولها والفرد لا يصـــبح شخصـــا الا عـــن طريـــق الحيـــاة الاجتماعية ولو اننا عزلنا طفلا رضيعا بعد ولا دتة مباشراة عـــن جميع العلاقات الإنسانية الاجتماعية لما تكونت له شخصية ولبقى مجرد كائن حى (Organism) .

وليس من السهل طبعا اجراء تجارب لعزل الأطفـــال عـــن المجتمع عزلا تاما فهذه عملية غير إنسانية ومن أصـــعب وأقســـى الامور، ولكن من العلم ان الصدف والإحداث الطارئـــة زودتنـــا بحالات شبة معملية قدمت لنا الدليل القاطع الذى لا يقبل الشك على ان المكونات الوراثية البيولوجية التى يولد بها الإنسان لا يمكن لها وحدها ان تكون منة إنسانا اجتماعيا لة شخصية إنسانية . ومن هذه الحالات ما يلى :

١ – الطفل الهندية "كمالا" الطفلة الذئبة : (Kamala the Wolf Child) :

اكتشفت كمالا فى سنة ١٩٢٠م فى جحر ذئب بالقرب مـــن "ميدنابور" فى الهند ووجدت معها اختها "امالا" التى تصغرها وكان سن "كمالا" حينئذ ٨ سنوات وسن "امالا" مايقرب مـــن ســـنتين ونصف وقد ماتت امالا بعد العثور عليها بمدة قصيرة اما " كمالا " فيقال انها عاشت حتى سن السادسة عشر او السابعة عشرة وعندما عثر عليها لم يكن فى احوالها ما يدل على مظاهر السلوك الانسانى

ولم تكن لديها اى قدرة من القدرات البشرية ولا حتى القدرة على ترديد بعض المقاطع الصوتية فلم تكن تتحدث بأى لغة وكان سلوكها العام عنيفا ويشبة سلوك الحيوان فكانت تاكل الحم النيء وتعوى عواء يشبة عواء الذئب وتمشى علي اربع وتخشى الادميين كما يخشاهم اى حيوان غير مستانس ويقال انها بعد ان اكتشفت وانتشلت من عزلتها واخذت لتعيش فى المجتمع امكن تعليمها الكلام واللعب واكل الطعام والطهو المشى على رجليها فقط بدلا من المشيء على اربع .

٢ - **حالة كاسبر هاوزر** : (The Case of Kaspar Hauser) :

وهذه قصة كاسبار هاوزر الذي وضع في سجن منذ طفولته المبكرة وعاش فيه وحرم من الاتصال بغيرة من الناس لأسباب سياسية حينما عثر علية واخرج من السجن في سن السابعة عشر واخذ ليتجول في المدينة نورمبرج فى بافاريا سنة ١٨٢٨م لم يكن يستطيع المشي إلا بصعوبة وكان يفكر كالأطفال ولا يستطيع التحدث ولا التمييز بين الجماد والكائنات الحية كل ذلك لان حرمانه من الحياة حرمة أيضا من أن يستمتع بالقدرات الإنسانية نفسها.

٣- **حالة "أنا"** : (The Case of Anna) :

وهي قصة طفلة أمريكية خشي جدها من افتضاح أمر إبنته فعزل طفلتها في حجرة مظلمة في أعلى مسكنه ، ومنع أي إنسان من أن يراها أو يعرف أمرها، ولم يكن اتصاله بها يزيد على امتدادها باللبن الذي كان غذاؤها الوحيد . وهكذا ظلت في هذه الحجرة منذ كان سنها ستة أشهر معزولة عن التأثيرات الاجتماعية قابعة في كرسي في احد أركان الحجرة إلى أن اكتشفت بعد ذلك بخمس سنوات سنة ١٩٣٨ . فكانت لا تستطيع الكلام أو المشي ،

وكانت ترقد دائما على ظهرها وترتجف من ملامسة أي إنسان كما كانت مجردة من العواطف ولا تكترث بالناس حولها .

من كل هذه الأمثلة يتضح جليا ضعف المكونات البيولوجية والعناصر الوراثية ، حينما تترك لشأنها إذ تعجز عن تكوين الشخصية الإنسانية الطبيعية ، والقدرات البشرية لا تنمو في الإنسان إلا حينما يعيش في المجتمع مشاركاً غيره من الأفراد ومتفاعلاً معهم . كذلك تتضح أهمية التنشئة الاجتماعية أو التربية أو التطبيع الاجتماعية في تنمية وتشكيل الاستعدادات الطبيعية عند الفرد .

والثقافة هي رأس مال الفرد يبدأ به حياته والذي يصل عن طريق التنشئة الاجتماعية فإذا عزل عن التنشئة الاجتماعية وحرم منها فإنه يحرم من رأسماله كله ، من الثقافة ، ومن مقومات البشرية ، ويفقد كثيراً من مميزاته الإنسانية ، فلا يستطيع القدرة على الكلام أو التمييز لما حوله من الأشياء أو الاستجابة العاطفية ، ويبقي مجرد كائن حي (Organism) .

ولكن ليس معني هذا أن العوامل البيولوجية الفطرية أو الوراثية ليست بذات أثر كبير بالنسبة لتشكيل الحياة الاجتماعية . إذ هي بجانب العوامل الطبيعية والمناخية تكون الإطار العام والمسرح الذي تعمل فيه الحياة الاجتماعية والثقافة السائدة . فلولا وجود العوامل البيولوجية المعرفية للإنسان – واخصها الذكاء الذي يميزه عن الحيوان – لما تكون المجتمع الإنساني كما نعرفه فما يبين أهمية هذه العوامل بالنسبة للحياة الاجتماعية ، واكتساب التراث الثقافي أن ضعاف العقول لا يستجيبون للوسط الاجتماعي الذي يعيشو فيه .(٣٤)

أن من الصعوبة بمكان ، بل ومن العبث ، فصل مظاهر السلوك العادية المشخصة والملموسة عن الأفكار والتصورات والقيم التي تختفي وراء هذا السلوك. وقد يمكن التمييز على العموم في هذا الصدد بين اتجاهين رئيسيين :

فأما الاتجاه الأول فيعرف عموماً باسم " الاتجاه الواقعي " ، وهو يتمثل بوجه خاص في كتابات وآراء مالينوفسكي وبواس . ويري أصحابه أن مجال الثقافة هو السلوك البشري الاجتماعي ، ولذا فهم يميلون إلى تعريف الثقافة في حدود وألفاظ العادات وقواعد العرف والتقاليد المكتسبة المتوراثة ، كما يميلون – إلى حد ما بغير شك – إلى إغفال الجوانب المثالية والمعيارية في الثقافة . أي أن هؤلاء العلماء لا يفصلون " الثقافة عن حياة الناس في المجتمع ، وإنما هم يعتبرونها أنماطاً من السلوك الاجتماعي ، ومن هذه الناحية يصبح من العسير تصور وجود الثقافة بعيداً عن الجماعات البشرية ، أي بعيداً عن المجتمع . فالرآي السائد بين هؤلاء العلماء هو أنه يلزم لوجود الثقافة وجود زمرة اجتماعية تمارسها وتتوارثها. وإذا كانت الثقافة عندهم تعني في المحل الأول " التراث " الثقافي الملموس الذي يتمثل في مختلف الصناعات والأدوات والمعدات المادية ، فأنهم لا يغفلون النظم والعادات وقواعد العرف التي توجد في المجتمع وتوجه سلوك الناس وتصرفاتهم بل وترسمها لهم .[٣٥]

وأما الاتجاه الثاني فهو " الاتجاه المثالي " المعياري ، الذي يميل على العكس من الاتجاه الواقعي إلى تعريف الثقافة في حدود وألفاظ المثل الاجتماعية وإلى إغفال الممارسات الواقعية التي تدخل ضمن المكونات " الحقيقية " للثقافة . وأصحاب هذا الاتجاه

يتصورون الثقافة هي مجموعة الأفكار والتصورات التي توجد في أذهان أعضاء المجتمع ، وكذلك المعايير والأنماط الذهنية التي توجه على أية حال السلوك الاجتماعي . ولكنهم حين ينبذون مظاهر السلوك المشخص فأنهم يتصورون في الحقيقة الثقافة شيئاً مجرداً ، ولذا كان بعضهم يستعين في فهمها وتقريبها للأذهان ببعض الأفكار الفلسفية مثل فكرة " ما فوق العضوي " .

وقد يكون من الصعب قبول أي من هاتين النظرتين والاكتفاء بها . إذ على الرغم من أن الاتجاه الغالب بين العلماء الثقافيين هو إغفال الجوانب المثالية والمعيارية للثقافة ، وتركيز الاهتمام على النواحي الموضوعية الخالصة والاكتفاء بدراسة السلوك والتفكير المكتسب ، فالواقع أن هذه الأنماط الثقافية المشخصة تتأثر تأثراً عميقاً بالمثل والتصورات الذهنية مما يحتم على الباحث دراسة المظهرين معاً . كما أن الاقتصار على دراسة هذه التصورات الذهنية والمثل والمعايير بعيداً عن مظاهر السلوك الواقعي معناه أن تصبح الأنثربولوجيا الثقافية ضرباً من " ما وراء الأنثربولوجيا " أو " ما بعد الأنثربولوجيا Meta – anthropology " إذ يجب ألا يغيب عن الأذهان أن موضوع الأنثربولوجيا هو بعد كل شيء دراسة العلاقات الاجتماعية أو الظواهر الثقافية في المجتمع .(٣٦)

التـــــراث الشـــــعبي :

لكل أمة تراث يحفظ هويتها من الضياع ، فأمة بدون تراث لا قيمة لها ، فهويتها القومية تستمدها من الجذور الموغلة في الماضي لتمنحها ديمومة البقاء ، ونجد من ملامح الأمم المختلفة التراث ، الذي أختلف الدارسون في تجديد مصطلحه ، فقسم اطلق

عليه أسم " فولكلور " وأخرون " المأثورات الشعبية " ، ونحاول في هذا الجزء من الدراسة التمييز بين مفهوم التراث الشعبي ، والتراث الرسمي ، بالرغم من أن التراث بشقيه الرسمي والشعبي قد صار موضوعاً وميداناً في متناول العلوم الاجتماعية بشكل عام والأنثربولوجيا الاجتماعية والثقافية على وجه الخصوص .

أولاً : مفهوم التراث :

١- **التراث الرسمي :** يشير التراث الرسمي إلى كل ما يتعلق بالتنظيمات والممارسات الرسمية المقننة المكتوبة ، وما يرافقها من أفكار وأيديولوجيات ومذاهب وأحزاب وتنظيمات والتي تستمد قوتها وفاعلية تنفيذها من السلطة السياسية والتنفيذية للدولة . وهناك من يعني بالتراث الرسمي في أبسط معانية ، كل ما ورثناه من آبائنا من عقيدة وثقافة وآداب وفنون وصناعات وسائر المنجزات الأخرى المعنوية والمادية .

ويمكن القول أن التراث الرسمي هو مجموعة من الإبداعات المتعلقة بالقيم والأفكار والمواقف وأنماط السلوك الفردي والجماعي التي ظهرت عناصرها وتنامت عبر مختلف العصور الإسلامية ، ولا تزال حية متطورة في الأمة العربية الإسلامية تشكل هويتها الحضارية كما تشكل تطلعاتها إلى المستقبل .

وهذا المفهوم ليس مفهوماً ساكناً Static ولكنه مفهوم حركي Dynamic نابع من استمرارية الحضارة العربية الإسلامية وديمومتها وحلقاتها المتصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل .(٣٧)

ومما تجدر الإشارة إليه يجب عدم التعامل مع مصادر العقيدة من قران وسنة بوصفها تراثية ، لأن هذه المصادر تعاليم

دينية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، ولا يجوز أن تدخل ضمن الإطـــار التراثي ، ومن جانب أخر لا يحسن أن نـــدخل العـــادات والتقاليـــد والطقوس والآداب الشعبية ... الخ ضمن المفهوم العـــام للتـــراث الرسمي بوصفه مرتبطاً بالعقيدة والحضارة الإسلامية ، لأن هـــذه العناصر والمعطيات الفولكلورية عرضة للتأثر بأمزجة الجماعـــات الإنسانية ، لذلك فهي ما نطلق عليه التراث الشـــعبي . ويمكـــن أن نحدد ميادين التراث (الرسمي) في المجالات التالية :

١ – كتب العقيدة الصحيحة التي تربط بين الإيمان والعمل الصالح ، وتواجه نزاعات الإلحاد والشك مما نؤكده من قيم الإيمان .
٢ – الإجتهادات في الفقه والتشريع وخاصة ما تعلق منها بميـــدان المعاملات القابلة للتبدل والتطور بمقتضي أحـــوال الزمـــان وتقدم المدنية .
٣ – تراث العرب العقلي في الفلســـفة وعلـــم الاجتمـــاع والفكـــر السياسي مثل إنتاج ابن تيميه وابن خلدون .
٤ – التراث النحوي واللغوي والشعري والأدبي . هذا بجانب كـــل من له روح عربية إسلامية متميزة .

٢ – **التراث الشعبي (الفولكلور)** : أما التراث الشعبي فهو كل ما يتصـــل بالتنظيمات والممارسات الشعبية غير المكتوبة وغير المقننـــة ، والتي لا تستمد خاصية الجبر والإلزام من قوة القانون والدستور الرسمي للدولة أو السلطة السياسية وأجهزتها التنفيذية المباشرة ، بقدر ما تستمدها مباشـــرة مـــن خاصـــية الجبـــر والإلـــزام الاجتماعي غير المباشر ، سواء مـــا يتصـــل منهـــا بالعـــادات والأعراف والتقاليد والمعتقدات المتوارثة ، أو ما قـــد تفرضـــه الظروف والتحـــولات الاقتصـــادية والاجتماعيـــة والتاريخيـــة

المتغيرة من نماذج جديدة لمظاهر السلوك الشعبي بمختلف أشكاله .

ومصطلح التراث الشعبي يعتبر ترجمة لمصطلح (الفولكلور) والذي يشمل كل الفنون القولية الشعبية والفنون الشعبية المادية من أدوات وملابس وعمارة وغيرها. فمصطلح فولكلور وارد على الثقافة الغربية ، وكان تومز Tomes أول من أقترح استعمال مصطلح فولكلور كاسم يشمل دراسة العادات والتقاليد والممارسات .[٣٨] نتيجة لتأثير البيئة التي نشأ فيها .. ويمكن أن يظهر في أي موضوع وفي أي جماعة أو فرد ، وفي أي زمان أو مكان) .

ويعرف جان هارولد Harold مصطلح فولكلور من خلال دراسة الفولكلور الأمريكي على أنه جزء تقليدي غير رسمي ويتضمن جميع المعرفة ، ومستويات الفهم ، والقيم ، ووجهات النظر والإفتراضات والمشاعر ، والمعتقدات التي تنتقل في أشكال تقليدية بكلمة شفوية أو بأمثلة لإعادة أنماطها .

ويتضح من التعريف السابق أن الفولكلور جزء تقليدي شعبي متوارث وغير رسمي وينتقل شفوياً بيين الأفراد والجماعات

ويمكن أن نخلص بعد عرض بعض التعريفات لمصطلح الفولكلور إلى أننا لا نزال نختلف على تحديد معني التراث الشعبي بالرغم من ارتباطه الوثيق بالحياة الاجتماعية ، وفي نفس الوقت يشكل – أي التراث الشعبي – نمط السلوك الإنساني في إطاره الاجتماعي .

ويرجع الاختلاف حول تحديد معني مصطلح التراث الشعبي في المقال الأول إلى اختلاف المصطلح باختلاف مراحل الدراسة

وتنوع التخصص وتعدد الآراء التي قيلت حول هـذا المصـطلح ، على الرغم من أهميته فـي الحفـاظ بصـورة أو بـأخرى علـى الشخصية القومية ، وفي نفس الوقت يعد الفلكلور - من خلال تلك الآراء - المدخل الأساسي والوسيلة التي لا غني عنها لفهم الثقافة ، وكذا البناء الاجتماعي والمساهمة في دراسة الطابع القومي . ومن الحقائق المسلمة حول تحديد هذا المصطلح : أنه هو القوام الثقـافي الموصول في المصطلح ، أي أنه يتألف من العناصر الثقافية التـي يبتكرها الشعب ، أو يتأثرها من جماعة أخرى .

ثانياً : مظاهر التراث الشعبي في التراث العربي :

يذكر العودي : (أن الجانب الشعبي من التراث العربي نراه إما مهملاً ، كما في أعمال الرحالة الانثربولوجيين العرب ، كما أن أعمالهم القيمة التي ما تزال بين أيدينا إما شبه مهجورة مـن قبـل الاجتماعيين ، وإما مشتتة بين مختلف المداخل الدينية أو السياسـية أو الأدبية أو اللغوية ، والتي حظيت بـالبروز والازدهـار عبـر المراحل المختلفة من تاريخ الحضارة العربية) .

ونحاول في الفقرة التالية من هذا الجزء أن نتناول الجانـب الواقعي المباشر الذي يتمثل فيما كتبـه الرحالـة الأنثربولوجيـون العرب ، وهو الجزء الأقرب إلى الواقعية والأكثر فيها كتبه بروزاً ووضوحاً لمادة الإنثربولوجية المدونة في التراث العربي ويتمثل في الأعمال الجليلة التي قام بها مجموعة من العلمـاء العـرب ممـن عرفوا باسم الرحالة أو الجغرافيين أو أدباء الرحلات ، والذين كتب لمعظم أعمالهم الذيوع والانتشار في زمانهم ، وما يزال معظمهـا بين أيدينا أشبه بمعين لا ينضب من المعارف الاجتماعية الإنسـانية المختلفة .

ومن الرواد الأوائل الذين اهتموا بهذا المجال من خلال رحلاتهم المسعودي، الكاتب الموسوعي والرحالة والمؤرخ الاجتماعي ، ويعتبر مؤلفه الشهير (مروج الذهب ومعادن الذهب) الذي دونه عام ٩١٢ م كتاب سياحة ومعرفة جغرافية وعمران وعلم وملاحظة وأخبار وأساطير من المجتمعات ، ويطلق عليه المؤرخون شيخ الرحالة العرب ... وهناك ابن بطوطة الذي يعتبر سيد رحالة عصره على الإطلاق في القرن الرابع الميلادي ولكتاباته ذات طابع انثر بولوجي برز في اهتمامه الكبير بالناس ووصف دقائق حياتهم اليومية وطابع شخصياتهم وسلوكهم وقيمهم ، والمعروف أن ابن بطوطة قام بأسفار دامت أكثر من ثلاثين عاماً ، زار فيها كل أجزاء الوطن العربي وبلاد الهند والصين وجنوب شرق آسيا وطوف بأفغانستان وبلاد العجم وهضبة الأناضول ، وزار السودان وبلاد الحبشة وبلدان شرق أفريقيا . وطاف في رحلة أخرى إلي بلاد الأندلس وطنجة وجبل طارق ، ورجع إلى بلدته (فاس) بالمغرب حيث دون خلاصة دراساته وتجاربه في كتابه المشهور " **تحفة الأنظار في غرائب الأمصار** " وعجائب الأسفار عام ١٣٥٦ م والذي اشتهر برحلة " ابن بطوطة " . وهناك أيضاً " ابن فضلان " والذي كانت أخباره غنية بالمعلومات الأثنوجرافية من البلغار والروس ، ومن الرحالة العرب أيضاً " ابن بطلان " الذي غادر بغداد في رمضان عام ٤٠٤ هـ ووصف انطباعاته عن الطريق من العراق إلى الشام في رسالة إلى صديق له . ولهذه الرسالة أهمية اثنوجرافية لما احتوته من جوانب اجتماعية وثقافية .(٣٩)

المصادر الأساسية للضبط والسيطرة :

أن أول هذه المصادر يكمن في " مركزية موقع الصفوة الحاكمة " في المجتمع ، فهي دائماً في مركز الوسط ، أي أنها – أي الصفوة – في مركز تجميع المعلومات في نسيج المجتمع . وعلى هذا فالصفوة تري وتسمع ما لا تراه أية مؤسسة اجتماعية أخري ، الأمر الذي يؤدي إلى قيام مستودع للمعلومات لديها حيال كل ما يدور في المجتمع وغير متاح إلا لها فقط . والمواطن في العادة مواجه بإجراءات رسمية شرعية منذ مولده وحتى مماته .

ويكمن المصدر الثاني من هذه المصادر في " الثروة " وليس المقصود بالثروة هنا النقود وحسب وإنما كل ما يتعلق بالثروة منن نقود وغيرها مثل الملكية وما إلى ذلك من مصادر .

أما المصدر الثالث والهام فهو " السلطة " ، والتي تشير إلى قوة الصفوة الرسمية أو قوة الصفوة الشرعية . إذ أن القوة الشرعية هنا تأمر وتمنع وتمنح وتؤمن وتضمن أيضاً . فالسلطة بهذا المعني تقليدية ينظر إليها على أنها من ممتلكات الصفوة الحاكمة ، وهي مصدرها مع تباين مستواها ومداها ، إذ أن ممارستها تختلف من موقف إلى الآخر .

أما المصدر الرابع من هذه المصادر الأساسية إنما تستمده الصفوة الحاكمة من "التنظيم" والذي يشير إلى امتلاك الدولة لعدد من الأفراد تختلف مهاراتهم بدء من العمال وانتهاء بالجنود على مستوي الجيش والبوليس ، ومروراً بالخبراء والبيروقراطيون الصغار والكبار ، فضلاً عن الأراضي والمباني والمواد والمعدات ، وهذه كلها منظمة وفقاً لإجراءات معينة ، وتستخدم الحكومة من هذه التنظيمات ما هو ملائم لكل موقف . وفي كثير من الظروف

والأحوال يكون التنظيم حلقة أساسية وهامة من حلقات السيطرة لدي الصفوة الحاكمة ، فالتنظيم بما يملكه من تدرج هرمي يمثل العنصر الأساسي والمصدر المتميز بين مصادر الضبط والسيطرة الأربعة .(٤٠)

أن مركزية موقع الصفوة الحاكمة في وسط المجتمع يمكن الصفوة من جعل صورة المجتمع وكذلك الأداء الاجتماعي بكل مؤسساته أمام نظرها بحيث تكون الصورة كاملة الوضوح . ومن ثم فهذا يمكنها من إصدار وبث المعلومات وفقاً لما تراه ملائما لكل موقف من المواقف الاجتماعية على مختلف مستوياتها الاقتصادية والسياسية . وإذا كان التنظيم يمنح الصفوة القدرة على الضبط والسيطرة ، فإن الثروة تمنح الصفوة القدرة على تنشيط عمليات التبادل في المجتمع . فضلاً عن أنه كثيراً ما تستخدم الصفوة المال في التأثير على الجهات الخارجية ، وكثيراً ما يستخدم دفتر الشيكات الرسمي في دفع الأفراد إلى الطاعة والإذعان لما تصدره الصفوة من قرارات وأوامر وتعليمات .

أما السلطة – ونعني بها السلطة السياسية – فهي التي تمنح الصفوة الحاكمة الشرعية في جميع الممارسات الرسمية قبل المجتمع على مستوي الفرد والجماعة، وعلى مستوي المؤسسات الاجتماعية المختلفة ، وذلك عن طريق التنظيم ، الذي يمكن الصفوة من العمل المباشر مستخدمة في ذلك ما تمتلك من نصوص إجرائية. وتتميز هذه المصادر الأربعة للضبط والسيطرة باختلافها وتباينها من وجوه عديدة، فبعضها لابد أن يحدد نفسه ليتلاءم مع المواقف المتغيرة ، بينما البعض الأخر ليس له هذه الخاصية . كما أن بعضها يستلزم الكثير من الإذعان ، بينما بعضها الأخر لا

يحتاج لمثل هذا الإذعان أو الخضوع . فبث أو إطلاق المعلومـــات يتجه مباشرة إلى فكر الناس وعقولهم ، وبالتالي يؤثر في مواقفهم ، والسلطة تتجه نحو الحقوق والواجبات والمكانة ، أما التنظيم فهـــو يؤثر على البيئة الفيزيقية وعلى الشخص ذاته .[٤١]

الطرق الشعبية " Folk Ways " :

وتشتق كلمة الطرائق الشعبية من كلمتين هما كلمة (Folk) وتعني الناس أو الشعب وكلمة (Ways) أي الطرق والأساليب والكلمة في مجملها تعني الأساليب الشعبية ، والطرق الشعبية هـــي قواعد السلوك غير الرسمي التي تقوم علـــى العـــادات والتقاليـــد ، وتلعب الطرق الشعبية أهمية كبيرة في المجتمع باعتبار أنها تعمـــل على تماسك المجتمع ، فلا يمكن أن يبقي المجتمع ويستمر بدونها ، وأيضاً أنها تعمل على استقرار العلاقـــات الاجتماعيـــة ، وتشـــكل عنصراً هاماً من عناصر الإطار الثقافي للمجتمع .

أما عن نشأة هذه الطرق الشعبية فيرجعها بعض العلماء في مقدمتهم "ويليام جرهام سمنر " إلى الحاجات الضـــرورية الحيويـــة التي تتطلب الإرضاء والإشباع ، ويمكننا أن نخلص آراءه في هذه الناحية في أنه لكي يتم رضاء الحاجات الضرورية ، لابد من قيـــام الناس ، أفراداً وجماعات بأفعال أو طرق أو أساليب مختلفـــة مـــن النشاط يغلب عليها المحاولة العشوائية ، وغني عن البيان أن هـــذه الأساليب التي يمارسها الناس لإرضاء حاجاتهم الضرورية ، لابـــد وأن تتكرر مرة بعد مرة ويوماً بعد يوم وسنة بعد سنة وفي أثنـــاء هذا التكرار لا يلبث الناس . عن طريق التجربة والخطأ أن يكتشفوا أن هناك طرقاً ناجحة صائبة مفيدة . وطرقا فاشلة ، وغير صـــائبة وضارة بطبيعة الحال ، يختارون الطرق والأساليب التي نجحت في

إشباع حاجاتهم ويعتبرونها صالحة وسليمة ومجزية ولذلك يتبعونها، ومن جهة أخرى يتجنبون الطرق والأساليب التي أخفقت في إرضاء حاجتهم أو التي سببت لهم الآفات وأضرارا تؤثر على رفاهيتهم وسعادتهم .

ومن البديهي أن الناس عندما يتبين لهم صلاحية أسلوب ما أو قيمة طريقة ما من طرق السلوك في إرضاء حاجاتهم ، فإنهم يرغبونها ويكررونها في كل مناسبة تتطلبها ، ويتمسكون بها مع مرور الزمن ، وبذلك تتبلور وتصبح عامة واجتماعية يتعارف الناس عليها ويعملون على ترسيخها وتأصيلها وتثبيتها في نفوس الأفراد ، كما يعملون أيضاً على نقلها أفقياً من الجيل الواحد ورأسياً إلى الأجيال المتعاقبة في شكل أعراف وتقاليد ، تحرص عليها الجماعة وتحترمها ما دامت قد أصبحت ضرورية لسلامة البنيان الاجتماعي ولرفاهية الجماعة فهي تمثل التصرفات الصحيحة والصائبة والسلوك المتسم بالصواب والحكمة ، وفي هذا يقول الدكتور حسن الساعاتي لأن ما يفعله الإنسان مرة ويستحسنه يميل إلى فعله مرة أخرى ، ومرات إذا ما تكرر فعله وكان لا يزال يستحسنه ويستسهله فإنه يود لو أن غيره يفعله أيضاً ، ولا سيما إذا كان هذا الشخص الآخر عزيزاً عنده ، كابنة مثلاً وإذا استمر هذا الميل من جيل إلى جيل آخر ، قويت الطرق الشعبية كثيراً ، ويمكننا أن نقول أن الطرق الشعبية كالدرب الذي كلما طرقه المارة تعبد وسهل السير فيه، حتى أنهم لا يستطيعون في آخر الأمر ، العدول عنه إلى درب أخر غير مطروق.[٤٢]

وهذا يعني أن الطرق الشعبية بكل فروعها من عادات وتقاليد وآداب السلوك ، تستمد أصولها وتشتق وجودها من التجربة

الاجتماعية للناس من تفاعلهم، وتعاملهم مع بعض في حياتهم الاجتماعية المشتركة ، وفي هذا يقول سمنر ، ففي سبيل **التصارع** من أجل البقاء ، وعن طريق تعاون الناس بعضهم مع بعض ، تتكون الطرق الشعبية بطريقة غير واعية وغير لا شعورية ، وبمرور الزمن تبدو ثابتة وأصلية وراسخة ، على الرغم من أن أحداً لم يعتقد حدوثها أو يعتمد تكوينها أو يخطط لها أو يعرف عنها مقدماً .

ب – الأعراف :

والعرف هي عبارة عن القواعد التي تنحدر عن الوالدين إلى الأبناء كجزء أساسي من تشكيل حياتهم ، وهي أشد صرامة من الطرق الشعبية وأقل مرونة منها ومرتبطة بصفة خاصة برفاهية الجماعة ومدعمة من القواعد الدينية وأخلاقيات الجماعة ، والناس لا يستطيعون الخروج عليها ، وسوف يتعرض الخارج عليها لجزاء اجتماعي صارم ، لذا لابد من خضوع الأفراد لها فالأعراف تزود الأفراد والجماعات بالإطار المرجعي FRAME OF REFERENCE بما هو صحيح وخطأ ، وعما يجب أن يكون وما لا يجب أن يكون . والأفراد متمسكون بها بشدة ولا يستطيعون تغييرها لأن تغييراها سوف يعرض حياة الجماعة للخطر ، والأعراف تورث للأجيال اللاحقة بدون مناقشتها وبعضها يحول إلى القانون بصورة رسمية لتعزيز تماسك الجامعة وزيادة قوتها .

لكن من الملاحظ أن كثيراً من الكتاب يخلطون بين **العرف والتقاليد** ، فيستعملون المصطلحين بمعني واحد ودون تمييز بينهما ، ومع أن هناك فروقاً واضحة بين هذين المصطلحين فالعرف نوع من العادات التقليدية يشبه التقاليد من ناحية أنه تقليدي وعريق

ومتوارث وملزم ، إلا أنه يختلف عنها في درجة إلزامه وانتشاره وشموله وعموميته فالتقاليد عادات تهم جماعة أو فئة أو طبقة ، فهي عادات ضيقة النطاق نسبياً في انتشارها ، أما العرف فهو ذلك النوع من العادات الواسعة النطاق في انتشارها التي ليست في مصلحة جماعة بالذات دون أخري ، بل هي عادات في مصلحة الجماعات كلها متلاقية في وحدة واحدة هي المجتمع أو الأمة ولذلك كان العرف في إلزامه وعموميته أقرب إلى القانون منه إلى التقاليد . وهناك فرق أخر بين التقاليد والعرف ، إذا نظرنا إليهما من حيث علاقتهما بالقانون ذلك أن التقاليد تعمل على تدعيم الطبقات والجماعات وتوطيد أركانها ومراعاة مصلحتها . لدرجة أنها تتعارض أحياناً مع القانون ومع النظام العام للدولة كما في تقاليد الأخذ بالثأر وعند بعض الجماعات في مصر ، فالأخذ بالثأر كثيراً ما يقتل شخصاً بريئاً لمجرد صلة القربى التي تربطه بغريمه الحقيقي ، ويجدر بنا في هذه المناسبة أن نوضح تعارض تقليد الأخذ بالثأر مع القانون ، بما ذكره الدكتور أحمد محمد خليفة في هذا الصدد إذ يقول : فالقاتل الذي يقبل الأخذ بالثار يعلم ما قد يؤدي إليه فعله من محاكمة وحكم ، ولكن ذلك لا يرده عن أداء فريضة التقاليد التي تأخذ حياته وتطالبه بالثأر ، ويقول في مكان أخر ، كثيراً ما عمد أصحاب الدم إلى الأخذ بثأرهم من غريمهم على الفور وهو ماثل بين أيدي رجال الشرطة والتحقيق ، أما العرف فإنه يرمي إلى حفظ كيان الجماعة كلها متلاقية فيه وحدة واحدة هي المجتمع ، ولأنه أيضاً انبثق في الثقافة ليسهم في سعادة المجتمع كله وفي استقراره ومصلحته العامة ، فهو يتوافق مع القانون ، والقانون بدورة يتوافق مع العرف ، ولذا فالعرف في

سيطرته وضغطه على الناس قوى قدير ، وسيد مطاع ولذلك قيل العرف سلطان Custom is King والحق أنه طاغية Tyrant وبخاصة في المجتمعات البدائية والجماعات الريفية المنعزلة أو المقفلة فهو في هذه المجتمعات الحاكم بأمره الذي يقوم مقام القوانين الوضيعة .(٤٣)

أن تأثير الوراثة في الشخصية مرتبط بتفاعل العوامل الوراثية مع العوامل البيئية بصورة معينة ، ويجب ملاحظة أن الذي يورث ليس السلوك نفسه ، وإنما الذي يورث هو بعض خصائص في الجهاز العصبي أو الثانوي ، فإذا ما تفاعلت هذه البناءات العصبية المعينة مع البيئة في ظروف معينة ، لعبت دورها في تحديد السلوك . فالإنسان يرث استعدادات للتصرف بشكل معين ، فإذا ما جاءت البيئة . وعوامل استثارة الاستعدادات كانت الاستجابة أو السلوك ، أو التصرف المعين.(٤٤)

محددات عضوية الجماعة : Group Membership Determinants

ذكرنا أن التكوينات البيولوجية للفرد تؤثر إلى درجة كبيرة في شخصيته ، كما وجدنا أن هناك فروقاً فردية واضحة في هذه التكوينات بين الأفراد المختلفين، تؤثر بدورها تأثيراً واضحاً في نمو شخصية الفرد لكن الشخصية ليست شيئاً ثابتاً عصبياً على التغيير منذ الولادة . فمن الخصائص الأساسية للإنسان ، قدرته على التغير نتيجة ما يمر من خبرات وتعلم . وإذا كان سلوك الحيوان يتحدد إلى درجة كبيرة بغرائزه ، بحيث لا يحتاج لمعرفة الشيء الكثير عن تاريخ حياة الحيوان من أجل التنبؤ بسلوكه ، فإن الأمر يختلف بالنسبة للإنسان وحيث نحتاج إلى معرفة تفصيلية عن

خبرات الفرد الماضية وبيئته ، وثقافته التي نشأ فيها من أجل الحكم على سلوكه ونمو شخصيته . وبغير هذه يتعذر علينا فهم حتى أوضح الخصائص في شخصية الفرد .

انه من المتعذر علينا فهم سلوك الفرد ، وتفسير نمو شخصيته ، دون أن ندخل في الاعتبار البيئة التي تنشأ فيها . ولسهولة دراسة هذه المؤثرات في الشخصية قسم " لويس ثورب " ، البيئة إلى أقسام ثلاثة هي في حقيقة الأمر وثيقة الترابط . وهذه الأقسام هي البيئة الطبيعية والثقافية والاجتماعية .

أما البيئة الطبيعية فيتضح أثرها إذا ما نظرنا إلى اختلاف أساليب تكيف الناس ومعيشتهم وطرق مواجهتهم للحياة في بيئات مختلفة ، فعلي الرغم من تشابه الناس في حاجاتهم ودوافعهم الأساسية ، إلا أننا نلحظ أن هناك اختلافا واضحا بينهم في طرق مواجهتهم وإشباعهم لهذه الحاجات . فالبدو في الصحراء ، والاسكيمو في المناطق القطبية ، هم إلى حد كبير نتاج هذه البيئات الطبيعية المختلفة ، فنمو أجسامهم وطرق معيشتهم ، وأساليب حياتهم تأثرت إلى حد بعيد بالبيئة الطبيعية المختلفة بهم . والحرارة والعوامل الجوية يجعلان بعض الناس سمر البشرة ، على حين يجعلان البعض الأخر بين البشرة .

أما البيئة الثقافية فلها تأثير بالغ الأهمية في نمو الشخصية . فأثر الثقافة في تكوين الشخصية لا يمكن إنكاره ، والبيئة الثقافية يعدها البعض العامل الأساسي في تشكيل الشخصية بالمعني الدقيق . وقد ورد في ذلك آراء عديدة منها ذلك الرأي الذي يقول : " إنه بدون الحياة الثقافية لا يكون لدينا أفراداً ، بل كائنات حية عضوية ، أو ذوات سيكوبيولوجية " . " إن عامل التطبيع الاجتماعي هو الذي

يحول الفرد من كائن حي بيولوجي إلى كائن حي اجتماعي يعيش في بيئة يؤثر فيها ، ويتأثر بها " ، " إن الشخصية لا يمكن عزلها عن الإطار الحضاري الذي نشئت فيه بنوع من الجراحة التي تقضي على حياة الفرد " .

أما البيئة الاجتماعية ، فإن المجتمع الإنساني يعرف بعامة بأنه جماعة منظمة تعيش في مكان معين ، وتشترك في مجموعة من الاتجاهات والأهداف وأنماط السلوك وتعد الجماعة الاجتماعية بالنسبة للفرد أحد النقاط الهامة في نمو شخصيته فالمجتمع هو البيئة أو الوسط الغذائي الذي تنمو فيه وحدة الفرد وشخصيته بالتدريج ، وجوهر كل المجتمع هو الذي يشكل محتوي هذه الوحدة وحين ينمو الفرد ، فإنه يصبح في الوقت نفسه وحدة فردية واجتماعية معاً . وهذان المظهران لوحدة الشخصية يتمثلان في المظاهر الأكثر استمراراً والأقل قابلية للتعديل في بناء الشخصية .[٤٥]

أهمية الثقافة في المجتمع :

للثقافة وما تتضمنه من خصائص أهمية كبيرة ، أشار إليها شابيرو في كتابه مظاهر الثقافة Aspects of culture في قوله أن الثقافة كالهواء الذي تستنشقه نسلم به تسليماً ولا نكاد نشعر به ، فالثقافة هي المفتاح الذي يمكن بموجبه تفسير وإدراك – الحياة الاجتماعية للإنسان .

إن معرفة ثقافة الشعوب هامة لنجاح أي برنامج يتعامل مع هذه الشعوب فالثقافة إما تسهل أو تعوق التغير فعلي سبيل المثال كانت الثقافة عائق للأفكار الجديدة التي استخدمتها هيئة التنمية الوطنية في إنتاج غله مهجنة من أمريكا وأسبانيا وتطبيقها في المكسيك أثناء الحرب العالمية الثانية .

فالمحاصيل في البداية كانت مرتفعة فجذبت عديد من الفلاحين لزراعة هذه المحاصيل المهجنة في أراضيهم ومع ذلك خلال السنة القادمة كل الفلاحين رفضوا استخدام هذه المحاصيل الجديدة كبذور أو تقاوي لأنهم لا يتذوقونها هم وأسرهم كالمحاصيل المحلية لوطنهم ومن هنا يتضح أن الثقافة كانت عائق للتفسير .

وأيضاً كانت القيم الثقافية في المجتمع الأمريكي عائق للأفكار الجديدة فعلي سبيل المثال الفلاحين الأمريكان قاموا بصفة عامة بتبني فكرة التلقيح الصناعي للمواشي التي تدر الألبان وبرغم أن عملية التلقيح الصناعي رفعت من دخل الفلاحين النقدي وارتفعت أيضاً إنتاج الألبان للمواشي إلا أنهم كانوا لا يعتقدون في تطبيق هذه الفكرة لأن السلالة سوف تكون هزيلة وضعيفة ولعل هذا اعتقاد خاطئ من وجهات نظرهم وهذا مما أملته عليهم الثقافة الوطنية .[٤٦]

وتمثل الثقافة ضرورة أخلاقية ولعل الأهمية الأخلاقية للثقافة هي التي تكسب تفاعل المجتمع دعائم قوية ، وهذه الأخلاق المتمثلة في تراث المجتمع من عادات وعرف وتقاليد وقيم هي التي تشكل معالم الحياة ، وخاصة في المجتمع الريفي ، حيث تقوي هذه الصورة الأخلاقية ، وتشتد سطوه العرف والمعايير والقيم ، فهذا التراث في نظرهم هو بمثابة دستور الأسلاف المقدس والذي يجب احترامه والمحافظة عليه ، ولما كانت الثقافة ضرورة أخلاقية فهي بالتالي نوع من أنواع الضبط الاجتماعي الذي يمارس سطوته ونفوذه على الأفراد . حيث لا يقدرون الخروج على قواعده ، وذلك لأن ضبط النفس يلبسهم ويحيط بكل حياتهم، إذ أن ما يفعله الأفراد أو ما يقولونه أما هو تعبير عن تيارات ثقافية تأصلت في نفوسهم

عن طريق التنشئة الاجتماعية التي ساروا عليها وتعتبر الثقافة من حيث إلزامها نوع من الواجب الاجتماعي الذي يخضع له الأفراد دون نقاش وألا كان الاستهجان الاجتماعي هو العقاب الذي يقف لهم بالمرصاد لتحديهم هذا الطراز الثقافي الذي يمثل السلطة الاجتماعية التي يلقي الأفراد في الخروج على قواعدها أشكال العقاب الأدبي والقانوني .

وتمثل الثقافة أيضاً ضرورة تعليمية للأفراد ، فهي تعلمهم كيفية التصرف في المواقف المختلفة التي يتعرضون لها في حياتهم الجارية ، كما أنها تعلم الفرد كيف يكون حسن التصرف وكيف يستطيع أن يستنتج الأمور في مقدماتها بسرعة، ولياقة ، وتعوده كيف يتصرف في المواقف الحرجة ، فهي بهذا تجعل الفرد مرناً بدرجة كبيرة ، إذ تجعله قادراً على أن يتفاعل مع الأحداث المختلفة وبذلك تزداد ثقته بنفسه وتزداد معها حيويته ولا شك أن أي مجتمع في حاجة حقيقية إلى مثل هؤلاء الأفراد الذين يمتلئون ثقة بأنفسهم ولمجتمعهم ، وغني عن البيان فإن الثقافة تمثل ضرورة إنسانية عامة ، ولازمة لرقي المجتمعات وتقدمها ، وقد دعت المجتمعات المتقدمة إلى الاهتمام بأمرها والعمل على حمايتها ونشرها وخاصة في البلاد التي ينخفض فيها المستوي الثقافي حتى لا تقف عقبة في سبيل تقدم الإنسان.

وبذلك يتبين لنا أن الثقافة هي وسيلة وقائية أو غطاء متوارث يقي به الإنسان غوائل البيئة وقسوة الظروف .(٤٧)

المراجـــع

مراجع الفصل الأول

المجتمع والثقافة والشخصية والعلاقة الجدلية

١-محمد الجوهري : علم الاجتماع ، النظرية ، الموضوع والمنهج دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧ ص ١٠١ ص ١٠٣.

٢- المرجع السابق ص ١٠٣ ، ١٠٤

٣- نفس المرجع ص ١٠٦ ص ١٠٧.

٤- إسماعيل سعد : الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع ١٩٩٧ ، دار المعرفة الجامعية ص ٣١ص٣٢.

٥- المرجع السابق ص ٣٣ ص٣٤.

٦- إيمان شومان : المجتمع والثقافة والشخصية ، جامعة طنطا ١٩٩٩ ص١١.

٧- إسماعيل سعد : الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٣٦ ص٣٧.

٨- المرجع السابق ص ٣٧ ص٣٨.

٩- نفس المرجع ص٣٨ ص ٣٩ .

١٠- محمد الجوهري : علم الاجتماع ، النظرية ، الموضوع ، المنهج ، مرجع سابق ص ١٠٧ ص١٠٨.

١١- المرجع السابق ص ١١٠ ص ١١١.

١٢- نهلة إبراهيم : علم الاجتماع الثقافي بين الطرح الكلاسيكي والقضايا الثقافية المعاصرة مطبعة البحيرة ٢٠٠٧ ص ٣٠ ص ٣١.

١٣- المرجع السابق ص ٣٢ ص٣٣.

١٤- نفس المرجع ص ٣٥.

١٥- أحمد أبو زيد : مبحاضرات في الانثروبولوجيا الثقافية : دار النهضة العربية ١٩٧٨ ص ٤١.
١٦- نهلة إبراهيم : علم الاجتماع الثقافي ، مرجع سـابق ص ٣٦ ص ٣٧.
١٧- المرجع السابق ص ٣٨ ص٣٩.
١٨- سامية الساعاتي : الثقافة والشخصية : بحث في علم الاجتماع الثقافي ، درا الفكر العربي ١٩٩٨ ص ١٧ ص ١٨.
١٩- سامية الساعاتي : المرجع السابق ص ١٨ ص١٩.
٢٠- إيمان شومان : المجتمع والثقافة والشخصية ، مرجع سـابق ص ١٦٦ ص١٦٧.
٢١- المرجع السابق ص ١٦٨ ص ١٦٩.
٢٢- نفس المرجع ص ١٧٠ ص ١٧٣ .
٢٣- سامية الساعاتي : الثقافة والشخصـية ، مرجـع سـابق ص ٢٠ص٢١.
٢٤-سامية الساعاتي : المرجع السابق ص ٢٢ص٢٣.
٢٥- المرجع السابق ص ٢٤.

مراجع الفصل الثاني

الثقافة وخصائصها وعناصرها ومميزاتها

١-سامية الساعاتي : الثقافة والشخصية ، مرجع سابق ص٣٧.

٢- المرجع السابق ص ٧٤.

٣- نفس المرجع ص ٧٥.

٤- أحمد أبو زيد : محاضرات في الانثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سابق ص ٤٢ ص٤٤.

٥- أحمد أبو زيد ، المرجع السابق ص ٤٤ ص٤٧.

٦- سامية الساعاتي : المرجع السابق ص ٧٦ ص ٧٧.

٧- المرجع السابق ص ٧٨ ص٧٩.

نفس المرجع ص ٨٠ ص٨١.

٩- المرجع السابق ص ٨٢.

١٠- السيد الأسود : الانثروبولوجيا ، مدخل لدراسة الإنسان ، طنطا ، ٢٠٠٤ ص ١٥٣.

١١- السيد الأسود : الانثروبولوجيا ، مرجع سابق ص١٥٤.

١٢- محمد ياسر الخواجة : مدخل إلى الانثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سابق ص٨٨ص٨٩.

١٣- محمد ياسر الخواجة ، مرجع سابق ص٩٠ص٩١.

١٤- المرجع السابق ص ٩٢ ص٩٣.

١٥- سامية الساعاتي : مرجع سابق ص ٩٤ص٩٥.

١٦- سامية الساعاتي : المرجع السابق ص ٩٦ص٩٧.

١٧- محمد ياسر الخواجة : مدخل إلى الانثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سابق ص ٩٤ص ٩٥.

١٨- المرجع السابق ص ٩٦ص ٩٧.

١٩- نفس المرجع ص ٩٨.

٢٠- سامية الساعاتي : مرجع سابق ن ص ٨٤ص ٨٥.

مراجع الفصل الثالث

الشخصية وماهيتها وبنائها ومحدداتها ومنظورات دراستها

١- السيد حنفي : علم الإنسان : الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ٢٠٠٦، الزقازيق ص ٢٥٧ ص٢٥٨.
٢- المرجع السابق ص ٢٥٨ ص ٢٥٩.
٣- السيد حنفي : المرجع السابق ص ٢٦٠.
٤- سامية الساعاتي : الثقافة والشخصية : بحث في علم الاجتماع الثقافي ، دار الفكر العربي ١٩٩٨ ص ١١٦ ص ١١٧.
٥- المرجع السابق ص ١١٨ ص ١١٩.
٦- نفس المرجع ص ١٢٠.
٧- السيد حنفي : علم الإنسان ، مرجع سابق ص ٢٦٠ص ٢٦١.
٨- المرجع السابق ص ٢٦٣.
٩- السيد حنفي :مرجع سابق ص ٢٦٤ – ص ٢٦٥
١٠- سامية الساعاتي : الثقافة والشخصية ، مرجع سابق ص ١٢٠ ص ١٢١.
١١- المرجع السباق : ص ١٢٢ ص ١٢٣.
١٢- نفس المرجع : ص ١٢٤ ص ١٢٥.
١٣- محمد ياسر الخواجة : مدخل إلى الانثروبولوجيا الثقافية ، طنطا ٢٠٠٦ ص ٢٠٢ ص ٢٠٣.
١٤-محمد ياسر الخواجة ، مرجع سابق ص٢٠٣ ، ٢٠٤.
١٥- سامية الساعاتي : مرجع سابق ص ١٢٨ ص ١٣٠.
١٦- المرجع السابق ص ١٣٠ ص ١٣١.
١٧-نفس المرجع ص ١٣٢ ص ١٣٣.

١٨- محمد ياسر الخواجة : مدخل إلى الانثروبولجيا الثقافية ، مرجع سابق ص٢٠٥ ص ٢٠٦.
١٩- المرجع السابق ص ٢٠٦ ص٢٠٧.
٢٠- محمد ياسر الخواجة ، مدخل إلى الأنثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سابق ص٢٠٨.
٢١- نهلة إبراهيم : علم الاجتماع الثقافي ، مرجع سابق ص ١١٠ ص١١١.
٢٢- المرجع السباق ص ١١٢ص١١٣.
٢٣-نفس المرجع ص ١١٤.
٢٤- السيد حنفي : علم الإنسان ، مرجع سابق ص ٢٦١ص٢٦٢.
٢٥- نهلة إبراهيم : علم الاجتماع الثقافي ، مرجع سابق ص ١١٥ص١١٦.
٢٦- المرجع السابق ص١١٦ص١١٧.
٢٧-السيد حنفي : علم الإنسان ، مرجع سابق ص٢٥٣.
٢٨- السيد حنفي : المرجع السابق ص٢٥٤.
٢٩- نهلة إبراهيم : علم الاجتماع الثقافي ، مرجع سابق ص ١١٨ص١١٩.
٣٠- نهلة إبراهيم ، مرجع سابق ص١٢٠ص١٢١.
٣١-محمد ياسر الخواجة : مدخل إلى الأنثروبولوجيا الثقافية ص٢٠٩ص ٢١٠.
٣٢- محمد ياسر الخواجة : مرجبع سابق ص ٢١٠ص٢١١.
٣٣- نهلة إبراهيم : علم الاجتماع الثقافي ن مرجع سابق ص ١٢٢ص١٢٣.
٣٤- المرجع السابق ص ١٢٤ ص ١٢٥.

٣٥-إسماعيل سعد : الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع ، مرجع سابق ص٦٦ص٦٧.
٣٦- المرجع السابق ص ٦٨ص٦٩.
٣٧- محمد الجوهري وآخرون : مقدمة في علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ١٤٩ص١٥٠.
٣٨- محمد الجوهري : المرجع السابق ص ١٥١ص١٥٢.
٣٩- المرجع السابق ص١٥٢، ١٥٣.

مراجع الفصل الرابع

الرؤى النظرية حول دراسة الشخصية

١- محمد ياسر الخواجة : مدخل إلى الانثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سابق ص ١٧٤ص١٧٥.
٢- المرجع السابق ص ١٧٦ص١٧٧.
٣- نفس المرجع ص ١٧٨ص ١٧٩.
٤- نهلة إبراهيم : علم الاجتماع الثقافي بين الطرح الكلاسيكي والقضايا الثقافية المعاصرة ، مرجع سابق ن ص ٧٥ص٧٦.
٥- المرجع السابق ص ٧٦ص ٧٧.
٦- نفس المرجع ص ٧٨.
٧- سامية الساعاتي : الثقافة والشخصية ، مرجع سابق ص١٥٤ص١٥٦.
٨- المرجع السابق ص ١٥٧ص ١٥٨.
٩- نفس المرجع ص ١٥٨ص١٦٠.

١٠- نهلة إبراهيم : علم الاجتماع الثقــافي ، مرجــع ســابق ص ٧٩ص٨٩.
١١- المرجع السابق ص ٨٠ص ٨١.
١٢- نفس المرجع ص ٨٢.
١٣- سامية الساعاتي : مرجع سابق ص ١٦١ص١٦٣.
١٤- المرجع السابق ص ١٦٣ص١٦٤.
١٥- محمد ياسر الخواجة ، مدخل إلى الانثروبولوجيــا الثقافيــة ، مرجع سابق ص ١٨٧ص ١٨٩.
١٦-نفس المرجع ص ١٩٠.
١٧-نهلة إبراهيم : مرجع سابق ص٩١ص٩٢.
١٨-المرجع السابق ص ٩٤ص٩٥.
١٩- نفس المرجع ص ٩٦.
٢٠- محمد ياسر الخواجة : مدخل الانثروبولوجيا ، مرجع سابق ن ص ١٩٤ص١٩٥.
٢١- المرجع السابق ص ١٩٦ص١٩٧.
٢٢- نهلة إبراهيم ، مرجع سابق ص ٩٧ص٩٨.
٢٣- المرجع السابق ص ١٠٠ ص١٠٥.
٢٤- سامية الســاعاتي : الثقافــة والشخصــية ، مرجــع ســابق ص١٦٤ص١٦٦.
٢٥- المرجع السابق ص ١٦٧ ص١٦٨.
٢٦- نفس المرجع ص ١٦٩.
٢٧- محمد ياسر الخواجة : مدخل إلى الانثروبولوجيــا الثقافيــة ، مرجع سابق ص ١٩٩ص٢٠١.
٢٨- المرجع السابق .

٢٩- سامية الساعاتي : مرجع سابق ص ١٧١ص ١٧٢.
٣٠- المرجع السابق ص ١٧٣ ص١٧٤.
٣١- محمد الجوهري وآخرون : مقدمة في علم الاجتماع ، دار المعارف ، مرجع سابق ص ١٥٤ص١٥٥.
٣٢- محمد الجوهري وآخرون ، مرجع سابق ص ١٥٦.
٣٣- محمد الجوهري ، مرجع سابق ص ١٥٧.
٣٤- نهلة إبراهيم ، مرجع سابق ص ١٠١ ص١٠٣.

مراجع الفصل الخامس

العولمة والشخصية

١-عبد الرحيم أبو كريشة :التراث والعولمة ، مرجع سابق ص ٢٣ص٢٤.
٢- عبد الرحيم أبو كريشة ، المرجع السابق ص٢٤ص٢٥.
٣- المرجع السابق ص٢٥.
٤- نهلة إبراهيم ، علم الاجتماع الثقافي ، مرجع سابق ص ٣٠٢ص٣٠٣.
٥- المرجع السابق ص ٣٠٣ ص ٣٠٥.
٦- نفس المرجع ص ٣٠٦ص٣٠٧.
٧- عبد الرحيم أبو كريشة ، التراث والعولمة ، مرجع سابق ص٢٦ص٢٧.
٨- المرجع السابق ص٢٨.
٩- نفس المرجع ص٢٩.
١٠-نهلة إبراهيم ، علم الاجتماع الثقافي ، مرجع سابق ص ٣٠٧ص٣٠٨.

١١- المرجع السابق ص ٣٠٩ص٣١٠.
١٢- عبد الرحيم أبو كريشة ، التراث والعولمة ، مرجــع ســابق ص٣٠.
١٣- المرجع السابق ص ٣١.
١٤- نفس المرجع ص ٣٢.
١٥- نهلة إبراهيم ، علم الاجتماع الثقــافي ، مرجــع ســابق ص ٣١١.
١٦- المرجع السابق ص٣١٢ص٣١٣.
١٧- نفس المرجع ص ٣١٣ص٣١٤.
١٨- عبد الرحيم أبو كريشة ، التراث والعولمة ، مرجــع ســابق ص٣٣.
١٩- المرجع السابق ص ٣٤.
٢٠- نفس المرجع ص٣٥.
٢١- نهلة إبراهيم ، علــم الاجتمــاع الثقــافي ، مرجــع ســابق ص٢٩٦ص٢٩٧.
٢٢- المرجع السابق ص ٢٩٨ص٢٩٩.
٢٣- السيد الأسود : الانثروبولوجيا ، مدخل الدراسة الإنســانية ، مرجع سابق ص١٤٧.
٢٤-السيد الأسود ، المرجع السابق ص١٤٨ص١٤٩.
٢٥-نهلة إبراهيم ، علم الاجتماع الثقــافي ، مرجــع ســابق ص ٣٨٠ص٣٨١.
٢٦- المرجع السابق ص ٣٨٢ص٣٨٣.
٢٧- نفس المرجع ص ٣٨٤.

٢٨- محمد ياسر الخواجة ، مدخل إلى الانثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سابق ص ٢٦٦.

٢٩- المرجع السابق ص ٢٦٧ ص ٢٦٩.

٣٠- نهلة إبراهيم ، علم الاجتماع الثقافي ، مرجع سابق ، ص٣٢٣ ص٣٢٤.

٣١- نفس المرجع ص ٣٣٦.

٣٢-المرجع السابق ، ص٣٣٢.

مراجع الفصل السادس

الثقافة والشخصية

٣٣-إسماعيل سعد ، الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص٢٢٠ ص ٢٢١.

٣٤- المرجع السابق ، ص٢٢٢.

٣٥- إسماعيل سعد ، الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص٢٢٣ ص٢٢٤.

٣٦- المرجع السابق ، ص ٢٢٥.

٣٧- أحمد أبو زيد ، محاضرات في الانثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سابق ، ص٥٣ص٥٥.

٣٨- أحمد أبو زيد ، المرجع السابق ، ص٥٦.

٣٩- إيمان شومان : دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية - طنطا ١٩٩٩،ص٣١٧.

٤٠-المرجع السابق ، ص٣١٧ ص٣١٨.

٤١- إيمان شومان : دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية ، مرجع سابق ، ص٣١٩ص٣٢١.

٤٢-أحمد أبو زيد ، محاضرات في الانثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سابق ، ص٥٧ص٥٨.
٤٣- المرجع السابق ، ص٥٩ص٦٠.
٤٤- أحمد أبو زيد ، المرجع السابق ، ص٦٠ ص٦١.
٤٥-محمد ياسر الخواجة ، مدخل إلـــى الانثروبولجيـــا الثقافيـــة ، مرجع سابق ص١١٢.
٤٦-المرجع السابق ، ص ١١٣ ص١١٤.
٤٧- محمد ياسر الخواجة ، مرجع سابق ، ص١١٥ ص١١٨.
٤٨- أحمد أبو زيد ، مرجع سابق ،ص٦٢ ص٦٣.
٤٩-المرجع السابق ، ص٦٤ ص٦٥.
٥- محمد ياسر الخواجة ، مرجع سابق ، ص١١٩ ص١٢١.
٥١- المرجع السابق ، ص١٢١ ص١٢٢.
٥٢-نفس المرجع ، ص١٢٣.
٥٣- إسماعيل سعد ، الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع ، مرجع سابق ص٢٢٥ ص٢٢٦.
٥٤-إسماعيل سعد ، المرجع السابق ، ص٢٢٦ ص٢٢٧.
٥٥- إيمان شومان ، مرجع سابق ، ص٣٢٣ ص٣٢٥.
٥٦- المرجع السابق ، ص ٣٢٦ ص ٣٢٨.
٥٧- إسماعيل سعد ، المرجع السابق ، ص٢٣٨ ص ٢٣٩.
٥٨- المرجع السابق ، ص٣٤٠ ص ٣٤١.
٥٩- نفس المرجع ، ص ٣٤٢.
٦٠- إيمان شومان ، مرجع سابق ، ص٣٢٩ ص٣٣٠.
٦١- المرجع السابق ، ص ٣٣١ ص٣٣٢.
٦٢- إسماعيل سعد ، مرجع سابق ، ص٢٤٣.

٦٣-المرجع السابق ، ص ٢٤٤ ص ٢٤٥.
٦٤- نفس المرجع ، ص ٢٤٦ ص ٢٤٧.

مراجع الفصل السابع

المجتمع والشخصية (والعلاقة الجدلية)

١- محمد الجوهري : علم الاجتماع : النظرية الموضوع : المنهج ١٩٩٧ ، دار المعرفة الجامعية ، ص١١٢ ص١١٣.
٢- محمد الجوهري : علم الاجتماع ، المرجع السابق ، ص١١٤ ص١١٥.
٣- المرجع السابق ، ص ١١٦ ص ١١٧.
٤- السيد حنفي : علم الإنسان ، الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية الطبعة السادسة عشر ٢٠٠٦ ، ص٢٧٨ص٢٧٩.
٥- السيد حنفي : علم الإنسان ، مرجع سابق ، ص٢٨٠ ص٢٨١.
٦- السيد حنفي ، المرجع السابق ، ص٢٨٢.
٧- محمد الجوهري : علم الاجتماع ، النظرية ، الموضوع ، المنهج ، مرجع سابق ص ١١٨ ص١١٩.
٨- محمد الجوهري : مرجع سابق ، ص١٢٠.
٩- إسماعيل سعد : الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع ، ١٩٩٧ ، دار المعرفة الجامعية ، ص٦٢ ص٦٣.
١٠- إسماعيل سعد ، المرجع السابق ، ص٦٣ ص٦٤.
١١-إسماعيل سعد ، المرجع سابق ، ص ٦٥.

١٢- السيد حنفي ، علم الإنسان ، مرجع سابق ، ص٢٧٦ ص٢٧٧.
١٣- السيد حنفي ، علم الإنسان ، المرجع السابق ، ص٢٧٨.
١٤-سامية الساعاتي : علم الاجتماع الثقافي ، مرجع سابق ، ص٢٢٣.
١٥- المرجع السابق ، ص ٢٢٤ ص٢٢٥.
١٦- المرجع السابق ، ص٢٢٦ ص ٢٢٧.
١٧-إسماعيل سعد : الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص٥٩.
١٨- المرجع السابق ، ص ٦٠.
١٩- إسماعيل سعد ، المرجع السابق ، ص٦١
٢٠-أحمد أبو زيد ، الانثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سابق ، ص٩٠ ص٩١.
٢١- المرجع السابق ، ص ٩٢.
٢٢- أحمد أبو زيد ، المرجع السابق ، ص٩٣.
٢٣-سامية الساعاتي ، علم الاجتماع الثقافي ، مرجع سابق ص٢٣١.
٢٤- سامية الساعاتي ، المرجع السابق ، ص٢٣٢ ص ٢٣٣.
٢٥- المرجع السابق ، ص ٢٣٤ ص٢٣٥.
٢٦-أحمد أبو زيد : محاضرات في الانثروبولجيا الثقافية ، مرجع سابق ،ص٩٤ص٩٥.
٢٧-المرجع السابق ، ص ٩٥.
٢٨- نفس المرجع ، ص ٩٦.
٢٩- السيد حنفي ، علم الإنسان ، مرجع سابق ، ص٢٧٠.

٣٠- السيد حنفي ، المرجع السابق ، ص٢٧٢.
٣١- أحمد أبو زيد ، مرجع سابق ، ص٩٧ ص٩٨.
٣٢- أحمد أبو زيد ، المرجع السابق ، ص٩٩.
٣٣- سامية الساعاتي ، مرجع سابق ص ٢١٩.
٣٤- المرجع السابق ، ص ٢٢٠ ص ٢٢٢.
٣٥- أحمد أبو زيد ، مرجع سابق ، ص ٤٨.
٣٦- المرجع السابق ، ص ٤٩.
٣٧- عبد الرحيم أبو كريشة التراث والعولمة ، دراسة انثروبولوجية للتراث الشعبي بريف صعيد مصر في ضوء ظاهرة العولمة ، آداب قنا ج جنوب الوادي ١٩٩٩ ، ص٣٩.
٣٨-عبد الرحيم أبو كريشة ، مرجع سابق ، ص٤٠.
٣٩- عبد الرحيم أبو كريشة ، المرجع السابق ، ص٤٢ ص٤٣.
٤٠-إسماعيل سعد ، الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع ، ص ٧٠ ص٧١.
٤١- إسماعيل سعد ، مرجع سابق ، ص٧٢.
٤٢- محمد ياسر الخواجة ، مدخل إلى الانثروبولوجية الثقافية ،مرجع سابق ص٩٩ص١٠١.
٤٣- المرجع السابق ، ص١٠١ ص١٠٣.
٤٤-سامية الساعاتي ، مرجع سابق ص١٨٦.
٤٥- المرجع السابق ، ص١٨٧.
٤٦- محمد ياسر الخواجة ، مرجع سابق ، ص١٠٨ ص١٠٩.
٤٧- المرجع السابق ، ص١١٠.

المحتويات

